سيرة

1296

ديردر بير



ذكريات باريسية

صامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار وأنا

ترجمة: أحمد الزبيدي

ذكريات باريسية

صامويل بيكيت

وسيمون دو بوفوار وأنا



Author: **Deirdre Bair**	اسم المؤلف: ديردر بير
Title: **Parisian lives Samuel Beckett**	عنوان الكتاب: ذكريات باريسية
Simone de Beauvoir and Me	صامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار وأنا
Translated by: **Ahamed Al-Zubaydi**	ترجمة: أحمد الزبيدي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2021**	الطبعة الأولى: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 — +961 706 15017 — +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +963 11 232 2289 — ص.ب: 8272

ديردر بير

مكتبة|1296

ذكريات باريسية صامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار وأنا

ترجمة: أحمد الزبيدي





إهداء المؤلفة:

إلى إيلين وارد... المعلمة والصديقة

المقدمة

حين أقابل شخصًا للمرة الأولى وأخبره أنني ألفت كتاباً عن سيرة حياة صامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار، فإن سؤاله الأول يكون عادة «لماذا وقع اختيارك عليهما؟» ومع مرور السنين استطعت أن أصوغ إجابة جاهزة أقولها للجميع، جعلتها مختصرة ومهذبة وتسمح لي بتغيير الموضوع. وكنت أجيبه: «لقد كانا رائعين، ومذهلين إلى حد لا يوصف. وأنه لشرف عظيم للمرء أن يعرفهما». كنت في معظم الأحيان لا أنجو بهذه الإجابة، فعادة ما يتبع ذلك سؤال آخر «ماذا كان يعجبك فيهما بالتحديد؟» ومثل هكذا سؤال لم يكن من السهل قط الإجابة عليه.

على مدار عدة سنين كتبت العديد من سير الحياة الأخرى لشخصيات بنفس الروعة، ولكن شغفي بصامويل بكيت وسيمون دو بوفوار كان يفوق ما أشعر به تجاه البقية. في كل محاضرة أو ندوة أحضرها، كنت أتلقى أسئلة تطلب مني وصف المشاعر التي كانت تنتابني حين ألتقيهم، وما هي الأشياء التي كنا نتحدث عنها، ولماذا قمت بتأليف تلك الكتب بهذه الصورة. كان الحاضرون يمطرونني بأسئلة من قبيل «هل كنت تشعرين بالغضب، أم بالرعب، أم الخجل، أم الانبهار» – وكان يجب أن أختار واحدًا من تلك المشاعر – «وأنت جالسة مع صامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار؟» نعم، أنا أعترف؛ نعم، شعرت بكل هذه المشاعر وغيرها الكثير. لا يمكنني حساب عدد المرات التي طلب مني ضيوفي على العشاء أو في الحفلات الحديث عن هذا الموضوع، وكنت أجد صعوبة في بحثي عن الحكايات النادرة لتسلية الضيوف الآخرين دون الكشف عن أي شيء شخصي غير مناسب عرفته عن شخصيتين من عمالقة الأدب.

لكن الأسئلة ظلت قائمة، وبدأت أعتقد أنه ربما – في يوم ما في المستقبل البعيد – سوف أؤلف كتابًا صغيرًا، «كتابًا عن تأليف الكتب». كانت الفكرة الأصلية هي كتابة شيء موجه في المقام الأول للباحثين والكتاب الذين تناولوا جميع كتب سير الحياة التي قمت بتأليفها، يركز على القرارات التي اتخذتها عند التعامل مع هيكل ومحتوى تلك الكتب، أو كيف بحثت في الوثائق باللغات الأجنبية، أو كيف تعاملت مع الورثة المتردّدين وقضايا الميراث المزعجة. في كل مرة كنت أقترح فيها هذا المشروع المحتمل، حتى لزملائي الكتّاب من مؤلفي كتب سير الحياة أو الأكاديميين، كان ردهم دائمًا «كل هذا رائع جدًا، لكن من فضلك أخبرنا كيف كان شعور بيكيت وبوفوار حقًا». وبقيت سنوات عديدة مترددة في البدء بهذا المشروع.

قمت بتأليف سيرتي حياة بيكيت وبوفوار خلال سنوات من حياتي كانت حافلة بأحداث كثيرة، والكتابة عن بيكيت وبوفوار تعني أنه كان عليّ أن أكتب عن نفسي كذلك. إذا وصفت القرارات المهنية التي اتخذتها، فسيتعين عليّ أن أصف تلك الشابة المليئة بالحيوية التي كنت عليها آنذاك: صحفية لم تبلغ الثلاثين من عمرها وأصبحت كاتبة سيرة بالمصادفة، لم يسبق لها قط أن قرأت سيرة حياة قبل أن تقرر أن صامويل بيكيت يستحق أن تكتب سيرته وأنها هي من سيقوم بذلك. وأود أن أتحدث باعتباري امرأة أصبحت أكثر حكمة إلى حد ما بعد مرور عقد من الزمان، وتشكّل وعيها بحقوق المرأة خلال السنوات العصيبة التي عاشتها عندما بذلت قصارى جهدها للحفاظ على زواجها، وتربية أطفالها، وتمشية أمور بيتها، والحفاظ على مهنتها الأكاديمية، واستلاف ما يكفي من المال للذهاب إلى باريس لمقابلة سيمون دو بوفوار والحديث معها لأنها كانت تبدو النموذج الوحيد المعاصر الذي حقق نجاحًا في حياته الشخصية والمهنية، وكنت أبحث يائسة عن شخص ما ليخبرني كيف أصبح مثلها.

بدأت رحلتي مع الكتابة حين عملت مراسلة إخبارية في عدد من الصحف والمجلات. وعلى الرغم من ظهور عصر الصحافة الجديدة (نوع من الكتابة الصحفية تطور في ستينات وسبعينات القرن العشرين، تضمن أساليب أدبية كانت تعتبر غير تقليدية آنذاك، يعطي فيها الصحفي رأيه في

الموضوع وتعليقه عليه صراحة -م) في ذلك الوقت، إلا أنني لم أعتمد تلك التقنيات قط ولم أكن أدقق كثيرًا في كل ما أكتبه. وقد ناسبتني هذه الطريقة إلى حد كبير من خلال حقيقة أنني كنت أنشر أخباراً مثيرة في أغلب الأحيان في ذلك الوقت - مثل الشكاوى التي تتقدم بها لجنة التخطيط العمراني الحكومية ضد التصرفات العبثية للمجالس البلدية، وهو الشيء الذي يسمح لي بالتركيز على القصة المطروحة وليس على الدور الذي لعبته في الحصول عليها. عندما بدأت في تأليف كتب السيرة، أخبرتني صديقة لي قامت بتأليف عدد من الكتب وقد بدأت حياتها المهنية في الصحافة أيضًا كيف مزجت ما بين عملها الصحفي وعملها الجديد: «مؤلفو سير الحياة مثل رواة القصص. بمجرد أن تنتهي من رواية القصة، توقفي عن التفكير فيها». وبما أن ذلك كان شيئاً متأصلاً في طبيعتي الشخصية، فقد راقت لي هذه الفكرة ووجدتها تناسبني تماماً إلى أن أصبحت أنا مصدر السيرة وموضوعها.

في السنوات القليلة الماضية، اتصل بي العديد من كتاب السير الذين جاء ذكر للشخصيات التي كانوا يكتبون سير حياتها في عدة مواضع في كتبي، وبالتالي كان لهم شأن في حياتي. أجريت معهم مقابلات وصفت فيها طريقة تفاعلي مع هؤلاء الأشخاص، وأعطيتهم رسائل وصورًا وغيرها من الوثائق لدعم ما أخبرتهم به. تخيلوا مدى رعبي عندما نُشرت كتبهم، وتم اقتباس تلك الوثائق في كتبهم وشكروني بحرارة، لكن كل الأشياء التي نسبوها لي كانت إما محرفة أو مشوهة. قمت بمراجعة ملاحظاتهم لمعرفة ما إذا كانوا يستخدمون مصادر متعددة، فإذا كان الأمر كذلك، فإن كثرة المعلومات من الآخرين قد يفسر كيف أصبحت شهادتي محرفة. لكن لم يكن الأمر كذلك، كنت مصدرهم الوحيد، لذلك كان من الواضح أنهم شوّهوا كلماتي لدعم نظرياتهم أو أطروحاتهم. لقد وضعوني في موقف رهيب، لأن الكثير مما كتبوه لم يكن صحيحًا. كانت تلك هي اللحظة التي بدأت فيها أعير اهتمامًا استثنائياً لضرورة تثبيت تاريخ العمل قبل إرساله إلى الطباعة، وبتسجيل الأحداث فوراً بمجرد ما أتذكرها، وأترك للأجيال القادمة من القراء تقييم وتحديد ما إذا كنت شاهدة موضوعية وراوية موثوقًا بها. أم لا.

ومع ذلك، بقيت غير مستعدة لسرد قصتي. أنا متأكدة من أنني شعرت

بالملل من أحاديث زميلاتي الكاتبات في ندوة «نساء يكتبن سير حياة النساء» التي أقامتها جامعة مدينة نيويورك، عندما طلبت مشورتهن حول أنسب وقت في السنة للكتابة في وقت كانت الأسئلة تتوجه لي مرارًا وتكرارًا حول جرأتي على كشف الكثير من الأسرار الشخصية، ليس تلك الخاصة ببيكيت وبوفوار فقط، بل والخاصة بي أيضاً. فكل جانب محرج أو غير سار أو غير لائق في سلوكهم، كان يكون تأثيره مضاعفًا عندما يتعلق الأمر بي. كنت قد بدأت في كتابة السيرة باعتبارها مزيجًا غريبًا يجمع الصحفية المخضرمة والمتشددة والجديدة تمامًا على مثل هذا الجنس من الكتابة. هل أردت حقًا أن أضع فيها كل الأخطاء التي ارتكبتها ليراها العالم؟ لقد تم التعبير عن المأزق الذي عشته بشكل رائع عندما تحدثت الكاتبة مارجو جيفرسون في الندوة عن كتاب مذكراتها، نيغرولاند Negroland، وقالت إن مهمة الكتابة عن شخصيتها في ذلك الكتاب كانت من أصعب المهام التي واجهتها طوال عملها في الكتابة: «كيف يمكن أن تكتب عن نفسك دون أن تطلب التعاطف معها أو الشفقة عليها؟». صحيح كيف يمكن أن يفعل المرء ذلك، في الواقع.

لقد اكتشفت مثالًا مثيرًا يتعلق بمشكلتي في محادثة جرت وقت الغداء في معهد العلوم الإنسانية بجامعة نيويورك، عندما قال الناقد فيليب لوبات إن الأمر استغرق منه واحدًا وثلاثين عامًا لكتابة ذكرياته عن والدته، لأنه في كل مرة كان يقترب فيها من قول الحقيقة يجد نفسه يتراجع عنها. اعتقدت أنني كنت محظوظةً أكثر، لأن المدة التي أمضيتها وأنا أقترب من قول الحقيقة ثم أتراجع عن الكشف عنها لم تأخذ مني سوى تسعة عشر عامًا فقط.

كيف سأقوم إذاً ببناء قصتي؟ بالنسبة للشخصيات الثلاث التي سأتناولها – صامويل بيكيت، وسيمون دو بوفوار، وأنا – لم أجد صعوبة في استرجاع ذكرياتي مع بيكيت وبوفوار وسردها بعد أن خضت في أكوام عالية من صناديق الأوراق في مخزني الخاص، الذي يسميه الجيران أخطر مكان في البيت لكونه معرضًا للحريق دائمًا. كان كل ما أحتاجه لتنشيط ذاكرتي موجودًا هناك، بدءًا من نصوص المقابلات إلى قصاصات الصحف والصور والمراسلات؛ ساعدني البحث في هذه المواد على تذكر كيف أن القرارات التي اتخذتها عند كتابة سير حياتهم كانت متجذرة في الحقائق. تقوم إحدى

الركائز الأساسية في مذهبي في الكتابة على أساس أنه إذا أريد للذاكرة أن تكون أحد الركنين الأساسين لدعم عملية كتابة أية سيرة حياة، فيجب أن تقترن بالحقيقة. ولكن ماذا عني وعن قصتي؟ أين أجد حقائق حياتي لكي تتوازن مع ذاكرتي؟

لقد قمت بحل هذه المشكلة عندما وجدت صناديق كنت قد نسيتها تمامًا، وكانت تحتوي على ما أسميته Daily Diaries «المذكرات اليومية» (اختصرتها المؤلفة فيما بعد بالحرفين DD -الحرفين الأولين من كلمتي Daily Diaries – م) لقد شكل ذلك لي صدمة حين عثرت على الكراسات الحمراء الكبيرة التي أسميتها «الصفحات اليومية» حيث كتبت فيها كل شيء متعلق بالعمل الذي قمت به عند كتابة تلك السير. لم أعد أتذكر كمية التفاصيل التي كنت أدونها في تلك الملاحظات الموجودة في تلك الكراسات، كتبت فيها كل شيء من مجموعة المعلومات التي تتعلق بالأشخاص الذين قابلتهم، مروراً بالتأملات الفلسفية الطويلة عن مسيرة حياتي، وصولاً إلى طائفة واسعة من المشاعر المختلفة (السلبية والإيجابية) التي شعرت بها تجاه الشخصيات التي تناولت حياتها في كتبي. سأقدم لكم في هذا الكتاب مراحل الشخصيات العديدة التي عشتها وأود تصويرها في هذا الكتاب، من الفتاة المبتدئة إلى المرأة الناضجة التي تقرأ هذا الكتاب الآن مع تقدير عميق لكيفية أن هذه التجارب ساعدتها على أن تصبح ما هي عليه اليوم. ستكون تلك هي أهم شخصية، فهي التي ستشرح كل خطوة من تلك العملية.

بعد أن وجدت مذكراتي اليومية، أصبح بإمكاني دعم وتأكيد العديد من الجوانب المتغيرة والمتنوعة لتلك الشخصية التي كشفت عن عواطفها ومشاعرها منذ سنوات عديدة. إن استخدام مصفاة الزمن على تلك المراحل الحاضرة من حياتي جعلني أعبّر عن شخصيتي، ولكن أتاح لي أيضًا أن أبتعد عن تأثيراتها، وأخلق شخصية أخرى، تكون أفضل ومناسبة للتعبير بشكل نزيه لكي تكون رواية الأحداث أكثر موضوعية قدر الإمكان. بمجرد أن كشفت النقاب عن هذه الشخصية، أدركت أن بإمكاني كتابة هذا الهجين الغريب، «مذكرات شخصية» تروي قصة حياتي، ولكن بعد أن تروي قصتي

مع بيكيت وبوفوار وكيف ألفت الكتب عنهما. تمكنت من الجمع بين الخيال الأدبي - كل الأشياء التي فكرت فيها آنذاك، والتي أثبتت صوابها أو خطأها لاحقًا - مع سلطة الوقائع كما كشفها الزمن. سوف يراني القارئ، كما آمل، واقفة في مكان مرتفع أراقب ما يجري من أحداث في قصتي أو خارجها، وألقي نظرة على جميع اللاعبين فيها، كما كنت أنظر إليهم حينها، وكما أنظر إليهم الآن.

أعتقد أن سنوات من التردد جعلتني أنتظر إلى أن تحين اللحظة المثالية حتى أروي هذه القصة. لقد مر ما يكفي من الوقت مما جعلني أتمكن من وضع الأمور في نصابها الصحيح (كما أراها) مع احتمال أن أكون قد جازفت إلى حدٍ ما في أن أتسبب بالأذى لأي شخص؛ لقد مات معظم الأشخاص الذين كتبت عنهم، ومن غير المرجح أن يفاجأ من هو على قيد الحياة من الذين أعرفهم بما أكتبه هنا. ومع ذلك، لم تكن كتابة مذكراتي عملية سهلة، خاصة أن الكثير من كتابات اليوم أصبحت تستعين بأمثلة شخصية، وكان من الصعب العثور على مكان لي ضمن أجناس الكتابة المتغيرة هذه. لم تعد المذكرات مرتبطة بالحاجة إلى الحقيقة المطلقة، ولا يقيدها الاهتمام بآداب اللياقة والتهذيب التي كانت سائدة في الماضي القريب. نحن نعيش حالياً في زمن الابتذال، حيث لا حدود لفعل أي شيء. غالبًا ما يتم الحكم مقدماً على الرواية بمصطلحات مثل «ذات المؤلف» و«النفس البشرية» و«الواقع»، وهي ممارسة تسمح للروائيين بالزحف من تحت الأسوار وغزو معاقل فن كتابة السيرة. في الوقت نفسه، فإن كتّاب السير لم يعودوا يترددون في إضفاء مسحة تخيلية على تاريخ حياة الآخرين. ولا يشعر كتاب السيرة المعاصرين الذين لا يجدون سوى معلومات قليلة أو ليس لديهم معلومات حول مواضيع أعمالهم بأدنى حياء حيال إقحام أنفسهم في الكتابة عن حياة شخص لم يلعبوا أي دور فيها، معتبرين أنفسهم إما شخصيات موثوقة أو معلقين.

كنت أدرك جيدًا كل تلك الحواجز التي تفصل هذا النوع من الكتابة عن غيره من الأجناس الأدبية وبذلت قصارى جهدي لتجنبها، لكن في المناسبات القليلة التي حاولت فيها عبورها، حاولت توضيح أسبابي. بالنسبة

إلي، فإن كتابة السيرة تتطلب دائمًا من الكاتب «أن يقسم على قول الحقيقة»، وفقًا للحكم الذي أصدره الناقد ديزموند ماك كارثي، وهكذا حاولت أن أكتب هذا الهجين من المذكرات اليومية وسيرة الحياة. لم يكن هناك من مناص، وأحيانًا كان الأمر مؤلمًا. كانت الكتابة عملية بطيئة من الاكتشافات. لقد كنت أعيش دائمًا في الحاضر، وأن قيامي باسترجاع ذكرياتي عن الأيام التي بلغت فيها سن الرشد في مهنتي كان مثل اكتشاف منطقة مجهولة تماماً بالنسبة إلي اندثرت منذ وقت طويل، لم أكن أوليها الكثير من الاهتمام ولكني مطالبة الآن بإجراء فحص شامل لها. ويحضرني هنا الكاتب الفرنسي سانت - بوف الذي كان يعتقد أنك لن تفهم أبدًا أعمال الكاتبة إلا إذا فهمت كيف عاشت. الطريقة الوحيدة التي استطعت من خلالها أن أفهم أعمالي هي أن أكون خارج إطار ذاتي وأن أجعل نفسي الهدف والموضوع في آن واحد، لاكتشاف تلك الشخصيات التي عشتها في الحياة الحقيقية وبين صفحات الكتب. يمكنك أن تطلق على هذا الأمر اسم المصادفة أو التزامن أو أنه حدث عرضي أو غير مقصود - كيف ما كان الاسم، فقد أصبحت كاتبة سيرة حياة اثنين من أكثر الناس شهرة في العالم، وأنتجت تلك المغامرة هذا الكتاب.

الفصل الأول

«إذًا أنتِ هو الشخص الذي سوف يكشف كم أنا محتال». كان هذا أول ما قاله لي صامويل بيكيت في ذلك اليوم القارس البرودة، 17 تشرين الثاني، 1971، بينما كنا نجلس في البهو الصغير لفندق دو دانوب في شارع جاكوب. ذهبت إلى باريس بدعوة شخصية لمقابلته والحديث معه عن كتابة سيرة حياته. كان من المقرر أصلاً أن نلتقي في 7 تشرين الثاني، وبقيت لمدة عشرة أيام دون أن تكون لدي أي فكرة عن مكان وجوده، لأنه لم يحضر مطلقًا ولم يلغ المقابلة. عندما حددنا الموعد الأولي، أخبرني أنه يجب عليّ الاتصال بالهاتف عندما أصل إلى باريس في اليوم السادس من ذلك الشهر وسوف نحدد الوقت والمكان. كان عليّ الاتصال به في الساعة الواحدة تماماً، لأنه لم يكن يعجبه استخدام الهاتف وكان يجيب على المكالمات ما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية فقط. عندما لم يجبني، أمضيت تلك الساعة أتصل به كل خمس دقائق، وأصبحت أكثر قلقًا وانزعاجًا في كل مرة أسمع فيها الهاتف يرن. ولا أحد يرد.

في تلك الأيام، كان في باريس نظام بريدي يدعى pneumatiques، وهو عبارة عن رسائل زرقاء صغيرة تشبه البرقيات يتم نقلها عبر محطات المترو في جميع أنحاء باريس، ليتم تسليمها في غضون ساعة. كتبت عدة رسائل منها في الأيام التالية، ولم يصلني أي رد من بيكيت. لم يكن لدي أي فكرة عما يجب فعله، وكانت مشاعري تتذبذب ما بين خيبة الأمل والخوف من أنه كان يتجنبني لأنه غير رأيه ولن يلتقي معي. ومع ذلك، لم أكن أعتقد أن أي شخص يمكن أن يكون قاسيًا وفظاً بشكل متعمَّد، لذلك بدأت بمتابعة المواعيد الأخرى المتعلقة بالكتاب الذي عزمت على تأليفه إلى أن أتمكن من معرفة ما الذي يحدث معه.

في 16 تشرين الثاني، اتصل هاتفيًا بالفندق لترتيب اجتماع في اليوم التالي. اعتذر عن مغادرة الفندق دون الاتصال بي وقال إنه سيشرح كل شيء لي عندما نتقابل. لم يقل على الهاتف سوى أنه أصيب بنزلة برد شديدة وكان ضعيفًا ومنهكًا لدرجة أنه سمح لزوجته بالسفر به إلى تونس لغرض التمتع بالشمس والدفء. وكان على عجلة من أمره لدرجة أنه لم يكن قادرًا على إلغاء جميع مواعيده. شعرت حينها بارتياح كبير جداً.

لم يكن فندق دو دانوب ذلك المكان الأنيق والمكلف الذي هو عليه الآن. في عام 1971، كان فندقاً رثاً مهجوراً سعر الليلة الواحدة فيه 19 دولارًا وكان يفضله طلاب الدراسات العليا الفقراء والسياح المحدودو الدخل. كانت أحواله سيئة، فلم تكن هناك وسائل تدفئة ولا ماء ساخن على مدار الأربع والعشرين ساعة التي سبقت لقائنا، لذلك لم أحصل على قهوة في الإفطار ولا حمام ساخن. لم يكن طاقم الموظفين الخاص بالتعامل مع النزلاء الساخطين يضم سوى خادمتين برتغاليتين كانت لهجتهما الفرنسية غير مفهومة إلى درجة أنني لم أكن أعرف ما إذا كانت هذه الأمور المزعجة ناتجة عن الانهيارات في البنى التحتية التي اجتاحت باريس في ذلك الشتاء أم لأن أنابيب السباكة ووسائل التدفئة في الفندق كانت ببساطة أشياء عفا عليها الزمن.

كنت جائعة وأشعر بالبرد وبحاجة شديدة إلى تناول مشروب منبه، لكنني كنت متوترة جدًا لدرجة أنني لم أخرج من الفندق للحصول عليه. بسبب كثرة الاتصالات الهاتفية التي أجريتها خلال الأسبوع السابق ولم أحصل منها على رد، بدأت أؤمن بالخرافات وبت اعتقد أنني إذا غادرت الفندق، فإن بعض الحوادث الفظيعة ستحصل ويضيع مني لقائي الأول مع صامويل بيكيت. لذلك قررت أن أتدثر في فراشي وأنتظر وصوله إلى غرفتي الباردة، حيث كان أنبوب التدفئة الصاخب صامتاً ولا أسمع سوى صوت معدتي الفارغة.

عند الساعة الثانية بالضبط، وهو الوقت الذي قال إنه سيصل فيه، رن جرس هاتفي. «أنا بيكيت وها قد وصلت»، قال تلك العبارة بنبرة صوت عالية صادرة من أنف أقني، سوف أعتاد عليها كثيرًا في المستقبل. غمغمت

بشيء ما في سماعة الهاتف وأنا أعيدها إلى الجهاز ونزلت السلالم بسرعة لأتجه نحو بهو الفندق، حيث وجدت صامويل بيكيت يتطلع باهتمام إلى المكان المظلم الذي صدرت منه جعجعة بسبب نزولي.

تعرفت حالاً على وجهه الذي يشبه الصقر، بأنفه الملتوي قليلاً وخصلة الشعر الأبيض التي وثبت من جبهته. لا أعتقد أنني قابلت على الإطلاق شخصاً تتطابق صوره مع حقيقته بتلك الدقة الفائقة. لقد كان رجلاً طويل القامة، لكنني فوجئت أيضًا بالاختلاف بين جذعه الطويل وساقيه، اللتين بدتا قصيرتين بالمقارنة مع طول قامته. تصافحنا وتمتمنا بعبارات التحية. كان متدثرًا في مواجهة الطقس البارد بسترة من جلد الغنم وبلوزة بيضاء سميكة تمت حياكتها في أيرلندا ذات ياقة عالية. ذكّرتني بالياقة التي كان يرتديها الفرسان البريطانيون في العصور الوسطى، لا سيما بعد أن انحنى على الطاولة الصغيرة التي اقترحت عليه الجلوس عندها في بهو الفندق وكان حولها كرسيان، جلس على أحدهما وظهره نصف منحنٍ. جلست قبالته وابتسمت في انتظار أن يبدأ هو المحادثة. لم يكن هناك أثاث آخر في بهو الفندق، وكان ترتيب جلوسنا مناسباً لنظر بيكيت الضعيف، لكن المكان كان ضيقًا لدرجة أن ركبتينا تلامستا من تحت الطاوله، على الرغم من أننا أجهدنا نفسينا حتى لا يحدث ذلك. كنت أعرف أنه أجرى عملية جراحية لعينيه مؤخرًا، لكنني لم أكن أعلم أن نظره بشكل عام بقي ضعيفاً وأنه لم يعد يرى على الإطلاق ما يحيط به. كانت الطريقة الوحيدة التي تمكنه من رؤية شخص ما هي الجلوس أو الوقوف أمامه مباشرة، بقدر ما يسمح به السلوك اللائق.

وهكذا كان يحدّق في وجهي بتركيز، لأنها كانت الطريقة الوحيدة التي تمكنه من رؤيتي. اعتقدت أن تفكيره ربما تركز على معطفي الثقيل وقبعتي الصوفية والقفازات التي كنت أرتديها جميعًا منذ أن خرجت من السرير في ذلك الصباح. اعتقدت أنه ربما يخشى أنني ارتديت ملابس للخروج لأني كنت أنوي قضاء بقية اليوم أتجول معه في جميع أنحاء باريس، لذلك سرعان ما وضحت له ذلك بالحديث عن افتقار الفندق إلى وسائل الراحة. لم يكن للحديث ذلك التأثير الذي كنت أقصده، وهو إراحة باله، لأني اضطررت إلى

الصراخ على الخادمتين البرتغاليتين، اللتين كانتا منكبتين على تبادل الشتائم البذيئة باللغة الفرنسية والبرتغالية حين أصبحتا بجوارنا تمامًا حيث كانت كل واحدة تسحب طرفاً من ماكينة خياطة قديمة وكل واحدة تدّعي أنها تعود إليها.

عندما اختفتا وساد الهدوء، تمكنت أنا وبيكيت من وضع سيقاننا بشكل مائل حتى لا تتلامس. ثم أخرج بيكيت ولاعة ولفافة من شيء بني اللون، لم أستطع تمييز ما إذا كانت تلك علبة سجائر صغيرة أم علبة تبغ لأنني كنت متوترة للغاية. بدأ يلعب بولاعته، وواصل التحديق بصمت ومباشرة في وجهي من خلال نفس «عيني النورس» الزرقاوين الشاحبتين اللتين وصف بهما عيني مورفي، بطل أولى رواياته المنشورة. لقد شعرت بالقلق إزاء ما أخطأت في تقديره لجرأة نظرته. بينما كان يتلاعب بالولاعة، التقطت علبة سجائره وحركتها قليلاً لأضعها في يدي. في حركة رشيقة سريعة، وصل إلى العلبة عبر الطاولة، وانتزعها مني، وأطلق تلك الكلمات المقلقة الأولى، بأنني سأكون الشخص الذي سيكشف كم هو محتال.

أدهشتني ما اعتقدت أنها كانت نبرة سخرية في صوته ونظرة البرود التي ارتسمت على وجهه، ولم أتمكن من الكلام. تعمق الصمت بينما كان هو يواصل التحديق بوجهي. لا أتذكر بدقة ردي على مثل هذه العبارة الصادمة، لكن ربما تلعثمت في الكلام، أو ربما كان ردي سخيفًا، لأنني كنت شابة أحمل مشروعًا طموحًا وكنت حريصة على ألا أفقد تعاونه معي، رغم أنه لم تكن لدي أي فكرة عن كيفية إنجاز تلك المهمة. قبل ذلك التاريخ بعدة أشهر، كنت قد بعثت رسالة إلى بيكيت أعلن فيها رغبتي في كتابة سيرته الشخصية، وأدهشني أنه أجاب على الفور، قائلًا إن أي معلومة عن سيرته الشخصية ستكون تحت تصرفي، وإذا حضرت إلى باريس فسوف يحرص على أن يراني. تخيلوا إذاً، حجم صدمتي من ترحيبه السريع بالفكرة.

رأى بيكيت تلك النظرة على وجهي، وبدأ ذلك الرجل النبيل من أبناء العالم القديم، يتلعثم وهو يبدي اعتذاره عن الإزعاج الذي سببه لي. لكنني أجبته بإصرار، كلا، كلا لم أكن مستاءة. لقد أخذني على حين غرة، فأنا بعد كل شيء كنت في باريس بدعوة منه. ما أتذكره بوضوح أكثر من تلك البداية المحرجة هو كمية الأفكار التي تسارعت في ذهني. تساءلت عن نوع اللعبة

التي يريد أن يلعبها، وما إذا كانت دعوته لم تكن أكثر من مجرد طعم، تهدف إلى سبر أغواري قبل أن يقرر ما إذا كان – أو كيف – سيضع عقبات في طريقي لا يمكنني التغلب عليها بحيث لا أستطيع أن أكتب الكتاب أبدًا. بعد كل شيء، ألم يكن واحدًا من أكثر الكتّاب تحفظًا وخصوصيةً بين جميع الكتّاب، شخصًا لم يكن أحد يعرف شيئاً عن حياته الشخصية؟

ثم كانت هناك مسألة وصفه لنفسه بأنه محتال. لقد بذلت قصارى جهدي من أجل فهم كيف يمكن أن يعتقد أن كتاباته كانت دعابة خرجت بطريقة ما عن نطاق سيطرته وتمكنت من خداع القراء وجمهور المسرح. لقد فاز بجائزة نوبل وأحدثت رواياته ومسرحياته تغييرات جوهرية في الأدب والدراما في عصرنا، فكيف أمكنه اذًا أن يعتبر نفسه شخصًا مخادعاً ومحتالاً؟ ربما كانت هذه مجرد وسيلته لاختباري، لمعرفة ما إذا كنت أتملقه وأتظاهر بإعجابي به لغرض أن أحصل على ما أريد منه بمكري، ولتحديد مدى جديتي في كتابة سيرة حياة «موضوعية»، كما أخبرته في رسالتي.

كل تلك الأفكار جالت في ذهني في غضون ثوانٍ حين وضعت يديّ على رأسي وقلت، آه «يا عزيزي. لا أعرف ما إذا كنت الشخص المناسب لكتابة هذه السيرة».

تغير سلوكه على الفور، وكذلك تغيرت لهجة صوته. وأجاب قائلاً: «حسنًا، إذًا، لماذا لا نتحدث عن ذلك؟»

بدا بيكيت متوتراً عندما قدم اعتذاره عن مقابلتي في منتصف الظهيرة بدلًا من دعوتي لتناول مشروب ما أو وجبة طعام. لقد اعتذر عدة مرات، ومع كل مرة كان يزداد تأثراً، بسبب اندفاعه بطريقة لم يكن يتوجب عليه القيام بها، معربًا عن أمله في ألا يكون هذا الموعد الذي طال انتظاره قد أزعجني وبدأ يشرح مجدداً كيف تقررت رحلته إلى تونس في اللحظة الأخيرة. وتسببت بتراكم مواعيده.

لقد تكلم بلطف عندما طلب مني أن أخبره لماذا أردت القيام «بهذه المهمة المستحيلة» وكان يبتسم عندما قال لي: «كنت أعتقد أن امرأة شابة مثلك سيكون لديها أشياء أكثر إثارة لتسلية نفسها».

وهكذا بدأت أتكلم، وتحدثت في معظم الوقت بشكل متسق، لأنني كنت قد تدربت على ما أردت أن أقوله، وحفظت النقاط الرئيسية فيه. ومع ذلك، كانت هناك أوقات انزلقت فيها نحو قول عبارات غير منظمة أو غير ذات صلة، لأن هناك الكثير الذي أردت أن أخبره به. لم أتطرق إلى أي من الأسئلة الكثيرة التي أردت طرحها حول حياته أو عمله. بدلاً من ذلك تحدثت قليلاً عن نفسي وكثيراً عن الحالة الراهنة للدراسات الأكاديمية في الولايات المتحدة، وخاصة في جامعة كولومبيا، حيث كتبت رسالة دكتوراه عن حياته وأعماله، وحصلت من خلالها على شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن في ربيع عام 1972. كان يجلس بهدوء، ولم يظهر لي أي إشارة واضحة على أنه كان يتلقى ملاحظاتي بأي طريقة سوى الاستماع فقط - بلا اهتمام، وعمق، وتركيز. فيما تلا ذلك من سنوات، كان يستجيب غالبًا للأشياء التي أخبرته بها بنفس الطريقة المحايدة، وكنت في كل مرة أجد أنها طريقة مثيرة للقلق كما فعلت في هذا اللقاء الأول.

ومع ذلك، لا بد أنه وجد ما قلته ممتعًا بدرجة كافية. كان الوقت يمر، وامتد اللقاء الذي خصص له ساعة من وقته إلى ساعتين تقريبًا قبل أن يدرك أنه قد تأخر عن بقية مواعيده. وقبل مغادرته، قال لي عبارة لم تفارقني منذ ذلك الحين: «لن أساعدك ولن أعيقك. سوف يساعدك أصدقائي وعائلتي وسيعثر عليك أعدائي في أقرب وقت» بدأ بجمع أغراضه ووعد بأننا قد نلتقي مرة أخرى خلال يوم أو يومين، لكنه لم يستطع تأكيد الوقت أو الموعد في حينها وسيتعين عليه الاتصال بي لاحقًا. ومع ذلك فقد رحل، وتركني أتساءل مع نفسي متى سيكون (هذا إذا حصل) موعد اللقاء التالي.

عدت إلى غرفتي، وعندما فتحت الباب سمعت صوت قرقعة أنبوب التدفئة وهو يعمل. وهذا يعني أني سأحصل على بعض من الدفء، حينها قررت أنه يمكن لفنجان القهوة الانتظار لفترة أطول قليلاً. أدلى بيكيت بملاحظات كثيرة - بعضها كان مبهماً، وساخراً، ولطيفاً وصريحاً، وبعضها كان مراوغاً وفاتراً - لذلك أردت تدوينها ما دمت أني أتذكر ما قاله. لقد كانت تلك هي المرة الأولى من بين المرات العديدة التي جرت فيها لقاءاتنا عدتُ فيها بسرعة إلى مكان من العزلة الرائعة حيث يمكنني فيه تدوين كل

شيء حفظته ذاكرتي. وبعد هذا اللقاء الأول، كنت بحاجة أيضًا إلى تذكر كل ما أخبرته عن نفسي.

أصررت عليه بالقول «عليك أن تعرفني جيداً». «قبل أن نبدأ في كتابة سيرة حياتك، يمكنني الإجابة عن سؤالك حول سبب رغبتي في كتابة سيرتك فقط من خلال إخبارك من أنا». وهكذا فعلت. تغاضى عن الحديث عن ملاحظاتي، لكن ملاحظاته حول أصدقائه وعائلته وأعدائه كان لها صداها. في الواقع، فإن هؤلاء الناس فعلوا في السنوات السبع التالية، ما تنبأ به بيكيت تماماً.

الفصل الثاني

قادني مسار غير مباشر إلى تلك المائدة المستديرة الصغيرة في ذلك الفندق المتداعي. لقد ذهبت إلى باريس لأني كنت أحمل فكرة عظيمة بأنني سوف أقدم خدمة للعالم الأدبي من خلال قيامي بالبرهنة من خلال كتابة سيرة حياة صامويل بيكيت (وكما فعلت في أطروحة الدكتوراه عنه) أنه لم يكن (كما صورته وجهة النظر السائدة في المجتمع الأكاديمي آنذاك) كاتباً غارقاً في الاغتراب والعزلة واليأس، بل كان بالعكس من ذلك شخصاً متجذراً بعمق في إرثه الأيرلندي وقد صور هذا العالم من خلال خلفيته الأنجلو أيرلندية الراقية وحساسيته العالية. لقد ترسّخت عندي هذه المهمة الرفيعة المستوى في عام 1969، وهو العام الذي تركت فيه عملي في الصحافة وقدمت إلى الدراسات العليا. في البداية، لم أكن ملتزمة حقّا بالحياة الدراسية، لكنني كنت هناك فقط لأنني كنت بحاجة إلى استراحة من الضغوط التي كنت أتعرض لها في وجوب أن أصبح مراسلة ناجحة، الأمر الذي كان ديدن العاملين في عالم الصحافة المطبوعة.

أمضيت عقداً من السنين وهي الفترة التي فصلت ما بين دراستي الجامعية ودراساتي العليا وأنا أكتب في عدد من المجلات (نيوزويك لفترة وجيزة للغاية) والصحف الإخبارية (وكنت أكتب في ذلك الوقت في صحيفة نيو هافن ريجيستر)، وتخصصت حيثما استطعت في كتابة مقالات رئيسية قصيرة ولمحات معمقة عن حياة شخصيات محلية مشهورة. لم تكن الأخبار تحدث فقط خلال ساعات العمل، مما جعل الحياة صعبة بشكل خاص بالنسبة للمرأة التي تزوجت مباشرة بعد الجامعة، وأم لطفلين صغيرين، وكانت هي من يوفر الدعم المادي الرئيسي للأسرة لأنّ الزوج

كان طالباً في الدراسات العليا. كنت في أواخر العشرينيات من عمري وكنت مرهقة من محاولة الجمع بين الحياة المهنية والحياة الأسرية، وكنت أشعر أنني الوحيدة التي تفعل ذلك. كان هناك عدد قليل جداً من النساء المتزوجات في وسطي الاجتماعي قد شغلن وظائف في منطقة نيو هافن الكبرى، حيث عشت، والسبب ببساطة لأنهن لم يكن يرغبن بذلك. فقد كان أزواجهن إما أساتذة جامعيين أو ذوي وظائف راقية، وإذا حدث وعملت إحدى هؤلاء النساء خارج المنزل، فعادة ما يكون عملاً مؤقتاً، وإلى أن يجد أزواجهن عملاً. معظم اللواتي كن يعملن لم يكن لديهن أطفال، بينما كان لدي طفلان. لقد كان وضعي فريداً من نوعه ولم أكن أعرف أنني «أحاول فعل شيئين متناقضين في وقت واحد»، لأن العبارة لم تجد طريقها بعد إلى وعي النساء. كنت أعرف فقط أنني مرهقة ومتعبة. لم أستطع الاستمرار في العمل التطوعي في رابطة الآباء والمعلمين بالولايات المتحدة ورابطة تدريب الناشئين لأنه لن يكون عندي الوقت الكافي لتحضير الطعام لطفليّ عند ذهابهما إلى المدرسة أو تقديم الكعك والمرطبات عندما يكون دوري قد حان ضمن الحفلات الدورية التي تقيمها مجموعة زوجات زملاء زوجي في الدراسات العليا. ولا يمكنني المشاركة في حفلات العشاء الجماعية للوافدين الجدد، لأنني لا أستطيع إيجاد الوقت لإعداد أطباق الطعام الراقية. بالإضافة إلى أنها تنتهي في وقت متأخر وأنا مضطرة إلى الاستيقاظ مبكرًا لأكون في مركز الشرطة بحلول الساعة السادسة صباحًا للتعرف على تقرير الحوادث اليومي الذي يصدره مركز الشرطة قبل أن أذهب إلى غرفة الأخبار لكتابة قصة ذلك اليوم. أصبحت محاولة القيام بكل ذلك أمراً يفوق طاقتي.

عندما جاءت فرصة الحصول على منحة في قسم الدراسات العليا الذي تم تأسيسه حديثًا في كلية الفنون في جامعة كولومبيا عام 1968، قررت التقدّم لها. اعتقدت أنها ستكون فترة راحة هادئة لمدة سبع سنوات يمكنني خلالها قراءة الروايات والكتابة عنها من دون ضغط المواعيد النهائية اليومية. واعتقدت أنها ستمكنني من إعادة شحن طاقتي إلى جانب زيادة مهاراتي في الكتابة كناقدة فنية في الصحافة. في ذلك الوقت لم يخطر ببالي قط أنني قد أصبح أستاذة جامعية، علاوة على كاتبة سير ذاتية.

تزامنت سنتي الأولى في جامعة كولومبيا مع اندلاع احتجاجات الطلاب في ربيع عام 1968. «هيا» صاح بي أحد زملائي الجدد حين كنت أجلس تحت أشعة الشمس على المدرجات أمام تمثال الأم المرضعة (أو المدرسة الأم وتشير هذه العبارة إلى مدرسة أو جامعة أو كلية ارتادها المرء في سنوات تكوينه الأولى – م) في يوم مشمس من أيام شهر نيسان، «نحن متوجهون للاستيلاء على قاعة «شيرميرهورن في الجامعة. فقلت له: لا أستطيع الذهاب معكم، وكنت أشعر بالأسف لأنني كنت مضطرة للعودة إلى المنزل في نيو هافن لأحضر العشاء لطفليّ. كان من الواضح منذ البداية أنني كنت طالبة دراسات عليا مختلفة كثيراً عن زملائي الآخرين، وهي سمعة عززتها بنفسي عندما أخبرت زملائي بأنني مضطرة إلى الإسراع إلى المنزل، ولكن في البداية يجب عليّ التوقف عند محلات ساكس لبيع الحقائب النسائية. منذ ذلك اليوم، بدأوا يمازحونني وأطلقوا عليّ لقب «ابنة بلدة بلومنغديل الماركسية»، على الرغم من العدد الكثير من المرات التي قمت فيها بتصحيح اسم المتجر لهم. هذه قصة محرجة إلى حد ما وأنا ما زلت أحمرّ خجلاً عندما أرويها، لكنني أفعل ذلك لأنها توضح كيف أني كنت غير ملتزمة بدراستي بشكل جاد، وكيف أني حتى بعد انقضاء عام كامل من الدراسة، ما زلت أعتبر نفسي صحفية تبحث عن قصة.

أحببت حضوري في كلية الفنون، لأنها وفرت لي الفرصة لقراءة الروايات القريبة إلى قلبي. لكنني لم أكن أتعلم شيئًا جديدًا في برنامج الدراسات الصحفية، حيث كان أساتذتي، الذين لم يدخل الكثير منهم إلى غرف الأخبار منذ سنوات، يقومون بتدريس زملائي مواضيع عفا عليها الزمن مقارنة بما كنت أقوم به فعليًا يوميًا تقريبًا على مدار عقد من الزمن. الجزء الوحيد من البرنامج الذي كان يثير حماسي لحضوره هو المحاضرات الأدبية التي درستها في قسم الدراسات العليا، حيث درست رواية أوليسيس للكاتب جيمس جويس بالتفصيل إلى جانب مؤلفات الناقد وليام يورك تيندال، وتعرفت على الشعر الحديث مع دواوين الشاعر جون يونتيريكر. أدت الاحتجاجات الطلابية التي اندلعت في عام 1968 إلى دخول الجامعة في أزمة، لكنها كشفت لي عن أشياء مهمة. اكتشفت أنني أردت دراسة

الأدب، وليس الاستماع إلى شخص ما يخبرني كيفية كتابة المقالات. فقد كنت أعرف بالفعل كيف أفعل ذلك. لا أبالغ عندما أقول إنني وقعت في حب القراءة والتحدث عن الأدب، وبطريقة ما أردت أن أجد مهنة لي في المستقبل تسمح لي بالاستمرار في ممارسة ذلك الشغف.

وهكذا ذهبت في خريف عام 1968 لمقابلة جون يونتيريكر، الذي كان حينها رئيسًا لقسم الدراسات العليا في اللغة الإنجليزية والأدب المقارن، وقلت مع نفسي في الواقع «دعيني أجرب حظي معه». وبدلاً من قضاء سنة ثانية في كلية الفنون، أردت الانتقال إلى كلية الدراسات العليا للحصول على درجة الماجستير، مع إمكانية الاستمرار حتى الحصول على الدكتوراه. اعتقدت أنه بغض النظر عن وظيفتي المقبلة، فإنني إذا أصبحت امرأة حاصلة على درجة علمية متقدمة، فإن كل ما سأكتبه سيكون له تأثير. كنت أرى نفسي أنني سأصبح كاتبة أكثر من كوني أستاذة، لكن إذا ساهمت مهنة التدريس في دعم مسيرتي في الكتابة، فقد بدا ذلك طريقاً ممتازاً يستحق مواصلة السير فيه.

أبدى جون يونتيريكر رغبته الكاملة في تبني عملية انتقالي، لأن الرسوم الدراسية التي تغطي دراسة الماجستير كانت مدفوعة بالفعل، لكنه حذّرني من أنه يتوجب عليّ أن أنفق من أموالي الخاصة إذا أردت الدراسة بعد الماجستير. كان من المحتمل أن تتردد لجنة القبول في كلية الدراسات العليا في قبول امرأة تقترب من الثلاثين، متزوجة ولديها طفلان صغيران، وبالتأكيد أن لجنة المنح الدراسية لن تمولها. وقال إن أعضاء اللجنة الذين سيتخذون هذه القرارات هم جميعاً من الرجال، وربما كانوا ينظرون إلى قبولي كمقامرة لن تؤتي ثمارها. وإلى جانب ذلك، فإنني سأحتل مكاناً كان من الأفضل أن يُمنح لرجل. هززت رأسي دليل اتفاقي مع ما قاله بالكامل، فكنت في ذلك الوقت لا أعترض على الأعراف السائدة واعتقدت أن ذلك كان موقفًا معقولًا تمامًا. شكرته بلطف وشرعت في إيجاد طريقة لدفع الرسوم الدراسية حتى أتمكن من التسجيل في برنامج الدكتوراه.

بدأت رحلتي في وقت لم تشهد فيه النساء على مدى التاريخ فترة كن فيها محظوظات للغاية مثل تلك الفترة، عندما أصبح نقص الأساتذة والكوادر

الإدارية في مؤسسات التعليم العالي موضوع اهتمام وطني. قررت مؤسسة دانفورث ومقرها سانت لويس أنه لا بد من القيام بشيء لتصحيح الوضع، وفي عام 1965 تم تأسيس برنامج زمالة لـ «النساء البالغات» اللائي يمكن أن يحصلن على قبول في مدرسة الدراسات العليا (لم تكن مهمة سهلة في عالم يهيمن عليه الذكور). كان من المتوقع أن تعمل هؤلاء النساء بجد ويدرسن بسرعة كافية للحصول على شهادات متقدمة في بضع سنوات قصيرة، وبعد ذلك من المتوقع أن يندمجن بسهولة في وظائف بدوام كامل في الكليات والجامعات. كانت زمالات الدراسات العليا للنساء من مؤسسة دانفورث برنامجًا رائعًا، ويمكن لكل من أعرفها من خريجات برنامج مؤسسة دانفورث للنساء هذا أن تروي كيف ساهم البرنامج في تغيير حياتها. وبالتأكيد فإن حياتي أنا تغيرت أيضاً.

على الرغم من أن البقاء في جامعة كولومبيا كان يعني بالنسبة إليّ أن أستقل يومياً القطار الذي يمر بمحطات نيويورك القديمة ونيو هافن وهارتفورد، ثم أخذ الحافلة من جراند سنترال إلى تايمز سكوير وأصعد بعدها في مترو الأنفاق لأصل إلى شارع 116 – وكانت كل مرحلة تأخذ مني ساعتين لم أفكر قط في الانتقال للدراسة في جامعة ييل يمكنكم القول إنني تأثرت بالمحادثة التي أجريتها مع رئيس قسم دراسات العصور الوسطى، الذي أخبرني ذات مرة في حفل في أحد حفلات التخرج أنه لن يتم قبولي مطلقًا في أي برنامج للدراسات العليا لأنني كنت «متقدمة في السن للغاية [كنت في السابعة والعشرين من عمري آنذاك]، وشهادتي ضعيفة للغاية [كنت خريجة جامعة بنسلفانيا بمرتبة الشرف]، و... زوجة عضو في هيئة التدريس [كان زوجي طالب دراسات عليا في مجال التدريس]». لكن هذه النظرة الذكورية المتعصبة المبتذلة لم تتطرق إلى سبب حقيقي يمسني شخصياً، وهو سبب عرفت فيما بعد أنه كان شائعًا بين النساء في جميع سنوات عقد السبعينيات. كنت خائفة من أنني قد أفشل، وإذا حدث ذلك، فإن كل شخص في محيطي سيعرف ذلك. لكنني أقنعت نفسي أنني إذا فشلت في جامعة كولومبيا، فبإمكاني إنقاذ ماء وجهي بالقول إنني قررت الانسحاب لأن وسيلة التنقل كانت صعبة للغاية. هكذا فكرت النساء في

تلك الأيام، حتى النساء مثلي، اللائي كن في الخطوط الأمامية لمهنهن وكن يتعرضن لكل أنواع النبذ والإهانات وسوء المعاملة. إذا نظرنا إلى الوراء، ربما كان الأمر من الناحية المنطقية خاطئًا، لكن تبين أنه القرار الصحيح.

كان في جامعة كولومبيا قسم للدراسات العليا للطلبة البالغين. وكان هناك العديد ممن هم مثلي، ممن كانوا يعملون وهم يدرسون، وقد أدرك عدد من الأساتذة أن الطلبة عندما يعودون إلى مقاعد الدراسة بعد قضائهم سنوات في «الحياة الحقيقية»، فإن على المناهج الدراسية أن تتلاءم معهم. وقد كان من النادر أن يحتاج الأساتذة في جامعة كولومبيا، إلى إجراء الامتحانات والاختبارات الروتينية. كان من المتوقع من الطلاب أن يقوموا بواجباتهم الدراسية، ويكونوا مستعدين لتأدية الامتحانات، التحريرية والشفهية. أدى هذا الجو إلى انتشار شائعة في قسم اللغة الإنجليزية والأدب المقارن، عن الطالب الذي أنهى للتو عامه الخمسين وكان لا يزال يُعتقد أنه لا يعرف ما يكفي للإجابة على أسئلة الامتحان الشفوي الذي يستمر ساعتين والذي كان شرطاً مسبقاً لكتابة أطروحة الدكتوراه. كان الموقف معي مختلفًا تمامًا: فقد منح برنامج مؤسسة دانفورث المشاركات فيه فترة ثلاث سنوات تمتد من بداية الدراسة وحتى نهايتها ولا تمنح سنة رابعة إلا في حالة وجود ظروف غير عادية. فيما يتعلق بهذه الحقيقة قلت لزملائي في الدراسة، إنه إذا لم أتمكن من الاستفادة من ساعتين من الثرثرة عن الأدب، فلن أستحق هذه الشهادة.

وهكذا شرعت في مهمتي بكل طاقتي. بدأت بالتركيز على دراسات العصور الوسطى لسببين: لأنني أردت أن أكتسب خلفية فكرية عميقة ولأنني اعتقدت أنني بحاجة إلى إثبات أنه يمكنني القيام «بالعمل الجاد». كانت قراءة الروايات أمرًا «ممتعًا»، ولكن حان الوقت الآن للدراسة «الحقيقية». ومع ذلك، وجدت نفسي منجذبة باستمرار إلى روائيي القرن العشرين والكتاب الأيرلنديين على وجه الخصوص. لقد نشأت مع والدين كانا من القراء الجادين وقاما بتأسيس مكتبة منزلية رائعة وشجعاني على القيام بزيارات منتظمة للمكتبات العامة. وانتميا إلى العديد من نوادي الكتب وكانا شغوفين بالأدب المعاصر. أرسى الكاتب جيمس جويس حجر الأساس لمطالعاتي

منذ أن قرأت روايته يوليسيس أول مرة حين كنت في المدرسة الثانوية وكنت بالكاد قادرة على فهم مثل هذه الرواية المذهلة. لقد قرأتها مرة ثانية وأنا طالبة جامعية، وفي جامعة كولومبيا كرست أطروحة الماجستير التي كانت مدتها عامًا لفصل واحد من الرواية (الفصل السابع عشر «إيثاكا»). جعلتني دراستي لأدب جويس أنغمس في الثقافة الأيرلندية، وفي كل فروعها من التاريخ والسياسة إلى المناظر الطبيعية والأشخاص الحقيقيين. وهكذا، قادني جويس بشكل طبيعي إلى بيكيت، الذي قرأت رواياته بمزيد من الدهشة. ولكن بغض النظر عن مدى تأثري بالأدب الحديث، ما زلت أفكر في الأمر على أنه شيء قرأته من أجل المتعة، وكانت لدي فكرة خاطئة مفادها أنه إذا أصبحت أستاذة، فسوف يتعين عليّ «العمل». وكان العمل يعني البحث في دراسات القرون الوسطى، التي كانت تعني بالنسبة إليّ أن أتلمس طريقي ببطء من خلال البحث في اللغات الأنجلوسكسونية واللاتينية. بدأت في كتابة أطروحة عن رموز الحدائق التي تتطلب فهماً شاملاً للغة اللاتينية لأن النص الأساسي فيها كان عظة القديس برنار في سفر نشيد الإنشاد (أحد أسفار العهد القديم الكتاب المقدس – م). على ما أذكر، في ذلك الوقت كانت هناك ست وثمانون عظة لم يترجمها أحد من اللاتينية إلى الإنجليزية.

بدأت في قراءة تلك العظات في شباط 1970، وقد تم جمعها في مقصورة صغيرة في مكتبة بتلر في حرم جامعة كولومبيا، وكنت متدثرة بمعطفي وقبعتي وقفّازَيّ، فقد كانت أنفاسي تتجمد على شفتي العليا وكانت تتشكل رقاقات ثلجية على رموشي بسبب برودة الجو. وبقيت أقرأها في نفس المقصورة في أجواء الحرارة الخانقة في شهر تموز عندما أدركت أن أشهراً عديدةً قد مرت وكنت لا أزال في العظة الحادية عشرة ولم أكملها بعد. تخيلت نفسي أنني إذا ما بقيت على هذا المعدل من القراءة، فسأصبح سيدة مسنة محنية الظهر وشعرها أبيض اللون بسترة صوفية يتدلى منها زغبها بسبب قدمها وترتدي نظارات العجائز وما زالت طالبة دراسات عليا. منحتني مؤسسة دانفورث ثلاث سنوات، وربما أربع سنوات، وكنت أدرك أنني يجب أن أجد موضوعًا مختلفًا – وبسرعة – وإلا فإنني سأتعرض لا محالة إلى قطع التمويل. وهكذا اتخذت قرارًا غيّر حياتي لم يكن مبنيًا على الاهتمامات الجمالية، بل على الاعتبارات المالية.

كنت أستخدم بطاقات الفهرسة بحجم 3x5 بوصة فلم تكن هناك حواسيب في تلك الأيام، فأتناول مجموعة من البطاقات الفارغة وأنشرها عبر المنضدة كما يحدث في لعبة الورق، بطريقة مشابهة تماماً. ثم أكتب في كل بطاقة اسم كاتبة معاصرة أعجبت بعملها إلى حد أصبحت أرغب في الكتابة عنها. وكوني صحفية، كنت أعرف كيف أكتب بسرعة وفي الوقت المحدد، وإذا قمت بتحديد موضوع للكتابة عنه فلا يتطلب انتظار الذهاب إلى المكتبات للبحث في الكتب والمخطوطات القديمة المتهرئة وغير المكتوبة بلغات قديمة، كان بإمكاني تجميع مئة صفحة منها أو نحو ذلك في غضون عام واحد. كانت هناك بطاقات خاصة بجويس، وييتس، ووولف، وكونراد، وبيكيت - وأسماء أخرى نسيتها، لكن كان هناك على الأقل اثنا عشر اسماً على البطاقات الصغيرة. وقمت بترتيبها حسب الحروف الأبجدية دون التفكير في الاسم الذي قد يمثل أفضل فرصة لإجراء بحث أصلي عنه، أو حتى ما إذا كان يعجبني أكثر من الآخرين. لم يكن هناك من يبدأ اسمه بحرف A، فجاء بيكيت في المرتبة الأولى، قبل جوزيف كونراد وإ.ام فورستر. وهكذا قلت لنفسي إن بيكيت هو من سأبدأ معه مسيرة حياتي في كتابة السيرة.

ومثل أي طالبة مبتدئة مطيعة (لا حول لها ولا قوة وتفتقر إلى الخبرة)، قررت في البداية أن أتبع القواعد وأن أكتب أطروحة حول بيكيت كانت تستند أساسًا إلى النظرية الأدبية. كنت قد دخلت العالم الأكاديمي في وقت انحسار مدرسة النقد الجديد (إحدى المدارس النقدية التى ظهرت في القرن العشرين وهدفها هو القراءة المتأنية للنص الأدبي، مع استبعاد كل من السياق التاريخي والنفسي والاجتماعى للنص، ولاسيما السيرة الذاتية للكاتب - م) وفي ذروة عملية الخلط العشوائي لعدة مذاهب نقدية التي بدأت تجري منذ ذلك الحين تحت العنوان الواسع «النظرية النقدية الفرنسية». التي تنص على أن التفسير الوحيد الصحيح للعمل الأدبي يأتي من العمل نفسه، وليس من حياة المؤلف أو العالم الذي عاش فيه (تم استخدام الضمير «هو» لأن سلسلة مشاهير الأدب كانت مؤلفة بالكامل تقريبًا من كتاب ذكور). وكانت هذه المدرسة لا تعير اهتماماً بأن يكون العمل الأدبي قد تم تأليفه على عجل

من قبل كاتب لم يستطع دفع إيجاره أو أخذ طفله المريض إلى طبيب، أو من قِبَل كاتب يعتنق إيديولوجيا سياسية وكان يكتب بغضب على الحكومة الرجعية في بلاده، أو من قبل شخص محبط كان عليه أن يعيش حياة شديدة الانغلاق ويمكنه التلميح فقط إلى نوع الجنس الذي يفضله بواسطة إشارات محمية بعناية. لم يكن يثير اهتمام النقد أي شيء مما سبق ذكره؛ فليس هناك شيء خارج النص.

خطرت على بالي مقولة قرأتها في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس، ذاعت في تلك الأيام وكانت تمثل تمامًا روح ذلك العصر: «هذه هي قصة جاك دريدا. ليس هناك كاتب، ولا قارئ كذلك». بهذه الجملة أعلن «الثالوث المقدس» المتمثل برولان بارت وجاك لاكان وجاك دريدا عن نظريتهم، ولم يكن هناك مكان في مثل هذه البيئة لأي شخص يعتبرهم، كما فعلت، مقنعين بشكل رئيسي ولكنهم غير مقدسين. جعلتني قراءة أعمال بيكيت أرغب في الحصول على إجابات على الكثير من الأسئلة، التي كانت كلها تستند إلى الحياة التي انبثق منها العمل بدلاً من التنظير الخاص بي أو بغيري. وكما كتبت، أعادتني أفكاري إلى أيام عملي كصحفية كانت تعرف مدى الإثارة الناجمة عن رواية حادثة مميزة.

لقد انجذبت في البداية إلى روايات بيكيت بدلاً من مسرحياته، وقد وجدت في رواياته العديد من الإشارات المفعمة بالحب والمودة تجاه أماكن حقيقية مثل تلال ويكلو والريف المحيط بمنزل عائلته في بلدة فوكسروك (إحدى ضواحي دبلن عاصمة أيرلندا– م). تساءلت مع نفسي لماذا لا ينتبه الكثيرون إلى جانب قيامه بتعريفهم على أماكن حقيقية، إلى سرعة البديهة والأسلوب الظريف في وصفه لشخصيات من مدينة دبلن لم يخفها تماماً وملأ بها رواياته. لقد عشت أوقاتاً ضحكت فيها بصوت عالٍ عندما قرأت سرده الوصفي لتصرفاتهم الغريبة التي كانوا يمارسونها في حياتهم الحقيقية. فكرت مع نفسي لماذا لم ينتبه العلماء والنقاد الآخرون إلى هذه الجوانب من كتاباته. هل خافوا من الصواب السياسي (يستخدم هذا التعبير لوصف اللغة أو السياسات أو الإجراءات التي تهدف إلى تجنب الإساءة أو الحرمان لأفراد مجموعات معينة في المجتمع – م) للنظرية

الأدبية لدرجة أنهم لم يعترفوا بوجودها في الواقع؟ أم إني أقرأ رواياته بتحيز واضح، خاصة أنها ربما كانت تعكس حس الفكاهة الخاص بي؟ قررت ألّا أصدر حكماً مسبقاً عليه أثناء قراءتي، وهذا يسمح لي بفك ألغاز نواياه وعدم فرض تفسيراتي عليها. أثناء تدويني الأسئلة التي أردت أن تجيب الأطروحة عليها، أدركت، باختصار، أن جميع الأسئلة متشابهة وتركز على شيء واحد: من هو الرجل الذي تمكن بمخيلته أن ينشر الإرباك والحيرة بين مجموعة من القراء في عدد من البلدان، وجعلهم يمعنون التفكير في الروايات التي قرأوها والمسرحيات التي شاهدوها؟

أدركت أنني ما زلت أوقّر الكاتب وعمليته الإبداعية؛ تقبلت وضعي كطالبة غيرت قناعاتها السابقة إلى حد يدفعها للتساؤل عن كيفية ظهور العمل الأدبي، وما هو مصدر إلهامه، والمعلومات التي استند إليها. قال لي البروفيسور يونتيريكر المرتاب بأمري، الذي كان على علم بخلفيتي الصحفية وهو الوحيد الذي ائتمنته على اهتماماتي «الغريبة»: «كل ما تحتاجينه هو العثور على الإجابة عن شيئين متى وأين». وحذرني من أنه حتى التفكير في البحث في مثل هذه القضايا في أعمال صامويل بيكيت سيكون أشبه بالانتحار الأكاديمي. وقال لي: لو كتبت ما يرقى إلى السيرة الذاتية، فلن تحصلي أبداً على شهادة الدكتوراه، فضلاً عن مهنة التدريس. لم أكن متأكدة في تلك المرحلة من أنني أريد واحدة منهما، لذا مضيت قدماً في مشروعي.

وافق يونتيريكر على مضض على الإشراف على الأطروحة بعد أن أكدت له أنني كنت أخطط لتقديم تحليل نقدي سليم لمعلومات جديدة لم تكن معروفة من قبل جمعتها عن كتابات بيكيت. ولكني ربما كنت مخادعة قليلاً عندما أخبرته أنني سأصوغ أطروحتي لتعزيز تلك النظرية وشددت على أنها كانت مجرد أساس لدراسة متعمقة مستقبلية يمكن أن تصبح أول كتاب مهم للغاية يحتاجه الباحث في أعمال بيكيت. في الواقع لم يكن لدي أي نية لتأليف مثل هذا الكتاب. لا يمكن العثور على إجابات لأسئلتي حول أعمال بيكيت إلا من خلال التعرف على شخصية الكاتب الذي ألفها، والطريقة الوحيدة للقيام بذلك كانت من خلال تجميع معلومات موسعة عنه أو – القيام بالأمر

الذي كان يتحاشاه العاملون في الوسط الأكاديمي في السبعينيات - وهو كتابة سيرة حياته. (لقد بتّ أدرك أن الأطروحة سيكون فيها بعض بصمات كتابة السير، لكنها ستكون طفيفة جدًا لدرجة أن لجنة التقييم سوف تفهم أن وجودها كان لتوفير أساس لاستنتاجاتي النظرية ليس إلّا).

وبغض النظر عن الاعتبارات المهنية، كان هذا اقتراحًا صعبًا. لكني لم أكن قد فكرت في كتابة السيرة من قبل فحسب، بل إني لم أقرأها قط باستثناء بعض الكلاسيكيات. وكنت بمفردي كطالبة دراسات عليا، قد اكتشفت وأعجبت بكتاب السير من أمثال سويتونيوس، وفلوطرخس، وفازاري، وكنت أكتم ضحكتي عندما أقرأ سيرة شارلمان، التي كتبها المؤرخان نوتكر وإينهارد. قرأت في قسم الدراسات العليا، كتب أيقونتي تأليف السير الشخصية، بوزويل وجونسون، التي وجدت أنها ممتعة ولكنها ليست ذات أهمية فائقة تجعلني أتخذها كنماذج لكتاباتي النقدية. قمت بإلقاء نظرة لا بد منها على كتاب سيرة حياة كارلايل لكاتب السير جيمس أنثوني فرود وسيرة حياة والتر سكوت للكاتب جون غيبسون لوكهارت، ولكن لفترة كافية فقط للتوافق مع أساتذة مختلفين اعتنقوا النظرية القائلة إنه ليس من المهم لكاتب السير أي فهم كبير لمؤلفات مواضيعهم. على الرغم من أنني استمتعت بقراءة كتاب «الفيكتوريون البارزون» للكاتب ليتون ستراشي فقد كافحت من أجل التخلص من المنظرين الذين نصحوا الطلاب بعدم تفويت أي من سير «الحياة»هذه من أجل تأليف دراسات جادة. كان من المقرر أن يستمتعوا بتعرفهم عليها، وعدم الاكتفاء بالدردشة حولها، وقد وصفها أحد الأساتذة لي بجملة سوف أسمعها كثيرًا في السنوات القادمة، «إنها ليست بدراسات، إنها ليست سوى سير حياة».

كنت في تلك الأثناء قد كتبت الأطروحة وكنت على وشك الحصول على شهادة في وقت قياسي، في ربيع عام 1972. لم أجد وظيفة في مجال التدريس على الفور لأنه كان هناك عدد قليل جدًا منها في السبعينيات، وعلى الرغم من مناشدات مؤسسة دانفورث بأنه ينبغي منحها للنساء، فإن الوظائف المتاحة كانت عادةً تذهب إلى الرجال. تقدمت ببعض الطلبات العشوائية لبعض الكليات في ولاية كونيتيكت ونيويورك المجاورة لها، لكن

لم أحصل على أي وظيفة بدوام كامل، ولم أكن راغبة أن أشغل نفسي بإعطاء دروس بشكل مكثف في طرق الكتابة بدوام جزئي مقابل أجر ضئيل. عندما اختمرت أطروحتي في ذهني، أدركت أنني خضت الكثير من التجارب والمقابلات الرائعة أثناء كتابتها الأمر الذي جعلني أكثر تصميمًا من أي وقت مضى على كتابة سيرة حياة صامويل بيكيت وأعماله.

كنت خلال هذه الفترة كثيراً ما أتذكر جون يونتيريكر وهو يهز رأسه، ويحذرني من «الانتحار الأكاديمي» وكيف أنني «لن أحصل على وظيفة تدريس أبدًا». وطوال خمس سنوات سيثبت أنه على صواب، لكن لم يعرف أي منا ذلك في ذلك الوقت، ولم يهتم أحد منا به حقًا.

الفصل الثالث

مِثْل سكارليت أوهارا (بطلة الرواية الشهيرة ذهب مع الريح – م)، التي كانت دائمًا تؤجل القلق بشأن الأشياء حتى يحين الوقت للقيام بها، قررت عدم القلق بشأن الحصول على وظيفة، لأن كتابة سيرة حياة بيكيت كانت في صدارة اهتماماتي. عندما سألني جاك يونتيريكر (بمجرد حصولي على الدرجة العلمية أصبحنا أصدقاء نادي بعضنا بالاسم الأول) كيف خططت للبدء بكتابة السيرة، أجبته بكل سرور بأنني سأصوغه تقريباً بشكل مشابه للنموذج الصحفي في عرض سيرة حياة شخصية معينة. كان لدى جاك طريقة مضحكة للغاية في الكلام وكان يفتقر بنفس القدر لروح الفكاهة. رفع أحد حاجبيه متسائلاً: «ألا تعتقدين أنه يجب قبل أن تفعلي أي شيء، أن تخبري بيكيت بذلك؟» بما أنني لم أكن أعرف شيئًا عن طريقة عمل كتاب السير، وبما أنني اتخذت قراري بأن يظهر العمل مثل النموذج الصحفي، لم يخطر على بالي قط أنني قد أحتاج إلى «إذن» أو «اتفاق» أو حتى «عقد قانوني» – كل التعابير التي سمعتها لأول مرة عندما كان جاك يتحدث عنها. ومن دون تردد وبثقة تامة من أن لدي بالفعل مجموعة المهارات اللازمة قلت له نعم كلامك صحيح، وقررت أن أكتب رسالة إلى بيكيت.

بمجرد أن بدأت في كتابتها، أدركت أنها يجب أن تكون مقنعة إلى حد بعيد، وكان قلقي واضحاً من كثرة المسودات التي ملئت بها سلة المهملات. في النهاية، كانت الرسالة التي أرسلتها في شهر تموز الحار من عام 1971 قصيرة إلى حد ما، وتمت كتابتها على عجل، وذهبت بها مباشرةً إلى مكتب البريد قبل أن أفقد أعصابي. لم أحتفظ بنسختها الكربونية، وبعد أن أرسلتها، كنت أخشى أن أكون قد صورت نفسي بشكل أحمق، مثلما صور الأدباء

جان دارك، أرتدي درعاً لامعًا وأمسك بيدي دفتر الملاحظات الذي يحمله الصحفيون ومتوجهة وأنا على صهوة جوادي لتحقيق النصر. أتذكر جيداً أنني قلت في رسالتي لبيكيت إنّ كتابة سيرة حياته ستكون إضافة ضرورية إلى كل الكتابات النقدية التي كتبت عنه، لأنني قرأت رواياته بشكل مختلف تمامًا عن معظم النقاد الآخرين، ووجدت الكثير من الحيوية والفكاهة في نثره وتلك الدقة التامة في تصويره للناس ووصفه الأماكن. كان لا بد لي أن أكون جادة للغاية في تلك الفقرة العاطفية، وكنت آمل أن تقنعه بأهمية حجتي. انتهيت من الرسالة مع شرح موجز عني: امرأة تزوجت وهي شابة ولديها طفلان في سن المدرسة، وكانت صحافية ومراسلة مخلصة في عملها. وطلبت منه الرد على رسالتي لأنني لم أرغب في تأليف مثل هذا الكتاب دون تعاونه.

ربما لم يحدث أن كان البريد بين نيو هافن وباريس يوماً سريعًا مثلما كان خلال تلك الفترة. بعد أسبوع من اليوم الذي أرسلت فيه رسالتي بالبريد، تلقيت رده. بدأ بالحديث عن حياته وكيف هي «مملة ولا تثير الاهتمام» وأن «أساتذة الجامعة يعرفون عنها أكثر مما أعرف». لقد كتب كل ذلك بخط صغير الحجم وبشكل دقيق للغاية وبعناية، على ورق غير مسطر يشبه ورق المناديل، وكانت كتابته بشكل مستقيم من اليسار إلى اليمين. ثم جاءت فقرة ثانية غريبة، في خط حجمه أكبر وكتب على عجل بدأت من أسفل اليسار وصعدت إلى أعلى اليمين بعدة سطور ليس بينها فواصل: «أي معلومات أمتلكها عن سيرتي الذاتية تحت تصرفك إذا أتيت إلى باريس وسوف ألتقي بك».

لم أصدق عينيّ. ظللت أدعك الورقة، وخالجني شعور أنها ستقول شيئًا مختلفًا تمامًا إذا غضضت النظر عنها للحظة. نظرت من النافذة ورأيت جاري، الكاتب والأستاذ إرنست لوكريدج، في الجانب الآخر من الشارع، هرعت نحوه، وأنا ألوّح له بالرسالة. كان يقوم بالتدريس في جامعة يل آنذاك، وحينما كنت أدرس استعداداً لتأدية الامتحان الشفوي الخاص بالأطروحة، اعتاد أن يدندن قليلاً لحن أغنية ملكة جمال أمريكا كلما رآني: «ها هي تذهب، وهي تفكر في كل الهراء الذي تعرفه». كان يمثل بالنسبة إليّ

صوت العقل البهيج والمشجع خلال سنوات دراستي، وكان يمنحني حافزاً ضرورياً لعدم الاستسلام حينما أكون مستاءة. عرضت عليه رسالة بيكيت للتأكد من أن محتواها كان حقيقياً، وعندما عاد زوجي إلى المنزل في تلك الليلة، فعلتُ الشيء نفسه. كان رجلاً عملياً، وقال لي إنه يجب أن أتصل بمؤسسة دانفورث، وأخبرهم عن هذه الدعوة غير العادية، وأطلب منحة خاصة للذهاب إلى باريس. استمعت ماري بروكر المرأة الرائعة التي كانت تدير برنامج مؤسسة دانفورث الخاص بالنساء، لي وأنا متحمسة لأشرح طلبي وقالت بهدوء تام لدرجة أنني لم أسمعها تقريبًا، «بالطبع يجب أن تذهبي. سنرسل لك الشيك».

في بداية شهر آب قمت بالرد على رسالة بيكيت وأخبرته أنه يمكنني القدوم في تشرين الأول أو تشرين الثاني، فأجابني أنه ليس لديه أي اعتراض فالأمر سواء لديه. كانت نانسي ماك نايت زميلتي في جامعة كولومبيا تخطط لقضاء عدة أيام في باريس قبل الذهاب إلى لندن لإجراء بحثها، لذلك قمنا بالترتيب للسفر معًا. وفي الوقت نفسه، لعبت زميلة أخرى في الجامعة دورًا رئيسيًا في مساعدتي في البدء في المشروع الذي سيصبح تأليف سيرة حياة. حيث قامت نانسي ميلفورد بتحدي الموقف المضاد لكتابة سير حياة الأدباء الذي كان سائداً في جامعة كولومبيا من خلال نشرها وبنجاح كبير دراسة نسوية رائدة عن زيلدا فيتزجيرالد. كنا نتناول الغداء ذات يوم عندما سألتني نانسي عما إذا كنت قد وجدت وظيفة في مجال التدريس. فأجبتها: لم أكن أرغب في ذلك، لأنني ذاهبة إلى باريس لمقابلة صامويل بيكيت والشروع بكتابة سيرة حياته.

بعد عدة أيام، عندما كنت جالسة أمام طاولتي أحاول معرفة كيفية كتابة السيرة، غير مبالية بكيفية القيام بالعديد من الأشياء المنزلية التي يتحتم عليّ القيام بها لمساعدة عائلتي أثناء غيابي، رن هاتفي. عرّف المتكلم عن نفسه بأنه كارل براندت، الوكيل الأدبي لنانسي ميلفورد. لقد نقلت إليه نانسي أخبار ما أزمع القيام به، وقد أخبرني كارل براندت أنه إذا كان ذلك صحيحًا، فسيشكل ذلك انقلابًا مذهلاً في عالم الأدب كان على يقين من أنه يمكنه ترتيب عقد نشر الكتاب ويود أن يمثلني. كنت أعلم أن والده هو من أسس

الوكالة الأدبية المحترمة للغاية براندت آند براندت (Brandt & Brandt) لذلك شعرت بسعادة غامرة للانضمام إلى قائمة كتابهم المتميزين وقبلت في الحال. استطعت بالكاد أن أصدق كم أنا محظوظة.

وهكذا، بعد أن استلمت وأنا كلي سعادة تكاليف السفر من أجل لقائي الأول مع بيكيت من مؤسسة دانفورث والأخبار التي وصلتني من كارل براندت، بإمكانية إبرام عقد نشر الكتاب ودفعه مبلغاً من المال كمقدمة، كنت قد بدأت فعلاً الخطوات الأولى في مسيرتي. عندما أروي هذه القصة اليوم، يهز كتّاب آخرون رؤوسهم وهم يتساءلون كيف كان سهلاً حصولي على مهنة جديدة. إنهم ليسوا وحدهم، لأنني عندما أفكر بحظي الحسن المدهش، أتعجب أنا نفسي من سهولة حدوث ذلك.

شعرت بسعادة غامرة عندما أخبرت جاك يونتيريكر عن كل الأشياء المدهشة التي كانت تحدث، وظل على طبيعته الهادئة والساكنة وهو يستمع. كان شخصاً عمليًا أيضًا فقد قال لي: إذا كنت تنوين مواصلة هذا العمل المجنون، يجب أن تذهبي إلى دبلن ولندن وكذلك باريس، وسيزودني بقائمة بأسماء أصدقائه الذين كانوا أيضًا أصدقاء لبيكيت. لقد أثبت جاك بالفعل كيف يمكن أن تكون هذه العلاقات أشياء لا تقدر بثمن من خلال تعريفي باثنين من سكان نيويورك كانا صديقين مقربين لبيكيت بل حتى من أقرب أصدقائه، الممثل جاك ماكغوران والشاعر جورج ريفي. ساهم كلاهما بإثراء عملي الأكاديمي عندما انتهيت من الأطروحة، وحين شرعت في كتابة سيرة حياة بيكيت، كانا حريصين على المساهمة بشكل أكبر. ومنحتني أحاديثي معهما تكوين رؤيتي الأولى لبيكيت الإنسان بالإضافة إلى بيكيت المؤلف. كما أن الرسائل والوثائق الأخرى التي قدماها لي كانت لا تقدر بثمن.

خلال السنوات الحزينة التي عاشها بيكيت في لندن في ثلاثينيات القرن العشرين، كان جورج ريفي هو الصديق الذي عقد العزم على مساعدته في نشر روايته مورفي والذي أخذ على عاتقه أن يكون وكيلاً لبيكيت. غطت مراسلاتهما أحداث سنوات من رفض نشر الرواية من اثنين وأربعين ناشرًا قبل أن ينجح جورج أخيرًا في إقناع دار نشر روتليدج بطباعة الكتاب في عام 1938. وخلال تلك السنوات التي شعر فيها بيكيت بالإحباط بسبب

تزايد عدد دور النشر التي رفضت نشر روايته، كتب عدة رسائل مسلية وذات أسلوب لاذع. أحد الأشياء التي أعجبتني على وجه الخصوص كان قصيدة اللمريكة (قصيدة فكاهية خماسية الأبيات - م) التي ألفها بعد رفض الناشر الأمريكي دابلداي طباعتها (إيه يا دابلداي دوران، يا ذا الغباء العبقري، لك عقل عاهرة / متوجهة إلى بوندوران- مدينة في مقاطعة دونيجال، أيرلندا -م) عندما أشرت إلى هذه القصيدة في رسالتي للدكتوراه، كانت واحداً من أول الدلائل التي برهنت فيها كيفية استخدام بيكيت لروح الدعابة التي يمتلكها في مواجهة الشدائد.

قابلت جورج لأول مرة في شقته التي تقع في الدور العلوي ضمن مبنى سكني كبير في شارع إيست إيتي فيفث East Eighty-Fifth حيث كان يعيش مع زوجته الكاتبة المسرحية جيان. كانت في الشقة غرف كثيرة متلاصقة وتسودها الفوضى، بحيث كانت أغلب مساحة الشقة تقريبًا غير صالحة للاستخدام. كانت هناك صناديق من الورق ترتفع إلى السقف، وأكوام من الكتب، ولوحات لزوجته السابقة، إيرين رايس بيريرا، وأعمال صديقيه الرسامين برام وجير فان فيلدي (وكانت هناك أيضاً أعمال بيكيت). كان هناك ممر ضيق واحد أسفل الرواق يقود من المدخل إلى الغرفة الأمامية، حيث كان الشيء الوحيد المرتب هي الأريكة التي تصبح سريرهما في الليل. لم أستطع أن أصدق عيني في المرة الأولى التي دخلت فيها، ولكن قبل أن أتمكن من التكيف مع الكآبة التي سببتها جميع الصناديق التي كانت تحجب النوافذ المتسخة، قال جورج إنه يجب علينا النزول إلى الشارع والذهاب إلى حانة دوريان ريد هاند، حيث يمكننا تناول بعض المشروبات. ما قصده، حيث أتيحت لي الفرصة الكافية للتعلم منذ ذلك اليوم، هو أنه سيتناول زجاجة من الويسكي الإسكتلندي وسأدفع ثمنها. أصبح جورج ثملًا، فقد كان مدمنًا على الكحول، وكان في كل مرة يتصرف بدهاء بتقديم بعض الوثائق المهمة لإغرائي بالرجوع إليه مرة أخرى، ولكني في كل مرة كنت أشعر بالإحباط الشديد بشأن كمية الويسكي التي كان عليّ شراؤها لدرجة أنني هددت بعدم إجراء أي تعاملات أخرى معه، لكني كنت أتوقف وأقول مع نفسي إن مساهماته كانت لا تقدر بثمن. كانت الصعوبة تكمن في حمله

على أن يقدم ما لديه من معلومات، وهو كابوس استمر يلاحقني طوال السنوات السبع التي استغرقتها في تأليف الكتاب.

كان تناول مشروب الويسكي أمراً شائعاً بين أصدقاء بيكيت، وهذا ما اكتشفته عندما قابلت جاك ماكغوران في شهر تموز. لقد كان يقدم عرضًا فرديًا في خيمة الموسيقى في مركز لينوكس للفنون في مدينة لينوكس في ولاية ماساتشوستس. بعد أن عرفنا عليه يونتيريكر، توجهنا أنا وزوجي لرؤية عرض مسرحي يحاكي شخصيات بيكيت الروائية قام ماكغوران بتأليفه بنفسه. لقد كانت ليلة باردة وممطرة على نحو غير معقول، عاصفة جدًا لدرجة أن السلاسل المعدنية التي تثبت قطع قماش الخيم بالأوتاد كانت تصلصل بشكل مخيف، مما جعل ماكغوران يرفع من صوته المنخفض والمبحوح وهو يعيد الحياة لشخصيات من روايات بيكيت الثلاث مولوي ومالون يموت واللامسمى. كان يرتدي معطفًا خشناً يلبسه عادة عازفو الروك بحجم كبير جدًا، مما أدى إلى تقزيم هيئته الصغيرة النحيلة، فيما كان حذاؤه البائس، الذي كان أيضًا كبير الحجم للغاية، يخفق بصوت عالٍ في كل خطوة يخطوها، مضيفًا نغماً آخر يخفف من صوت الرياح والمطر.

انفجر جمهور الحاضرين من الضحك عندما قام ماكغوران بأداء مشهد الأحجار الستة عشر في رواية مولوي. أصبحت الأمور هادئة أثناء قيامه بأداء بعض المقاطع الحزينة من رواية مالون يموت، وعندما حان الوقت ليصل فيه إلى السطور الأخيرة من رواية اللامسمى، صمت الجمهور في مزيج من الخشوع والمعاناة وهو يرى محنة بطل الرواية. عندما قال، «ينبغي عليك الاستمرار، لا يمكنني الاستمرار، سأستمر» وهي العبارة الشهيرة من رواية اللامسمى التي ينتهي بها عرضه، كان الصوت الوحيد في الخيمة هو صوت جلجلة السلاسل الذي كان يصدر من حين لآخر إلى أن يلتقط الجمهور أنفاسه فيحيط ماكغوران بعاصفة من التصفيق. وقد بقي ذلك العرض المسرحي حتى يومنا هذا أحد أكثر العروض المسرحية التي حضرتها إثارةً.

بعد ذلك، ذهبت إلى غرفة تبديل الملابس الصغيرة بجانب الخيمة، حيث كان ماكغوران يزيل مكياجه ويصبّ أول أقداح الويسكي العديدة التي يتناولها بعد العرض المسرحي. كان منتشياً، فقد كانت جميع المقاعد

مشغولة والجمهور الشغوف به يطلب منه العودة في كل مرة تسدل فيها الستائر ليقوم بتحيته من جديد. ظهرت غلوريا زوجته، فجأة لتخبرني ألا أستعجل، لأنه سيستغرق في الحديث لفترة طويلة. كان ذلك قبل أن توبخه على اندفاعه لتناول الويسكي. ذهب حديثها أدراج الرياح، لأن ماكغوران كان مدمنًا للكحوليات فتناول زجاجة الويسكي بسرعة. لقد استهواني منظره عندما راقبته وهو يملأ قدحاً من الويسكي كلما كان يتوقف عن الشرب لأجل أن يتنفس وحينها كان ينظر إلي وهو يؤدي إحدى حركاته المميزة التي لا تستغرق سوى ثانية واحدة. عندما سألته عن متى وكيف التقى بيكيت لأول مرة، بدأ يروي لي حكاية تلو الأخرى، حتى توقف فجأة وقد ارتسم على وجهه تعبير من الدهشة. ثم قال: «هل تعرفين، أنا لم أتحدث قط عن سام بهذه الصورة من قبل. لدي الكثير لأقوله وأعتقد أنه مهم، لكن لم يسألني أحد عنه قبلك».

أخبرني كيف كان لقاؤهما الأول محرجاً، وقد حدث في مسرح رويال كورت قبل وقت قصير من العرض الأول لمسرحية بيكيت نهاية اللعبة، عندما طلب من المخرج البريطاني دونالد ماكويني أن يعرّفهما على بعض. أخبره بيكيت أنه سيأتي قبل بدء البروفة الأخيرة، وبعد ذلك سيغادر على الفور إلى باريس، لأنه لن يحضر في ليلة الافتتاح. قال ماكغوران إنه «كان غارقاً في صمته بشكل يثير الشفقة»، وإن بيكيت «كان صامتًا بنفس القدر لأنه كان خجولًا. كان الأمر هكذا حتى أدركت أن الصمت كان صفة ملازمة له، في الحياة كما هي في الأدب. اندفعت لأقول شيئًا ما حول مباراة في لعبة الركبي فانتفض فجأة وقد عاد إليه الحماس، وقال نعم، يا لها من مباراة رائعة. ثم بدأنا نتحدث عن لعبة الركبي ولعبة الكريكيت وسباق الدراجات الذي يستغرق ستة أيام – فجأة بدأنا نتحدث دون توقف، وكنت أعرف جيداً طريقة كلام سكان دبلن والتعابير التي يستخدمونها. سألته عن أصوله الأيرلندية، وعلمنا أن كلاً منا ولد ونشأ في مكانين مختلفين ولكن كانا يبعدان ثلاثة أميال عن ضاحية فوكسروك. ساهمت طبيعة إيقاعات مكان الولادة، والتضاريس التي أحببناها، والشخصيات التي عرفناها – جميعاً في نشوء صداقة عميقة، ولم تكن هذه سوى البداية للقاءات كثيرة».

كان كلا الرجلين من الأنجلو آيرلنديين البروتستانت ومن عائلات كانت أعلى قليلاً في الدرجة الاجتماعية الأيرلندية من الطبقة المتوسطة العليا. كان أبواهما ودودين ومخلصين مع أصدقائهما، وكان مصدر المتعة في حياتهما والدتيهما، فقد كانتا منضبطتين إلى أقصى حد تحافظان على منزليهما نظيفين، وتقيمان حفلات شاي رسمية (ومملة) بكل إتقان، وتحرصان على الذهاب إلى الكنيسة الأنجليكانية كل يوم أحد، وكانتا ترتديان بدلات غير مريحة وقمصاناً ذات ياقات تثير الحكة في الجلد.

كانت ضاحية فوكسروك تمثل أيضًا المدخل المؤدي إلى تلال ويكلو، حيث كان كلا الرجلين يستكشفانها عندما كانا صبيين. وبينما كان جاك يصف المناظر الطبيعية فيها، مستذكراً بين الحين والآخر علامة موجودة فيها مثل نصب تذكاري أو علامة مميزة على الطريق، وجدت نفسي أقفز لأقول: «لكن هذا موجود في...». وأذكر له اسماً تلو الآخر لروايات كتبها بيكيت ويؤيدني جاك قائلاً «نعم نعم!»، ويقفز من كرسيه الخشبي الصلب ليمد يده نحوي ويصافحني برفق ليعلن اتفاقنا. لقد فتنني بطريقة تقليده لشخصيات دبلن، الأشخاص الحقيقيين الذين لم يخفهم بيكيت كثيراً في رواية مورفي، وكان الكثير منهم غاضبين من تصوير بيكيت لهم لدرجة أنهم رفضوا التحدث معه لسنوات بعد نشر روايته. أخبرني جاك أن أجهز نفسي لمشاهدة بيكيت وهو يقلدهم حرفياً عندما أتحدث معه، لأن بيكيت كان موهوباً في التقليد.

واستمر في حديثه لفترة طويلة، يخبرني بما يمكن أن أتوقعه عن طبيعة شخصية بيكيت، وقد ولّدت عندي الأشياء التي أخبرني بها شعورين متناقضين. من ناحية، لم أعد أستطيع الانتظار حتى موعد وصولي إلى باريس لأتكلم مع بيكيت، لكن من ناحية أخرى، شعرت بالرعب لأنني كنت على وشك القيام بمشروع كان يفوق طاقتي ويتجاوز قدراتي. وهكذا وقبل كتابة كلمة واحدة، كنت قلقة بشأن الكيفية التي سأتطرق فيها إلى ما هو شخصي في كتاب سيصبح وثيقة سيطلع عليها الناس وبدت كأنها مقدر لها الكشف عن الكثير من الأشياء الشخصية للغاية.

كان بإمكاننا مواصلة الحديث طوال الليل، وكنت متأكدة من ذلك، وكنا على ما يرام ونحن في ساعتنا الثانية عندما جاءت غلوريا لتخبرنا أنه علينا

إنهاء المحادثة. كانت هذه أول محادثة عادية قليلة ومقابلة رسمية أجريتها مع جاك خلال الأشهر التي سبقت رحلتي الأولى إلى باريس وأجريت غيرها عدة مرات بعد ذلك. عندما توفي في 30 كانون الثاني 1973، فقدت صديقًا عزيزًا، وأنا ممتنّة له إلى الأبد على كشفه للوقائع المادية لحياة بيكيت في أيرلندا وعلى الطريقة التي أرشدني بها إلى الأسلوب الذي نقل فيه بيكيت ذكرياته إلى أعماله.

في صيف عام 1971 قابلت عن طريق جاك يونتيريكر شخصاً آخر كان صديقًا لبيكيت، وهو الكاتب جون كوبلر. وكانا قد التقيا عندما أرسلت إحدى المجلات كوبلر إلى باريس لكتابة لمحة تعريفية عن «الكاتب الأيرلندي المنعزل»، وكان مما يقربهما من بعض ما اعتقده كوبلر من أنه حب مشترك للويسكي الأيرلندي المشهور من علامة بوشميلز. عندما أخبر جاك يونتيريكر الكاتب جون كوبلر أنني في طريقي إلى باريس، اتصل بي هاتفياً ليطلب مني الحضور إلى شقته في شارع ويست أيتي فيفث، لأنه أراد مني أن أحمل هديةً منه إلى بيكيت لم تكن لدي أي فكرة عن طبيعة المهمة التي سأقوم بها، لكنني كنت متحمسة للقاء أي شخص يعرف بيكيت، لذلك ذهبت بالطبع. شحب وجهي عندما رأيت الهدية، كانت عبارة عن زجاجتين كبيرتين من الويسكي الأيرلندي من علامة بوشميلز كان كوبلر يأمل أن أضعهما مع أمتعتي. لقد استأت من موقفه مني الذي يشير إلى أنني لم أكن بالنسبة إليه سوى مجرد فتاة توصيل ولكن شعرت أنه ليس لدي خيار سوى أخذهما، خصوصاً أن كوبلر سبق له أن بعث رسالة إلى بيكيت يخبره فيها أن الزجاجتين في طريقهما إليه.

كان هذا هو أول لقاء لي مع كوبلر، الذي كان لديه مراسلات مهمة مع بيكيت بالإضافة إلى الصور والذكريات المشتركة والملاحظات التي كتبها للعديد من مشاريع الكتابة التي كان ينوي القيام بها ولكن لم تتحقق على أرض الواقع. كان كوبلر حينها يكتب سيرة آل كابوني، لذلك كان من المجازفة دائمًا أن يسمح لشخص بدخول شقته ومشاهدته وهو منغمس في العمل في جعل احتياطاته الأمنية السرية متقنة إلى حد بعيد، لأنه كان على يقين من أن رجال العصابات كانوا على استعداد لارتكاب جرائم بشعة ضده

إذا ما قام بكتابة شيء لم يعجبهم. أتمنى لو أنني أوليت المزيد من الاهتمام لما اعتقدت أنه سلوك سخيف. ربما تعلمت شيئًا مفيدًا لكتابي الخاص بآل كابوني الذي نشرته بعد عدة سنوات.

في الفترة التي سبقت رحيلي إلى باريس، ساهم كوبلر بشيء وجدته مهمًا حول شخصية بيكيت عندما كشف عن حقيقة مهمة حول صداقاته – وكيف كان بيكيت يصنفها. عاش كوبلر في شارع ويست إيت فيفث وعاش جورج ريفي (شاعر أيرلندي والوكيل الأدبي لبيكيت – م) في شارع إيست إيت فيفث. كان كل واحد منهما يعرف الآخر، وكان كل واحد منهما يتوق لأن يجتمع مع الآخر. لقد صعقت من هول المفاجأة عندما أخبراني أنهما لم يلتقيا قط، وعرضت أن أعرفهما بعضهما إلى بعض. وعلى الفور رفض كلاهما. لو أراد بيكيت أن يجتمعا، لكان قد قدمهما بعضهما لبعض في عدة مناسبات عندما كانا في باريس في نفس الوقت. لم يتمكنا من التفكير في أن يجتمعا دون (ما أطلقا عليه) «مباركة سام (الاسم الأول لبيكيت، صامويل – م)».

وهكذا، ذهبت في أواخر خريف عام 1971، إلى لقائي الأول مع صامويل بيكيت. شعرت بقدر كبير من القلق بشأن ضخامة العمل الذي أخذت على عاتقي القيام به بقدر ما كانت تشتد بي الرغبة في البدء فيه. امتلأت حقائبي بلوازمي الخاصة بالإضافة إلى الزجاجتين الثقيلتين من الويسكي اللتين أرسلهما كوبلر معي، وكنت ممتنة للسفر مع صديقتي نانسي ماكنايت، التي تحملت بسخاء حمل بعض حقائبي. وصلنا إلى فندق دو دانوب في السادس من تشرين الثاني، وقمت بعد ذلك مباشرة، بمحاولة الاتصال بصامويل بيكيت، وكان يبدو أنه قد اختفى.

حلّ اليوم الذي تقرر فيه موعد لقائنا وهو السابع من تشرين الثاني وانتهى، ولم تصلني منه أية كلمة، ومع مرور الأيام بدأت لا أعرف ما إذا كان يجب أن أغضب أو أنزعج أو أقلق. يا ترى أين يكون هذا الشخص، وما هذا المزاح القاسي، أن يجعلني آتي إلى باريس على وعد بمقابلته لمناقشة سيرة حياته، ثم يتركني عالقة؟ بعد أن أنهت نانسي عملها في باريس، غادرت إلى لندن وبقيت وحدي. كان الوقت يمر وكان ما معي من نقود على وشك أن ينفد،

إذا لم يتصل بيكيت بي قريبًا فيبدو أن مهنتي الجديدة ككاتبة سيرة ستنتهي قبل أن تبدأ. ومع ذلك، كان عليّ أن أفعل عدة أشياء قبل أن أستسلم كليًا، لذلك بدأت العمل.

الفصل الرابع

مرّت تلك الأيام العشرة في انتظار لقائي الأول مع بيكيت وأنا في حالة من العذاب فقد كانت تمضي ببطء شديد. ولا يبدو على ما أتذكر أنني ابتعدت عن استعلامات الفندق، حيث سرعان ما تعلمت موظفة الاستقبال أن تجيب عن تساؤلي عن طريق هز رأسها. كلا، مدام بير، لم يتصل بك أحد هاتفياً، وليس هناك برقيات، ولا رسائل. ألقى هذا الانتظار القلق بظلاله على كل الذكريات الأخرى عن تلك الأيام، لكني في الواقع تمكنت من القيام ببعض الأعمال المهمة لأجمع كل أنواع المعلومات عن بيكيت عندما انطلقت للقاء ومقابلة أصدقائه. لم أكن أعرف أن أصدقاءه يريدون أيضًا معرفة جميع أنواع المعلومات، ليس عني فقط ولكن أيضًا عن بيكيت.

نصحني كارل براندت أن أقابل ماري كلينج التي تعمل في الوكالة الأدبية الفرنسية لا نوفيلا، والتي ستصبح وكيلتي الأدبية الفرنسية التي ستساعدني في بيع الكتاب في أوروبا بعد نشره. وقد أصبحت أيضًا صديقة جيدة لي ساعدتني في معرفة الأشياء الفرنسية الجميلة والقبيحة. إلى جانب تقديمي إلى العديد من الأشخاص المهمين في عالم النشر الفرنسي ممن كانوا مهتمين بمشروعي، فقد رتبت أول لقاء لي مع جيروم ليندون، ناشر مؤلفات بيكيت لفترة طويلة في دار النشر الفرنسية Les Éditions de Minuit. وعند موعد اللقاء الأول ذهبت إلى مكتب ليندون على أمل إجراء مقابلة رسمية معه، خططت خلالها لطرح أسئلة بسيطة تتيح لي إقامة علاقة جيدة معه تسمح لي فيما بعد بطرح أسئلة أكثر جوهرية. أردت أن أبدأ بأسئلة من قبيل كيف تعرف ليندون على كتابات بيكيت، وماذا حدث في لقائهما الأول – وكل أنواع الأسئلة العامة. لكنني لم أسأل مطلقًا أي شيء من هذا القبيل،

لأن ليندون هيمن على المحادثة بأسئلته الخاصة. أراد أن يعرف من أكون أنا، ومن أين جاءتني الجرأة لأتوقع أن يقوم أصدقاء بيكيت بإخبار شخص عرفوه لتوهم بكل ما يعرفونه عن بيكيت؟ لم أفكر في أن أحضر معي رسالة بيكيت التي يدعوني فيها إلى باريس، وذلك لأنني لم أكن أتخيل أن أحداً سيطالبني بإثبات حسن نيتي.

كان ليندون الأول في القائمة التي وضعتها لأصدقاء بيكيت لأنني اعتقدت أنه إذا كان هناك من يستطيع أن يخبرني أين كان بيكيت ولماذا اختفى بشكل غامض، فسيكون هو. لكن ليندون لم يكن يعرف حتى أن بيكيت كان غائبًا، لأن صداقتهما انتقلت إلى مرحلة كانا نادراً ما يلتقيان خلالها في مناسبات اجتماعية ويتواصلان عبر الهاتف عندما يكون لديهما عمل يريدان مناقشته. منحه بحثي عن بيكيت الفرصة للإصرار على رأيه بأنه يجب ألا يتحدث معي؛ فإذا كان بيكيت على استعداد لمقابلتي، فلماذا رحل دون أن يخبرني أين هو؟ لم يكن لدي أي جواب سوى أن أقول إنني كنت آمل أن أتمكن أنا وليندون من الاجتماع مرة أخرى بعد أن يتحدث إلى بيكيت ويتأكد من سماحه لي بالكتابة عن حياته. في النهاية، تقبّل إجاباتي ووافق على أن نلتقي مرة أخرى، عندما يتمكن من الوصول إلى ملفاته وصوره. افترقنا بكل ود واحترام وشعرت بأنني أنجزت شيئًا مهمًا.

كما رتبت ماري كلينج أيضاً لقاء لي مع دنيس روش، الشاعر والمحرر حينها في دار النشر الفرنسية Éditions du Seuil. أخبرني روش في غضون دقائق من جلوسي في مكتبه، أنه لا يستطيع نشر كتابي لأنه كان «قريبًا جدًا من سام» إلى درجة أنه لن يكون مرتاحًا من قراءة أسرار عن حياة صديقه. لقد تساءلت عن سبب إزعاج نفسه بمقابلتي إذا كان يشعر هكذا، لكنني أخبرته أن الأمور تجري على ما يرام معي لأن لدي مواعيد مع اثنين من الناشرين الآخرين في وقت لاحق من الأسبوع. كنت أجمع أغراضي وأستعد للمغادرة عندما بدأ الحديث، أو بالأحرى بدأ يطرح عليّ بعض الأسئلة. لم أستطع تحديد ما إذا كان يحاول مساعدتي من خلال اقتراحه لي أن أقابل بعض الأشخاص أو كان لديه سبب آخر تمامًا – أنه يريد مني أن أخبره بكل ما أعرفه عن «صديقه المقرب سام». اعتقدت أنه من غير المألوف أنه يحتاج

إلى أن يسألني مثل هذه الأسئلة الجوهرية، لكنني تمكنت من القول بصدق إنني لا أستطيع الإجابة على معظمها، خصوصاً أنني كنت في بداية بحثي.

سألني روش عما إذا كنت إلى الآن لم أتحدث مع أ. ج. «كون» ليفينثال، الشخص الأيرلندي الذي يعيش في باريس والذي كان صديقًا قديمًا ومقربًا من سام. أخبرته أن ليفينثال كان على رأس قائمة من أخطط لمقابلتهم من أصدقاء السيد بيكيت. (طوال جميع السنوات التي عرفت فيها بيكيت، كنت أخاطبه دائمًا بعبارة «السيد بيكيت» وكان يخاطبني «السيدة بير» عندما نكون معًا، أو مجرد «بيكيت» عندما أتحدث عنه مع الآخرين. لم أدعه قط باسم «سام»، وكما علمت على مر السنين، كان هناك عدد قليل من الذين فعلوا ذلك دون أن يكون معهم الحق في ادعاء أنهم كانوا قريبين منه للغاية حتى ينادوه بهذا الاسم.) ذكر روش أسماء أخرى كنت أعرفها بالفعل، بما في ذلك مان راي وماريا جولاس، أرملة الناشر يوجين جولاس، الذي كان يعرف بيكيت منذ أيامه الأولى في باريس، عندما كان ضمن دائرة أصدقاء جيمس جويس. كان هناك اسم لم أكن قد سمعت به من قبل، جورج بيلورسون، شعرت بالحيرة، قبل أن يضيف روش أنني ربما كنت أعرفه باسم الناشر جورج بلمونت، الذي غير اسمه بعد الحرب بسبب ماضيه المشبوه أثناء الاحتلال النازي. نعم كان بلمونت في قائمتي أيضاً. واصلنا مناقشة هذه الأسماء وغيرها لأكثر من ساعة، ولكن استغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك أنني كنت أتعرض إلى استجواب بشكل جدي للحصول على معلومات حول معرفتي بحلقة الأشخاص الذين يحيطون ببيكيت. وعندما انتهى اللقاء، طلب روش مني تحديد موعد على الغداء لوقت لاحق، قائلًا إنه سيكون من الجيد أن نجتمع معًا بعد أن أكون قد تحدثت مع بيكيت وجميع الأشخاص المدرجين في قائمتي حتى يتمكن من «تقديم المشورة» بشأن ما عرفته منهم. هز رأسه في أسف حقيقي وهو يكرر اعتذاره لأنه لا يستطيع أن يقوم بنفسه بتحرير سيرة حياة صديقه، لكنه كان يأمل أنني سأخبره بما سيقوله الآخرون عن «سام».

كان هذا مثالًا آخر على تصنيف بيكيت للأشخاص الذين يعرفهم. في الواقع، كان لديه العديد من الأصدقاء، لكن معظمهم لم يكن يعرف بعضهم

بعضاً ولم يكن يفترض أن تكون هناك صحبة بينهم، علاوة على الصداقة، ما لم يكن يسمح بذلك. ووجدت أنه من المزعج إلى حد كبير أن كل هؤلاء الناس توقعوا مني أن أكون الوسيلة للحصول على معلومات عنه والتي من دونها لن يعرفوا شيئاً منها. شعرت، من خلال توقعي أنني سأكون وسيطًا بينهم وبين بيكيت، أنهم يضعونني في مكان لا يناسبني حيث سأكون راوية للحكايات، وأثرثر بالكلام الفارغ. ولم أكن أرغب في أن أكون كذلك. وكوني كنت مراسلة صحفية، لم يسبق لي أن كشفت أو خنت مصدرًا من مصادر معلوماتي، وبعد أن بدأت أصبح كاتبة سيرة تتطور بسرعة، لم أكن أفكر في الخوض في ذلك.

بعد ذلك قمت بزيارة إلى أ. ج. «كون» ليفينثال، وهو ناقد وباحث انتقل إلى باريس من دبلن بعد تقاعده حيث كان يلقي محاضرات في اللغة الفرنسية في كلية ترينيتي في دبلن. لقد سمعت عدة أقاويل عنه منها الإيجابية («إنه صديق قديم وموثوق به لبيكيت وكان يقدم له دائمًا الدعم خلال سنوات العوز التي عاشها، عندما لم يوافق أحد على نشر كتبه») ومنها غير اللطيفة («إنه من يقدم له بيكيت معوناته الخيرية؛ كان بيكيت يشفق عليه بسبب فقره ويسمح له بوصف نفسه على أنه سكرتيره حتى يتمكن من المساهمة في دعمه مالياً» لم أكن أعلم أن زوجة ليفينثال الراحلة كانت إيثنا مكارثي، وهي امرأة في غاية الجمال ومفعمة بالحيوية كان بيكيت معجباً بها بشدة عندما كانا طالبين في كلية ترينيتي. ومع ذلك، كان هذا كل ما أعرفه، ومرة أخرى، كان ذلك من ضمن الشائعات المتداولة في دبلن وكانت بحاجة إلى التحقق من صحتها.

قابلت ليفينثال في شقته الواسعة في شارع مونبارناس التي كان يتشاركها مع شريكه ماريون لي. لم تكن شقة شخص حظه متعثر بل كانت على العكس من ذلك، منزلاً فسيحاً ومريحاً، تعرفت عليه جيدًا على مر السنين حيث تولى ليفينثال دور الوسيط الذي يحمل لي المعلومات من بيكيت، قائلاً لي كل الأشياء التي أراد بيكيت أن أعرفها لكنه لم يرغب في أن يقولها لي مباشرة. سيستغرق الأمر مني عدة أشهر إلى أن أكتشف أن هذه هي اللعبة التي لعبها الاثنان معي.

لم يكن عليّ أن أشرح شيئاً لليفينثال، لأن بيكيت كان قد أخطره بأنني

قادمة إلى باريس، وأنه يجب أن يستقبلني إذا طلبت رؤيته. كشف ليفينثال عن أنه يمتلك روح الدعابة الخرقاء، عندما قال بلهجة غير جادة إنه يريد أن يرى بنفسه المرأة الأمريكية التي اعتقدت أنه سيسمح لها بالدخول إلى «حرم سام المقدس». عندما أخبرني أنه كان متلهفاً إلى معرفة ما كنت أتمنى تحقيقه، بدأت غريزتي كمراسلة صحفية تعمل، وأصبحت حذرة للغاية بشأن ما أقوله. لم أكن على استعداد للكشف عن أي شيء دون الحصول على شيء في المقابل، لذلك فعلت ما يفعله الصحفيون الجيدون دائمًا: سألت كون ليفينثال مباشرة أين ذهب بيكيت، ولماذا. فأخبرني بما حصل.

لقد تعرض بيكيت إلى هجوم بفيروس وإنفلونزا والتهاب في القصبات الهوائية – ولم يكن كون يعرف أي منهما أصابه – لكنه لم يستطع الشفاء منها وكانت سوزان، زوجته، قلقة للغاية. ففضلت الذهاب إلى فندق صغير في تونس لا يرتاده السائحون عادة حيث كانا فيه عندما تلقى بيكيت المكالمة الهاتفية التي أخبرته أنه قد فاز بجائزة نوبل. لقد تولت زوجته مسؤولية ترتيبات السفر وغادرا فجأة. اعتقدت سوزان أنها ألغت جميع مواعيد زوجها. لسوء الحظ، نسيت إلغاء موعده معي – هذا إذا كانت على علم به.

شعرت براحة كبيرة بعد أن أخبرني كون لماذا غادر بيكيت باريس وإلى أين – فهو على الأقل لم يكن يلعب تلك اللعبة القاسية معي بعد – لكن الحقيقة أثارت عددًا من التساؤلات المحيرة بالنسبة إلي. ربما كانت لديه نية لمقابلتي بعد عودته، ولكن متى سيكون ذلك؟ كم من الوقت يمكنني البقاء لانتظاره؟ بدأت الأفكار تتسارع في ذهني. لم يتبق لي سوى القليل من الأموال التي خصصتها لرحلة باريس، وما زلت بحاجة للذهاب إلى لندن ودبلن للوفاء بالالتزامات التي قمت بترتيبها. لم أستطع الانتظار إلى أجل غير مسمى.

ثم انحرفت أفكاري عن هذه الأمور الخطيرة إلى قضية سخيفة، فقلت فجأة، «لدي زجاجتان من الويسكي مرسلة إلى بيكيت. هل يمكنني أن أجلبهما لك لتحتفظ بهما لأجله؟» ضحك كون بصوت عال لدرجة أن ماريون جاءت من المطبخ لتسأل ما هو هذا الشيء المضحك. دون أن أضطر إلى إخباره، كان يعرف لمن تعود زجاجتا الويسكي التي كنت أحملهما.

حينها قال كون: «لقد قام كوبلر بتكليف ديردر بمهمة نقل زجاجتي ويسكي إلى بيكيت. هل يجب أن آخذهما منها؟» كانت ماريون امرأة قوية ذات قناعات راسخة ولم تتردد في التعبير عن رأيها، وقالت في الحال: «بالتأكيد لا». كانوا يعرفون أنها خدعة قديمة من كوبلر للعثور على شخص ينقل الخمور، كما أنهم كانوا يعرفون أن بيكيت لن يتمكن من أن يحضر نفسه ليخبره أنه قد توقف عن شرب الكحول بسبب إصابته بأمراض جسدية مختلفة. إلى جانب ذلك، لم يكن شراب الويسكي علامة بوشميلز النوع المفضل لديه، لذلك كان دائمًا ما كان يهبه لشخص ما..

أصبح التخلص من زجاجتي الويسكي إحدى أولوياتي الرئيسية. أدركت أنه لا يمكنني القيام بشيء غير منطقي مثل أن أتركهما في فندق دو دانوب وأطلب من بيكيت أن يأخذهما في أقرب وقت ممكن. وسبق أن أخبرتني ماري كلينغ أنها لن يكون لها دور في مساعدتي على إيصالهما إليه، وطلبت مني عدم إرسالهما عبر البريد. وحثتني بشدة على عدم إشراك نفسي في تقديم المزيد من الخدمات لمصلحة أي شخص. كنت أشعر بالارتباك بسبب رفض ليفينثال حتى أشار إلى أحد أصدقاء بيكيت، وهو أفيغدور أريخا، وكان على يقين أنه سيقبل أن يأخذهما.

لم أكن أعرف ذلك الفنان الإسرائيلي المولود في رومانيا حتى طلب مني كون ليفينثال تحديد موعد معه في نفس الوقت الذي ألقى فيه الشكوك على قرب أريخا من بيكيت. وقال إنه يجب ألا أطلب من أريخا مسبقًا ما إذا كان سيأخذ الويسكي ولكن أطلب منه فقط أن يصطحبني معه، لأنه يعلم أن أريخا سوف يغتنم أي فرصة ليكون في صحبة بيكيت. كان هذا واحداً من أول الأمثلة التي حصلت عليها عن أنواع أفعال الغيبة الوضيعة التي كان أصدقاء بيكيت يمارسونها بعضهم بحق بعض أحياناً في خضم تنافسهم على أن يكونوا مقربين منه.

لكن أريخا لم يتم شطبه من حلقة الأشخاص المقربين من بيكيت كما اعتقد ليفينثال. كان هو وزوجته، آن، الشخصين الوحيدين اللذين عرفا أنني كنت في باريس على وجه التحديد لمقابلة بيكيت، الأمر الذي ما كان يمكن أن يعلمه أحد إلا من بيكيت مباشرة. كما اكتشفت، أنهما كانا يعرفان مكانه

أيضًا. كانت آن امرأة أمريكية هادئة، وكان بيكيت مولعاً بها للغاية. تشاركا حب الموسيقى وكانا يقومان في بعض الأحيان بعزف ثنائي على آلة البيانو. والمثير للدهشة، أن بيكيت الذي لم يكن يرتاح دائمًا للأطفال، كان يحب أطفالهما ويتصرف باسترخاء عندما يزورهم وهم يلعبون من حوله.

أما بالنسبة لزوجها، فكان لدي انطباع بأن أفيغدور اعتقد أن لجوئي إليه كان نوعاً من التبجيل له أو طلباً لموافقته. لقد اعتبرته شخصاً مغروراً عندما أخبرني بفخر أنه أطلق على نفسه اسم «شرطي سام». أخبرني أنه يتطلع إلى إرسال انطباعاته عني إلى بيكيت فور عودته. وبحياء مصطنع لم يخبرني ماذا ستكون هذه الانطباعات. كان ليفينثال على صواب بشأن الويسكي: عندما كشفت عن أمر زجاجتي الويسكي، قال أفيغدور إنه بالطبع سيخبر بيكيت بأنه يملكهما، ثم يقوم بيكيت بتكليفه بتحديد إلى من يجب إعطاؤهما، وبذلك اتضح كما كرر ذلك مرة أخرى، أنه كان «شرطي سام».

ساعدتني آن في حل معضلتي اللوجستية عندما أخبرتني أنها قد استلمت للتو بطاقة بريدية من بيكيت يقول فيها إنه سيبقى في تونس لمدة أسبوع أو عشرة أيام على الأقل. كان ذلك في الثامن من تشرين الثاني، ولم يكن من المتوقع أن يعود إلى باريس قبل السادس عشر من الشهر على أقرب تقدير. أخيراً أصبح عندي شيء ملموس يساعدني على أن أقرر ما يجب القيام به. على الرغم من أنني شعرت بخيبة أمل كبيرة لأني اعتقدت أنني سأعود إلى وطني دون مقابلة بيكيت، فقد قررت مغادرة باريس والذهاب إلى دبلن أو لندن – لم أكن قد قررت بعد.

تركت ملاحظة إلى بيكيت قبل مغادرتي لأبلغه أنني سوف أذهب إلى لندن ودبلن وأنني آمل أن أسمع منه قريباً شيئاً عن إمكانية أن نلتقي في المستقبل. في غضون ذلك، واصلت إجراء المقابلات. كنت أنوي إدراج بعض ما حصلت عليه من معلومات في هذه الرحلة في أطروحتي، حيث لا يزال هناك وقت قبل تقديمها النهائي في شباط 1972. كما أخبرت بيكيت أنني سأحاول أيضًا إقناع مؤسسة دانفورث بتمويل رحلة عودتي إلى باريس بحيث أتمكن من أن أريه طلب التمويل وأطلب منه تأكيد صحته.

عندما أسترجع الآن تلك السنوات، فإنها تبدو كأنها سنوات العصر الذهبي للسفر بالطائرات، حيث يمكن إجراء الحجوزات وتغييرها دون دفع غرامة، يمكن للمرء الحصول على وكيل سفر يحجز له مقعدًا على الرحلة 800 لشركة طيران بـ TWA الأمريكية من نيويورك إلى باريس ذهابًا وإيابًا بمبلغ قدره 325 دولارًا، لكن هذا الرقم لم يعد موجوداً مع الأسف بعدما سقطت إحدى الطائرات من السماء بعد بضع سنوات. كما كان يحق للمسافرين إلى أوروبا التوقف في كل اتجاه، لكن وكيل السفر الممتاز الذي تعاملت معه دبر لي الأمر حتى يتسنى لي هذه المرة التوقف في كل من لندن ودبلن وأنا في طريق عودتي إلى المنزل.

أصبحت لندن محطة مهمة للغاية في إجراء بحثي، لأنني قابلت اثنين من أصدقاء بيكيت الذين أصبحوا أصدقاء مقربين لي. كان الشاعر الأيرلندي العظيم براين كوفي صديق بيكيت منذ أيام دراسته الجامعية. كان هو وزوجته، بريدجيت، وعدد لا بأس به من أطفالهم التسعة يبذلون أقصى جهدهم لتقديم أصول الضيافة الكريمة منذ تلك الرحلة الأولى واستمروا على هذا المنوال لسنوات بعد ذلك، وفي كل مرة كنت أحاول العودة كان لا بد أن يكون أحد الأطفال في الولايات المتحدة. بعد عدة سنوات، عندما ألفت كتاباً يتناول سيرة حياة العالم النمساوي كارل يونغ، كم كنت أتمنى لو أني عرفت من قبل بريدجيت الابنة الكبرى للطبيب هيلتون باينز الصديق الحميم لكارل يونغ، لكنني لم أعرفها إلا في سنوات انشغالي بسيرة حياة بيكيت، كانت فنانة رائعة وزوجة لطيفة وأماً محبوبة. وأصبح براين، في تلك الأثناء، أحد المستشارين الأكثر ثقة. لقد كان صديقاً مخلصاً لي ولبيكيت وكان كذلك مستودعًا نشطاً لتاريخ الأدب والحضارة الأيرلندية. إذا كان هناك ثراء في الجانب الأيرلندي من سيرة حياة بيكيت، فإن الفضل في معظمه يعود إلى براين.

كان جيمس ستيرن هو الشخص الآخر الذي اتصلت به في هذه الرحلة البحثية الأولى إلى إنجلترا. كان يعرف بيكيت منذ سنواته الأولى في باريس، عندما كان هو وبيكيت عضوين في حلقة جويس الأدبية. كان جيمي صحفيًا وكاتبًا، وأصبح هو وزوجته تانيا مقربين من بيكيت عندما كانوا في ألمانيا في نفس الوقت في سنوات الثلاثينيات. استمرت صداقتهم، وكلما كان بيكيت

يحلّ في إنجلترا، كان يرسل لهما تذاكر لجميع مسرحياته ويدعوهما لتناول العشاء معه على انفراد. كانت أهمية مساهمتهما في كتابي بنفس أهمية مساهمة براين كوفي.

كنت أعلم أنه كان عليّ إجراء مقابلات مع العديد من الأشخاص الآخرين في لندن الذين كان لهم دور في حياة بيكيت وعمله، لكن كان يجب علي أن أتريث حتى أصبح أكثر دراية بالأدوار التي لعبوها. كان هناك سبب مهم بنفس القدر يمنعني من المضي قدماً يتعلق بمسألة لوجستية: فالمال الذي كان بحوزتي كان قليلًا لا يكفيني إذا أردت الذهاب إلى دبلن.

عندما استرجعت بعض الملاحظات التي أخذتها عندما غادرت باريس دون أن أرى بيكيت، وجدت أنني لم أكن في مزاج أفضل أو أكثر إيجابية عندما هبطت في دبلن. لقد عملت بجد ورأيت العديد من الأشخاص المختلفين الذين أغنت ذكرياتهم وقصصهم عملي في كتابة السيرة، لكن بالعودة إلى الماضي كان لديّ ما أقوله عن الأجواء التي وجدت نفسي فيها أكثر من الأشياء التي تعلمتها. لقد اكتشفت في النهاية أن الكثير مما أخبرني به أولئك الأشخاص لم يكن سوى ثرثرة مجردة تماماً. ومع ذلك، كان هناك ما يكفي من الحقيقة الواقعية في بعض من تلك «الثرثرة المفيدة» التي تمكنت من خلالها من تجميع قوائم طويلة من الموضوعات للتحقيق فيها وأسماء عدد من الأشخاص لإجراء مقابلات معهم في رحلات لاحقة ساقوم بها إلى أيرلندا وأماكن أخرى.

في هذه الإقامة القصيرة الأولى، ركزت على من اعتقدت أنهم الأكثر أهمية، وهذا يعني البدء بأفراد عائلة بيكيت. كانت ابنة أخيه، كارولين بيكيت مورفي هي الأولى. أخبرها عمها بطريقة مثالية، أن الأمر يعود إليها لتقرر أن تقابلني أو لا، كحاله عندما قال لي إنه «لن يساعدني ولن يعيقني». كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها التعبير الذي سيحدد مسار الكتاب الذي سأقوم بتأليفه، كان بيكيت يكرر ذلك لأي شخص طلب إذنه للتحدث معي. قابلت السيدة مورفي في قرية شاتوري، في المنزل الذي ورثته عن والديها، حيث نشأت وترعرعت وكانت تربي فيه أولادها. لقد كانت كريمة معي وأطلعتني على تاريخ العائلة، كما هو حال أبناء عمومة بيكيت، عاشت

آن بيكيت، بعيدًا في قرية هوث التي كانت تذريها الرياح، وهي جزء من دبلن التي بدأت أحبها، وشقيقها، جون، الذي أخبرني على الرغم من الوهن الذي أصابه بسبب كبر سنه ببعض القصص الرائعة. أما هيلاري هيرون جرين، ابنة عمها التي كانت قريبة إلى والدة بيكيت في سنواتها الأخيرة، فقد أرتني الأوعية النحاسية الفاخرة التي أورثتها لها ماري بيكيت. لقد أحبوا جميعًا «سام»، على الرغم من أنه كان يبدو عليهم جميعًا أنهم يتطلعون إليّ لإخبارهم كيف يجب عليهم تفسير سلوكه كصبي وكيف عليهم أن يدركوا حقيقة الرجل الذي أصبح عليه فيما بعد.

حين بدأت أشعر بالدوار، قررت أن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل. غادرت أيرلندا وأنا أحمل معي أكواماً من المقابلات المسجلة على شريط كاسيت، والعديد من دفاتر الملاحظات المملوءة بأفكار عن طبيعة بحوثي في المستقبل، ومجموعة كبيرة من الملفات المليئة بالصور العائلية والوثائق المتعلقة بسنوات تعليم بيكيت وأنشطته وعضويته في اتحادات تلاميذ المدارس. عدت وأنا راضية كوني أحرزت الكثير من التقدم في عملي، ولكني كنت حزينة لأنني حققت كل شيء ما عدا الغرض الرئيسي الذي ذهبت لأجله وهو مقابلة صامويل بيكيت.

في آخر يوم لي في دبلن، في الخامس عشر من تشرين الثاني، عندما كنت مشغولة للغاية بحزم حقائبي حيث لم يتبق لي كثير من الوقت، قررت أن أذهب إلى مكتب شركة أمريكان إكسبريس للخدمات المالية والبريدية لأرى ما إذا كان هناك احتمال أن تكون قد وصلتني رسالة ما. حتى يومنا هذا لا أعرف ما الذي جعلني أفعل ذلك. لقد صرفت منذ فترة طويلة آخر شيك سفر كان بحوزتي ولم أخبر أحداً أن يبعث لي رسائل على مكتب دبلن. حدث ما كان أصدقائي من أتباع العالم النفسي كارل يونغ يدعونه بالتخاطر. قال لي الموظف في المكتب: هناك واحدة فقط، وسلم لي مظروفًا صغيرًا بحجم بطاقة بريدية يحمل ختم بريد باريس وعليه كتابة بخط رفيع وبارز وقد عرفته في الحال. لقد كان من صامويل بيكيت.

عبّر بيكيت في رسالته عن أسفه الشديد لعدم تمكنه من الاتصال بي قبل وصولي إلى باريس، لكن «شيئاً غير متوقع» (لم يقل إنه مرض) قد حدث له

وتطلب منه «المغادرة». وقد أرسل خطابًا مشابهًا إلى مكتب شركة أمريكان إكسبريس في لندن، وأعرب عن أمله في أن أتلقى واحداً منهما على الأقل. وقال إنه سيكون ممتنًا للغاية لو تمكنت من العودة إلى باريس، حيث سيكون سعيدًا برؤيتي في أقرب وقت ممكن.

وبطبيعة الحال، تركت كل شيء وذهبت.

الفصل الخامس

بعد أن أجريت مكالمة هاتفية سريعة مع زوجي تتعلق بترتيب عملية تحويل مبلغ من المال إلى باريس وأخرى مع شركة الطيران TWA لتغيير وجهة رحلتي، عدت إلى باريس في 16 تشرين الثاني، ونزلت مجدداً في فندق دو دانوب وقد نبّهني موظف الاستعلامات إلى أن سخّان الفندق كان عاطلًا لذا ربما ينبغي عليّ الذهاب إلى مكان آخر. أخبرته أنني يجب أن أبقى، لأني سأجري مقابلة مهمة بعد ظهر اليوم التالي. وهكذا، بدأت أنتظر من جديد لقائي الأول مع صامويل بيكيت. لقد سبق لي أن وصفت الاضطراب الذي أصابني والأجواء الصاخبة التي كانت سائدة على حد سواء (في حينها فقط). والآن حين أستذكر مدى الارتباك الذي شعرت به، أعتقد أن بيكيت كان على الأرجح مرتبكاً هو الآخر، حيث حاول كل منا جاهداً أن يريح الآخر. يخبرني الأصدقاء بأنني غالبًا ما أبذل قصارى جهدي في المناسبات الاجتماعية لأجعل الآخرين يشعرون بالراحة من خلال الحديث بلا انقطاع، وهذا بالضبط ما فعلته. اعتقدت أنه كان يبتسم حتى عندما لم يكن يقول شيئًا ويحدق بي فقط.

كنت على استعداد للبدء بما كنت آمل أن تكون المقابلة الأولى من بين العديد من المقابلات التي تتناول حياته، لكن في مواجهة صمته لم أستطع أن أقرر كيف أبدأ. بعد أن وصف نفسه بالمخادع وأجبته بأنني لست متأكدة من «أنني مؤهلة للخوض في كتابة سيرة حياته»، أخبرته أنه ربما يجب عليّ كتابة مقال طويل، نوع من الملف عن حياته الذي ستنشره مجلة النيويوركر بناءً على المعلومات التي حصلت عليها في لندن ودبلن. وفجأة رفع رأسه متسائلاً. «مع من تحدثت، وماذا علمت عني؟». اغتنمت الفرصة لأروي له

ما حدث منذ لحظة البداية، إلى أن وصل بي الحديث إلى جاك ماكغوران وكيف تأثرت بأدائه. ثم أخبرته في وقت لاحق في أحد أحاديثي العفوية عن زجاجتي الويسكي اللتين تنتظرانه عند أريخا. ضحك بصوت عال، وتغيرت سحنته بالكامل. ثم استرخى وكذلك فعلت أنا.

ابتسم عندما أخبرته عن زيارتي لكارولين بكيت ميرفي في منزل عائلتها. وقادني ذلك إلى مناقشة كيفية انجذابي إلى كتاباته من خلال حبي لرواية يوليسيس للكاتب جيمس جويس وكيف تعرفت بعد دراسة مكثفة للأدب والتاريخ الأيرلنديين، على العديد من الأشخاص والأماكن التي ذكرها في روايته. وأدى هذا إلى اهتمامي باستكشاف العلاقة بين عمله وحياته وإدراكي المفاجئ بأن الدراسة النقدية التي تعلمتها لن تكون كافية للقيام بذلك الاستكشاف.

حينها قال بيكيت إن هذا هو ما أثار اهتمامه في رسالتي في البداية، مسهباً في الحديث وكاشفاً عن أشياء ممتعة مما جعلني احتفظ بها بعناية لكي تفيدني في أبحاثي اللاحقة. من المعروف عن بيكيت أنه لم يقرأ أي شيء مكتوب عن عمله طوال سنوات عدة، ولكني في الواقع اكتشفت أنه كان يملك معلومات جيدة وكانت لديه آراء عميقة حول أغلب النقاشات النقدية التي تناولت أعماله. وعلى الرغم من كل ما كُتب عنه – ووصف النقاد له (وهنا استعار مني ما ذكرته في رسالتي الأولى) بأنه «شاعر الاغتراب والعزلة واليأس» – كنت الوحيدة التي أدركت أشياء لم ينتبه إليها الآخرون في كتاباته مثل تصويره لبعض شخصيات مدينة دبلن الشهيرة والأماكن الفعلية في تلال ويكلو، ومقاطعة كيلدير، ومدينة ليكسليب.

سألني بيكيت كيف كنت أنوي أن أكتب سيرة حياته؟ لم أكن مستعدة للإجابة. ومن دون تفكير مسبق انطلقت في الحديث عن عدة أفكار حول كيفية العمل معًا، وكان معظمها مستمداً من مهنتي كصحفية. وفقط بعد وقت طويل من ذلك، عندما قمت بتكوين صداقات مع كتاب سير آخرين وصفوا أوضاع عملهم المعذبة، أدركت مدى سذاجتي حين كنت أطلب ترتيبات في غاية التميز يمكن أن يرغب فيها أي كاتب. أخبرته أنني سأجري مقابلات رسمية لتقصي الحقائق مع الآخرين وكذلك معه، وأتوقع منه أن يجيب على

أسئلتي وأن يقدم توضيحات أو تصويبات أو تحسينات. وأني أتوقع أيضًا الحصول على أي وثائق قد أطلبها، مثل الرسائل والصور والمخطوطات. وأني أرغب في أن أقابل أفراد عائلته وأصدقاءه وشركاءه المحترفين، وآمل أن يطلب منهم التعاون معي. وخلصت إلى أنه من الأفضل ألا يقرأ ما كتبته عنه حتى يتم نشره.

وافق دون تردد. لم أفكر كثيرًا في استعداده للتعاون في ذلك الوقت. وحيث إنه لم تكن لدي أي فكرة عن كيفية كتابة السير، فقد افترضت أن كل ما طلبته هو الإجراءات المعتادة. قال لي: «وأنا عند كلمتي»، وكنت في منتهى السعادة عندما اعتقدت أن الأمور كلها سهلة وأن جميع الطرق باتت مفتوحة أمامي. لم يمض وقت طويل حتى فهمت سبب إبدائه تعاونه وأنه سعيد ولا يشعر بالقلق: أنه لم يكن يأخذني على محمل الجد.

علمت هذا بعد عام واحد، عندما كنت مجدداً في باريس. لقد صدمت خلال مأدبة عشاء حضرتها في منزل الفنان ستانلي ويليام هايتر وزوجته ديزيريه مورهيد، عندما عرض كون ليفينثال وماريون لي أن يكشفا لنا ما أخبرهما بيكيت عني بعد لقائنا الأول. وبعد أن استعان بكأس من النبيذ الجيد، قام كون بتقليد ما فعله بيكيت بكل نشاط وهو يلوح بيديه قائلاً، «يا إلهي، هذه المرأة لديها شعر مخطط!» كان يشير إلى ما كان يُعرف في تلك الأيام بعملية تشقير الشعر وتعرف الآن بالتلميع. كان مصفف الشعر شديد الحماس قد صنع خطوطًا كبيرة من اللون الأشقر البلاتيني في شعري البني الفاتح عادةً، والتي كانت بالفعل فاقعة وبدت وكأنها تحتاج وقتًا طويلاً لتنمو. عندما روى كون هذه القصة، اعتقدت أنه من الواضح أن صامويل بيكيت وجد كل شيء في شخصيتي أمراً مسلياً. فإذا كان لم يأخذ شخصيتي على محمل الجد، فبالتأكيد يكون لديه نفس الشعور حيال مشروعي للتأليف.

تطور ذهولي ببطء إلى شعور بالغضب. جلست خلال الفترة المتبقية من ذلك العشاء مبتسمة بينما كان الآخرون يسخرون من «الفتاة ذات الشعر المخطط» أو يحثونني على إخبارهم عن «كل ما تحدثت عنه أنت وسام» في لقاءاتنا. نعم، كنت مبتسمة، ولكن في أعماقي كنت مستاءة وبحاجة إلى استيعاب كل ذلك. ازدادت رغبتي في ترك آل هايترز وفضلت السير على

الأقدام في شارع دي فوجيرارد متجهة إلى شقتي المستأجرة. ربما اعتقد بيكيت أن أفضل ما استطعت أن أكونه هو صحفية تبحث عن الشهرة، من خلال البحث في السيرة المقدسة لـ «القديس سام، الطيب والعظيم»، كان ذلك هو استنتاجي الخاص بشأن العديد من تلك الأوصاف التي زرعها داخلي الأشخاص الذين ظهروا في حياته.

ومع ذلك، فقد أخبرني أنه باق على وعده، ولم يكن لدي أي سبب لعدم تصديقه، لأن مراسلاتنا استمرت عندما كنا مفترقين عن بعضنا، وكذلك الحال مع لقاءاتنا عندما كنت في باريس. استذكرت كيف سارت تلك اللقاءات منذ اللقاء الأول في عام 1971، وبشكل خاص كيف أصبحنا نعيش حالة من الاسترخاء بينما كنت أحدثه عن مغامراتي في لندن ودبلن. تذكرت كيف أخبرني أنه يمكن أن يبقى لفترة وجيزة فقط، والمفاجأة التي أذهلتنا نحن الاثنين على حد سواء عندما نظر إلى ساعته وأدرك أنه قضى الكثير من الوقت معي مما يعني أنه سيتأخر عن كل شيء آخر كان قد خطط للقيام به في ظهيرة ذلك اليوم وعند المساء. عُقد اجتماعنا الثاني بعد ظهر اليوم التالي، 18 تشرين الثاني، ومجدداً في الفندق الذي أنزل فيه، وفي الساعة الثانية أيضاً. آمل أن أكون قد أخفيت ابتسامتي وأن أتوقف عن التمتمة مع نفسي أثناء المشي في حدائق لوكسمبورغ بعد عام من ذلك العشاء في بيت آل هايترز، تلك التمتمة التي ربما جعلتني مخيفة للمتنزهين فيها في وقت متأخر من الليل. كنت أفكر في العديد من الأشياء التي أخبرني براين كوفي أن «أتذكرها دائمًا عن سام». الشيء الأول، «أنه يلتزم بدقة بالمواعيد». والشيء الثاني حسب ما أخبرني به براين وكان له أهمية خاصة بعد أن اكتشفت ما قاله بيكيت عن شعري المخطط. أن «سام لا يفعل أي شيء لا يريد فعله». وتوسع في شرح هذه العبارة، وأخبرني أنه من بين جميع الشعراء والكتاب الشباب الواعدين منذ أيام دراستهم الجامعية، لم يرغب أي منهم في «معرفة كيف ستنظر إليه الأجيال القادمة بينما كان لا يزال على قيد الحياة مثل سام». دخلت المبنى الذي أسكن فيه بعد أن قررت أنني لن أعير أي اهتمام لهذا التعليق التافه. سوف أواصل القيام بالعمل الذي كنت مؤمنة أنه يجب القيام به؛ وسأؤلف الكتاب الذي كنت مؤمنة أنه يجب تأليفه. أتذكر أنني نمت جيدًا في تلك الليلة.

الفصل السادس

بالعودة إلى عام 1971 وقت لقائنا الثاني، بدأنا من جديد في الساعة الثانية تماماً، لمواصلة الحديث عن القواعد الأساسية لكيفية إجراء العمل. للمرة الثانية استخدم بيكيت التعبير الذي لفت انتباهي في اليوم السابق. بعد أن قمت بتلخيص الخطة التي كنت قد طرحتها، والوضع المثالي الذي أردت، قاطعني بيكيت ليوضح أنه بالطبع «لن يساعد ولن يعيق» استقلاليتي. تمسكت بهذه الكلمات خلال سبع سنوات كان حماسي خلالها يزداد ويقل، ظننت أنها عبارة لافتة للنظر فقمت بطباعتها على غلاف إضبارة وعلقتها في مكتبي. والحق يقال، لقد انتهى به الأمر إلى مساعدتي طوال عملية الكتابة، لكن الطريقة غير التقليدية التي عملنا بها خلقت قدرًا معينًا من العوائق، حيث كنت على وشك أن أكتشف ذلك.

بينما كنت أتجه إلى الطاولة الصغيرة، اقترح بيكيت أن نذهب بدلاً من ذلك إلى مقهى يقع بجوار الفندق، حيث اكتشف فيه مائدة فارغة منعزلة. بينما كنا نستريح في مقاعدنا، اعتقدت أنني يجب أن أبدأ ما افترضت أنه سيكون مقابلة مباشرة تتضمن بعض الأحاديث البسيطة. سألته عن السنوات التي قضاها في كلية ترينيتي في دبلن، حيث كان في الفترة ما بين عامي 1923 و1928 طالبًا جامعيًا وطالب دراسات عليا ومحاضراً لوقت قصير. سألته عن الأماكن المختلفة في الكلية التي كان يرتادها وبدأ يعدد أسماء مساكن الطلاب وأرقام الغرف. ولأنني أشعر بقلق شديد من الرياضيات والأرقام تتطاير مني، فقد بدأت أفتش بجنون في حقيبتي بحثاً عن القلم والدفتر لتدوين تلك الأسماء والأرقام قبل أن أخلط بينها أو أنساها.

فجأة قفز من مكانه وصاح، «ماذا تفعلين؟» حاولت أن أشرح له، لكنه قاطعني قائلاً: «لا أقلام رصاص! ولا ورق! نحن نتحدث فيما بيننا فقط. نحن صديقان يتحدثان. يجب عليك ألا تكتبي أبدًا أي شيء نقوله. ولا تفكري حتى في جهاز التسجيل». وكما لو أن كل ذلك لم يكن مقلقًا بشكل كافٍ له، فقد أضاف شيئاً غريباً ومضحكاً: «ويجب ألا تخبري الآخرين أنني قابلتك. أبداً!»

لقد ذهلت تماماً من كل ما قاله. لقد اعتدت على الاحتفاظ بتسجيلات دقيقة للغاية، وبكل شيء من دفتر ملاحظات المراسل الصحفي إلى أشرطة التسجيل. وغالبًا ما كنت أستكمل ذلك العمل بأفكار وانطباعات أكتبها بأحبار ملونة مختلفة، وكنت أحتفظ حتى بالمراجع التبادلية عندما تقتضي الحاجة. كنت ما زلت غير متأكدة من كيفية كتابة سير الحياة، لكنني افترضت من البداية أن هذا النوع من الكتابة يتطلب توثيقًا أكثر عناية مما كنت أقوم به في الصحافة. كنت أعلم أنه كان عليّ أن أكتشف طرقًا جديدة للعمل في مثل هذه الظروف المقيدة لحريتي. تجولنا في عدة أماكن بعد ظهر ذلك اليوم الرمادي الكئيب حيث اقترح بيكيت أسماء أشخاص ربما أرغب في رؤيتهم، واضطررت إلى أن أبذل قصارى جهدي من أجل إبقاء كل هذه الأسماء عالقة في ذهني.

كان الوقت يمر ويبدأ الظلام يسود المقهى عندما انفتح الباب فجأة لتدخل منه شلة من الشباب الصاخبين من كلية الطب من الشارع المقابل، استيقظ النادل النائم من غفوته فوق إحدى الصحف ليقوم بتشغيل الأضواء والراديو في نفس الوقت. كنت أركز بشدة على تفاصيل محادثتنا لدرجة أنني لم أدرك أن بيكيت كان يحاول لفت انتباهي إلى أن شعرت بيده وهو يضعها على كم ردائي. نظرت إلى أعلى ورأيت أن أحد الشبان قد انحنى على طاولتنا، وهو يحدق فينا وهو لا يصدق تماماً بنظرة تمزج الشك بالدهشة: «أنت، أنت، أنت بيكيت!»

تعامل بيكيت، الذي كان شخصاً مهذباً على الدوام، مع الموقف بهدوء. وتوجه بسؤالي أولاً، عما إذا كنت سأسمح للشاب بالجلوس معنا. ما كان أمامي سوى الموافقة، على الرغم من شعوري بالغضب من أن بيكيت أراد

مني أن أشارك وقتي المحدود مع أحد معجبيه. قام بيكيت ببراعة بتحويل أسئلة الطالب إلى أسئلة خاصة به: من أين أتى، ما عدد السنين التي استغرقها في دراسته، وما نوع الممارسة الطبية التي يتصور أنه سيقوم بها؟ لكن الطالب كان بالفعل معجبًا حقيقيًا بكتابات بيكيت، وسمعته يترجى بيكيت ليدله على عنوانه حتى يتمكن من أخذ نُسخه من إحدى رواياته معه ليقوم بيكيت بالتوقيع عليها. تفادى بيكيت ذلك الطلب بقوله إنه كان في طريقه إلى ناشر كتبه، حيث سيوقع نسخًا من كتبه ويرسلها إلى منزل الشاب إذا كان سيعطيه عنوانه.

انتهت فترة الاستراحة، غادرت مجموعة الطلبة الصاخبين المقهى وسط أصوات مرتفعة من الجلبة والضجيج. أغلق النادل جهاز الراديو وجعل أضواء الحانة خافتة وعاد ليأخذ غفوة على جريدته بينما التفت بيكيت نحوي وقال: «لقد كان شابًا لطيفًا. لم أستطع تجاهله». أعتقد أنني تمكنت من رسم ابتسامة رقيقة على وجهي، لكن هذه لن تكون المرة الوحيدة الذي كنت فيها مع بيكيت وقد تعرف عليه أحد الأشخاص. كان بيكيت مهذباً للغاية لدرجة أنه لم يكن يصد أحداً. كانت هذه اللقاءات عادةً ما تكون قصيرة، لكنني بقيت أشعر بالاستياء منها كونها تستقطع جزءاً من وقتي المحدود، وأعتقد أنه كان يعرف ذلك. على الرغم من أنني لم أحاول قط إظهار ذلك، أعتقد أنه كانت هناك أوقات قام فيها بتمديد هذه اللقاءات عن عمد لمجرد معرفة ما إذا كنت سأفقد رباطة جأشي. كانت تلك واحدة من الألعاب العديدة التي اعتقدت أن صامويل بيكيت كان يمارسها وهو يحاول اختبار تصميمي على كتابة سيرة حياته.

جرى حديث طويل في فترة ما بعد الظهر وأصبحت مرهقة ذهنيًا مع حلول الظلام. كان بيكيت في طريقه بالفعل إلى مكتب جيروم ليندون في دار نشر Les Éditions du Minuit، ليس لتوقيع كتاب لطالب الكلية الطبية فقط، ولكن لحضور اجتماع مسائي أيضاً لمناقشة الحقوق والأذونات الخاصة بعمله القادم. أخبرني أن ليندون كان بمنزلة «وكيله الأدبي»، وكان يعتمد عليه ليتخذ القرارات (السلبية عادةً) والتي لم يكن يرغب في تحمل مسؤوليته عنها.

عند مشاهدتي لبيكيت وهو يتمايل في شارع سانت بيريس، شعرت بالارتياح فعلاً لرؤيته وهو يرحل. عند عودتي إلى فندقي، كان أول شيء فعلته هو تشغيل جهاز التسجيل الخاص بي وبدأت أسجل عليه كل شيء تذكرته، وكنت طوال الوقت أقوم بتدوين الملاحظات التفصيلية بحذافيرها أو شرح ما كنت أقوله. بعد عدة ساعات من العمل المحموم، أدركت أن الوقت قد تأخر جدًا وكنت جائعة بشكل رهيب، لذلك خرجت إلى شارع سان بينويت ودخلت أول حانة صغيرة وجدتها أمامي. وبينما كنت آكل، كان كل ما يمكنني التفكير فيه هو التحدي الذي سيواجهني: إجراء مقابلات مستفيضة مع بيكيت دون أن أتمكن من كتابة أي شيء. كيف سيمكنني حتى تذكر الأسئلة التي أردت طرحها، علاوة على الترتيب الذي سأطرحها به عليه؟ بحلول الوقت الذي أنهيت فيه العشاء المتأخر، ظننت أنني وجدت الإجابة، وبعد تعديلات طفيفة أدخلتها عليها أصبحت تلك هي طريقة عملي منذ تلك اللحظة فصاعدًا.

أطلقت تسمية «لعبة الورق الذهنية» على العملية التي كنت أقوم بها. كتبت كل سؤال كنت أرغب في طرحه على بطاقة ملف صغيرة وأضعها على أسرة غرفة الفندق أو طاولات غرفة الطعام في الشقة – حسب المكان الذي كنت أقيم فيه في ذلك الوقت. وكنت أحتفظ بها جميعًا في ذاكرتي، وفي هذه العملية كنت أخلط البطاقات، وأعيد ترتيبها وتنسيقها، وأحيانًا أعيد كتابتها، وأحاول دائمًا جعلها أكثر دقة، وذات معلومات أكثر، وفي كثير من الأحيان أجعلها أقل احتمالاً لإثارة غضب بيكيت أو الإساءة إليه. لم أنم جيدًا طوال الليالي التي كانت تسبق لقاءنا، لأنني كنت أستيقظ قلقة وأقوم بتفحص البطاقات مرة أخرى. وبعد الانتهاء من كل مقابلة، كنت أعود سريعًا إلى الفندق أو الشقة، وأهيئ دفتر الملاحظات وجهاز التسجيل، وأوثق كل شيء يمكن أن أتذكر أنه أخبرني به. عندما كنت أتكلم في جهاز التسجيل، كنت أحاول التقاط ملاحظاته بالضبط وبنفس النبرة التي قالها بها. على سبيل المثال، ربما يكون قد وصف شخصًا ما بأنه «صديق لطيف»، ولكنه يقولها بنبرة سخرية وهو يعني العكس تمامًا؛ فكنت أود أن أكتب ذلك أيضاً. بعد مرور عدة أيام، كنت لا أزال أتذكر الأشياء من المقابلات والمحادثات

السابقة، واضطررت إلى حمل دفاتر جيب صغيرة مخصصة فقط للأشياء التي بقيت عالقة في ذاكرتي. كنت أقوم بتدوينها، مع ذكر التواريخ التي قالها فيها وشرح السياق الذي حدثت فيه. كان التذكر وإعادة التدوين عملية مستمرة.

في وقت لاحق، أفضيت إلى اثنين من أصدقاء بيكيت، وهما المخرج الأمريكي آلان شناير، وفي مناسبة منفصلة الناقد كون ليفينتال بسر بعض الصعوبات التي واجهتني في إجراء مقابلة مع بيكيت. ألقى كل منهما بعض الضوء على طلب بيكيت بأن أحافظ على سرية اجتماعاتنا، قائلين إنه أصر على السرية التامة لأن كثيرين آخرين طلبوا كتابة سيرة حياته ورفضهم جميعًا. كان هناك مرشح واحد على وجه الخصوص وقف ضده بشدة وهو: ريتشارد إيلمان. نُشرت سيرة الحياة الممتازة لجيمس جويس التي ألفها إيلمان، والتي أشدت بها أنا وكثير من النقاد والعلماء باعتبارها واحدة من أروع سير الحياة التي كتبت في عصرنا، في الأصل في عام 1959، عندما كانت سير حياة الرجال العظماء تكتب وهي تحمل عادة إشارات غير مباشرة إلى هفواتهم الجنسية وقد أثار كتاب إيلمان حزنًا عميقًا لدى بيكيت بسبب ما كشفه عن تفاصيل شخصية. في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، سادت المقولة الشهيرة للكاتب صامويل جونسون عن أن سيرة الحياة يجب أن تتضمن «كل ما هو من اللائق معرفته» في حياة الرجل، وكان بيكيت يعتقد أن إيلمان قد تخطى بشكل مخز كل حدود الذوق وضرورة الحفاظ على الأسرار الشخصية.

في لقائنا الثالث والأخير قبل مغادرتي باريس في ذلك اليوم من شهر تشرين الثاني، الذي حدث مجدداً عند الساعة الثانية بعد الظهر. في المقهى المجاور للفندق، ارتعش وجه بيكيت من الغضب لأنني اضطررت إلى الإشارة إلى القائمة التي تضم أسماء جميع الأشخاص الذين اتفقنا على وجوب مقابلتهم في دبلن ولندن وأمريكا الشمالية (كان من بينهم سبعة كنديين) وكنت بحاجة إلى التأكد من أن القائمة كانت كاملة.

بمجرد انتهائنا من مراجعة القائمة، وضعتها في مكانها المعتاد، لم يتح لي الإرهاق وقلة الخبرة، الفرصة لمناقشة أي شيء آخر. ومع ذلك، فإن بيكيت بدلاً من الادعاء بأن لديه مواعيد أخرى ويهرع نحوها، كما فعل في أول اجتماعين لنا، اقترح أن نتناول فنجان قهوة آخر وننهي «أعمالنا»، حيث إنني

سأعود إلى الوطن في اليوم التالي. أراد أن يعرف كيف كنت أنوي المضي قدمًا فيما أسماه «المشروع المتعلق بحياتي» - وهو التعبير الذي أصبح أحد التعابير المفضلة له بدلاً من تعبير سيرة الحياة، الذي كان نادراً ما يستخدمه.

أخبرته أن العطل ستبدأ قريباً، وسيتعين عليّ قضاء الشهر التالي بأكمله أو نحو ذلك في رعاية أسرتي، وقمت بالتشديد عمداً على التزاماتي العائلية. لقد علمتني التجارب التي اكتسبتها من أيام عملي الصحفي أن هذا كان أسلوبًا حكيماً، ويبدو أنه كان يتناغم مع طريقة اعتقادي أنني يجب أن أقدم نفسي في شخصيتي الجديدة ككاتبة - باحثة ومؤلفة سير ناشئة. كنت عادةً واحدة من عدد قليل من النساء - إن لم أكن الوحيدة - ممن عملن في غرف الأخبار، وقد تعلمت في وقت مبكر كيفية إنشاء بيئة للعمل بحيث أستطيع أن أوقف أي نوع من التمريرات الذكورية قبل أن تبدأ أو أن أقوم بصدها. اضطررت إلى استخدام هذه التكتيكات في رحلتي البحثية القصيرة إلى دبلن قبل أسبوع من مقابلة بيكيت، وأردت التأكد من أنه إذا تم نقل أي نوع من القيل والقال حول سلوكي إليه في باريس، فسيحصل على روايتي للقصة. لغرض المقارنة. كنت أعلم أنه من السخافة أن أقول ذلك، ولكني مثل زوجة قيصر، كنت أؤمن بأن الطريقة الوحيدة التي كان سيأخذني بها على محمل الجد هي في حالة إذا كنت فوق الشبهات وبعيدة عنها.

سبق أن راودني عن نفسي أحد الأشخاص الذين كان يعرفهم بيكيت في باريس، وخلال السنوات التالية كان هناك أشخاص آخرون. كان الفرنسيون عادة صريحين جداً. سألني أحدهم «ألا نذهب إلى النوم معاً؟». أجبته «لا». فقال: «حسناً»، ثم انتهى الحديث. وكان هناك شخص إنجليزي أصبح صديقًا ممتازاً لي ولكتابي، هو أحد رواد الأعمال توني جونسون، كان صريحاً أيضاً. لا يمارس ألاعيب الغزل التي كانت سائدة في الستينيات في لندن، سأل أيضًا عما إذا كان يمكن أن «نستمتع بوقتنا معاً». أجبته «لا»، كنت قد عكست لنفسي صورة الأم السعيدة لطفلين صغيرين التي لا تريد المجازفة بأي شيء من شأنه أن يضر بأسلوب حياة عائلتها السعيدة. قال: «حسناً»، قبل أن يعرض عليّ استخدام واحدة من شققه العديدة التي لم يكن يستخدمها في ذلك الوقت، سواء كانت شقته الفاخرة في منطقة شيبيرد

ماركت في لندن أو في شارع دي فوجيرارد المطل على حديقة لوكسمبورغ في باريس. لم تكن تلك التوددات في العادة بصورة عدوانية قط وكانت بشكل لطيف في العادة، ويمكن رفضها بسهولة في لحظتها. لو كنت أعتقد أنه كان فيها احتمال للمضايقة أو الخطر، لكنت قد وجدت طرقًا لتخليص نفسي منها والتوضيح لهم أنني لن أتسامح مع مثل هذا السلوك. في حالات عديدة، ومن الغريب أن بعض الدعوات اللطيفة التي رفضتها بأدب فتحت الباب أمام تكوين صداقات حقيقية استمرت لسنوات.

كنت قد قدمت نفس الصورة لبيكيت أردت منه أن يعلم بوضوح أنني كنت هناك فقط لتأليف كتاب. كان هذا عملي. أما حياتي فقد كانت في مكان آخر. في وقت لاحق، كنت قد اتخذت قرارًا مهمًا للغاية بشأن الطريقة التي سوف أمارس بها حياتي المهنية، ومن شأنه أن يكون حاسماً لتطوير إمكاناتي ككاتبة سيرة. لقد سمعت قصصًا عن كاتبي سير ارتبطوا جداً بمواضيعهم وشخصياتها بحيث انتقلوا إلى منازلهم أو حاولوا تقليد تسريحة الشعر والمكياج الخاص بتلك الشخصيات. مثل قصة كاتبة تأثرت بسيرة حياة لأنا نين لدرجة كانت ترتدي ملابسها ومكياجها بعد وفاتها، وكاتب سيرة نابليون الذي كان لا يستطيع الكتابة إلا عندما يرتدي قبعة يدعي أنها تعود إلى العريف القصير القامة. لقد سمعت أيضًا بأحد كتاب السيرة الذين تأثروا بنظرية أو فرضية أنهم يتفاخرون بأنهم يتلاعبون بمحتوى الكتاب للتأكيد على أنهم هم وليس من يكتبون سيرة حياته من له القول الفصل في الطريقة التي يسردون فيها قصة حياته. في إحدى الحالات، حاول اثنان من مؤلفي السير أن يتفوق أحدهما على الآخر بذكر حكاية عن كيف أنهما اختلقا شخصية كاذبة، ولم يتوقفا عن الكذب الصريح لإكراه الأشخاص الذين تجري مقابلتهم على الإدلاء بمعلومات عنها. منذ البداية عرفت أن لا شيء من ذلك يناسبني.

من خلال وصف موسع لظروفي الشخصية، كنت أقوم بشكل متعمد بتأطير حياتي المهنية كزنبقة بيضاء نظيفة للغاية. وبعبارة أخرى، لا أسمح لأحد بالتدخل. كل ما يهم هو العمل الذي يجب أن أقوم به هنا. وقد نجحت هذه الطريقة في معظم الأوقات.

كان بيكيت يصغي لي دون أن يتدخل، لكن مع ابتسامة خفيفة على وجهه، وعندما كنت أنتهي، لم يكن يعلق. كان يفهم الصورة التي كنت أقدمها عن نفسي. قال لي إنه سيرحب بي في الصيف التالي، حيث كنت أخطط لإحضار عائلتي معي في رحلتي البحثية الطويلة. لكن في غضون ذلك، سنبقى على اتصال من خلال الرسائل، وسوف أبدأ في القيام بعدة مئات من المقابلات التي أرغب بإجرائها.

بعد البداية الصعبة لاجتماعنا الأول الذي تم تأجيله لفترة طويلة والمحادثات التفصيلية التي وضعت القواعد الأساسية للاجتماعين القادمين، سافرت عائدة إلى الوطن برضا وقناعه عميقة وكنت أستمتع بالعمل وأنا أتخيل المغامرات التي تنتظرني. بعد أن تناولت الغداء مع زجاجة صغيرة من النبيذ الفرنسي الرائع، غرقت في النوم طوال الطريق إلى نيويورك.

الفصل السابع

عدت إلى باريس للقيام برحلتي البحثية الثانية في ربيع عام 1972، وكنت قد أخبرت بيكيت أنني حصلت على الدكتوراه في الفلسفة وقمت بمناقشة أطروحتي للتو. لم أحصل على وظيفة في التدريس، ولم أكن أرغب بها. كان العديد من الناشرين يعرضون عقوداً مجزية لنشر الكتاب، وقد ركزت كل طاقاتي على هذا المجال.

قابلت بيكيت مرة أخرى في مقهى تاباك المجاور لفندق دو دانوب، حيث عقدت العزم على أن أريه كل شيء كتبته، ثم أطلب منه التعليق وتصحيح الأخطاء وإعطاء بعض المقترحات وكل ما يريد إضافته لمسودة كتاب السيرة. عندما كنت منهمكة في العمل في المسودة، سارت محادثتنا بشكل ودي حتى وصلنا إلى الثلث الأخير، الذي كنت أسميه «ملاحظات حول الشكل المحتمل لسيرة الحياة». رفع يديه وقال إننا فعلنا ما يكفي ليوم واحد، وربما يجب علينا مناقشة هذا الموضوع في وقت آخر. في الواقع، خلصت إلى الاستنتاج إلى أنه ربما يجب ألا نناقشها مطلقًا؛ يجب أن أستمر من دون أي نصيحة أو مساهمة منه. أتذكر أنني كنت أحاول تغيير الحالة المزاجية من خلال الحديث عن الدور الذي يلعبه مجلس الشيوخ الأمريكي وقلت شيئاً من قبيل «لا يقدم أي نصيحة ولا يوافق على شيء». لم يكتف بعدم الرد فحسب، لكنه أعطاني نظرة غاضبة فسرتها على أنها إشارة لإنهاء اجتماع ما بعد الظهيرة.

قابلت بيكيت مرة أخرى في تلك الرحلة، وفي مقهى تاباك أيضاً. ناقشنا قضايا عامة ونحن نحتسي القهوة وافترقنا بشكل ودي. عدت إلى الوطن

وأنا مطمئنة بأن كل شيء يسير بسلاسة، وأمضيت بقية ذلك العام في العمل في المكتبات في الولايات المتحدة وأجريت عدة مقابلات. كانت بقية عام 1972 فترة استراحة هادئة بالنسبة إليّ حيث وسعت من معلوماتي في كتابة السير، وكنت سعيدة لأنني حصلت على تلك الفسحة من الزمن.

لم تكن بداية عام 1973 سعيدة. فقد توفي جاك ماكغوران في 30 كانون الثاني، في نيويورك، عن عمر ناهز 54 عامًا. كان السبب الرسمي للوفاة هو المضاعفات التي حصلت له بعد تعرضه حينها لنوبة من الإنفلونزا، لكن أصدقاء بيكيت الذين أحبوه قالوا إن السبب الحقيقي لتلك المضاعفات كانت تناوله الكثير من الأدوية المسكنة والويسكي أيضاً. تهيأت لحضور جنازته التي تقررت إقامتها في مانهاتن في الأول من شباط، لكنني لم أستطع الوصول إليها بسبب حوادث السيارات الكثيرة والتأخير في مواعيد حركة القطارات التي تسببت فيها عاصفة ثلجية. قيل لي إن الكثير ممن أحبوه حضروا جنازته.

بدأت أنظر إلى ماكغوران باعتباره صديقاً لبيكيت كشخص على دراية خاصة بجوانب شخصيته وسماتها. لقد التقينا مراراً طوال عام 1972، وتعلمت من لقاءاتنا الكثير عن عقلية بيكيت الحادة وكذلك نظرته إلى الأمور الدنيوية عمومًا، وهو ما أطلق عليه ماكغوران «تعاطفه الشديد مع الإنسانية». أخبرني ماكغوران أنه بمجرد أن تتعمق محادثاتنا أنا وبيكيت لتتجاوز مرحلة «مجرد صديقين يتحدثان»، سأجده منكمشاً على نفسه ولكن مع «رغبة شديدة في قول الحقيقة بأي ثمن». قال لي إن بيكيت كان يصر دائمًا على أنه «كاتب روائي وأنه قام بكتابة بعض المسرحيات بمحض الصدفة»، وعندما كان يتحدث بشكل تلقائي عن عمله، كان غالبًا ما يصف «الكتابة بأنها عذاب». ومع ذلك، كان ماكغوران يعتقد أن بيكيت كان يشعر أنه ليس لديه خيار سوى «إظهار الأشياء كما هي، كما يراها، ليروي كل شيء بشكل رقيق، وبأسلوب فكاهي دائماً».

قال ماكغوران لي ذات مرة: لقد اشتهر بيكيت بعدم قيامه بتفسير أو تحليل أو توضيح أي شيء من كتاباته، ولا سيما المسرحية. على الرغم من أنه كان يقبل أن يناقش أنماط التفسير، وكان دائمًا ما يتراجع عن نفس التعليق

النهائي عندما تقترب الأسئلة أكثر من تلك النقطة التي يكرهها أكثر سألته: «ماذا تقصد عندما كتبت حرف X؟» لقد أنهى هذه المناقشة بشكل سريع بعبارة «سأشعر بأني أتفوق على أعمالي إذا حاولت تفسير ذلك».

في العديد من محادثاتنا، أخبرني ماكغوران أن هناك سؤالًا واحدًا كان يرغب دائمًا في طرحه على بيكيت مباشرةً ولكن لم تكن لديه قط الشجاعة ليسأله ثم قال لي «كان سام هو الرجل الوحيد على الأطلاق الذي قابلته وكان يمتلك مثل تلك الذاكرة القوية. فهو يمكن أن يتذكر ما حدث له منذ أن كان جنيناً في بطن أمه وحتى الآن». ظهر الموضوع بشكل هامشي عندما ناقشا بعض النصوص النثرية التي أراد ماكغوران استخدامها في حوارات شخصيات أعماله، خاصةً عندما أوضح بيكيت كيف أراد أن تؤدى مقاطع معينة من روايته مولوي. لم أنس قط كيف قفز ماكغوران إلى الأمام وقام بأداء هذه المقاطع من أجلي، وكنت دائمًا ممتنة للعديد من مناظراتنا، التي أثرت بعمق في رؤيتي لشخصية الكاتب صامويل بيكيت.

بقيت مشغولة خلال الأشهر الستة الأولى من عام 1973 في إجراء المقابلات والاستعداد لقضاء الصيف بأكمله في باريس. كنت ما زلت أتلمس طريقي إلى مختلف أنواع البحوث الضرورية لكتابة السيرة. كان بعض ما فعلته هو التحدث إلى أشخاص ظهروا في حياة بيكيت، ولكن دائمًا ما كان تركيزي ينصب على كيفية تفاعله معهم. كان أحد الأمثلة على ذلك هو الرغبة في إجراء مقابلة مع أندريه غريغوري الذي أخرج مسرحية نهاية اللعبة في نيويورك، لأن آلان شنايدر، وهو أول مخرج أميركي قام بإخراج مسرحيات بيكيت، كان يعتزم إيقاف عرضها. رفض بيكيت الموافقة على طلب شنايدر إيقاف عرض المسرحية، وكنت بحاجة إلى معرفة السبب.

كنت دائمًا أبحث عن الخلفية التاريخية للموضوع، وقد أثبت الممثل سيريل كوزاك، الذي كان يؤدي دوراً في مسرحية جونو والطاووس للكاتب الأيرلندي شين أوكيسي والتي كانت تعرض في مسرح لونغ وارف في نيو هافن، أنه أرشيف متجول للتاريخ المسرحي الأيرلندي. لقد أعطاني أيضًا قائمة طويلة من الأشخاص الذين يمكن مقابلتهم في أيرلندا والذين أصبحوا من مصادري المهمة.

قضيت عدة أيام أبحث في الأرشيف، وأتنقل ما بين رفوف مكتبة ستيرلنغ في جامعة ييل في الأيام الخوالي عندما كانت أكداس الكتب معروضة للجميع، وكنت غالباً ما أجد كتباً لم أكن لأفكر في البحث فيها. واتتني فرصة لتقليب صفحات الكتاب السنوي عن لعبة الكريكيت Wisden Cricketers Almanack' وشاهدت الابن الثاني لبيكيت وهو الأخ الأصغر لبيكيت الأول [كان يدعى فرانك وهو قائد لفريق الكريكيت والأخ الأكبر لبيكيت]، كانت لديه عادة غريبة تتمثل في السير عبر البويب (البويب أو شباك الوكت: إحدى مجموعتين من العصي يحاول فريق الكركيت إصابتهما بالكرة؛ بابٌ صَغِيرٌ في بابٍ كَبِير؛ رقعة مستوية بين وكتين – م) ليصيب جميع الكرات». نبهتني كينيث نيشهايم التي تعمل في مكتبة بينيك إلى مجموعات من الكتب لم أكن أظن أن فيها فائدة، كما فعلت مثلها ليو لا سلاديتس تلك المرأة الرائعة حين لفتت انتباهي إلى مجموعة كتب الجراح الشهير ألبرت بيرج في مكتبة نيويورك العامة.

رغم ذلك، قمت بالتركيز في الغالب على التحدث مع الشخصين اللذين لعبا أدوارًا رئيسية في عرض أعمال بيكيت أمام الجمهور الأمريكي، وهما المخرج آلان شنايدر والناشر بارني روسيت. لقد أخبراني أن بيكيت أشار في الرسائل التي بعثها إليهما إلى أنه قابلني في باريس، لكنه لم يقل شيئًا عن كتابي، سوى أنني ربما أتصل بهما. ولم يقل ما إذا كان يستحسن أم لا أو ما إذا كان ينبغي عليهما التعاون معي أم لا. أعتقد أن كلا الرجلين وافقا في البداية على رؤيتي لأنهما كانا فضوليين.

فيما يتعلق بالفضول فقد كانت صفة من صفات آلان على الأقل، لأنه عندما ذهبت إلى منزله في هاستينغز أون هدسون لأول مرة، أمطرني بالأسئلة الواحد تلو الآخر عن علاقتي مع بيكيت. قمت بترديد عباراتي المعتادة، التي تتلخص في الحديث عن ربة المنزل اللطيفة في ولاية كونيتيكت التي تحولت إلى مثقفة / كاتبة، وكان لديها أطفال في سن المراهقة تقريبًا، وزوج مسؤول عن أحد المتاحف، واثنان من كلاب البولداغ الإنجليزي، واثنان من القطط الفارسية. شعرت بالسخافة من قولي كل هذا، لكن آلان كان مستجوباً لحوحاً وعلى دراية بالنساء اللاتي ربما كن قد بدأن علاقتهن مع

بيكيت في إطار المهنية ولكنهن غالبًا ما تمكنّ من جعلها شخصية. لم يكن بنيته أن يخبرني شيئًا عن رجل يبجله ويحاول أيضاً حمايته حتى يقرر ما إذا كنت «مؤهلة» (حسب تعبيره). في السنوات التي عرفت فيها آلان، رأيت مدى سرعة تقييمه للشخصية واتخاذ القرارات؛ من المؤكد أنه قام بتقييمي بسرعة في ذلك اليوم.

أخذني آلان إلى مكتبه وأراني كل شيء من الصور إلى دفاتر ملاحظاته. قام بإخراج ملفات تحوي مراسلات بينه وبين بيكيت وكذلك بينه وبين كل من شارك في نتاجاته المسرحية، من الممثلين إلى جميع العاملين في المسرح. كان ذلك اليوم بداية لعلاقة عمل مهمة بالإضافة إلى صداقة استمرت بعد نشر السيرة وحتى وفاته المأساوية في عام 1984، عندما مات وسط زحمة المرور في أحد شوارع لندن أثر حادثة دهس عندما كان ينظر في الاتجاه الخاطئ.

لم يكن بارني روسيت فضولياً معي كما هو حال آلان. لقد وثق بي بمجرد أن رآني، واعتبرني كاتبة من بين العديدين من الكتاب، كانت تنوي ببساطة أن تؤلف كتابًا عن سام الذي كان يحبه. أخبرني بارني أنه سيتعين عليّ الذهاب إلى جامعة سيراكيوز في نيويورك إذا كنت أرغب في رؤية الوثائق ومراسلاته مع بيكيت، لأنه أعطى معظم محفوظاته لمكتبة تلك الجامعة. ومع ذلك، كان سعيدًا وهو يروي لي قصصًا عن حبه واحترامه لبيكيت، اللذين وصلا إلى حد تسمية ابنه باسم «مؤلفه المفضل». أخبرني بارني أيضًا شيئًا ما جعلني في موقف جيد أثناء جميع لقاءاتي مع بيكيت: أنه يغضب بسرعة، وقد يتحول إلى شخص شرير في لحظة واحدة. كان غضبه يشتعل فجأة، وبعد ذلك، وبشكل مفاجئ أيضاً، يتمكن من السيطرة عليه. أخبرني بارني أنه ليس من السهولة أن يغضب بيكيت وربما لن أراه غاضباً أبدًا، لكنه كان مخطئًا: كانت عندي مع الأسف قدرة على طرح أسئلة أثارت غضب بيكيت كثيرًا.

يبدو أن وجودي في عالم صامويل بيكيت أدى إلى أن تبرز جميع أنواع المكائد بين الأشخاص الذين لم أكن أعرفهم بعد، لا سيما في الوسط الأكاديمي. بينما كنت لا أزال أتعلم كيفية كتابة سير حياة الأشخاص، كان أول ما فعلته بعد عودتي من لقائي الأول مع بيكيت في باريس عام 1971 هو

الاتصال بجميع أولئك الذين كتبوا عنه. بحلول صيف عام 1973، عندما انتشر خبر عزمي قضاء الصيف في باريس، كانت فكرة كتابة سيرة حياة بيكيت تثير جميع أنواع الاستجابات كلما طلبت من أحد الأشخاص التعاون معي. لقد أعطاني لورانس هارفي الأستاذ في كلية دارتموث نسخًا مصورة من جميع المواد التي قدمها له بيكيت في عام 1961، عندما كان هارفي يفكر في كتابة دراسة نقدية عن كتابة السير. ثم أهداها في وقت لاحق إلى المكتبة العامة لكلية دارتموث، حيث يمكن قراءتها من قبل باحثين آخرين. أخبرني ريتشارد إلمان، الذي كان في جامعة ييل آنذاك، أنه لن يمنحني فرصة اللقاء معه أبداً لأنه إذا كان لديه أي شيء يقوله عن بيكيت، فسيكتبه بنفسه. كانت روبي كوهن، التي كانت تقوم بالتدريس في جامعة كاليفورنيا، في مدينة ديفيس في ولاية كاليفورنيا، امرأة تزدري الآخرين، لكن كان لديها طلاب دراسات عليا كانوا يكتبون عن بيكيت وتوقعت مني مشاركة نتائجي معهم. أما هيو كينر، من جامعة جونز هوبكنز، فلم يجب على رسالتي. سبق لجيمس نولسون، الذي كان آنذاك في كلية جامعة ريدينغ في إنجلترا ثم كتب سيرة بيكيت لاحقًا، أن أخبرني أن أي باحث مرحب به ليطلع على أرشيف بيكيت الذي كان له دور فعال في إنشائه. لكنه لم يستجب لطلبي إجراء مقابلة معه. كان هناك أشخاص آخرون ممن يطلق عليهم لقب باحثين، ادعوا جميعهم أن لهم صداقات حميمة مع «سام» وتفاخروا بقضاء أمسيات رائعة معه استمتعوا فيها بتناول المشروبات الكحولية معه في ضاحية مونبارناس في باريس. عندما راجعت تواريخ قصصهم، تمكنت من حل ألغازها، لأن بيكيت لم يكن حتى في باريس عندما كان من المفترض أن تحدث معظم هذه الأمسيات. وحتى لو كان هناك، فقد كان قد قرر عدم تناول المشروبات الكحولية وبعد ذلك جاء دورالناشرين الذين ادّعوا أن هناك صلات خاصة كانت تربطهم مع بيكيت وكانوا يعتقدون أنني يجب أن أمنحهم الحق في نشر الكتاب - بلا مقابل بالطبع - بسبب الشرف الذي سيمنحونه لي. عندما قلت إنني كنت بالفعل متعاقدة، كانت جانيت وريتشارد سيفر، من دار نشر أركادي بريس Arcade Press، أول من شنا هجوماً عليّ وكان التالي هو جون كالدر ناشر مؤلفات بيكيت في بريطانيا، كان ريتشارد سيفر أحد أوائل

من دعموا بيكيت في الخمسينيات، عندما نشر قصصًا قصيرة في المجلة الأدبية ميرلين. كان الزوجان سيفر صديقين رائعين لزوجة كالدر آنذاك، المغنية الراقصة بيتينا جونيك، التي لم تقابلني مطلقًا ولكن مع ذلك جاءت إلى نيويورك وأخبرت الزوجين سيفر أن على كل شخص في لندن أن يقاطع مشروعي، لذا يجب أن يخبروا الجميع في نيويورك للقيام بنفس الشيء. الغريب أن ماريون بويارز شريكة زوجها في دار نشر كالدر وبويارز، كانت في نيويورك في نفس الوقت، ودعتني لتناول الغداء معها لتتوسل إليّ لفسخ عقدي مع لاري فروندليتش في دار نشر هاربرز ماغازين بريس Harper's Magazine Press وتوقيع عقد مع شركتها. عندما أجبت بأنني راضية (في الواقع، سعيدة) لوجودي حيث كنت، هرعت إلى لندن لإخبار جون كالدر أنه بحاجة إلى كتابة سيرة حياة بيكيت التي يمكن أن ينشروها قبل صدور كتابي. عندما قابلت كالدر لاحقًا، كان يضحك وهو يروي لي هذه القصة، قائلاً إنه كان لا يعتقد أنني سأتمكن على الإطلاق من كتابة سيرة حياة بيكيت، وكذلك كان حاله أيضًا. ومع ذلك فإنه بحلول خريف عام 1973 (حاله حال العديد من الأشخاص الآخرين) بدأ يأخذ موضوع كتابة السيرة على محمل الجد، لأن ما كنت أسميه «تأثير العربة» (ظاهرة نفسية تتميز بازدياد معدل تقبل المعتقدات والأفكار والموضات والنزعات عندما يعتنقها آخرون بالفعل – م). كان يسير على قدم وساق: كان القطار الذي يحمل المتعاونين يغادر المحطة، وفجأة أراد جميع الأشخاص القفز والركوب فيه.

بدأ الأمر قبل أن أذهب إلى باريس، في شهر نيسان، عندما كان لدي شأن شخصي في سان دييغو. في واحدة من المفارقات الصغيرة في الحياة، كان عيد ميلاد والدتي وصامويل بيكيت يصادف في نفس اليوم، 13 نيسان، وقررت زيارتها والقيام برحلة جانبية إلى سان فرانسيسكو للتحدث مع كاي بويل. كانت قد بدأت علاقتها مع بيكيت خلال سنواته الأولى في باريس، واستمرت صداقتهما لبقية حياتهما. كانت في مقدمة أولئك الذين أرادوا أن أجري المقابلات معهم، لأنها لم تكن ترغب في أن يتجاهلها الكتاب. كتبت رسالة إلى بيكيت، الذي رد برسالة أظهرتها لي، حيث قال فيها إنه «متعاطف للغاية [معي] كشخص». وقالت إن كتابة هذا يعني لها أنه يريدها أن تتعاون معي.

كانت بويل تعيش في منزل يقع في شارع فريدريك في منطقة أبر هايت في مقاطعة سان فرانسيسكو التي انطلقت منها حركة الهيبيز الشبابية. كانت ترتدي ثياباً عادية واسعة ومجوهرات أصلية ثقيلة للغاية كانت نموذجية في ذلك الزمان والمكان. كان لها حضور طاغ، فقد كانت طويلة، ونحيفة، لها هيئة الأميرات وذات آراء سديدة. كان وصفها لبيكيت يحمل آراء قوية ووفيرة للغاية - جعلتني أقوم بتدوين ملاحظات غزيرة، كنت أعرف أن كل ما قالته يجب أن يتم التحقق منه إلى حد بعيد - خاصة عندما واصلت الإصرار على أنه لا يجب أن أكتب كلمة واحدة حول منافستها اللدود، بيغي غوغنهايم، الزوجة الأولى لزوجها، لورانس فيل، وشريكتها في علاقة حب ملتهبة مع بيكيت في الثلاثينيات. أخبرتني بويل أن غوغنهايم «يجب أن» (وكانت تشدد على كلمة يجب - MUST- بصوت قوي حينها وكانت تكتب جميع حروف الكلمة بأحرف كبيرة في الرسائل التي بعثتها إليّ لاحقاً) لا تتم الإشارة إليها أبداً في الكتاب. في النهاية، باستثناء كرهها لغوغنهايم، تبين لي أن كل شيء تقريبًا أخبرتني به بويل كان قريباً من الحقيقة بكل ما يسمح به عصر ما بعد الحداثة من تكرار لكلمة الحقيقة، واعتبرتها مصدرًا موثوقًا به.

رأيتها عدة مرات بعد ذلك الاجتماع الأول، وعلى مدار عدة سنوات بعد ذلك، كنت أتصل بها كلما أكون في سان فرانسيسكو. فتدعوني لتناول الشاي أو كأس من النبيذ (كأس صغيرة)، وكان من الواضح أنها كانت تأمل في الحصول مني على أخبار عن بيكيت. وهكذا وجدت أنه من الغريب أنني بعد أربعة وأربعين عامًا، في عام 2017، قابلت الصحفي جان هيرمان، الذي كتب عنها أيضًا، وأخبرني كيف، أنها أثناء مقابلته معها في عام 1987، بعد وقت قصير من وفاة الكاتب نيلسون ألغرين الذي كان صديقها وصديقه أيضاً أصرت على أنها رفضت تقديم أي مساعدة لي على الإطلاق. وأخبرته أيضاً أنها لم تتحدث معي قط ونصحت كل شخص كانت تعرف أنه صديق لبيكيت أن يفعل الشيء نفسه. لقد وجدت الأمر غريباً بسبب الرسائل التي تبادلناها، وخاصة تلك التي أرسلتها مباشرة بعد نشر كتاب سيرة حياة بيكيت الذي أشادت به كثيراً. أتمنى لو كنت أعرف ما أخبرت به هيرمان أثناء ما كانت على قيد الحياة. كنت سأطلب منها معرفة ما الذي حدث ليجعلها

تعتقد أنها لم تقابلني قط، خاصة أن الكثير مما كتبته عن دورها في حياة بيكيت لا يمكن أن أحصل عليه إلا منها مباشرة.

بدأت أفكر في كاي بويل منذ حديثي مع هيرمان، لأن ذاكرتها المتغيرة مثلت شيئًا حيرني ومعي العديد من كتاب السيرة الآخرين. غالبًا ما تكون هناك مجموعة مهمة إلى حد ما من الأشخاص الذين أصبحت ذكرياتهم عن تواصلهم مع الآخرين، كما كان حال بويل معي، بعيدة كل البعد عن الواقع. بعض الناس الذين تحدثت معهم بالغوا في أدوارهم، في كثير من الأحيان وذهبوا إلى اتجاه بعيد عن قربهم الفعلي من بيكيت. أما أولئك الذين قدموا المساعدة في بعض الأحيان فقد أرادوا أن ينأوا بأنفسهم عن سيرة الحياة المكتوبة، في حين أن البعض الذين وضعوا عقبات جدية في طريقي لم يضيعوا وقتًا في الادعاء بأنني لم أكن لأستطيع تأليف الكتاب من دون إرشاداتهم المستمرة. فكرت في هذه الخدعة المتميزة للذاكرة، وأقصد النسيان المتعمد، أثناء كتابة هذه المذكرات عن نفسي وعندما قرأت رواية «ضجيج الزمن» للكاتب جوليان بارنز (تتحدث الرواية عن حياة الموسيقار الروسي في عهد الاتحاد السوفيتي ديمتري شوستاكوفيتش وصدرت عام 2016– م) حيث يذكر المؤلف كيف أن شوستاكوفيتش لا يتذكر ما إذا كان قد ذهب إلى محطة فنلندا عندما عاد لينين إلى روسيا. يكتب بارنز: «لم يعد يعرف أي رواية يثق بها». «هل كان بالفعل في محطة فنلندا؟ حسنًا، إنه يكذب مثل أي شاهد عيان، كما يقول المثل».

كان شهر نيسان قد انتهى تقريبًا عندما عدت إلى المنزل، ولم يتبق أمامي سوى شهر أيار للتحضير لرحلتي البحثية الطويلة الأولى إلى باريس، حيث ستكون عائلتي معي. كان زوجي، فون، قد استلم عمله كمدير للمتحف منذ فترة قصيرة وتمكن من ترتيب جدوله الزمني ليكون معنا. لقد كان وقتًا مثيرًا، وقد مر الشهر سريعاً. كان طفلاي، فون سكوت وكاثرين تريسي («كاتني»)، بحاجة إلى أحذية وحلاقة شعر جديدة، وكانت لديهما مواعيد مع طبيب تقويم الأسنان ينبغي الالتزام بها. ارتبطت العديد من الأنشطة بنهاية العام الدراسي وتطلبت مني أن أكون حاضرة مع العائلة. كان يجب تهيئة جوازات السفر، وشراء تذاكر الطائرة، وتحديد من يبقى في المنزل ليعتني

بالحيوانات. ثم كانت هناك مشاغل حياتي المهنية حيث سافرت ذهابًا وإيابًا إلى نيويورك، محاولة جمع أكبر عدد من المقابلات وأكبر قدر ممكن من العمل في مسودة الكتاب. كان عليّ أن أحدد جدولًا زمنيًا لكل ما أحتاج إليه في هذه الرحلة، والأهم من ذلك، أن أخبر بيكيت عندما أصل، كما كنت أتمنى أن يكون هناك لرؤيتي. لا أتذكر أنني حصلت على قدر كبير من النوم في ذلك الشهر، ولكن بطريقة ما قمنا جميعًا بالاشتراك في الأمر وتمكنا من تنظيم التفاصيل. غادرت أنا أولاً، للعثور على شقة، وتحديد ما تتطلبه حياتنا اليومية في فرنسا، ووضع جدول زمني للعمل بطريقة أو بأخرى – بطريقة سحرية – يتيح لي الاستمتاع مع عائلتي حتى عندما حاولت التنقل عبر ما أصبح سريعًا جولة يومية من التجارب الغريبة إلى حد ما. لقد بدأت أنظر إلى نفسي كأني مثل أليس (بطلة قصة أليس في بلاد العجائب الشهيرة – م)، وأنا أقفز أعلى وأسفل حفرة الأرنب، ولم يكن فصلي الصيفي في بلاد العجائب قد بدأ بعد.



الفصل الثامن

تبادلت عدة رسائل مع صامويل بيكيت في الفترة ما بين شهري كانون الثاني وأيار من عام 1973 وكانت تتناول في الغالب أبحاثي ومقابلاتي وعمله ووجهات سفره. أخبرني أنه ذاهب إلى لندن في شهر كانون الثاني للعمل مع الممثلة بيلي وايتلو على تقديم مسرحيته لست أنا ومع الممثل ألبرت فيني على تقديم مسرحيته الشريط الأخير. على الرغم من أنه لن يكون حاضراً وقت عرضها على خشبة المسرح، فقد كانت خطته هي البقاء مع الممثلة وايتلو حتى ليلة الافتتاح في 16 كانون الثاني والعودة إلى باريس في اليوم التالي. ثم أراد أن يغادر على الفور إلى منزله الريفي، الذي كان يقع على بعد حوالي أربعين ميلاً شمال شرق باريس، في بلدة أيسي سور مارن، حيث كان بحاجة إلى تفحص مراسلاته التي تراكمت قبل التوجه جنوباً إلى المغرب «حيث الشمس». ووافق على أنه سيكون من الأفضل إذا انتظرت حتى الصيف ثم آتي حينها إلى باريس. لم يخبرني بيكيت أنه سيقلع جميع أسنانه المتبقية قبل مغادرته باريس وأن الأسنان البديلة الجديدة ستمكنه من تناول الطعام بشكل طبيعي أثناء وجوده في لندن لكنه أخبر جورج ريفي بذلك. كان لديه ولع شديد بروايته الأولى، مورفي، وأخبر ريفي أيضًا أنه أثناء سيره في حدائق كينسينغتون متجهاً نحو البركة المستديرة التي فيها، رأى رجلًا يشبه شخصية روايته «السيد كيلي ولكن بدون طائرته الورقية».

كتبت لبيكيت لأقول له إن المراجعات التي قرأتها عن مسرحيته الشريط الأخير قد أثنت عليها بتحفظ، لكن القلة من الناس الذين أعرفهم ممن شاهدوا المسرحية كانت لديهم مشاعر مختلطة حول أداء الممثل فيني. أجابني بيكيت بأن الدور الذي لعبه فيني «لم يكن يلائمه» ولم يكن راضياً

عن أدائه. عندما تحدثنا عنه في باريس بعد بضعة أشهر، كان يحمل كرهاً شديدًا لذلك الممثل. قال بيكيت، وهو يمسك بسيجاره البني الصغير الرائج حينها في يده ويضرب بيده الأخرى بقوة على الطاولة، «كان فيني أسوأ من أدى دور كراب على الإطلاق». حاولت جاهدة كتم ضحكتي وكدت أختنق وأنا أمنع نفسي من الضحك عندما أدرك ما تحمله عبارته من تورية (حيث إن أصل اسم كراب يشير إلى الشخص الذي يقوم بالتقشير وعبارته تعني أن الممثل فيني كان أسوأ شخص يقوم بتقشير الموز قابلته في حياتي ومشهد تقشير الموز من المشاهد الرئيسية في مسرحية الشريط الأخير – م). لم يبال بالأمر كثيراً واحمرّ وجهه قليلاً –بعض المواضيع كانت تجعله في الواقع يشعر بالإحراج. قال وهو يضحك أيضاً، «آه حسناً»، وانتقلنا إلى مواضيع أخرى.

أخبرني بيكيت في أحد ردوده على رسائلي العديدة التي بعثتها في الربيع والتي استفسرت فيها منه متى يجب عليّ أن أكون في باريس، أنه سيمضي الصيف يتنقل ما بين أوسي وشقته في شارع سان جاك، ويمكن أن نلتقي خلال وقت يلائمنا نحن الاثنين. وصلت إلى باريس وكنت أنوي التعرف إلى أشخاص يعرفون أحداً يعرف شخصًا ما قد يمتلك عقاراً للإيجار. بعث وكيل أعمالي كارل براندت إلى أحد موكليه، الكاتب جون جيراسي، الذي كان والداه صديقين حميمين للشاب جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وكان حينها يكتب سيرة حياة سارتر. كان كارل يعتقد إذا كان هناك أي شخص يمكن أن يساعدني في اكتشاف «باريس الحقيقية»، فلن يكون سوى جون. ذهبت لرؤيته في شقته قبالة شارع مونبارناس، لكن لم أحصل على أي مساعدة في العثور على واحد من الأشياء التي كنت أبغيها. وبدلاً من ذلك تلقيت دعوة لتناول طعام الغداء في ذلك اليوم مع سارتر وبوفوار في مطعم صغير يدعى سليكت يقع في منطقة سكناهما.

أخبرني جيراسي أنه لم يقم بدعوتي إلا لأنه كان بحاجة إلى شخص ما لإبقاء بوفوار مشغولة حتى «لا تتدخل في حديثه مع سارتر». كان مستاءً من كونها «امرأة فضولية كانت تصر دائماً على أن تكون جزءًا من أي محادثة مع سارتر»، وكانت لا تتردد في إعلان وجهات نظرها. ثم قال «إنها تحب

الحديث إلى الفتيات الأميركيات، خصوصاً إذا كن قد قرأن كتابها الجنس الآخر». وبعد ذلك شحب وجهه من الرعب وهو يسألني: «لقد قرأتِه، أليس كذلك؟» نعم يا جون، لقد كنت أعتقد لكنني لم أقل ذلك، إنني مثل كل امرأة لها نفس خلفيتي الثقافية ومستوى تعليمي، قرأت كتاب الجنس الآخر. وعلى الرغم مما كان يبدو عليه من أنه لا يحترم كثيراً بوفوار أو كتابها، فإنني أعجبت بشدة بكليهما.

في أي ظرف آخر، كنت سأفعل المستحيل من أجل لقاء سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر، لكن كان عليّ رفض تلك الدعوة لأن الغداء كان في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر وكان من المقرر أن أقابل بيكيت في الساعة الثانية بعد الظهر. ولم أتجرأ على أن أتأخر ثانية واحدة. حدث ذلك في حزيران 1973، ولم أقابل سيمون دي بوفوار إلا بعد عقد من الزمان تقريبًا. ولم ألتق سارتر قط، لأنه كان قد مات في ذلك الوقت.

لم يكن العثور على شقة هو الشيء الوحيد الذي كان يدور في ذهني عندما وصلت إلى باريس في أوائل حزيران؛ كنت قلقة أيضًا من كيفية الاتصال مع بيكيت. أخبرني آلان شنايدر أنه وجد بيكيت مكتئباً للغاية عندما رافقه في يومي 10 و11 أيار. فقد رفض تناول العشاء في أحد الأماكن المفضلة لديه، لذا تناولا وجبة بسيطة في شقة بيكيت، استمر خلالها في تكرار عبارة «ما معنى أن تعيش عندما يرحل عن الدنيا جميع أصدقائك؟» لم يحدد من مات أو لماذا يشغل الموت تفكيره. قال لي آلان إنه يجب عليّ أن أهيئ نفسي لأخذ حالة بيكيت النفسية في الحسبان عندما أقابله، لأن حزنه وكآبته الحاليين قد يؤثران في تذكره للأحداث السابقة. لقد مكنتني مسيرتي الطويلة في عملي الصحافي من إدراك الفروق البسيطة في الذاكرة وكيف أنها تفرض نفسها على عملية تذكر الأحداث بدقة، لذلك حرصت بعناية على أن أضع في بالي أن بيكيت ربما يتذكر أجزاء من حياته من خلال منظار مشاعره السلبية الحالية بدلاً من أن يتذكرها بصورتها الحقيقية وكيف اجتازها.

أعطاني بيكيت رقم هاتفه وتعليمات حول كيفية وتوقيت الاتصال. لقد قام بترتيب طريقة معينة: كان عليّ الاتصال في الساعة الواحدة بعد الظهر تحديداً، وأن أدع الهاتف يرن مرتين، وأنهي المكالمة، ثم أتصل مرة ثانية،

حينها سيقوم هو بالرد. لكن عندما وصلت إلى فندقي في نهاية شهر أيار، وجدت مذكرة تخبرني أنه الآن في بلدة أوسي وسيبقى هناك إلى يوم 19 أو 20 حزيران. وحيث إنني لم أوفق في استئجار أي من الشقق المدونة في القائمة التي كانت معي، قررت فجأة وبدون تخطيط مسبق إعادة ترتيب بعض المقابلات والذهاب إلى جنيف لرؤية موريس سنكلير ابن عمة بيكيت ثم التوجه إلى البندقية لرؤية بيغي غوغنهام.

كان الجو حارًا للغاية عندما وصلت إلى باريس، ولم أحمل معي سوى ملابس صيفية غير رسمية لهذه الرحلة القصيرة، مما يعني أنني لن أرتدي ملابس رسمية إطلاقاً. خلال محطة توقفي الأولى، تجمدت وسط الجو البارد والمطر الذي كان يهطل باستمرار على جنيف. كان موريس هو ابن سيسي (فرانسيس بيكيت سنكلير) عمة بيكيت التي كان يحبها كثيراً وزوجها النابض بالحيوية، هنري موريس سنكلير، الذي كان يطلق عليه دائمًا لقب «الرئيس»، وكان بيكيت يلتمس راحته دائمًا في منزل آل سنكلير في ألمانيا خلال سنواته التعيسة في الثلاثينيات. على الرغم من أن موريس كان مجرد صبي في ذلك الوقت، فقد اعتقدت أن التعرف على ذكرياته سيكون أمرًا مهمًا، حيث إنه من المفيد بشكل كبير استخدام التعبير الذي أعجبني، «إضافة بعض الأحداث والوقائع والتفاصيل [وهذا يعتبر من أساسيات كتابة السيرة الذاتية]». اعتقدت أن موريس يمكن أن يكون مفيدًا بشكل خاص فيما يتعلق ببيغي، أخته الكبرى التي توفيت وهي شابة بشكل مأساوي بسبب مرض السل. أظهرت الصور التي أعطاني إياها أبناء عم بيكيت في أيرلندا وابنة أخته، كارولين بيكيت مورفي، أن بيكيت كان قد وقع في حب بيغي سنكلير. كان كل هؤلاء الأقارب مقتنعين بأن ذكريات كراب (بطل مسرحية الشريط الأخير -م) في أواخر عمره عن حبه الضائع كانت بمنزلة تعبير عن مشاعر بيكيت تجاه بيغي.

نقل موريس إلى بيكيت كل ما قاله لي بالكامل خلال لقائنا الأول في جنيف، وقد فعل الشيء نفسه بعد أن التقينا عدة مرات في وقت لاحق عندما جاء إلى باريس لقضاء بعض أموره. أظن أن هذا الأمر لم يؤثر إلا قليلاً في موقف بيكيت تجاهي عندما رأيته أخيرًا في نهاية حزيران. لقد اندهش من

عمق الأبحاث التي قمت بها وكانت لديه مشاعر مختلطة حول هذا الأمر – مما يؤكد أنه لم ينظر إلي شخصياً أو يأخذ أعمالي على محمل الجد عندما توصلنا إلى اتفاق مبدئي. تقلب موقفه من الكتاب مرارًا وتكرارًا بمرور الوقت، لكن المرة الأولى التي لاحظت فيها التأثير الذي أحدثه المشروع عليه كانت بعد عودتي من اللقاء مع بيغي غوغنهام في مدينة فينيسيا.

لم أجد في خزانة الملابس الخاصة بي سوى قميص خفيف وبنطلون ارتديتهما وأنا متوجهة لمقابلة بيغي غوغنهايم في قصرها الفخم الواقع عند القنال الكبير في فينيسيا. كنت قد كتبت مسبقاً طلباً لإجراء المقابلة، وقد وافقت عليه، وطلبت مني أن أتصل بها بالهاتف عند وصولي. كتبت في الملاحظات التي دونتها بجانب رقم هاتفها في المرة الأولى التي اتصلت بها: «صوت لئيم مثل الجحيم لكنها قالت إنها ستكون موجودة». عندما دخلت الفناء، كانت تجلس في الحديقة مرتديةً قفطانًا حريريًا أنيقًا ونعالًا ذهبية اللون، ونظارات شمسية من نوع عين القطة الغالية الثمن، لم أشاهد مثيلتها منذ خمسينيات القرن الماضي. أشارت بيدها بشكل غير واضح نحو كرسي بجانب طاولة صغيرة، حيث كان عليها أقداح كانت قد ملئت بمزيج من شراب كريه بانتظار مجيئي — كان مزيجاً من مشروبي الكامباري والبراندي، أو شراب مسكر بنفس القدر. كنت نادراً ما أتناول مشروباً في فترة ما بعد الظهيرة الحارة، لكنني كنت عطشانة، فارتشفت جرعتين كبيرتين على وجه السرعة جعلتاني أشعر بدوار شديد.

تميزت زياراتي اليومية إلى القصر في الأسبوع التالي بتناول المشروبات الكحولية بإفراط، لذلك شعرت بالارتياح لعدم الاضطرار إلى الاعتماد على الذاكرة أو الملاحظات، حيث سمحت لي بيغي بتسجيل جميع محادثاتنا في جهاز التسجيل. كانت سعيدة بعد ظهر اليوم الأول، حتى إنها كانت تثرثر بشكل عشوائي، وتتحدث في كل شيء دون أن تركز على تفاصيل علاقتها مع بيكيت. مع كل جملة وأخرى، كانت تقحم عبارة «كم كان يشبه أوبلوموف»، حيث كانت تقارن سلبيته مع سعيها الدؤوب وتشير فيها إلى صفات بطل رواية الكاتب إيفان غونتشاروف (كاتب روسي اشتهر بروايته أوبلوموف حيث أصبح ذكر اسم بطلها يشير إلى الكسل والركود الشخصي

والروتين واللامبالاة - م). أخرجت لي ثلاث صور تم التقاطها خلال ذروة علاقتها مع بيكيت، في منزلها الريفي الواقع في قرية بو تري كاتيج في إنجلترا، وأخبرتني أن أعود في اليوم التالي، حيث سيكون لديها المزيد من الصور والرسائل، والأهم من كل ذلك، دفاتر قصاصات تحوي أشياء مختلفة ابتداءً من قوائم الطعام في المطاعم وبرامج إعلان عن عروض مسرحية وانتهاءً برسائل الحب (التي كانت هي من أرسلت معظمها). لم أستطع إلا أن أفكر في تحذير قالته لي كاي بويل وأنا أقوم بعدة بحوث خلال فصل الربيع، عندما أصرت على أن «بيغي ستحاول الاستيلاء على كتابك». لكن حتى تلك اللحظة كانت بيغي قد أظهرت لي وثائق تثبت كل شيء قالته. ومع ذلك، بقيت حذرة كلما اجتمعت معها للحديث في فترة بعد الظهر.

في يومي قبل الأخير في مدينة فينيسيا، دعتني بيغي إلى عشاء خاص في تلك الليلة. كنت في مأزق، لأنه كان عندها ضيفان، شخصان من المهاجرين الأمريكيين يرتديان ملابس زاهية، وقد قالا لي إنهما عادة يرتديان ملابس العشاء في قصر غوغنهايم، وكانت تلك وسيلتهما لإخباري بأنني كنت ارتدي ملابس غير مناسبة تماماً طوال الأسبوع. كان أغلب ما أرتديه في المساء هو ثوب من قماش البوليستر، وكان تقليداً لثوب رائج في تلك الأيام من تصميم ديان فون فورستنبرغ (مصممة أزياء بلجيكية أميركية ولدت في «بلجيكا»، واشتهرت بفساتينها المبدعة المبطنة - م). فماذا يجب أن أفعل، خصوصاً أنه لم يكن هناك وقت لدي للتسوق ولم يكن لدي أي أموال على أي حال.

عندما عدت إلى القصر في ذلك المساء، كنت أعرف أن شيئًا مثيرًا كان على وشك الحدوث. كانت بيغي ترتدي فستاناً فاخراً بلون ذهبي من تصميم فورتوني (مصمم أزياء إسباني شهير - م)، من تلك الفساتين ذات الثنيات الرائعة التي كانت رائجة في الثلاثينيات من القرن الماضي. وقد شهد ذلك الفستان أسعد أيامها، لأنه كان المفضل لديها خلال سنوات علاقتها مع بيكيت، وكان لديها عدد غير قليل من الصور معه وهي ترتديه. بعد مرور ما يقرب من أربعين عامًا، أصبحت هذه الملابس تحفظ في المتاحف، وقد شعرت بالرعب عندما رأيت مجموعة من كلابها وهي تفرك أجسامها

بالفستان وتشخر ويسيل لعابها عليه وتترك آثارًا من أمراضها الجلدية المخزية على نسيجه الجميل.

كانت قد أوعزت لي بالوصول إلى هناك مبكراً، قبل وصول الضيوف الآخرين (الذين لم تكشف عن هويتهم)، لأنها أرادت أن تريني السرير ذا اللوح الأمامي الفضي الذي صنعه ألكساندر كالدر لها. كان برفقتنا ضيفاها الثري الأمريكي جون غودوين، الذي أخبرني أنه يعيش في أيرلندا «لأغراض تتعلق بالمسائل العقارية»، ورجل آخر عرفته فقط باسم هورنسبي، وكان يعيش في روما وكانت تستشيره بخصوص مقتنياتها الفنية. بينما كنا نسير إلى غرفة النوم، تشاجر الرجلان بصوت منخفض لم أسمع منهما سوى كلام عمّن سيشغل السرير الذي صنعه كالدر مع بيغي في تلك الليلة. نظرًا لأن بيغي كانت تأتيها أحلام سيئة ونومها يكون متقطعاً إذا تركت وحدها، لذلك فقد كان أحد واجبات ضيوفها أن يتناوبوا في النوم هناك أيضًا - ليس هناك أي تعبيرات ملطفة مقصودة هنا، أو كما يقول بيكيت في إحدى عباراته المفضلة عندي، «لا تستخدم الرموز إلا إذا كان وراءها قصد». كان كل شيء يبدو لي حتى الآن وكأني مثل بطلة قصة أليس في بلاد العجائب، وأصبح المساء أكثر سريالية عندما عدنا إلى غرفة الجلوس ووصل الضيوف الآخرون.

كانت الكاتبة المسرحية ليليان هيلمان بصحبة الشاعر الشاب ديفيد كالستون. لقد قرأت ما يكفي عن هيلمان لأعلم أنها يمكن أن تكون قاسية للغاية، وعلمت من أحد أصدقائي الذي كان يفكر في أنه ربما يقوم بكتابة سيرة حياتها، أنها كانت ترغب أثناء حفلات العشاء، أن تصطاد شخصًا ما وتبدأ بالسخرية منه، وخاصة من بين النساء الشابات.. وحيث إنني كنت الشابة الوحيدة من بين الحضور، فقد كنت أتوقع حدوث الأسوأ. كانت هيلمان ترتدي شيئًا طويلًا ورسميًا اعتقدت أنه يشبه رداء الحمام. لقد كان نصفه مفتوحًا في المقدمة، وكشف النقاب عن ياقة مجعدة بشكل شنيع كانت لافتة للنظر للغاية بسبب مجموعة من أحجار الياقوت الكبيرة المثيرة للإعجاب الموجودة في قلادة ضيقة كانت ترتديها.

بعدما تم التعارف بين الجميع وقدمت المشروبات، جلست بهدوء في أقرب زاوية وجدتها في هذا الصالون الواسع جداً. حاولت الاستماع لبعض

المحادثات التي كانت تدور حولي، لكن لم يكن هناك الكثير منها، لأن المضيّفة وضيفها الأساسي كانا يجتمعان للمرة الأولى، وبعد أن تفحص أحدهما الآخر، كان يبدو أنهما منسجمان بعضهما مع بعض. كانت بيغي مهتمه بكلابها وكانت هيلمان تتحدث إلى كالستون فقط. واصل الاثنان مشاجرتهما الغاضبة حول سرير كالدر، وأنا كنت جالسة مبتسمه واعتقد أنني بدوت حمقاء. توقف تقديم المشروبات، وبدا أن بيغي قد غلبها النعاس، والجميع كان صامتاً. كان مصدر الضجيج الوحيد هو الشخير حتى سمعنا صوت خطوات يتردد على طول الأرضية الرخامية في الرواق. لقد كان صوتًا غريبًا للغاية، حيث جعلنا جميعًا نستمع له بصمت ساحر إلى أن جاء رجل عجوز، يرتدي ما يشبه خف غرفة النوم المسطح، ويطلب منا أن نذهب إلى غرفة الطعام لتناول العشاء.

على الرغم من أنني رأيت معظم غرف القصر في زيارات سابقة، فقد فاتتني هذه الغرفة بطريقة أو بأخرى. لقد تفاجأت بها. كانت تحتوي طاولة مائدة من القرن السادس عشر مع مجموعة من أطباق الفخار التي تحمل رسومات يدوية تمثل أشهر السنة، تشرق في ضوء الشموع الناعمة التي أضاءت اللوحات الرائعة على الجدران. كنا على وشك الجلوس في مقاعدنا، وكنت أجلس في المنتصف على جانب واحد من الطاولة، وهيلمان في الجهة المقابلة مباشرة، عندما طلبت مني هيلمان أن أجلس إلى جانبها. كنت أخشى أن تكون جلسة التعذيب اللفظي على وشك أن تبدأ، لكن كل ما فعلته أنها همست في أذني، «إن أحجار قلادة والدتي تكاد تخنقني. هل يمكنك من فضلك أن تأخذي هذا الشيء الملعون بعيداً عني؟» فقمت بنزع القلادة بيدين مرتجفتين قبل أن أعود بسرعة إلى الجانب الآخر من الطاولة.

عاد ذلك الرجل ذو المظهر العادي ليتجول في الغرفة، لكنه كان معه في هذه المرة وعاء أسود كبير مصنوع من حديد الزهر ويضعه تحت ذراعه. ما إن وصل إلى طاولة الطعام حتى بدا يسكب بواسطة مغرفة خشبية شيئاً ما في كل صحن موجود في طاولة العشاء. في وقت لاحق، حينما أستعيد ذاكرتي أعتقد أنه لابد أن يكون نوعاً من يخنة اللحم بالطماطم، لكن الشيء الذي أتذكره أكثر من ذلك الشيء اللزج الذي وضع في صحوننا كان ما قاله

هيلمان حين مال نحوي وهمس في أذني، «الآن عرفت كيف أن الأغنياء يبقون أغنياء: انظري إلى الوحل الذي يأكلونه».

في اليوم التالي كنت قد ودعت بيغي وعدت إلى باريس محملة بالأوراق والصور التي قدمتها لي، كان رأسي يترنح وأنا أستعيد ذكريات ذلك الأسبوع الغريب والساحر في البندقية. بمجرد عودتي، كانت المهام العملية تفرض نفسها واستأنفت البحث عن سكن. كنت محظوظة لأنني وجدت سكناً يعود إلى أستاذ بريطاني قام بالتدريس في جامعة السوربون وكان عائداً إلى إنجلترا في الصيف. كان من نوع المباني التقليدية التي شيدت في أواخر القرن التاسع عشر، يبدو أنه كان رائعاً في السابق ولكنه أصبح الآن رثاً بعض الشيء، وكان يقع في شارع داليزيا في مونبارناس. ويحوي ست غرف واسعة وأرضيات خشبية وديكورات لطيفة ونوافذ واسعة تطل على الأشجار التي تصطف في الشارع، كان مثالياً بالنسبة إلينا. انتقلت إليه في الأول من تموز واستعددت لوصول عائلتي في اليوم التالي.

في تلك الليلة شعرت بخوف لم أشعر به في حياتي عندما أحضر البواب خطابًا من زوجي فون. كتب فيه من دون ذكر التفاصيل «لا تفزعي عندما تشاهدين كاتني». بطبيعة الحال انتابني القلق لدرجة أنني بالكاد استطعت أن أغفو. عندما انتهى أفراد العائلة من عملية فحص الجوازات في مطار أورلي في صباح اليوم التالي، رأيت كاتني، التي كانت في الثانية عشرة، وقد غطى معظم وجهها قناع بلاستيكي، كدت أصاب بالإغماء حتى أخبرتني بخجل، لماذا كانت ترتديه. كانت تمازح شقيقها (كان عمره أربعة عشر عامًا تقريبًا) بمسدس مائي وقام برفع ذراعه... ليتجنب البلل، وضرب أنفها عن طريق الخطأ وكسره. لحسن الحظ، كانت جراحها تلتئم بشكل جيد لدرجة أنها احتاجت إلى ارتداء القناع فقط لمدة أسبوع آخر أو نحو ذلك، أو حينما تقوم بشيء قد يعرض أنفها للخطر.

كان حي أليسيا مناسباً جداً للأسرة، وقد تأقلمنا معه بسهولة تامة. ولأننا جميعاً نتحدث الفرنسية بدرجات متفاوتة، وجدنا الترحيب الحار في كل مكان. كان كلا الطفلين يدرسان اللغة الفرنسية في المدرسة، وكان فون يعرف ما يكفي من اللغة بما يمكنهم جميعًا من الذهاب للتجول بمفردهم

أثناء عملي. كان فون سكوت يخرج في كل صباح لشراء معجنات الكرواسون الطازجة، ويجلب معها أخبار الحي من السيدة، التي كانت تدير المخبز المحلي وكانت تعتذر بسبب اضطرارها إلى زيادة سعر المعجنات بضعة سنتات في كل مرة يرتفع فيها سعر الزبد. وذات يوم نسيت كاتني وضع قطع الصابون في سلتها عندما قامت بالتسوق من متجر البقالة الصغير الواقع في الشارع المقابل. يومها رآني عمال البقالة وأنا أعود إلى منزلي بعد أن انتهيت من إجراء إحدى المقابلات، وقاموا بمناداتي بكثرة وهم يتمتمون بكلمات عديدة ويلوحون بأذرعهم لكي يعطوني قطع الصابون، قائلين إنهم قد وضعوها جانباً حتى إذا ما رأوا أحدًا منا أو من جيراننا أعطوه إياها، وبشكل عام لم يكن بإمكاننا أن نجد موقعاً للسكن فيه أحسن من ذلك الحي.

كان من الجيد أن يتمكن أفراد العائلة من الاعتماد على أنفسهم، لأنني كنت منشغلة بالكامل. فإلى جانب لقائي مع بيكيت، كنت أحاول ترتيب مقابلات مع كل شخص اعتقدت أنه يمكن أن يكون قد عرفه في وقت ما، من رئيس التحرير، إلى الأشخاص الذين عمل معهم في المسرح، إلى أصدقائه، وحتى بعض الأقارب الذين يمرون عليه وهم في طريقهم إلى أيرلندا أو إنجلترا. كان لدي ما يكفي من العمل لإبقائي مشغولة بقية أشهر السنة، بالإضافة إلى الصيف. لكن في البداية، كان عليّ تحديد كيفية التواصل مع بيكيت، وكان القرار الأكثر إلحاحًا الذي يجب أن أتخذه هو كيف أتطرق إلى موضوع لقائه مع عائلتي.

كان بيكيت لا يزال في أوسي عندما وصل أفراد عائلتي، لذلك قررت أن أكتب خطابًا، لأنه بعد كل شيء، فإن الرسالة التي بعثتها له واقترحت فيها كتابة سيرة حياته كانت مقنعة له. كانت الرسالة قصيرة، سألته فيها عما إذا كان يرغب في القدوم إلى شارع الشانزليزيه لتناول الشاي، أو ربما نتقابل لنحتسي القهوة في مقهى زير الكبير الذي يقع في زاوية بجوار محطة المترو. وكان رده متوقعاً: لقد رفض، قائلاً إنه علينا أنا وهو أن نركز على «نشاطه الأدبي» (هو من وضع العبارة بين قوسين). بصراحة، لقد شعرت بالراحة من ذلك الجواب. على الرغم من أنني أردت أن يتمكن أطفالي من القول في السنوات القادمة إنهم التقوا صامويل بيكيت، إلا أنني كنت سعيدة

لأني لم أعد قلقة بشأن أين أو كيف سيتم هذا اللقاء. عندما التقينا أنا وهو في الأسبوع التالي، في أحد المقاهي في شارع راسبيل بالقرب من مبنى شقته، حاول أن يقدم اعتذارًا عن «الانشغال الشديد» وعدم تمكنه من اللقاء مع «الأطفال الصغار» (على الرغم من أنه كان يعرف أنهم مراهقون.)، وأجبت على الفور قائلة إنني متفهمة وضعه تمامًا. بعد ذلك لم نعد نتحدث عن ذلك مطلقًا، على الرغم من أنه كان على وشك أن يقوم بمخاطرة –حرفيًا– لأجل مقابلتهم بعد أسبوع واحد.

كان كلا طفليّ عداءين ممتازين – كان فون سكوت بطل العدو في سباق المسافات الطويلة في مدرسة نيو إنجلاند، بينما كانت كاتني تشرف على فريق المدرسة في العدو وتبلي بلاءً حسناً في سباقاتها. وشارك زوجي في سباق الماراثون بين بوسطن ونيويورك، الذي كان من بين أمور أخرى من السباقات المرموقة. كان الثلاثة يركضون كل يوم في بارك مونتسوريس الرائع بالقرب من شقتنا، وكنت أقوم كلما أمكنني ذلك بالعدو خلفهم، وبعد ذلك، حين لا يعود بإمكاني التنفس تمامًا، كنت أجلس وأقوم بقراءة الكتب أو الصحف أثناء قيامهم بتمارينهم الشاقة.

كنت أجلس عادة وسط مجموعة من الرجال المسنين الذين كانوا يقضون أوقات فراغهم في فترة ما بعد الظهر على الكراسي المنتشرة على طول مسار الجري. كنت اعتبر ذلك الوقت موعدي اليومي مع المرح والاستغراق في الضحك حين كنت أراقب طفليّ وأنا أومئ برأسي تشجيعاً لهما عندما يمران من أمامي، ثم أسألهما بقلق، «أين بابا؟» حتى يظهر زوجي الذي يركض أبطأ منهما بعد عدة دقائق. كنت مستغرقة في قراءة مقال نشرته صحيفة اللوموند عن الكشف عن فضيحة وترغيت عندما نظرت للأعلى ورأيت أمامي صامويل بيكيت بهيئته النحيفة الطويلة، فقد كان يحب المشي أيضًا في الحديقة، وكان يتمايل بخطواته. في لحظة من الارتباك التي تلاها الفزع، استرخيت في مقعدي وأمسكت بورقة لأخفي بها وجهي. عبر بيكيت، الذي كان مستغرقاً في عالمه الخاص، من أمام مجموعتي الصغيرة من الرجال المسنين دون أن يراني واستمر في طريقه. عندما أصبح بعيدًا عن مرمى البصر، ظهر طفلاي من الاتجاه الآخر، لم يعترضا طريقه تحديداً

ولكن الثلاثة كانوا قريبين بما يكفي ليتمكنوا من رؤية بعضهم بعضاً. وبطبيعة الحال لم تكن هناك إشارة ولو بسيطة للاعتراف بما حدث من كلا الطرفين. عندما كتبت ملاحظة عن ذلك الحادث في وقت لاحق من ذلك اليوم، لم أجد تعبيراً شائعاً لوصفه غير تشبيهه بلقاء عابر كما يحدث مع تلاقي السفن وسط الظلام.

مع استمرار شهر تموز، ازداد ارتفاع درجات الحرارة، وبينما كنت أتجول في باريس يوميًا، اعتقدت في بعض الأحيان أنني لن أتمكن من الحصول أبداً ولو على مقابلة واحدة أخرى. شملت مقابلاتي مع الشخصيات التي تعمل في المسرح الممثلة الشهيرة مادلين رينو وزوجها الممثل - المخرج، جان لويس بارولت، والمخرج المسرحي سيمون بنموسا، واثنين من الممثلين المفضلين لبيكيت شاركا في عمله المسرحي في انتظار غودو، وهما روجر بلين وجان مارتن. أما بالنسبة للعاملين في مجال النشر فقد قابلت السيدة جيني برادلي، الوكيلة الأدبية الشهيرة حيث يبدو أنها كانت معروفة أنها دائمة الحضور إلى باريس حيث تصبح وكيلة لكل شخصية أدبية واعدة، وكانت تعرف بيكيت منذ ثلاثينيات القرن العشرين. تناولنا أنا وفون طعام العشاء مع بيل هايتر وديزيريه مورهيد في مرسمهما في شارع دي لوبسيرفاتوار. هناك قابلت الشاعر الأيرلندي جون مونتاغ، ومن ثم قابلته بعد فترة وجيزة في شارع داجير في إستوديو زوجته الأولى، مادلين مونتاغ التي عملت في مجال النشر وكانت أيضًا صديقة لـبيكيت، لذا قابلتها هي وأشخاصاً آخرين يعملون في مجال النشر والصحافة وهم أشخاص لعبوا أدوارًا صغيرة ولكنها مهمة في حياة بيكيت. لم أستطع مقابلة إحدى الشخصيات، ليس لأنها أرادت ذلك بل لأنها لم تكن في باريس: إنها ماريا غولا. أخبرتني ابنتها، المؤلفة الموسيقية بيتسي غولا، أن والدتها تتطلع لمقابلتي عندما تعود من رحلة لها في لندن تستغرق أسبوعاً.

عندما بدأت في كتابة مذكراتي هذه، خبأت صندوقًا يحوي عدداً من الدفاتر القديمة التي تحوي مواعيدي ومقابلاتي، على أمل تحديد التسلسل الزمني لها والتحقق من تواريخها. إلى أن أعدت قراءتها، لم أكن أذكر كم تحتوي من أمور، وملاحظات تفصيلية حول جميع الأشخاص الذين

قابلتهم. وأطلقت عليها اسم مذكرات يومية، أو (DD) ولم أكن أقدر مدى قيمتها حتى سمعت مارجو جيفرسون تتحدث عن الأساليب المختلفة التي استخدمتها في مذكراتها التي صدرت تحت اسم أرض الزنوج حيث قالت إنها تريد «إظهار ما تفعله الذات في وقت معين، في لحظة معينة من التاريخ». لقد سمحت لي مذكراتي بأن أعرض نفسي كما كنت آنذاك، الكاتبة الشابة التي تشعر كأنها وجدت غايتها في النوع الجديد من الكتابة، حتى ذاتي التي تكتب هذا الآن تراعي منظور الوقت والمسافة. أنا الأكبر سناً (وآمل أن تكون الأكثر حكمة) تحتاج إلى مساعدة لتتذكر تلك الشابة الصاخبة التي أدركت تدريجياً فقط أنها كانت تقلب صفحات جزء صغير من التاريخ الثقافي في زمن شهد تغيراً اجتماعياً كبيراً.

كانت مادلين رينو من أوائل الأشخاص الذين كتبت عنهم في سجل مذكراتي اليومية (DD) وقد لاحظت أنها خلال مقابلتنا الرسمية، «جلست ثم قامت بتشغيل جهاز التسجيل، وعندما انتهت – قالت لقد أنجزنا كل شيء. ثم استدارت كما لو كانت الستارة قد أسدلت وانتهى العرض المسرحي. كان لدي شعور بأنني حين كنت أتلمس أعلى درجات المودة من أمراة فرنسية أثناء حديثها عن صامويل بيكيت فإنها كانت تخفي وراء ذلك كله مجموعة من الأحقاد».

ولقد كان حدسي دقيقًا، لأنه في وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما التقيت روجر بلين، أكد لي مدى الصعوبة التي كان يجدها بيكيت في العمل معها فقد قالت له: «كيف تطلب من سيدة المسرح الفرنسي أن عليها أن تقرأ مشاهد المسرحية بالطريقة التي كتبتها بها؟ في نهاية المطاف كان عليه أن يستسلم ويتركها تفعل ما تريد. لم يستفد أحد من أدائها، لا المؤلف ولا الجمهور».

كان مزاجي المعتاد في تلك الأيام هو حالة من الإحباط الشديد، عندما حاولت الاتصال ببلين لأول مرة. بعد عدة محاولات، حصلت أخيرًا على هاتف في مقهى تاباك يقبل العملة المعدنية التي كنت أحملها، وكانت من نوع العملة التي يشتريها المرء لإجراء مكالمة في هاتف عمومي. أجابني بلين منذ الرنة الأولى للهاتف بأنه ليس لديه ما يفعله، فلماذا لم أتوجه إلى شقته بحلول الساعة الخامسة مساءً؟ كان يعيش بالقرب من شارع ريفولي

في وسط المدينة الذي كان شديد الزحام. عند الساعة الرابعة والنصف، كنت أتصل من أقصى الجنوب، من الدائرة الثالثة عشرة. لم أكن أعرف بلين واعتقدت أن كل من يعرف بيكيت كان على الأرجح قدوة يحتذى بها في الالتزام بالمواعيد كما كان حاله، بدأت رحلتي مع قطارات المترو، وتغيرت إلى ركوب حافلة، ووجدتني أخيرًا أركض بأسرع ما يمكن للوصول إلى هناك في الوقت المناسب. عندما اقتربت من مبنى بلين، نظرت إلى الأعلى ورأيت شخصاً يتكئ على الحاجز الحديدي في الجزء السفلي من نافذته، مبتسمًا وهو ينظر إلى مشهد الشارع تحته. كان بلين، يستمتع بفترة راحة ما بعد الظهر. مكتبة سُر مَن قرأ

كنت أتقطّر عرقًا عندما صعدت إلى الطابق الرابع أو الخامس – لا أذكر أيهما – حيث قدم لي بيرة، وكانت دافئة لأنه لم يكن لديه ثلاجة. قال إنني حسناً فعلت بعدم المجيء في الصباح، لأنني كنت سأضطر إلى تناول قهوتي سادة، لأنه لم يستطع الاحتفاظ بالحليب أو أي شيء آخر يحتاج إلى التبريد، إلى أن يحلّ الشتاء، عندما يكون بإمكانه وضعها في شرفة النافذة. بدأت أرتشف البيرة الدافئة وجلست لعدة ساعات بينما كان يأسرني بقصصه عن الإنتاج الأول لمسرحية بيكيت في انتظار غودو، وكان غالبًا ما يقفز لأداء مشهد أو مقطع معين منها، يردد الحوار بصوت رائع لدرجة أنني كنت سعيدة وأنا أسمع خشخشة جهاز التسجيل. ما أرعبني، عندما حاولت إعادة تشغيله، أنني اكتشفت أن تلك الخشخشة كانت نتيجة خلل في الجهاز، وكان لا بد من استبداله. لم يتم تسجيل أي شيء من أول محادثة أجريتها، ولكن كما هي عادتي، كنت قد سجلت ملاحظات وفيرة للتأكد من أنه يمكنني إعادة صياغتها.

مع مرور الوقت، روى لي روجر بلين حكايات مفيدة حول كيف استطاع هو والممثلون الآخرون، وخاصة جان مارتن، الذي لعب دور لاكي في مسرحية في انتظار غودو، أن يقتربوا بأدائهم من الشخصيات الحقيقية، وكيف تفاعل بيكيت معهم. كما حصلت على معلومات إضافية من الكاتبة سيمون بنموسا، التي أعطتني وصفًا دقيقًا أكثر تفصيلاً لكيفية عمل بيكيت على الجوانب الفنية لمسرحياته. كانت سيمون تعمل ظاهرياً مساعدة

للممثل جين لويس بارو، الذي كان في ذلك الوقت مسنًا ومريضًا ولكنه لم يكن يرغب في التقاعد عن العمل. في الواقع، كانت هي من تدير الشركة، وكانت هي التي اعتمدت عليها في الحصول على معلومات واسعة عن كل شيء بدءًا من طريقة إخراج مسرحيات بيكيت إلى كيفية معاملة النساء في فرنسا، ليس في المسرح فقط ولكن في جميع جوانب الحياة الفكرية العامة أيضاً. كانت ناشطة نسوية وقد اعتمدت على رؤيتها، حينها وفيما بعد كذلك، خلال السنوات التي كنت أكتب فيها سيرة حياة سيمون دي بوفوار. ولكن الممثل روجر بلين هو من كنت أستعين به مراراً وتكراراً. في البداية كنت أستعين به ليروي لي كل قصة تتعلق بالعرض الأول لمسرحية في انتظار غودو، ثم بدأت أستعين به لأنه أصبح صديقاً جيداً لي ولعائلتي.

صادفت أول ظهيرة قضيتها مع بلين في أحد أيام الخميس، وفي يوم الأحد الذي تلاه حضرنا حفل عشاء صغيراً في شارع الشانزليزيه للترحيب بقدوم جان وجورج ريفي إلى باريس. وكان من الحاضرين بيل هاير وديزيريه مورهيد، واصطحبا معهما اثنين من أصدقائهما، الفنانة الإيطالية ليا رونديللي وشريكها الإنجليزي، الفنان إيدي ألين. قال بلين إنه سعيد بحضوره. لم يكن يعمل، ولم ير بيكيت منذ فترة طويلة، ونادراً ما كان يرى أيًا من أصدقائه القدامى. وإذا كنت طباخة شاطرة، فسيسعده أن يتناول طعاماً صنعته بنفسي.

كان أول ضيف وصل في ذلك الأحد، وكان يبدو أنيقًا وهو يرتدي سترة حريرية صفراء براقة وقميصًا أسود منقطاً بنقوش ذات لون أخضر لامع – وهو الزي الذي كان فخوراً بالقول إنه اشتراه لهذه المناسبة من سوق الملابس المستعملة في منطقة بورت كلينيكور في باريس.. حدث ذلك عندما أخبرنا أنه لا يلبس أبدًا ملابس داخلية ووضّح الأمر في القصة التي أوردتها في كتاب السيرة، عن السجين السابق الذي خرق قواعد الإفراج المشروط ليحضر بروفات مسرحية في انتظار غودو في كانون الثاني في ثوب صيفي خفيف كان يرتديه في السجن وطلب من بلين أن يعطيه بعضاً من ملابسه القديمة، ولا سيما ملابسه الداخلية. عندما سمع بيكيت بذلك، أعطى الرجل المال لشراء ما يحتاج إليه، وخاصة الملابس الداخلية. استمع أطفالي إلى القصة وهم مذهولون. استمرت رواية القصص إلى أن وصل

الضيوف الآخرون، واستمر الحفل حتى الساعة الثانية والنصف صباحًا. أعتقد أننا كنا جميعًا متعبين حد الإرهاق، لكن بلين ظل متماسكاً حتى قرر أن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل. لم يقل حتى وداعاً. نهض من مقعده وخرج من الشقة. وقف الضيوف الآخرون وهم يترنحون خلفه، وتركت أنا وزوجي جمع بقايا الطعام وارتمينا على السرير لنغط في نوم عميق.

كان صباح اليوم التالي مزدحمًا لأفراد عائلة بيير الثلاثة الآخرين، الذين غادروا بشكل مبكر إلى بلدة شارتر. كان الوقت حوالي الساعة الثامنة وكنت لا أزال مستلقية في فراشي، حيث إن موعد أول مقابلة لي لن يحين إلا عند وقت الغداء، عندما رن جرس الهاتف الموجود بجانب السرير. تكلمت المتصلة بصوت عالٍ ومتعجرف، «معك ماريا يولاس. أخبرني سام أنه ليس من الضروري أن أراك، لكن هذا لا يعني أنني لن أتحدث معك. لذلك أنا أتصل بالهاتف». كان عليّ أن أطلب منها أن تكرر ما قالته للتو، لأنها أيقظتني من نوم عميق. عندما استوعبت أخيرًا ما كانت تقوله، أصبت بالفزع التام. «سام» أخبرها ألا تراني، لكنها استنتجت أن أوامره لا تتضمن حظر التحدث معي؟ ترى أي نوع من المشاكل ستخلقه لي مع بيكيت؟ لم يكن لدي وقت لاستيعاب أفكاري، لأنها بدأت تتكلم لأكثر من ساعتين. كان لدي دفتر ملاحظات صغير بجانب هاتف السرير، وقد ملأت كل صفحة منه. كتبت في الواقع على الحائط عندما نفد الورق. جلست متربعة هناك، كنت في حاجة ماسة للذهاب إلى الحمام، لكن سلك الهاتف لم يكن يمتد إلى هذا الحد ولم تكن هناك طريقة لأقاطعها بها.

وقد غطت في حديثها جوانب لا حصر لها من حياة بيكيت، من أول مرة التقى فيها جيمس جويس إلى جوانب من علاقته مع لوسيا ابنة جويس، وكيف التقى بيكيت بزوجته، وما فعله في الحرب - وواصلت سرد الأحداث الواحد تلو الآخر من دون توقف. كنت دائماً ما أصف تلك المحادثة بأنها كانت «سلسلة من الوقائع كما روتها ماريا». لم يكن بالإمكان الوقوف في وجه خطبتها المتعجرفة عن كل الأشياء الأدبية وإصرارها المتزمت على أنها وحدها تعرف الحقيقة؛ وتسبب طغيان اعتدادها بنفسها في أن ينتج عنه الخطأ الوحيد في ذكر الوقائع الذي تضمنه كتابي عن سيرة حياة بيكيت.

لكن من اضطررت إلى التعامل معه فوراً بعد تلك المحادثة الهاتفية الغريبة كان بيكيت، حيث كان من المقرر أن ألتقي به في مقهى راسبيل في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم، وكان عليّ أن أخبره بكل شيء، تساءلت مع نفسي – ماذا فعلت؟ بهذه الطريقة كنت أفكر في تلك الأيام التي سبقت تبني مبادئ الحركة النسوية. ما هي الخطيئة التي ارتكبتها، وأية فعلة شنيعة قمت بها حين تركتها تتحدث، الأمر الذي من شأنه بالتأكيد أن يجعل بيكيت يصب جام غضبه فوق رأسي؟ لقد اكتشفت ذلك نوعًا ما بعد ظهر ذلك اليوم.

الفصل التاسع

كانت «اللقاءات» التي تجمعني مع بيكيت في الفترات التي تفصل ما بين عدد من المقابلات الرسمية الأخرى تحدث في الغالب في المقاهي القريبة من محطات المترو في دنفر روشيرو وراسبيل، وأحياناً في فالستاف، وهو مطعم وبار يقع في ضاحية مونبارناس، حيث كان يعرفه جميع السكان المحليين ويحترمون خصوصيته. بعد أن انتهيت من إنجاز ما أسميته «لعبة الورق الذهنية»، كنت دائماً أجهز أسئلة أكثر مما يمكننا الإجابة عليه خلال ساعة ونصف إلى ساعتين وهي المدة التي كانت تستغرقها هذه اللقاءات عادةً. ومع ذلك، نادراً ما كنت قادرة على طرح حتى تلك الموجودة على رأس القائمة، لأن بيكيت كانت لديه دائماً أسئلته الخاصة. كان يشعر بالفضول الشديد لمعرفة ما يقوله لي الآخرون، ولأن ما كنت أبحث فيه هي حياته الخاصة، اعتقدت أن لديه الحق في معرفة ما قالوه والتعليق عليه، لذلك أخبرته بشكل عام بما يريد معرفته – إن لم يكن أغلبه.

كان يسألني بانتظام عن شيء كنت أسمعه للمرة الأولى منه، أمر لم يأتِ على ذكره في أي من المقابلات التي أجريتها. سرعان ما أدركت أنه عندما كان يتطرق إلى مثل هذه الموضوعات، كان بسبب أنه كان يعتقد أن لها علاقة بسيرة حياته. كان يتكلم بصوت حازم وأعلى من المعتاد، وكان طوال الوقت ينظر نحوي مباشرة ويومئ برأسه بقوة. في بعض الأحيان، عندما كنت أقوم بخزن تعليقاته الأولى في ذهني، بدا لي أنه كان يعتقد أنني لم أكن أولي له اهتمامًا بما فيه الكفاية، لذا فقد كان يكرر تعليقه مرة أو مرتين، وبعدها مع إيماءة رأس قوية. وجدت نفسي أجيبه وأنا أومئ له برأسي، كأنني أقول، «نعم، لقد فهمت. نعم، نعم، سأبحث بالتأكيد عن هذا». لم أقل ذلك مطلقًا

بصوت عالٍ، ولكن بمجرد التأكد من أنني استوعبت ما قاله لي، فإننا نواصل حديثنا مثل «صديقين يتحدثان». وهكذا أصبحت هذه المواضيع التي أشار إليها أو مجموعة المعلومات التي أدلى بها على رأس قائمة المهام التي تنتظرني حيث يتوجب أن أقوم بمتابعتها لاحقاً. وما إن أدركت بشكل أساسي قواعد اللعبة التي كنا نلعبها، حتى اكتشفت طرقًا غير مباشرة لأطلب من بيكيت أن يخبرني بروايته للأحداث بغض النظر عن مدى إصراره على وجوب أن أتحقق منها.

بعد أن أخبرت بيكيت بما اكتشفته من حكايا عنه لمرة أو مرتين بدا مترددًا في الإدلاء بشهادته عنها، فقلت له، «ربما من الأفضل أن ترويها لي من جانبك، لأتأكد فقط من أنني حصلت عليها بشكل صحيح» كانت هناك موضوعات معينة – كانت على رأسها علاقاته مع النساء – أثبت هذا التكتيك معه أنه ذو نجاعة. لم يكن بيكيت ذكياً فحسب، بل كان فطناً أيضاً. كان يعلم أنني في بعض الأحيان لم أكن أعرف الكثير – هذا إذا كنت أعرف أي شيء على الإطلاق – عن الموضوع قيد البحث وأنني كنت أسمع عنه للمرة الأولى منه. وكان أيضًا ذكيًا في توجيهي نحو المعلومة التي أراد أن أحصل عليها من خلال الإشارة إلى أنني يجب أن أكتفي بروايته ولا أذهب إلى أبعد من ذلك. في المقابل، كنت أستخدم ما قاله لي، لكن كنقطة انطلاق فقط لمزيد من البحث ولكتابة ما خلصت إليه في النهاية، الذي سيصبح السرد الذي يتضمنه كتابي. ما كتبته كان في كثير من الأحيان أكثر تعقيدًا وتشعباً مما قاله لي، حيث إنني كنت أعتمد أحيانًا على ما أخبرني به الآخرون بنفس الدرجة التي كنت أعتمد فيها على ما قاله بيكيت.

وما حدث بينه وبين لوسيا جويس كان مثالاً على ذلك. وقد أشرت إلى هذا الموضوع لأن ما لا يقل عن عشرة أشخاص قابلتهم أصروا على أن هذا هو السبب الحقيقي لانقطاع علاقة بيكيت مع جويس. عندما سألت بيكيت عن ذلك، لم أكن متأكدة من رد فعله، سواء كان منزعجًا أو غاضبًا أو كان شعوره مزيجًا من الاثنين. لقد تجاهل الأمر بعدة جمل، قائلًا إن لوسيا ربما أصابتها «حالة افتتان قصيرة لتلميذة مدرسة سرعان ما انتهت في دقيقة واحدة»، ثم قام بتغيير الموضوع. بعد تدقيقي لشهادة العديد من الأشخاص

الذين كانوا يراقبون كلاً من لوسيا جويس وصامويل بيكيت، وبعد قراءة ما كتبه بيكيت بنفسه في رسائل بعث بها إلى عدة أصدقاء (كان من بينهم جورج ريفي وتوماس ماكغريفي)، عرفت أن هذا الموضوع يتطلب أكثر بكثير من مجرد الاكتفاء برفض بيكيت للحديث عنه.

بحلول الوقت الذي أدركت فيه ذلك، كنت قد عقدت لقاءات كافية مع بيكيت جعلتني أشعر أحيانًا وعلى الرغم من أن أسئلتي أدت به أحياناً إلى نوبة من الانفعال أو الغضب، أنه لا يعترض على حثي له على الإجابة على بعض الأسئلة التي لم تعجبه. في إحدى فترات ما بعد الظهر المتعبة عندما كان أقل صراحة، اندفعت للقول دون تفكير شيئا مثل «حسنًا، من الأفضل أن تخبرني بهذا إذا كنت لا تريد أن يكتب إيلمان عنه أولاً». وبدلاً من أن يجعله قولي ذلك يشعر بالغضب، جعله يضحك، وقد فعل شيئًا كان كثيراً ما يفعله عندما أسأله عن شخص معين: قام بتقليد ريتشارد إيلمان. لم أقابل ذلك الرجل مطلقًا، لذلك لا يمكنني أن أشهد على دقة تقليد بيكيت له، لكنني أعتقد أنه كان جيدًا. في كل مرة كان يقلد فيها شخصًا كنت أعرفه شخصيًا، كان (باستخدام أحد تعبيراته) «تقليده في محله». كنت أجلس وأنا مندهشة للغاية من دقة تقليده، وأفكر في كثير من الأحيان أنه كان بإمكانه تأدية دور أي شخصية كتبها لأنه كان موهوبًا جدًا في تصوير هيئة وشخصية أفراد آخرين. كانت بعض طرق تقليده ببساطة مضحكة، لكن كانت هناك طرق أخرى أعتقد أنها كانت تميل إلى القسوة والسخرية. ما زلت حتى يومنا هذا، أصفه دائمًا بأنه رجل مهذب من الزمن القديم يتمتع بتهذيب لا تشوبه شائبة، وكان يصدمني أحيانًا بتقليده الحاد والدقيق والمدمّر للأشخاص.

حدث كل هذا بعد ظهر أحد الأيام عندما كان مترددًا في الحديث عن إعجابه (إن لم يكن حبه) لإيثنا ماكارثي، وكانت طبيبة وشاعرة، وقد رفضته وتزوجت من كون ليفنثال. أشرت ذات مرة وقد كنت منزعجة إلى ريتشارد إيلمان. حدث ذلك عندما انطلق في تقليده بشكل جعلني أشعر بذهول تام. أصبح اسم إيلمان نوعًا من الشفرة السرية التي نتبادلها فيما بيننا خلال السنوات القليلة التالية، عندما كان كل ما كان عليّ فعله هو ذكرها لجعل بيكيت يخبرني على مضض ما أريد أن أعرفه منه.

في بعض الأحيان، عندما كان بيكيت يريد أن يعرف من كان على قائمة الأشخاص الذين سأقابلهم، كنت أقرأ الأسماء ويقوم هو بتقديم سيرة حياة مختصرة لهم ويقلد أصواتهم أو بعض سلوكياتهم. وعندما التقيت في وقت لاحق ببعض هؤلاء الأشخاص للمرة الأولى، أدهشني مدى دقة تقليده لهم بشكل قريب جداً من الواقع. وفي كل مرة يقوم بتقليد أحدهم، كان وجهه يسترخي، ولكن الغريب أن عينيه لم تلتقيا بي قط وكان يدير رأسه بعيدًا. كنت أتساءل مع نفسي هل كان محرجًا؟ هل كان يشعر بالخجل من هذه اللحظات حينما يكون منفتحًا جدًا معي؟ هل تساءل مع نفسه كم كان مبهراً، وهل كان يقلق بشأن تفسيري لحركات التقليد التي كان يقوم بها، أو ما إذا كنت سأكتب عنها؟ على مدار كل تلك السنوات التي مرت منذ ذلك الحين، لم أتوصل قط إلى جواب نهائي. ربما كانت كل هذه التخمينات العشوائية وغير المركزة صحيحة؛ وربما لم تكن كذلك. عندما يسألني الناس كيف يتصرف المرء وهو في حضرة صامويل بيكيت، كانوا عادة ما يفعلون ذلك باحترام، كما لو كان إلهًا. كنت أجيبهم بإيجاز قدر الإمكان بشكل محترم ولكن مع لمحة من التجاهل تسمح لي بتحويل الحديث إلى أشياء أخرى. أحيانًا أقول إن الأمر أشبه بلعبة تركيب الصور المقطعة الصعبة؛ في أحيان أخرى أقول إن الأمر كان شعوراً بمدى حماقتي. إلى الآن، لم أخبر إلا واحدًا أو اثنين فقط من أكثر المقربين مني ثقة كيف كنت أشعر حقًا: في أغلب الأحيان، كنت أشعر أنني مثل دمية متحركة كان هو من يتحكم بخيوطها، لأنني لم أكن أعلم قط أين اتفقت معه في الرأي. في البداية، كان ودودًا ومنفتحًا ومتلهفًا لسماع مغامرات المقابلات التي أجريتها. وطوال معظم أشهر صيف عام 1973، كنت مراسلة صحفية مطيعة، بمعنى أنني كنت أبلغه الكثير مما يريد أن يعرفه عن العمل الذي أقوم به، مثل تجوالي في أرشيفات المكتبات (للبحث عن مراجعات لمؤلفاته ومسرحياته) وفي المقابلات الشخصية (عندما كان الناس يقدمون لي في كثير من الأحيان المراسلات والصور وغيرها من الهدايا التذكارية الشخصية). لكن في بعض الأحيان كانت الأمور تتغير وكنت أرى جانبًا آخر من شخصيته. كان كلما شعر بأنني أقترب كثيرًا من

شيء كان مترددًا في الكشف عنه، يصبح مقتضباً في حديثه، ويتوقف عن إبداء ملاحظاته، ويبدأ بانتقاد ما أقوم به.

لقد فكرت في هذا الأمر كثيرًا أثناء وجودي في باريس في ذلك الصيف، لأنني كنت لا أزال في طور تعلم كيف أصبح كاتبة سيرة. قبل أن أقوم بهذه الرحلة البحثية، تلقيت دعوة من الفقيدة إيلين وارد العالمة المتميزة وكاتبة السيرة والأستاذة الجامعية لحضور حلقة دراسية عن تجربتها في كتابة السيرة في جامعة نيويورك. وقابلت هناك كتاب سير حياة آخرين أصبحوا فيما بعد أصدقائي، وتعلمت منهم الكثير حول تقنية وطريقة تأليف السير وكيفية كتابة محتواها بينما كنت أبذل قصارى جهدي لمعرفة شكل الكتاب الذي كنت أحاول تأليفه ولتحديد المهمة التي كنت أقوم بها. كنت مختلفة عن الآخرين، حيث كنت أكتب عن شخص حي، في حين أن معظم زملائي في الحلقة الدراسية كانوا يكتبون عن أناس ماتوا منذ فترة طويلة. غالبًا ما كان يتم سؤالي من قبل أولئك الذين لم يكونوا يعملون إلا في أماكن حفظ الأرشيف يبحثون في الرسائل والمذكرات والوثائق الأخرى كيف كان الأمر حين يتم تأليف سيرة حياة شخص ما زال حياً أو مع «الأشخاص الأصليين»، وهو تعبير شائع لمن كنت أجري معهم مقابلات. والأكثر من ذلك، أنهم أرادوا معرفة كيف كان يجري الأمر عند مقابلة صامويل بيكيت.

تجمعت كل هذه الأفكار في رأسي في ذلك الصيف في باريس، خاصة عندما تذكرت رواية كون ليفينثال حول وصف بيكيت لي بأني «المرأة ذات الشعر المخطط». في كل مرة كنت أفكر في الأمر، كنت أصل إلى استنتاج أن بيكيت لم يكن يعتبرني عميقة التفكير وأنه كان متسامحاً معي لا غير. كان الأمر مزعجًا، لأنه أثار عندي ذكريات أيامي الأولى في العمل كصحفية، عندما كانت النظرة إلى النساء لا تعدو في الغالب كونهن مراسلات «فتيات» يطوقهن الرجال، ومحكوماً عليهن بأن يصبحن باحثات (كما كنت في مجلة نيوزويك) أو يتم نفيهن إلى ما يسمى صفحات المجتمع للكتابة عن وصفات الأطعمة والأزياء ونوادي الطلبة وحفلات المجتمع (حيث حاول محررو الصحف وضعي قبل أن يستسلموا ويجعلوني أحرر الأخبار وأكتب عن الشخصيات السياسية). كان الاعتقاد أن بيكيت قد يضعني في هذه الفئة

يجعلني أشعر بالإحباط. غالبًا ما كان عليّ أن أذكّر نفسي بالعبارتين اللتين قالهما لي عندما كنا نضع القواعد الأساسية لكيفية قيامي بعملي: «إنني ألتزم بوعدي»، وأنه، «لن يساعدني ولن يعيق» عملي. تشبثت بهاتين العبارتين، خاصة بعد المكالمة الهاتفية التي أجرتها معي ماريا غولاس، والتي شعرت حينها بأنني مضطرة لإخباره عنها.

كنت ما أزال أحاول أن أحدد كيف أستوعب كلامها الغريب، لأحدد ما هي الأجزاء التي قالتها - والتي يجب أن أخبر بها بيكيت. هل سيشعر بالضيق لدرجة أنه سيقرر التراجع عن تعاونه معي؟ في النهاية، خلصت إلى أنه حتى بعد أن أخبرته معظم ما قالته (ولكن ليس كله)، فإنه سيفي بوعده. وإذا تمكن من إيجاد طريقة لتعزيز روايته للأحداث، فسيفعل ذلك. كنت أتردد في وصف جهوده باستخدام التعبير المعاصر «يلف ويدور»، ولكن في بعض الأحيان اعتقدت أنه كان يقترب بشكل خطير من تجسيد ادعاء براين كوفي المثير للجدل على أرض الواقع الذي كان يصف بيكيت بأنه كان يحاول صياغة رأي الأجيال القادمة به بينما كان لا يزال على قيد الحياة ويستمتع بمباهجها.

لقد قابلت مئات الأشخاص في السنوات التي أمضيتها في كتابة سيرة حياة بيكيت، وكنت أشعر طوال ذلك الوقت كأنني دمية يتم التلاعب بها وذلك عندما أخبر ماريا غولاس ألا تراني. كانت هي الشخص الوحيد الذي طلب منها عدم التعاون معي، وعندما سألته لماذا منعها، قام بتقليدها، وصورها كنموذج للثرثرة، عجوز ثرثارة لا تهتم سوى بالقال والقيل.

خلقت مكالمة ماريا غولاس الهاتفية مشاكل أخرى استمرت وقتاً طويلاً معي، وكان السبب أن الكثير مما أخبرتني به تطرق إلى أمور حساسة. كانت هناك قاعدة واحدة صارمة وسريعة طبقتها على المعلومات التي سأستخدمها أثناء تأليف الكتاب جاءتني من مهنتي كصحفية: وهي أنني سأحتاج إلى مصادر متعددة لكل قصة أسمعها. كنت أعلم أن الكثير مما كتبته عن بيكيت كان جديدًا وغير معروف للعالم بأسره، وأن كل جملة كتبتها يجب أن يتم التحقق منها بشكل صحيح وتكون مضبوطة مئة بالمئة.

بعد أن أمعنت التفكير في رأي بيكيت في سيرة جيمس جويس التي ألفها الناقد الأدبي ريتشارد إيلمان وكيف قام بتقسيم حياته إلى أجزاء، وجعلي حتى أصدقاءه المقربين وأفراد عائلته يطلبون مني إخبارهم عن أشياء شعرت بالدهشة عندما علمت أنهم لا يعرفونها، أصبحت ماهرة في تغيير نمط مثل هذه الأسئلة حتى لا أخاطر بإثارة استياء بيكيت. وبصفتي باحثة كذلك، لم أكن أرغب في الاستغناء عن أية معلومة حتى لو كانت مجرد إشاعة وربما تثبت عدم صحتها لاحقًا. مع هذه الفرضية الأساسية، قررت أنه يجب أن يكون لدي ثلاثة مصادر منفصلة لأي معلومة أدرجها في الكتاب؛ كان على ثلاثة أشخاص مختلفين أن يخبروني بالقصة نفسها، ويصفون نفس الموقف، ويكشفون عن نفس الحقيقة التي لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، وكان الأمر يحدث معها كلها بشكل مستقل ومن دون أي مطالبة مني. وبالنسبة لبعض المعلومات الأكثر حساسية، كنت أستعين بأكثر من ثلاثة، وأحيانًا ما يصل الأمر إلى الاستعانة بخمسة مصادر، وبغير ذلك فإني لن أذكر تلك المعلومة في الكتاب.

ومع ذلك، أثبت هذا النظام الصارم أنه ليس مضموناً، وكانت ماريا غولاس هي التي جعلتني أحيد عن الصواب في قصة كيف تعرّف بيكيت على زوجته سوزان، وهو موضوع وجدت صعوبة في سؤال بيكيت عنه. كانت سوزان على رأس قائمة الموضوعات التي كان بيكيت متردداً في التحدث عنها. على الرغم من أنه كان يذكر اسمها بكل بساطة في كل محادثة تقريبًا، وكان دائمًا ما يشيد بفضلها في الصعوبات التي تحملتها من أجل عرض أعماله على الملأ، إلا أن اسمها كان دائمًا ما يجعل وجهه يحمرّ بشكل عميق، ويكون مقدمة لدخوله في نوبة سريعة من الغضب، لذلك كنت أحرص على تغيير الموضوع بسرعة في مثل هذه المناسبات.

كان لا بد لي من أن ألتقي أكثر من مئة شخص ليخبروني كيف التقى بيكيت مع سوزان. قال نصفهم إنه قابلها في مساء أحد الأيام في الثلاثينيات من القرن الماضي عندما طعنه شخص مضطرب عقلياً بلا مبرر أثناء سيره في أحد الشوارع، وجاءت سوزان لإنقاذه بينما كان ملقى على الأرض. أما النصف الآخر فقد نفوا ذلك، وقالوا إنهما كانا على علاقة قبل حادثة الطعن.

انحازت ماريا إلى أولئك الذين قالوا إن الاثنين التقيا عندما تصادف مرور سوزان وقت وقوع الحادثة وشاهدت بيكيت يتعرض للطعن. ولأن كل شيء آخر أخبرتني ماريا كان بحاجة إلى التحقق منه، ولأن معظم المصادر التي وثقت بها – أكثر من خمسة أشخاص – اتفقت مع ما قالته، فكان ذلك ما أوردته في الكتاب. ولكنه لسوء الحظ، لم يكن صحيحاً.

بعد أن تمت طباعة الكتاب وعلمت بخطئي، اتصلت بالعديد من أولئك الذين اتفقوا مع ماريا في روايتها ليخبروني مرة أخرى عن سبب إيمانهم بما قالوه ومن أين حصلوا على معلوماتهم. كانوا في الأصل قد قالوا أشياء من قبيل «أخبرني سام» أو «كنت في باريس في ذلك الوقت وزرته في المستشفى». في وقت لاحق، حينما ضغطت عليهم لمعرفة المزيد من التفاصيل، وبعد الكثير من التفكير أخبروني بالحقيقة، لقد كانوا يعرفون «شخصًا مقربًا من سام كان هناك» وأخبرهم بذلك. وتبين أن هذا الشخص ما هو إلا ماريا غولاس، التي كانت بالفعل في باريس في ذلك الوقت ولكنها لم تكن قريبة من بيكيت في ذلك الوقت ولم تكن لديها معرفة مباشرة بحياته الخاصة. لقد كنت أقوم بالتحقق من صحة المعلومات – ولكني لم أقم بذلك بدرجة كافية.

إحدى العلاقات الحساسة التي تأكدت من صحتها ولكن لم أدرجها في السيرة كانت تتعلق بالمترجمة باربرا براي، التي كان لبيكيت علاقة غرامية طويلة الأمد معها. كان أمر تلك العلاقة معروفاً على نطاق واسع، وكان كل من تحدثت إليه تقريبًا في لندن وباريس على علم بها وكان يعتبرها أمرًا مسلمًا به. علاوة على ذلك، كان هناك إجماع على أن ذلك لم يكن شيئًا سيئًا. فإذا كانت سوزان زوجة بيكيت قد قبلتها، فإنهم قد فعلوا ذلك أيضًا. كان الأمر مختلفًا في دبلن، حيث كتم الكثير من الناس ضحكاتهم وهم يحاولون إدخال مواضيع مرحة في أحاديثنا. ظهرت القضية مراراً وتكراراً في العديد من المقابلات التي أجريتها، وقد بذلت قصارى جهدي لتحديد ما يجب أن أفعله – إذا – ما حاولت أن أكتب عنها. خلال بحثي، جعلت من تلك العلاقة نقطة البداية عند الحديث إلى كل شخص يعرف بيكيت، بغض النظر عن رأيهم به لأنني لم أكن أرغب في المخاطرة باتهامهم لي باختيار الجانب

الإيجابي فقط في شخصيته وترك ما هو سلبي. لقد كان لدي ما يكفي من الخبرة لأعرف أنه، كما يشير الصحفيون في كثير من الأحيان، ما لم تكتب قطعة فيها مدح مبالغ فيه، فإنك ستتعرض لانتقادات حادة: إذا كانت هناك جوانب غير ملائمة في سلوك بيكيت، كان عليّ على الأقل أن أشير إليها، وعلى الأرجح سأضطر إلى كتابة شيء عنها. وفي سنوات السبعينيات، قد لا تكون مثل هذه العلاقات ينظر إليها على أنها تستحق الشجب الأخلاقي، لكنها بالتأكيد شيء يجب الحفاظ على سريته.

بعد أن أخذت كل ما سبق في الاعتبار، اتصلت بباربرا براي لطلب إجراء مقابلة معها، لم يكن الغرض منها الحديث حول علاقتها مع بيكيت ولكن حول طبيعة عملها في الترجمة سواء بمفردها أو معه. خططت لأن أجعل الحديث ينساب بشكل طبيعي وأن يأخذ مساره الخاص. لكنها لم تعطني فرصة لشرح سبب رغبتي في التحدث معها. فقد صرخت قائلة إنها تعرف لماذا أتصل بها، وحذرتني من أنني إذا كتبت كلمة واحدة عن علاقتها مع بيكيت، فإن أحد أطفالها سوف ينتحر وستخبر العالم كله بأنني المسؤولة. حاولت وأنا أتلعثم في كلامي أن أنفي ذلك، فقد كنت مصدومة جدًا ولم أستطع التفكير بشكل متماسك، بينما استمرت في مهاجمتي قبل أن تغلق بقوة جهاز الهاتف. لم أكتب كلمة عن علاقتها ببيكيت ولم أشر إليها إلا كمترجمة.

كان لإيقاع الزمن الذي كنا نعيشه علاقة كبيرة بالقرارات التي اتخذتها بشأن ما يجب تضمينه في الكتاب وما يجب تركه، وكان المحتوى الذي يعتبر مناسبًا للنشر مقصورًا إلى حد ما على المعلومات التي لا تثير حفيظة الآخرين. ولكن ما هو أكثر من ذلك، فإن وضعي بصفتي كاتبة سيرة (حديثة العهد في ذلك الوقت) وضعني إلى حد كبير جدًا في وجه المدفع. مثلت سنوات السبعينيات الأيام الأولى لدخول النساء عالم الكتابة ونشر الروايات والمذكرات عن حياتهن وسير حياة النساء الأخريات. وعلى الرغم من أن أفكار الحركة النسوية كانت تلقى رواجاً متزايداً، فقد قيل للنساء (وفي الغالب من قبل الرجال) إنه لا يمكنهن تحقيق النجاح أبدًا لأن مواضيعهن لا تستحق الدراسة، بالإضافة إلى ذلك، فإنهن عندما يكتبن، يقتربن من

مواضيعهن بكثير من الاستحياء لكي تكون ذات مصداقية. لقد كن يُتهمن «بالكتابة بشكل مختلف»، وهذا الاختلاف يعني أن ما كنّ يكتبنه كان من الدرجة الثانية. قبلت النساء إلى حد كبير ما قرره الرجال وعذرن أنفسهن بقولهن إن لديهن القليل من النماذج الملهمة التي تسببت في شعورهن بخوف حقيقي من الإبداع.

أطلق بعض النقاد على هذه الحالة مصطلح «القلق من التأليف»، وهو مصطلح وجدته مريحاً بالفعل. وأنا أعترف أنه كان لدي قلق من التأليف. أنا، الصحفية الجريئة التي لم تكن تشعر بالخوف من طرح أسئلة صعبة من أجل كتابة مقالة، كنت ضحية لبعض التشوش العقلي الخطير بمجرد أن استولت عليّ فكرة كتابة السيرة واضطررت إلى تقرير ما يجب فعله بالمعلومات الشخصية.

أمضت عائلتي بقية ذلك الصيف في رحلات رائعة إلى مدن شانتيليه، وفرساي، وفونتينبلو. لعب فون سكوت الشطرنج في حدائق لوكسمبورغ وعاد إلى المنزل برسم تخطيطي له وهو منحنٍ على الرقعة، كان هدية من فنان تعجب من مهارة الطفل النحيف وقصة شعره الأشقر الجميلة. شعرت كاتي بالإثارة عندما ذهبت بمفردها إلى متجر الأحذية الكبير في شارع جنرال لوكلير واشترت ما أصبح معروفًا في تقاليد العائلة باسم «الكارثة الفرنسية»، وهو زوج من الأحذية البلاستيكية ذو لون أصفر فاقع بات يؤذي قدميها وانتهى به المطاف في متجر الأغراض الخيرية في منطقتنا.

أما بالنسبة إلي، فقد كانت قدماي تؤلمانني أيضًا، حيث كنت أتجول في جميع أنحاء باريس وأنا أحمل جهاز التسجيل الثقيل ودفتر ملاحظاتي، وأقوم بإجراء جولاتي اليومية من المقابلات التي غالبًا ما جعلتني أترنح من التعب. بعد أن تحدث إليّ عدة أشخاص، أخبروني أنهم يتساءلون عما إذا كان بيكيت يعرف ما الذي سيكون شعوره عندما تنشر سيرة حياته. لقد وجدت هذه طريقة غريبة بشكل خاص لوصف مساهمته في الكتاب، وحاولت أن أقرأ ما بين سطور تعليقاتهم. ربما كانت هناك أسرار عن أشياء سلبية ومؤلمة ومؤذية لم أكشفها بعد، وإذا كان الأمر كذلك، لم تكن لدي أي فكرة عن كيفية الكتابة عنها.

كنت غالبًا ما أجد نفسي جالسة في شقتنا في وقت متأخر من بعد الظهر، وكانت الظلال تزحف لتجنبنا حرارة الصيف، في انتظار عودة أفراد عائلتي إلى المنزل ليملأوا وقت تناول طعام العشاء بقصص مغامراتهم، وهي قصص تسعدني لأنها تخفف عني ضغوط الإثارة التي تتسبب بها اكتشافاتي اليومية. وجدت نفسي أكثر من مرة جالسة في الظلام في الليل، ممسكة برأسي في يدي، متسائلة عما كنت أحاول القيام به. كان وقع تلك الجملة التي قيلت في بداية مشواري – «يا عزيزي، لا أدري إذا ما كنت أنا الشخص المناسب لتأليف السيرة» – يتردد في رأسي مراراً وتكراراً. لكنني كنت في المرحلة الحاسمة من تأليف الكتاب، وهي عملية كنت أقوم خلالها بتطوير شخصيتي أيضًا، بينما كنت أتابع السير فيها. كان عليّ أن أواصل العمل فيها لفترة كافية على الأقل لتحديد ما إذا كان الأمر جديرًا بالاهتمام، وهكذا تابعت مسيري.

الفصل العاشر

كانت كل مقابلة أجريتها مختلفة عن غيرها. ولم يكن هذا ينطبق فقط على أولئك الذين قابلتهم مرة واحدة، ولكن على الأشخاص الذين كان يختلف سلوكهم ما بين مقابلة وأخرى أيضاً. فقد يتحول شخص ودود، ومنفتح، ولا يبخل بالمعلومات وعذب الحديث في إحدى المقابلات إلى شخص بغيض ومتحجر القلب في المقابلة التالية. كان الناشر جيروم ليندون خير مثال على ذلك، في إحدى مقابلاتنا الأولى، سمح لي بالتسجيل لمدة ساعتين كاملتين ذكر فيها كل شيء عن الأشخاص الذين عمل بيكيت معهم في المسرح بدءاً من المعلومات المفصلة عنهم وانتهاءً بالإشاعات المغرضة التي قيلت بحقهم، وكان يضحك بهدوء وهو يروي حكايات الناشرين الذين باتوا يشعرون بالندم حينها لأنهم لم ينشروا عمل بيكيت عندما عرضته عليهم زوجته سوزان بعد الحرب. أطلعني ليندون على جميع مراسلاته مع بيكيت أو تلك التي كانت تشير إليه وأعطاني نسخاً منها. وقد فتح ألبوم الصور الخاص به وأعطاني مجموعة كبيرة من الصور، كان من بينها صور العرض المسرحي الأول في فرنسا لمسرحية بيكيت نهاية اللعبة. أطلعني على ملفات مليئة بقصاصات من المجلات والجرائد وقال لي أن أعود في غضون أيام قليلة، سيكون قد جهزها لكي أتصفحها جميعاً. لكن موقفه كان مختلفًا تمامًا بعد عدة أيام عندما اتصلت به لتحديد موعد، فقد أخبرني أنه لن يكون من الممكن بالنسبة إليّ رؤية القصاصات لأنها «ثمينة جدًا». لقد كان ذلك تراجعاً غريباً في موقفه، لأن تلك القصاصات كانت مجرد مجموعة من المقالات والمراجعات لأعمال بيكيت. إن قراءتها في مكتبه في تلك الأيام التي سبقت ظهور الإنترنت كانت ستوفر لي وقتًا طويلاً كان من الممكن أن

أستخدمه بشكل أفضل بدلاً من الاضطرار إلى البحث عنها في الأراشيف. عندما أخبرت الممثلة والكاتبة المسرحية جينيفيف سورو، زوجة المخرج المسرحي جان ماري سورو، عن تغير موقف ليندون المفاجئ، أبدت استعدادها لمساعدتي ووضعت ملفات قصاصاتها الضخمة تحت تصرفي. لقد وفرت لي أيامًا، إن لم يكن أسابيع، من البحث في استكشاف تاريخ المسرح الفرنسي.

كان جورج بلمونت أيضاً من أغرب من أجريت مقابلات معهم. كان معروفًا بأنه كاتب ومترجم عندما قابلته. التقى بيكيت لأول مرة في عام 1928، عندما كان يعرف باسم عائلته، جورج بيلورسون، وكان الطالب الوحيد في فصله في مدرسة المعلمين العليا يدرس اللغة الإنجليزية؛ وكان بيكيت هو المحاضر البديل في اللغة الإنجليزية الذي تم تعيينه معلماً له. بدأت صداقتهما آنذاك وتعمقت على مر السنين، لكنها أصبحت متوترة بشكل خطير بعد الحرب. لم يكن سلوك بيلورسون في زمن الحرب حذراً تماماً، لكنه لم يكن مهادناً لدرجة أنه كان من بين أولئك الذين عوقبوا في حملة التطهير التي طالت المثقفين بعد الحرب. لقد غير اسمه إلى بلمونت بهدوء، وعاش بشكل متواضع، ووجد موقعًا بسيطًا له في عالم النشر، حيث كان يقترح كتبًا باللغة الإنجليزية للناشرين الفرنسيين ويترجمها أحيانًا. لقد كانت حياة مختلفة تمامًا عن تلك التي عاشها قبل الحرب، عندما قدمه بيكيت إلى جيمس جويس وحلقة الأدباء المحيطة به، وقد رحبوا به جميعًا بحرارة. بعد ذلك، فإن أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة، وكانت ماريا غولاس من بينهم، لم تكن لهم أية علاقة به. كان بيكيت هو الشخص الوحيد الذي واظب على رؤيته، وفي مناسبات قليلة، كان يقدم له توصيات شخصية أو يساعده مالياً.

في لقائي الأول مع بلمونت في مكتبه، كان منزعجًا بشكل واضح، وكما كنت أفعل دائمًا، انطلقت في الحديث معه بلا انقطاع لأجعله يشعر بالراحة. أخبرته أنه سبق لي أن قمت برحلة بحثية واحدة إلى أيرلندا، ومن دون الإشارة إلى تغيير اسمه، قلت له إنني مهتمة بمعرفة متى قابل بيكيت لأول مرة في فرنسا، ثم كيف تعمّقت الصداقة بينهما عندما كانا كلاهما في كلية ترينيتي

في دبلن. بات مفعماً بالحيوية وهو يروي القصة تلو الأخرى عن مغامراتهما ومقالبهما. تورد وجهه وتعافى، واعتدل جسمه بالكامل واسترخى. كان من الواضح أنه كان يقضي وقتًا رائعًا، وكذلك أنا، ولكن بعد ذلك حان الوقت للمضي قدمًا في تذكر الأحداث التالية. تغير كل شيء عندما تجاوزنا سنوات الحرب وسألته ببساطة ما إذا كان يتذكر متى التقى هو وبيكيت للمرة الأولى بعد انتهائها. قبل أن يتمكن من الإجابة، انفتح باب مكتبه ودخلت منه إحدى زميلاته، كانت امرأة نحيلة ذات وجه متجهم وحملقت في وجهي. كان بإمكاني أن أرى الخوف في وجه بلمونت، فقد أصبح شاحباً للغاية، وبدأت يداه، اللتان كانتا تتحركان بخفة ونشاط، ترتعشان حينها بينما كان يحاول إشعال غليون أو سيجارة – لا أذكر ذلك الآن. أتذكر فقط رعشة يديه.

لقد حذرتني ماري كلينغ، التي رتبت هذا اللقاء مع بيلمونت، من هذه المرأة التي وصفتها بـ «كلب الحراسة» والتي كان يبدو أنها كانت خارج الباب المغلق لأكثر من ساعة، تسترق السمع إلى كل ما قلناه. في اللحظة التي حولت فيها أسئلتي من فترة ما قبل الحرب إلى فترة ما بعد الحرب، دخلت إلى المكتب لحمايته.

أخبرت بيكيت بهذا اللقاء، وقد عزّز ذلك عندي انطباعًا آخر كنت قد كونته عنه. فقد كان لا يرغب في الحديث عن النساء على الإطلاق، سواء من كانت تربطه معها علاقة عمل أو علاقة شخصية (سواء كانت في إطار الصداقة أو الجنس) – إلا أنه لم يكن يتردد مطلقًا في الحديث عن الرجال، وفي كثير من الأحيان بتفاصيل دقيقة. كان انطباعي النهائي عن شعوره حيال بيلورسون – بلمونت هو شعوره بالحزن، حيث كان رجلًا بدأ حياته المهنية بشكل واعد وكان لا يفعل حينها سوى أن يعد ما تبقى له من أيام في هذه الدنيا وحيداً يملأه الشعور بالخجل.

كان اللقاء مع الشاعر جون مونتاغ مختلفًا. حيث كتب من مدينة كورك في أيرلندا، حيث كان يقوم بالتدريس في ذلك الوقت، ليقول إنه سمع من بيكيت أنني أكتب سيرة حياته. كان مونتاغ قادماً إلى باريس وكان متأكدًا من رغبتي في التحدث إليه، لأنه كان «قريباً جدًا من سام». كان يفترض أن يكون مساري متوافقاً مع جدوله الزمني، وحدد التاريخ والوقت والمكان الذي

سنلتقي به: أمام الكنيسة الكبيرة سان بيير دي مونتروج في شارع دو ماين، في تمام الساعة 11 صباحًا، بعد ذلك، سأذهب معه إلى متجر الأحذية ويلي الذي يقع في الجهة الأخرى من الشارع، حيث كان يريد أن يشتري الأحذية الوحيدة التي لا تؤذي قدميه، والتي لم يكن أحد يبيعها في أيرلندا. ثم نتوجه إلى منزل زوجته السابقة، مادلين، في شارع داجوري، حيث سيسمح لي أخيرًا بأن أقابله. اعتدت أن أقول بصمت «حسناً...». عندما أتلقى مثل هذه الأوامر، وبالتأكيد قلت ذلك مرة أو مرتين قبل أن يحل ذلك اليوم العظيم.

عندما وصلنا إلى منزل مادلين مونتاغ، قابلت امرأة فرنسية ساحرة كانت تتحدث الإنجليزية بطلاقة، وقد سامحت زوجها السابق بقلب أبيض عن مغامراته النسائية السابقة التي أدت إلى طلاقهما وقد عاد ليتزوج من جديد وقد أصبح أباً. استأذنت منا وغادرت. ثم أشار لي مونتاغ بالجلوس على أحد المقاعد بينما وقف هو أمامي عند إحدى الطاولات حيث بدأ بتجميع المواد التي يرغب في تقديمها لي. شعرت كأنني طالبة في صف دراسي حيث بدأ يلقي محاضرة مدرسية، كانت أفكاره واضحة ومدروسة وقد تم الاستعداد لها من قبل، كانت تدور في مجملها عن مدى أهمية الدور الذي لعبه في حياة صامويل بيكيت. ولقد توقف عدة مرات للتأكد من أن جهاز التسجيل الخاص بي كان يعمل وأنني كنت أيضًا أدون ملاحظات دقيقة، وكان يطلب مني أن أتأكد من كتابتها كما كان يقولها بالضبط، والتأكد من أنني سأشير إليها بشكل مستفيض في تعليقاتي الختامية وفي الجزء المتعلق بتقديم الشكر والتقدير في الكتاب. ولتعزيز أهميته في الأدب الأيرلندي، قدم لي نسخًا من مطبوعات مختلفة، من بينها مجلة دولمان المرموقة.

بعد قيام مونتاغ بإلقاء محاضرة استمرت عدة ساعات وقيامي بتأشير عدة فقرات في مطبوعات مختلفة كان يذكرها لي، قال إنه بدأ يشعر بالتعب وعليه التوقف لهذا اليوم، لكنه طلب مني العودة إلى منزل مادلين في تمام الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي حتى يمكنه أن يعطيني نسخاً من مراسلاته مع بيكيت. لقد أدخر أفضل ما عنده إلى النهاية، ليس للتأكد من أنه قادر على تعزيز أهميته في حياة بيكيت فحسب ولكن للتدليل أيضًا على كونه شاعراً مهماً في حد ذاته، وأيضًا للتأكد من أنه يمكن أن يستجوبني في

اليوم التالي لمعرفة ما إذا كنت قد سجلت كل ما قاله لي. وكان ينتفض فجأة ليقول لي أوه نعم: فإنه في ذلك المساء كان «يتناول مشروبًا مع سام». ثم حاول أن يغريني (لأنه كان واضحًا أنني لم أكن أمثل له حتى فرسًا ناضجة) حين قال: إنه سيخبر بالتأكيد بيكيت عن مقابلته مع تلك «الباحثة الجادة» وكان يقصدني.

وكما بدأت المقابلة فجأة فإنها انتهت كذلك أيضاً فاستأذنت منه وخرجت إلى الشارع. وبدأت السير في شارع داجيير ومررت بمتاهة من الشوارع إلى أن وصلت إلى شارع الشانزليزيه حيث تقع شقتنا. اضطررت إلى الجلوس بصمت لفترة طويلة لاستيعاب الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم، وأنا أردد بصمت طوال الوقت كلمة «حسناً...».

جعلتني الكتابة عن مونتاغ أفكر في كتاب آخرين قابلتهم ممن ادعوا أن لهم صداقات وثيقة تربطهم مع بيكيت. لا يمكن وصف موقفهم إلا بالكلمة العبرية «chutzpah»، المعرّفة في القواميس الإنجليزية على أنها «الشخص الذي لا يخجل» أو «الفظ». وقد وضعت المؤلف والكاتب المسرحي إسرائيل هوروفيتس في هذه الفئة. قمت بمقابلته في منزله الواقع في نيويورك بعد أن اتصل بي في آخر أيام شهر أيار المتوترة عام 1973 عندما كنت أحاول ترتيب أوضاعي وأمور عائلتي من أجل الإقامة في باريس. لقد سمع عني عن طريق الزوجين جان وجورج ريفي والعاملين في مسرحهما في نيويورك، ولأنه كان «قريبًا جدًا من سام»، فقد وجد أنه من الضروري أن يقوم «بتبصيري» قبل أن أغادر. لم أسمع بوجود علاقة بين هوروفيتس وبيكيت قبل ذلك، ولكن بسبب أنني كنت أتابع كل الاحتمالات، فقد ذهبت بكل جدية إلى منزله في شارع إليفينث ستريت في الوقت الذي حدده لي. لم تصدر منه مجاملات اجتماعية قبل أن يشير لي بالجلوس على أحد الكراسي. وبحركة احتفالية متقنة، تناول ملفًا ذا غطاء كان من الواضح أنه قام بتزيينه يدويًا بنفسه. وقام بفتحه بطريقة غاية في الاحترام ليريني مجموعة من الأوراق مطبوعاً فيها عدد من الأسئلة والأجوبة.

ثم قال: «هذه هي الأسئلة التي يجب أن تتناوليها في السيرة، وعند قيامك بذلك، ستحتاجين إلى إجاباتي». «لا يجوز لك استخدام أي من كلماتك أو

آرائك الخاصة، وسوف تقتبسين عني ما كتبته هنا بالضبط، ويجب عليك استنساخ هذا الكتاب كما هو موجود هنا بالضبط. يجب إدراجه في منتصف كتابك، بحيث يتم فتحه بشكل طبيعي على هذه الصفحات، التي ستكون الأكثر أهمية فيه». كنت في غاية الذهول وفتحت فمي متعجبة. لم أفعل سوى أن أجلس هناك وأمسكت بذلك الشيء الموجود أمامي، وكنت أتساءل طوال الوقت عن كيفية الخروج بسرعة من ذلك المكان. أما هوروفيتس فلم يكن يثنيه شيء، وقال لي وقد أشرق وجهه بابتسامة، «لن تكون لديك سيرة حياة بيكيت فقط؛ بل سيكون في حوزتك السجل التاريخي الأصلي لأعظم علاقة صداقه جمعته مع كاتب مسرحي آخر رائع». كانت لحظة أخرى احتجت فيها إلى تكرار كلمة حسناً، وغني عن القول أن أياً مما قاله لم يجد طريقه للنشر في كتاب السيرة.

جاء آل ريفيز إلى باريس في أوائل تموز عام 1973، وكالعادة، اخترعوا جميع أنواع السيناريوهات الدرامية التي انتهت بالتسبب في عدة مشاكل لي بطريقة أو بأخرى، لكن المشاكل التي سببتها لبيكيت كانت أكثر عدداً. ولأنني كنت أنا وعائلتي نقضي الصيف في باريس، فقد أراد آل «ريفيز» أن يكونوا هناك أيضًا، وكانوا يتوقعون مني تلبية نزواتهم. على الأقل، لم أكن وحدي في تحمل عبء مصاريفهم وتبذيرهم، الذي وصفته بصراحة «استغلالاً» لسخاء بيكيت. على الرغم من أن بيكيت قد سدد ديونهم عدة مرات بالفعل، إلا أنه بعد كل هذه السنوات، ما زال جورج يثقل كاهله بعبارة «أنت مدين لي» رغم أن كل ما فعله هو الإشراف على نشر رواية ميرفي. قام بيكيت في هذه الرحلة، بدفع مصاريف إقامتهم في الفندق، ودعاهم لتناول العشاء على حسابه مرارًا وتكرارًا، بل وقدم تضحيات شخصية أكبر عندما قدمهم، بإلحاح من جين ريفي، إلى الممثلين الشهيرين جان ماري سيريو وروجر بلين. كانت جين ريفي تتخيل نفسها كاتبة مسرحية ولها علاقات صداقة مع الممثلين في شركة «مابو ماينز» للمسرح. في نيويورك. لقد نجحت في ترتيب لقاء جمع بيكيت مع مؤسسها ومديرها الفني، المخرج لي بروير، وبعض الممثلين عندما ذهبوا إلى باريس، وكان من بينهم ديفيد واريلو، الذي أصبح واحداً من أفضل من جسّد شخصيات أعمال بيكيت وأحد أصدقائه المقربين.

أول ما فعلته جين عند لقائها بيكيت في تلك الرحلة هو تسليمه مجموعة كبيرة من كتاباتها. عندما رآني في اليوم التالي، كان يومئ بجسمه وهو يترنح من ثقل نصوصها وينوح حزيناً «لقد وهبتني كومة من المسرحيات ولا أدري ماذا أفعل بها الآن؟» لم أكن أعرف ماذا أقول، لذلك تجاهلت الأمر. ثم غيرت الموضوع بسؤاله عن سيريو وبلين، فأخبرني أن جين ريفي كانت تريد منحهم كومة مشابهة، لكنهم رفضوا أخذها، قائلين إنهم لا يستطيعون القراءة سوى بالفرنسية فيحتاج الأمر منها إلى ترجمتها. بحثت جين فوراً عن مساعدة بيكيت، الذي شعر بالحرج والرعب من طلبها ولكنه مع ذلك طلب من مترجم شاب كان يعرفه ويوده أن يقوم بالأمر. سارت لقاءات جين العديدة مع المترجم منذ البداية بشكل متوتر، وانتهت عندما غادر المترجم لقضاء عطلته التي بدأها في شهر آب قبل أسبوعين من موعدها لكي يبتعد عن الزوجين ريفز.

بمجرد انتهاء الصيف الذي أمضيته بسعادة مع عائلتي في باريس وعودتنا جميعًا إلى المنزل، لم يعد الزوجان ريفيز يترددان في الاتصال تلفونياً في ساعات غير ملائمة، كلما خطرت في بالهما واحدة من نزواتهما، لتبليغي بما أسميته «خطة الطريق». التي تتعلق في معظمها بالمسار الذي يجب أن أتخذه أثناء تجوالي في سيارتي في شوارع نيويورك لمقابلة جورج في حانة دوريان ريد هاند وشراء المشروبات له بينما كان يتعطف عليّ ويخرج من أحد جيوبه وببطء شديد رسالة أو رسالتين «مهمتين» كتبهما بيكيت في ثلاثينيات القرن الماضي. عادة ما كنت أترك كل شيء وأذهب لمقابلته، لأن الرسائل كانت في الواقع مهمة، وكنت بحاجة إليها. في بعض الأحيان، عندما يشعر بانزعاجي من الطريقة التي غيّر بها حياتي، كان يمد يده إلى جيوبه ويخرج ببطء – كما لو أنه لا يستطيع تحمل فراقها – صفحات من مذكرات كان يحتفظ بها خلال السنوات التي كان يحاول فيها بيع رواية مورفي للناشرين؛ وكان يطلعني في أحيان أخرى، على رسائل تحمل رسومات على صفحاتها أرسلها إليه جيير وبرام فان فيلدي اللذان كانا صديقين مقربين له ولبيكيت. كان لدى جورج النسخة الوحيدة من رسم مطبوع للوحة القرود تلعب الشطرنج التي أراد بيكيت استخدامها لغلاف رواية مورفي (رفض الناشر ذلك، لكنني

استخدمتها في كتاب السيرة)؛ حتى الصحف التي نشرت نسختها الأصلية لم تكن لديها واحدة منها. كانت شقته التي تفيض بالحاجات غير الضرورية مليئة بالمواد ذات الأهمية التاريخية، التي لا تتعلق بحياة صامويل بيكيت فقط، بل بتاريخ الفنون والآداب الأوروبية في منتصف القرن أيضاً.

كان جورج مثل ليونارد زيليغ (بطل أحد أفلام المخرج وودي ألن وهو الرجل الذي يمتلك القدرة على تحويل مظهره الخارجي إلى أشكال الناس المحيطين به – م) يعرف الجميع في السنوات الأولى من القرن العشرين، وكانت لديه المهارة على إثبات ذلك. إن جعله ينفصل عنهم كان مثل الاضطرار إلى تمزيق شعري وقلع أسناني في نفس الوقت. لكنني أيضًا كنت متعاطفة جدًا مع ذلك الرجل المسن والمسكين، الذي أهمله للأسف المشهد الثقافي المعاصر، والذي شعر أنه اكتسب فرصة جديدة للعيش من خلال التحدث معي. لقد توقع مني أن أضعه في المقدمة ووسط أي شيء يتعلق ببيكيت، وكنت أعزّي نفسي من خلال اعتبار ما أقوم به تجاهه هو عمل من أعمال الإحسان. ولكن أوه، كان شيئاً صعباً!

ما هو أسوأ من ذلك هو فترة ما بعد الظهر التي أمضيتها وأنا متحمسة لشراء مشروبات له في عطلة نهاية الأسبوع عندما كان هو وجين «مضطرين ببساطة للخروج من نيويورك» ودعا نفسيهما إلى منزلي في وودبريدج، وقد كانت مجرد قرية تتاخم نيو هافن. كنا نعيش في منزل صممه زوجي، وسط غابة على سفح تل شديد الانحدار، كانت تغطي سطحه شجرة بلوط ضخمة كبرت هناك وكان يطل على مجرى وبركة مياه. لقد كان منزلًا ساحرًا فيه الكثير من غرف النوم، وكنا نستقبل فيه دائمًا الكثير من الضيوف، إلا أن الزوجين ريفيز تخطيا كل الحدود. كنت أعرف عادة أنهما قاما بدعوة نفسيهما عندما اتصلا هاتفياً ليخبراني بالوقت الذي سيصل فيه قطارهما إلى نيو هافن حتى أتمكن من الحضور هناك على الفور لاستقبالهما. لقد استخدما حجة فقرهما بمهارة، على الرغم من الشكوك التي كانت تراودني، بالنظر إلى أن اسم جين قبل الزواج كان بولوا وكانت من عائلة الحارس بولوفا. ولكن بما أني كنت أرغب في الحصول على الوثائق التي كانت معهما، فقد اضطررت إلى الاهتمام بهما.

أثناء وجودنا في باريس، كان طفلاي متحمسين بشدة لحضور احتفالات العيد الوطني لفرنسا، ومشاهدة الاستعراض العسكري والألعاب النارية. اعتقد الزوجان ريفيز أنه سيكون يومًا مناسباً لي لإقامة حفلة عشاء على شرفهما، وقدّما لي قائمة الضيوف الخاصة بهما. كان بيكيت على رأس القائمة، ولكن بعد الحادث الذي وقع له مع مسرحيات جين، أخبرني أنه قرر أن من الحكمة أن يغادر إلى بلدة أوسي وسيبقى هناك حتى قبل أن يستقل الزوجان ريفيز الطائرة عائدين إلى نيويورك. أرادا أن أدعو صديقهما القديم بيل هايتر والمرأة الساحرة (والمتزنة) ديزيريه مورغيد. وحيث إن بيل وديزيريه كانا يستضيفان الفنانتين إدي ألين وليا رونديللي مجدداً، فقد كنا سعداء بدعوتهما. أما كون ليفينتال وماريون ليه فيمكن دعوتهما لتناول المشروبات فقط، حيث كانا مدعوين في حفلة عشاء. قام هايتر بإخبار مونتاغ عن الحفل، لذلك اتصل هاتفياً بنا وقال إنه سيعتبر نفسه مدعواً. وهل كان أمامنا سوى أن نقول نعم؟ قمنا بدعوة روجر بلين، وسأل عما إذا كان بإمكانه إحضار الممثل جيان مارتن معه. وقد كنا متشوقين للقائه.

فجأة أصبح لدينا ثلاثة عشر شخصًا مدعوون لتناول المشروبات وعشرة أشخاص سيبقون لتناول العشاء. تعمّد مونتاغ أن يجعلنا نعلم أنه كان لديه ارتباط لحضور حفل عشاء، ملمحًا إلى أنه سيكون مع بيكيت. تبادلت النظرات مع كون وماريون، لأننا كنا نعرف أن بيكيت لم يكن أصلاً في باريس. منذ ذلك الحين أصبحت معتادة على التعامل مع جميع من يدّعون قربهم من بيكيت، وأنهم تناولوا المشروبات ووجبات العشاء مع «سام» في حين أنه لم يكن حينها في أي مكان بالقرب من المدينة؛ لم يكن أمامي سوى أن أبتسم وتمنيت لمونتاغ الحظ السعيد.

لحسن الحظ، كانت طاولة الطعام في الشقة كبيرة واستوعبت عشرة أشخاص. ولكن ماذا نقدم لهم؟ قررنا أن نكون مثالاً للمطبخ الأمريكي ونعد لهم الهامبرغر وسلطة البطاطا، ونقدمهما مع بعض الأجبان الممتازة، وبالنسبة للحلوى، قررت أن أصنع فطيرة التاتان التي يمكن اعتبارها فطيرة تفاح أمريكية. لقد أحب الجميع الطعام وأكلوه بحماس، وعندما عاد بيكيت من أوسي في الأسبوع التالي، عرف كل شيء عن الحفل، لأنه سأل عنه معظم

الضيوف. وعلم أننا قدمنا الطعام الأمريكي، وأن طفلَيّ وصلا متأخرين لأنهما كانا يشاهدان العرض العسكري بمناسبة العيد الوطني، وتناولا طعام العشاء على عجل، وغادرا فجأة لكي يصلا إلى بارك مونتسوريس في الوقت المناسب لمشاهدة الألعاب النارية. سأل العديد من الأسئلة حول الهامبرغر، وخاصة عن المعجنات التي قدمتها معه، قائلاً إنه لم يكن يحب المعجنات (الفطائر) كثيرًا عندما تناولها في نيويورك عام 1964، وهي المرة الوحيدة التي زار فيها الولايات المتحدة. كان يعلم أن بلين ومارتن «قد قاما بأداء حسن» وهما يستمتعان بوصف ما كان سيظهران عليه في مسرحية بيكيت، حتى إنهما قاما بتمثيل مشاهد قليلة منها. بقي الجميع حتى بعد وقت طويل من إغلاق محطات المترو ليلاً، وتناوبنا أنا وزوجي في مرافقتهم إلى مكان سيارات الأجرة في الشارع، حيث بدا أننا سننتظر إلى الأبد قدوم إحدى السيارات. أصبحنا منهكين، وبدأ ضوء الفجر يلوح عندما استطعنا أخيرًا النوم. أخبرت بيكيت أنها كانت أمسية رائعة، حيث كان هناك الكثير من أصدقائه هناك، وكانوا جميعاً يحتفون به. في تلك اللحظة تغيرت الأمور بشكل جذري.

بدأ لقائي التالي مع بيكيت بشكل ودي، لكنني شعرت أن أسئلته أصبحت أكثر وضوحًا، وكانت تحمل شعوراً واضحاً من عدم الرضا. لم يكن يستسيغ أن الكثير من أصدقائه أصبحوا أصدقائي. والأكثر من ذلك، أعتقد أنه كان مرعوبًا من قيامي بالقضاء على مشروعه في تفرقتهم عن طريق لم شملهم جميعًا حيث يمكنهم مقارنة ملاحظاتهم بخصوصه وتبادل المعلومات عنه. عادت بي الذاكرة إلى نيويورك، حيث كان يعيش ريفي في شارع إيست إيتي فيفث وكوبلر في شارع ويست إيتي فيفث المجاور وكان الاثنان لا يجرؤان على مقابلة بعضهما بعضاً حتى قمت بكل ثقة وقليل من الاحترام بتعريفهما الواحد على الآخر. أدركت أن نفس الشيء قد حدث للتو في شقتي في يوم العيد الوطني الفرنسي. باستثناء الزوجين هيتر وليفينثال، لم يكن أصدقاء بيكيت يعرفون بعضهم بعضاً قبل ذلك.

تعزز انطباعي هذا عندما اتصل بي هاتفياً أفيغدور أريخا بعد عدة أيام من لقائي مع بيكيت ليخبرني أنه قابل عائلة ريفيز في شارع مونبارناس

حيث كانوا متجهين جميعًا لتناول العشاء مع بيكيت، وأن جورج أخبره عن حفل العشاء الذي أقمته. استؤنفت محادثتهم على مائدة العشاء، عندما توجه أفيغدور بالسؤال إلى ريفيز عن سبب عدم دعوتي له، وهو ما يمكن أن يزعج بيكيت. فسألته وماذا قال بيكيت؟ تمتم أفيغدور بشيء لم أفهمه، لكن كان من الواضح أن بيكيت لم يعجبه شيء على الإطلاق، لا الحفلة ولا الأحاديث المختلفة التي دارت ولا الأسئلة التي تلتها.

رويت كل هذا الذي جرى إلى ماري كلينغ، التي فعلت الكثير في ذلك الصيف لكي تمهد لي طريقي وتجعله سلساً، فاخبرتني أنه ربما حان الوقت لمغادرة باريس حتى «تهدأ الأمور». كانت اتصالات ماري في عالم النشر واسعة النطاق، وأظهرت الإشارات التي وصلتها أن أصوات الاستنكار تعالت داخل الحلقة الضيقة المحيطة ببيكيت. وذكرت لي أن ردود الفعل امتدت من مشاعر الفضول (من أكون، وماذا أفعل، ولماذا سمح بيكيت لي أن أفعل ذلك) إلى التساؤلات الغاضبة (وكانت تدور بشكل رئيسي حول لماذا اتصلت بفلان ولم أتصل بفلان؟). كان الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو عندما أخبرتني ماري أن ليندون أخبرها أن بيكيت كان منزعجًا لأنه سمح لنفسه بالانسياق إلى «الإثارة» التي خلقها حضوري وفكرة مشروعي.

لقد دهشت ماري لما أنجزته في مثل هذا الوقت القصير، وعندما أضفت إليه كل ما قمت به، أدركت أنا أنه كان حقًا كماً رائعاً من العمل. وأدركت أيضًا أنني استهلكت كامل طاقتي. استمتعت عائلتي بوقت رائع في استكشاف المدينة وضواحيها، وقررت أن الوقت قد حان لأستمتع أنا قليلاً. قمنا بزيارات وداعية للمطاعم والمتاحف والمتاجر المفضلة. زرنا أسواقنا المفضلة واشترينا أجباناً وفواكه جذابة. جلسنا في حدائق لوكسمبورغ شاهدت الأطفال وهم يستقلون القوارب الصغيرة، وراقبت قاربي وهو يقوم بدورته الأخيرة في متنزه مونسوري.

كان الوقت حينها منتصف شهر آب تقريبًا، وكان لدي طفلان يحتاجان أن أهيئهما للمدرسة. كنت بحاجة إلى أن أكون مستعدة أنا أيضًا، حيث كنت على وشك البدء في نمط الحياة الذي سيستمر حتى كتابة الكتاب وطباعته: سوف أقوم بالتدريس لمدة فصل واحد كأستاذ غير متفرغ في أي

مكان يمكنني فيه العثور على وظيفة، وأدخر أكبر كمية من المال بقدر ما أستطيع، والعودة إلى باريس بمجرد انتهاء الفصل الدراسي لخوض رحلة البحث القادمة.

كان الوقت قد حان للذهاب إلى المنزل. شعرنا بالحزن لمغادرة شارع الإليزيه، وكان علينا شراء حقيبة كبيرة جدًا تحمل جميع المواد التي اشتريناها. أتممنا إجراءات التوديع وغادرنا، حيث كنت أرسم الخطط وأعد المشاريع وينتابني القلق طوال رحلتنا عبر المحيط الأطلسي. حالما عدت إلى مكتبي في ولاية كونيتيكت وفتحت حقيبتي، تساءلت ماذا بعد ذلك؟ لم أكن على وشك البدء بالكتابة، ولكن في وقت ما كان عليّ أن أجلس بهدوء وأكتشف كيف يمكن للمرء بالفعل أن يشرع في كتابة السيرة.



الفصل الحادي عشر

في 17 تشرين الثاني 1973، كتبت في دفتر مذكراتي اليومية (DD) «في مثل هذا اليوم قبل عامين التقيت بصامويل بيكيت للمرة الأولى. وكان هذا كل ما أتمناه!» وكتبت أيضًا في نفس الصفحة: «لقد أوشك هذا العام على نهايته ولم أكتب كلمة واحدة. يا له من أمر مزعج». على الرغم من ذلك لم أكن مكتئبة للغاية بسبب عدم الكتابة، لأنني حصلت على عدة مجموعات مهمة من الوثائق، التي استغرقت وقتاً في قراءتها ودراستها، وكان من ضمنها أرشيف الأستاذ لورانس ويلي عن مقاطعة روسيون، حيث اختبأ بيكيت خلال الحرب العالمية الثانية بعد انكشاف أمر خلية المقاومة التي كان يعمل فيها.

ومع ذلك، على الرغم من أنني كنت مدعومة بسخاء من قبل ويلي والعديد من الأكاديميين الأمريكان، كان من المحبط التفكير أن المجال الوحيد الذي قمت فيه بالكتابة فعلاً منذ عودتي من باريس كان عدداً من طلبات المنح، فقد كنت أبحث بشكل يائس عن أموال تعينني في البحث بينما كنت مشغولة بتدريس برنامجين دراسيين معقدين وكان أعداد المسجلين فيهما أكثر من المعتاد في كلية ترينيتي في هارتفورد عندما تم تعييني للتدريس في فصل دراسي واحد كأستاذ بديل. أمام عملية خلق توازن ما بين محاولة جمع الأموال اللازمة للأبحاث وبين مسؤولياتي تجاه عائلتي فقد استنزفت تقريباً السنوات الأربع التالية من حياتي. كان لدي أصدقاء في كليات في العديد من جامعات ولاية كونيتيكت، وعندما يكون شخص ما في الجنوب أو الوسط في إجازة، كانوا يرتبون لي الأمر لأحل محله. كنت في أسفل قائمة الأكاديميين في الولاية، حيث كان من المعتاد أن يقوم الأساتذة بتدريس ثلاثة أو أربعة مناهج، لذلك عادةً ما يتم تكليفي بتدريس القسم

الرابع، حيث كان كل فصل يحوي دائمًا ما بين ثلاثين إلى أربعين طالبًا كانت مشاعر الضجر والاستياء هي السائدة بينهم بسبب اضطرارهم إلى الحضور.

حينما كنت أراجع بحوث الطلبة الأسبوعية، بقيت مترددة في الإشارة إلى كمية الحبر الأحمر التي استخدمتها لتصحيحها. ومع كل هذا كنت أتقاضى راتباً إضافياً لا يكاد يذكر. لا عجب إذن أن السنة انتهت ولم أكتب كلمة واحدة. ولم يكن من المفاجئ أن ألوم نفسي على عدم إحرازي أي تقدم، وعدم قدرتي على «تحقيق كل رغباتي» وأنه يجب أن أصبح ذلك المخلوق المتعاون بشكل مدهش وفقاً لما كانت تنادي به جميع المجلات النسائية.

بعد أن أنجزت مهمة التدريس بنجاح، استنزفت عملية تقديم طلبات الحصول على منح مالية كل طاقتي، بدءاً من الإنهاك الجسدي التام بسبب عملية ملء الاستمارات إلى التوتر العاطفي الناجم عن الانتظار لسماع النتائج. شعرت باليأس من حياتي فعلاً، فقد كنت حاصلة على درجة الدكتوراه ولكن من دون وظيفة بدوام كامل وأقوم بكتابة سيرة حياة – مما جعلني مكروهة لدى أساتذة الأدب الذين سيبتون بطلبي. ومع ذلك، فقد أثار مشروعي اهتمامًا كافيًا لدى العديد من منظمات الزمالة الموقرة مما دفعها إلى طلب وصف تفصيلي عنه وعينات من كتاباتي. لكنها بعد أن رفعت من مستوى تفاؤلي، قامت بعد ذلك بتبديده.

لم أحصل على أي من الزمالات المفيدة التي كانت ستجعلني أقضي عامًا في الكتابة والبحث، لكني حصلت في النهاية على إعانات حكومية بلغ مجموعها عدة آلاف من الدولارات من المجلس الأمريكي للجمعيات التعليمية والجمعية الأمريكية للفلسفة. كانت تلك بمنزلة عملية إنقاذ كبيرة لي، لأنها كانت كافية للسماح لي بالترتيب للقيام برحلة بحث شتوية إلى لندن ودبلن في بداية عام 1974 ستنتهي بإقامة قصيرة في باريس. لكنها لم تكن كافية للسماح لي بالمساهمة في أي شيء في نفقات الأسرة، وخاصة دفع رسوم تسجيل الطفلين في المدرسة الخاصة المحلية.

لم يكن تسجيل الولدين في المدارس الخاصة ناجماً عن شعوري أنا

ووالدهما بالتكبر، لأن مدارسنا العامة المحلية كانت ممتازة. ومع ذلك، فإن اليوم الدراسي في المدارس العامة يبدأ في السابعة والنصف صباحًا حين يأتيهم الباص ويعود بهم إلى المنزل في الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة. وحيث إنني كنت أعمل في المنزل، كان من الصعب تحمل أن يكون هناك مراهقان يقومان بكل الأشياء الصاخبة التي تصدر الضجيج والتي يحب المراهقون القيام بها خلال ساعات الكتابة الأكثر إنتاجية. كذلك فإنني عندما أكون مسافرة في رحلة بحثية، لم أكن أرغب في أن يكونا لفترة طويلة من الوقت من دون إشراف حتى يعود والدهما إلى المنزل. لقد كانا طفلين جيدين وجديرين بالثقة، لكن الوقت كان لا يزال مبكراً لتركهما بمفردهما. أثناء وجودهما في مدرسة هوبكنز الخاصة، كانا يغادران المنزل في الساعة الثامنة صباحًا، ويبقيان في الفصول الدراسية حتى الساعة الرابعة عصراً، وبعدها يمارسان التمارين الرياضية الإجبارية. ثم يعودان إلى المنزل في الساعة السادسة مع والدهما، ثم نتناول العشاء معًا بعد فترة وجيزة. كان جدولاً مناسباً للجميع. ربما كنت بعيدة عن المنزل كثيرًا خلال السنوات العديدة التالية، لكنني كنت مصممة عندما نكون معًا، على مراعاة تقاليد الأسرة، وكان تناول العشاء معًا أمراً مهمًا لنا جميعًا.

كان زوجي فون حينها يعمل مديراً لمتحف وادسورث أثينيوم في هارتفورد، وهو المتحف الشهير الذي كان يعمل آنذاك تحت إشراف وتوجيه جيمس إليوت. كان فون يقوم بالأعمال اليومية، مما أتاح لجيم التركيز على ملء المتحف بأعمال الفن المعاصر الطليعية. كان بيتر مارلو هو أمين المتحف الذي يعمل مع جيم، وقدم لنا أنا وفون معلومات عن أحدث الأعمال الفنية، بينما كان هناك زميل آخر لفون هو تشارلز إدواردز، يساعده في إدارة الشؤون المالية للمتحف. لعبت الصدفة الحسنة دورًا كبيرًا في البحوث الخاصة بكتابي، وكان تشارلز إدواردز أحد الأمثلة الأولى على ذلك. فقد تصادف أن صهر والده، الجنرال بيير رينو، كان ضابطًا بارزًا في الجيش الفرنسي مما أتاح لي الاطلاع على الأرشيف العسكري الموجود في مدينة فانسان، حيث وجدت الوثيقة الخاصة بمنح ميدالية المقاومة (وسام كانت تمنحه لجنة التحرير الوطنية الفرنسية، ومقرها في المملكة المتحدة،

خلال الحرب العالمية الثانية - م.) التي حصل عليها بيكيت تكريماً لأعماله البطولية في الحرب العالمية الثانية.

أتاح لي متحف أثينيوم العثور مصادفة على جهات اتصال أخرى، مثل ألكسندر «ساندي» كالدر، وزوجته لويزا. كان الزوجان كالدر يعرفان بيكيت قليلاً، حيث قابلاه خلال ما أطلقا عليها «سنواته مع جيمس جويس»، وقدما لي قائمة مفيدة من الأشخاص في فرنسا، كانت تضم غابرييل بوفيت بيكابيا، الزوجة السابقة للرسام فرانسيس بيكابيا، وابنتها جانين، اللتين كانتا من شركاء بيكيت الرئيسيين في أعمال المقاومة. روت لي لويزا قصة الماكنة الثقيلة الضخمة التي كان يستخدمها النازيون لطبع بطاقات الهوية والتي سرقتها جانين بيكابيا من المكتب الذي تم استجوابها فيه. عندما قابلت آل بيكابيا، شعرت الأم وابنتها بسعادة غامرة وهما تقومان بتمثيل كيف كانتا تخفيان الماكنة تحت تنورة غابرييل الفضفاضة وكيف كانت تضطر إلى أن تخرج من المبنى وهي تتثاقل بمشيتها وساقاها ملتصقتان معًا بينما كانت جينين تلوح للعديد من الجنود الشبان المعجبين والذين كانوا يريدون مساعدة السيدتين.

قدم لي متحف أثينيوم فائدة ذات أهمية كبيرة تمثلت في تواصلي مع شبكة من الجهات المانحة للمتحف. اعتدت أن أطلق على نفسي اسم «الزوجة المنقذة» بسبب كل الاحتفالات الرسمية التي اضطررت لحضورها، حيث كان من المفترض أن أساعد الزوجات الأنيقات اللواتي ربما يتعرضن إلى الإهمال بطريقة أو بأخرى حيث تسلط الأضواء على أزواجهن الأثرياء لحثهم على التبرع. في إحدى تلك الحفلات، أخبرني أحدهم أن لجنة كونيتيكت للفنون كانت توزع إعانات للعلماء والكتاب. اعتقدت أنه ليس لدي ما أخسره، لذا تقدمت بطلب للحصول على واحدة. استغرقت هذه المنحة التي كانت أقل من 1000 دولار من وقتي أكثر من جميع المنح الأخرى مجتمعة، لأن لا أحد من الموظفين في اللجنة كان يعلم تماماً كيفية منحها. كان برنامج المنحة جديداً نسبيًا ولم يتم إعداد أي إجراءات معينة بخصوصه، ولأن طلبي كان غير عادي إلى حد ما، كان علي القيام بعدد من الخطوات التي تم تبسيطها بعد ذلك. لم يكن يستوجب مني تقديم ميزانيات وبيانات تفصيلية حول كيفية

استخدام أموال المنحة فقط، بل كان عليّ أن أتوجه شخصياً لمقابلة العديد من أعضاء مجلس إدارة اللجنة. كان عليّ أيضًا إضافة قسم «شخصي» إلى الملف، أشير فيه إلى طفليّ وحاجتي إلى المساهمة في تعليمهما. في النهاية، حصلت على المنحة، مما يعني أنه، إلى جانب المنحتين الأخريين، سأستطيع تغطية جميع التزاماتي الشخصية والمهنية لعام 1974.

بعد عدة سنوات، أخبرني مدير لجنة الفنون آنذاك، أنتوني كيلر، أن أعضاء اللجنة كانوا مترددين بشأن ما إذا كان يجب منح ما أصبح يعرف فيما بعد باسم «أول منحة لرعاية الأطفال». في السنوات اللاحقة، عندما استطاعت الحركة النسائية دفع النساء للعمل وسمحت لهن بالمشاركة في الحياة العامة، أصبحت منحتي النموذج الذي يذكره مجلس الإدارة دائمًا عند مناقشة ما إذا كان سيتم تمويل النساء اللواتي يتقدمن بطلبات غير عادية. لقد كنت سعيدة وفخورة عندما أخبرني توني عن الدور الصغير الذي لعبته في المساعدة في حدوث ذلك.

وهكذا، حين توفرت الأموال، فقد حان الوقت لتهيئة العائلة للاستعداد لغيابي لغرض العمل لمدة شهر أو حتى كما خطّطت لفترة أطول من ذلك. كانت لدينا مجمدة ضخمة في الطابق السفلي، وعلى الرغم من أن زوجي كان طباخًا موهوبًا - بالتأكيد أكثر مني - اعتقدت أنه من واجبي ملئها بالأطعمة. كنت أقوم بعد العشاء، أثناء تصنيفي لأوراق بحثي، بطهي أوعية كبيرة من صلصة السباغيتي في الفرن. وفي عدد من أيام السبت الخريفية كان شركائي الثلاثة الآخرون (الزوج والطفلان) يقومون بقطف التفاح من الشجرة التي في الفناء الخلفي بينما أحضر العجينة لصنع خمس عشرة فطيرة. وكنت أقوم بصنع أرغفة اللحوم، وإعداد يخنة اللحم، وعمل الكعكات والطواجن. ظل زوجي يخبرني أنه ليس عليّ القيام بكل هذا العمل، لكنني شعرت في ذلك الوقت أنني يجب أن أقوم بذلك العمل وأنتهي من عمل كل الأشياء بنفسي، لا سيما تلك التي تخص عائلتي؛ كنت أؤمن أنني إذا أردت أن تكون حياتي لها قيمة، فيجب أن أطمئن أن راحة عائلتي تأتي أولاً. لقد فعلت كل هذا بسبب شعوري بالذنب لأنني سأتركهم على أمل أن يُذكّرهم الطعام أثناء غيابي بمدى حبي لهم.

حكت لي ابنتي كاتني مؤخرًا قصة لم أسمعها من قبل، عن جارتنا التي

تسكن في الجانب الآخر من الشارع، وهي أم وربة بيت. وكانت تقوم دائمًا بإعداد غداء كبير وساخن لزوجها وابنتيه. حيث قالت لابنتي «يا أيتها المسكينة الصغيرة»، «لقد أهملتك والدتك، سوف ترحل وتتركك. من الأفضل أن تأتي إلى بيتنا وتتناولي الطعام معنا». قالت لي كاتني إن هذا الأمر جعلها تشعر بالحيرة. فهي سوف تفتقدني بالتأكيد، لكنها كانت تحب اللحظات التي أعود بها دائمًا وأنا محملة بالهدايا التذكارية الرائعة من أي مكان أذهب إليه. أخبرني زوجي فون سكوت أنه لا يتذكر أن هناك شيئاً «سيئاً» حدث على الإطلاق أثناء غيابي عنهم، لأنني دائمًا كنت أجد طريقة للبقاء على اتصال معهم. كانت المكالمات الهاتفية الدولية باهظة الثمن، لكن البريد كان رخيصًا نسبيًا، لذلك كنا نتبادل الأشرطة الصوتية أسبوعياً. إنه لا يزال يتذكر أحدها، وهو الذي سجله لكاتني حين كانت طالبة في الصف الثالث، حيث بدأت لتوها تأخذ دروساً في الموسيقى في المدرسة، حين جعل نفسه مذيعاً ليخبرني أنني ساستمتع الآن مع «عزفها على الكمان». إلى جانب الأشرطة الأسبوعية، كنت أضيف دائمًا شيئًا مثيرًا للاهتمام في رسائلي المتكررة، وعادة ما تكون قصاصات من الصحف المحلية تتحدث عن فرق الروك أو مسابقات في لعبة الشطرنج. والأهم من ذلك بالنسبة إلى صبيَّين في طور النمو، كان هناك دائمًا شيء لذيذ يتناولانه في العشاء، لذلك كان لا يهمني كثيرًا إذا لم أكن هناك لتناوله معهما.

نظرًا لأني حصلت على أموال المنحة في خريف عام 1973 وهذا يعني أنني لن أتمكن من السفر إلى أوروبا حتى كانون الثاني من عام 1974، فقد قررت استخدام جزء صغير منها في شهر تشرين الأول لإجراء زيارة سريعة تستغرق ليلة واحدة إلى أوتاوا لمقابلة الكاتب المسرحي والناقد البولندي آدم تارن. الذي كان له دور فعال في تعريف أبناء بلده بالمسرح الفرنسي الطليعي لكونه رئيس تحرير مجلة ديالوغ التي تهتم بشؤون المسرح، وعمل بشكل مباشر مع بيكيت على ترجمة مسرحيته في انتظار غودو إلى اللغة البولندية وساعد في عرضها في بولندا. لقد وجدت أن تارن متحدث مشوق وجذاب على الرغم من حالته الصحية السيئة (توفي بعد أقل من عام)، لكن حالته الصحية ربما كانت السبب في تحمسه للتحدث بحرية عن بيكيت.

وكان يقدم لي مجموعة كبيرة من الوثائق عن كل لقاء بينهما، أو كل حدث مسرحي يتعلق بإحدى مسرحيات بيكيت التي شارك فيها تارن. وهذا هو السبب في أنني شعرت بالذهول عندما قدم لي رسائل ومذكرات أخرى تخبرني بشيء محير، ومن وجهة نظري ككاتبة سيرة ذاتية، تخلق لي مشكلة مع الحياة الجنسية لبيكيت - وكان ذلك بالضبط هو الشيء الذي كنت آمل ألا أكتشفه. لقد أراني تارن رسائل لمّح فيها بيكيت بشكل غامض إلى لقاءات جنسية بدا أنه كان يقول إنه لم يبدأها بل بدأها رجال آخرون. عندما قابلت تارن مرة أخرى في اليوم التالي وطلبت إعادة قراءة الرسائل وتدوين الملاحظات عنها، بدا مستمتعًا «بالنزعة التطهرية الجنسية الأمريكية». لقد عرض الرسائل كإخلاص منه للحقيقة، لكني بصراحة، شعرت بالحرج الشديد وعدم الاهتمام بالسؤال عنها بالتفصيل، لأنني حقًا لم أكن أرغب في التعامل مع هذه المعلومات. لم يكن لدي أية فكرة عن كيفية تناولها في الكتاب، لذلك لم يكن أمامي سوى أن أقبل تفسيره بأن مثل هذه اللقاءات كانت عادية ولم تبدأ مع بيكيت فقط ولكن مع آخرين. اعتقدت أن بإمكاني حفظ تلك المعلومات للرجوع إليها مستقبلاً والاعتماد على وجهات نظر أخرى إما للتحقق مما قاله لي أو لدحضه.

في تلك الليلة وأنا في رحلتي القصيرة حيث كنت متوجهة إلى مطار لاغوارديا، فكرت كثيراً بما يجب فعله حيال هذه المعلومات. في عام 1973، كانت كلمة «المثليين» لا تزال جديدة نسبيًا، وقد حافظت معظم الشخصيات العامة التي كانت من المثليين أو من ثنائي الجنس على هذه الحقيقة بكتمان خاص. كان «الكشف عن مثلية» شخص ما أمراً غير موجود في المفردات المتداولة، وكان لكلمة «الكتمان» معنى واحد فقط. بالنسبة لي فإن الكشف عن مثلية شخص له مكانة عالية مثل صامويل بيكيت كان أمراً من المستحيل التفكير فيه. ومع ذلك، كان لا بد لي من إيجاد طريقة للتعامل مع أي معلومة تأتي في طريقي - لم أستطع تجاهل ما أصر عليه تارن بطريقة عرضية - لكن كان عليّ أن أجد طريقة حذرة ولبقة لسؤال الآخرين عنها. لم يكن باستطاعتي كشف أوراقي، وبالتأكيد لم أكن أرغب في تنبيه أو تحذير أي شخص، وخاصة صامويل بيكيت.

أثناء الرحلة، عادت بي الذاكرة إلى أحداث الصيف السابق، عندما كنت أنا وجون مونتاغ نتحدث في مرسم بيل هايتر. لم يستطع مونتاغ إخفاء فرحته وهو يقول لي، «سوف تجعلين سام يستشيط غضباً، لأنه متأكد من أنك ستكتبين عن حياته الجنسية». في ذلك الوقت، اعتقدت أن مونتاغ كان يلمح فقط إلى مغامرات بيكيت العاطفية في دبلن أو علاقته الحميمة المتواصلة مع المترجمة باربرا براي. التفت إلى بيل هايتر وقد ارتسم سؤال على وجهي: هل يمكن أن يكون ما قاله مونتاغ للتو عن بيكيت صحيحًا؟ لقد أثبت مونتاغ صحة وصفي له في ملاحظاتي أنه «كان يبالغ كثيراً»، واعتبرته شاهداً غير موثوق به. ومع ذلك، كان هايتر لا يبتسم، وكان وجهه صارماً عندما هز رأسه دليل الموافقة. لقد احتفظت بتلك المعلومات لدراستها في وقت لاحق في المستقبل ولم أتابع الأمر، ولكن بينما كانت تهبط الطائرة، كان لا يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كان هذا الجانب من جوانب الحياة الجنسية لبيكيت، الذي كشف عنه تارن بشكل عفوي، هو الذي جعله غير مستقر للغاية خلال عدة محادثات أجريتها معه كانت أقل نجاحاً.

ظننت في شهر كانون الأول أنه قد حانت لي الفرصة للبدء في عملية الكشف عن الحياة الجنسية لبيكيت، عندما حدث شيء غير عادي. تلقيت رسالة من كون ليفينثال يخبرني فيها أنه يخطط هو وماريون ليكونا في نيويورك، وهما لن يرغبا بشيء أفضل من زيارتي في كونيتيكت. كان هذا تطوراً مذهلاً من عدة جهات. لم يكن كون وماريون يتمتعان بصحة قوية، ولم يكن لديهما صلات بأشخاص أمريكان وأنا أعرف أنه ليس لديهما أقارب في أمريكا. كذلك، كانا من أصحاب المعاشات الفقراء الذين عاشوا في فرنسا بشكل متواضع لدرجة أن مثل هذه الرحلة السياحية الباهظة الثمن بدت أكبر من إمكاناتهما. أسرع جورج ريفي ليخبرني أنها هدية من بيكيت، الذي دفع ثمن أجرة الطائرة ومبيتهما في فندق في وسط المدينة. وبالطبع أنه عندما يأتي كون وماريون إلى كونيتيكت، سيأتي جورج وجين أيضًا، بعد أن عينا نفسيهما مرافقين لهما.

لحسن الحظ، كان الفصل الدراسي الذي قمت بتدريسه في كلية ترينيتي انتهى للتو، لذلك لم أكن مشغولة ودعوتهم لقضاء يوم معنا. قابلت الأربعة

في محطة نيو هافن، ثم توجهنا مباشرةً إلى هارتفورد ومتحف الأثينيوم، حيث تناولنا الغداء في مطعمه ثم قمنا بجولة في قاعات العرض. بعد ذلك، انضم إلينا فون لننحشر جميعاً في سيارتي القديمة الواسعة من طراز ستيشن واغن (سيارة صالون عائلية – م) ونتوجه إلى منزلنا. كان طفلاي الرائعان قد أعدا طاولة العشاء، ووضعا قطعاً كبيرة من اللحم البقري في الفرن، وأشعلا النار لطهي القطع التي كنت قد وضعتها في ذلك الصباح. كنا قد علقنا بعض مصابيح عيد الميلاد، فقمت بإشعال بعض الشموع. كان المنزل لامعاً ويتلألأ، ورأيت أن كون وماريون يتبادلان النظرات ويبدو أنه أثار إعجابهما. بمجرد وصولنا، توجه جورج مباشرة إلى خزانة المشروبات الكحولية والويسكي، وسرعان ما أصبح الجميع في حالة مزاجية رائعة. لم تكن هناك فرصة لسؤال كون أي شيء ذي أهمية، لذلك بقي الحديث لطيفًا وسطحيًا.

قمت أنا وفون بمرافقة الأشخاص الأربعة إلى قطار ما بعد منتصف الليل، وبعد أن صعدوا بأمان على متن القطار وبدأ يتحرك بعيدًا، التفتنا بعضنا إلى بعض وتساءلنا، «ما كان سبب كل هذا؟» كان كلانا يعرف الجواب: كان بيكيت شخصاً فضوليًا، وسيخبرونه عن تجربتهم هذه حينما يعودون.

الفصل الثاني عشر

كانت سنة 1974 سنة استثنائية بحق في عملية تأليف الكتاب. وعندما أسترجع أحداثها الآن، أتساءل مع نفسي كيف تحملت مصاعبها. كنت بحاجة أن أبدأ الرحلة البحثية لعام 1974 في دبلن ولندن فقد كان هناك الكثير من الأشخاص في هاتين المدينتين لم أكن قد قابلتهم بعد، ولكن بسبب الزيارة غير المتوقعة التي قام بها ليفينثال ولي، فكرت أنه من الحكمة أن أبدأ الرحلة بتمضية أسبوع في باريس في حال كنت بحاجة إلى معالجة الضرر الذي أصاب علاقتي مع بيكيت. كتبت رسالة له في أوائل شهر كانون الأول وتلقيت رده بعد عدة أيام، كانت عبارة عن إحدى بطاقات البريد الصغيرة التي تكتب عليها جملة أو اثنتان قبل إرسالها في مظروف بالبريد الجوي. كان كل ما أخبرني به هو أن أتصل به بالهاتف حال وصولي.

وصلت في يوم السبت، 6 كانون الثاني، وأجريت اتصالًا هاتفيًا مع بيكيت حسب التعليمات، لكنه لم يرد، لذلك أرسلت برقية سريعة قصيرة وبدأت على الفور في تأكيد مواعيدي الأخرى. كنت قد وضعت ميزانية تكفيني مدة أسبوع واحد فقط وكنت بحاجة إلى الشروع فوراً في العمل. اتصلت به مرة أخرى يوم الأحد، ومجدداً لم تكن هناك إجابة. شعرت بالقلق ولكني كنت مشغولة برؤية الأصدقاء في نهاية الأسبوع، بمن فيهم ماري كلينغ، التي اصطحبتني لتناول الغداء يوم الأحد وشجعتني على البدء في تأليف الكتاب حتى يكون لديها شيء تريه للناشرين الفرنسيين المهتمين. لم أكن أريد أن أخبرها أنني لم أكتب سوى القليل، لذلك قلت لها إنني ما زلت بحاجة إلى القيام بمزيد من البحث قبل أن أتمكن من عرض أي شيء بثقة. وقد كان هذا التفسير صحيحاً للأسف.

دعاني الجنرال رينولد وزوجته لتناول العشاء، وتطوع لمساعدتي في البحث في الوثائق الموجودة في أرشيف مدينة فينسين، التي لم يكن من المقرر أن تكون متاحة أمام الباحثين قبل حلول عام 1975. وبما أنني لم أكن أتوقع أن أنتهي من تأليف كتابي وأنشره قبل عام على الأقل من ذلك التاريخ، اتفقنا على أننا لم نخرق أي قوانين.

قابلت جون جيراسي في مقهى لوسيليك لأنه أخبرني أنه يتوقع وجود سيمون دي بوفوار فيها. قال إنه تحدث معها عني، وأرادت أن تقابلني لأن لديها الكثير لتقوله عن بيكيت، لا سيما أنها كانت لا تشعر كثيراً بالود نحوه. سبق لي أن علمت من بيكيت كم كان ينفر منها، لذا كنت متحمسة لأسمع القصة من وجهة نظرها. بقيت أنتظرها وقتاً طويلاً قبل أن أضطر إلى المغادرة لحضور موعد آخر، عندما أصبح من الواضح أنها لن تحضر. لم أقابلها آنذاك، لكنني بعد عدة سنوات عندما بدأت في كتابة سيرة حياتها فكرت كثيرًا في هذا اللقاء الذي كان على وشك الحدوث، وتساءلت مع نفسي عما إذا كانت معرفتها مسبقًا كانت ستجعلني أتردد، إن لم أكن أتراجع، عن كتابة سيرة حياتها.

في يوم الإثنين اتصلت ببيكيت مرة أخرى، ومجدداً لم يكن هناك جواب. عندما عدت إلى الفندق بعد يوم حافل بالمقابلات، اكتشفت أنه قد فاتتني مكالمة منه، من بلدة أوسي. قيل لي إن السيد بيكيت اتصل من هناك ولا شيء آخر، ولم يترك رقماً. لم أشعر بالذعر، لأنني افترضت أن ذلك يعني أنه في اليوم أو اليومين التاليين سيعود إلى باريس وسيتصل مرة أخرى. لذلك واصلت حضور مواعيدي، بما في ذلك تلك التي كانت مع عدد من الأشخاص الذين عرفوه خلال الحرب، عندما كانوا يعملون في حركة المقاومة معاً.

روت لي السيدة ماري بيرون، أرملة ألفريد، صديق بيكيت وزميله في المقاومة، حكايات مؤثرة للغاية عن القلق والرعب اللذين تحملتهما أسر أفراد المقاومة وأخبرتني أيضًا عن اللطف والكرم اللذين أظهرهما بيكيت لها ولأطفالها بعد أن توفي زوجها، الذي كان في أحد معسكرات الاعتقال، وتوفي في عام 1945. قابلت في تلك الفترة عائلة بيكابيا، في مرسمهم المليء

برسومات فرانسيس بيكابيا. والكثير من القطط التي لا يمكن عدها، كانت جميعها تحك جلدها برفق بأجسام أصحابها، وتتسلق الجدران وتمشي على اللوحات، وتصدر فحيحاً وصراخاً بعضها في وجه بعض. لقد كان مكانًا غريباً ولكنه نابض بالحياة لكي تروى فيه قصص عائلة بيكابيا المثيرة عن المآثر التي قام بها أفراد المقاومة وسط الأخطار، مما جعلني أشعر بالرهبة من شجاعتهم. عندما تحدثت عنهم لاحقًا مع بيكيت، لم يكن بإمكانه إلا أن يقول بإعجاب إنهم «كانوا شجعاناً. بشكل مدهش».

أمضيت يومًا كاملاً للذهاب إلى لا فيرتي سو جوار، القرية الصغيرة الواقعة بالقرب من بلدة أوسي حيث عاشت العجوز جوزيت هايدن. كانت السيدة هايدن هي أرملة الفنان هنري هايدن، وكانا كلاهما يعيشان في قرية روسيون عندما كان بيكيت مختبئاً هناك. ومثل زوجها، أمضت عدة أيام مملة لتعلم اللغة الإنجليزية لتمضية الوقت. قالت إن لديها أشياء تريد أن تريني إياها، لكن علينا أولاً أن نتناول بعضاً من مشروب إيج هايج (Aig—Haig & Haig)، وهي نوعية من الويسكي الإسكتلندي (السكوتش) المفضل لديها (كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا). بعد ذلك دعتني لتناول الغداء. كان معها السائق الذي قابلني في محطة القطار ليأخذنا إلى المطعم الذي كانت تتناول فيه عادة وجبة الظهيرة. قابلت هناك الطاهي الذي كان يعمل ذات مرة في مطعم كوينز، نيويورك. طلبت جوزيت (كما طلبت مني أن أسميها) النبيذ وقالت إننا يجب أن نبدأ بتناول الحساء الممتاز. لم أكن بحاجة إلى تناول النبيذ، بل إن كل ما كنت أرغب به هو تناول وعاء كبير من الحساء الساخن في يوم بارد. قالت إنها ستطلبه لي لأنها كانت تعرف ما تحتويه قائمة الطعام وإنهم في المطعم يقومون بطهيه بشكل جيد خصوصاً في يوم الخميس. كان الطبق الثاني مؤلفاً من قطعة كبيرة من السمك منقوعة في صلصة بيضاء مع البطاطا والعديد من الخضروات، وكانت لذيذة جداً. كان كل منا يأكل بشهية وشربنا عدة أقداح من النبيذ لتساعدنا في ازدراد الطعام. ظننت أننا قد انتهينا ولم يكن أمامنا سوى أن ننتظر تناول القهوة عندما جاء الطبق التالي، وكان عبارة عن شريحة كبيرة من لحم الحمل مع الكثير من البطاطا والخضروات. هجمت تلك المرأة القصيرة الضئيلة

الجسم على الطبق وتوقعت مني أن أفعل نفس الشيء. وقد تمكنت بطريقة أو بأخرى من تناول أغلب ما فيه، وكذلك فعلت مع طبق الكريم كراميل الذي تلاه. أما كيف تمكنت من العمل لبقية فترة ما بعد الظهر عندما عدنا إلى منزلها وسكبت لي المزيد من الويسكي فقد ظل لغزاً غامضاً. والفضل يعود لجهاز التسجيل الذي سجل ما شاركتني به من ذكرياتها عن قرية روسين وأطلعتني على الوثائق الخاصة بتلك الذكريات، لأن ملاحظاتي التي كتبتها في ذلك اليوم لم تكن مفهومة بشكل واضح.

أعادني سائق مدام هايدن إلى القطار مع مجموعة من زملائه العمال، الذين كانوا سيبدأون نوبة عملهم على السكك الحديدية. أخبروه جميعًا أنه كان ثرثاراً فظيعاً. كما قالوا عني: إنني لا أبدو شخصية مهمة جدًا؛ لقد بدوت كفتاة أمريكية عادية ربما أسرفت في الشراب.

كنت أقابل بين الحين والآخر، شخصًا تكون آراؤه عن بيكيت بعيدة عن تقديسه ونعته بالقديس سام، الصالح «والعظيم» – وكان يصفه بكونه مجرد واحد من الكتاب الأيرلنديين. من الأمثلة على ذلك الكاتب أيدان هيغينز، الذي قابلته في مشغل الرسام بيل هايتر. كان هيغينز يروج لما أسماه إصدار الحكم «الرسمي» على الأدب الأيرلندي، لكنني لم أستطع تحديد ما إذا كان انتقاده لبيكيت يعكس بدقة ما كان يفكر فيه كتاب إيرلنديون آخرون حول كتابات مواطنهم أو كان نابعاً من شعوره بالغيرة.

ظلت تلك النظرة السلبية تثير دهشتي، خاصة عندما أتت من شخص مثل جيني برادلي، الوكيلة الأدبية الشهيرة، التي تحدثت عن بيكيت بعداء صريح. فقد أخبرتني أنها كانت تحتقره لأنه كان «متملقاً ذليلاً لجيمس جويس» ونصحتني أن «أتفحص بعمق رغبته المستميتة في نيل الشهرة والثروة». قالت إن حكمي على شخصيته سيكون أكثر منطقية عند البحث عن الحقيقة حول «علاقته» مع لوسيا جويس. لم يتحدث أحد قبل السيدة برادلي بهذه الحدة عن بيكيت، وبسبب ما تتمتع به من مكانة، كان عليّ أن أنظر إلى ما قالته بجدية. كانت تسبقها سمعتها في النزاهة والإدراك، وكانت أحكامها موضع ثقة المجتمع الأدبي في باريس.

في الوقت الذي قابلت فيه السيدة برادلي، كنت قد قابلت بالفعل ما يكفي من الناس - حوالي ستين شخصاً، وكانوا يزدادون كل يوم - مما جعلني أدرك أنني قد اضطلعت بمهمة شاقة تتمثل في كتابة حياة رجل معقد للغاية، وسيتعين علي أن أكون أكثر جدية في تقييم المعلومات والآراء التي حصلت عليها وغربلتها وتفسيرها قبل أن أتمكن من كتابة كلمة واحدة. حرمتني هذه المهمة الشاقة من النوم عدة ليال. كانت هناك أوقات أستيقظ فيها بسبب ما أسميته «قلق الساعة الرابعة فجراً» الذي كان يتفاقم، وأبدأ أفكر فيما إذا كان بإمكاني إيجاد طريقة لعدم كتابة الكتاب وأحفظ فيها ماء الوجه.

انقضى الأسبوع، وفجأة جاء يوم الجمعة وأنا لم أقابل بيكيت بعد، ولم يصلني اتصال آخر منه. ومع ذلك، فقد استطاع أن يجعل له وجود غير مرئي يحوم فوقي في كل مكان ذهبت إليه، وقد جعلني ذلك أشعر بعدم الارتياح. أخبرتني السيدة بيرون أنه اتصل هاتفياً قبل وصولي للتأكد من أني سأكون هناك لكي يستقبلني؛ قال آل بيكابيا نفس الشيء وهم يشكرونني على إرجاعه -أو على الأقل إرجاع صوته - إلى حياتهم بعد سنوات عديدة. دخلت ديزيريه مورهيد إلى مشغل الزوجين هايتر عندما كنت أتحدث مع أيدان هيغينز، وقالت أيضاً إن «سام» اتصل ليسأل عما إذا كانت هي وزوجها سوف يريانني في هذه الرحلة. عندما أخبرت بيكيت أنني كنت ألتقي مع هيغينز في ذلك اليوم، طلب منها أن تتأكد من إخباره كيف سارت الأمور. كان الأمر مثيراً للجنون: إذا كان عازمًا على مراقبة التقدم الذي أحرزته، فلماذا لا يكون في المدينة لرؤيتي؟

حدثت معي إحدى حالات قلق الساعة الرابعة في وقت مبكر من صباح يوم السبت، ربما لأنني كنت قلقة جدًا من النوم فاستخدمت منبه الاستيقاظ الذي سمح لي بالوصول إلى محطة قطارات مونبارناس في الوقت المناسب لأستقل أول قطار ذاهب إلى مدينة مانت لا جولي. وأتوجه من هناك إلى منزل الرسامة جوان ميتشل في بلدة فيتيل.

وصلت قبل وقت قصير من العاشرة صباحًا ونظرت من حولي في أرجاء المحطة بحثاً عن جوان. لكن بدلاً من ذلك، جاءني أحد زملائها في المدينة وسألني عما إذا كنت «صديقة جوان الأمريكية». قال إنه كان يعمل

معها ويجب أن أصعد إلى سيارته وسيأخذني إليها. فتحت نافذة مقعدي في السيارة في ذلك اليوم شديد البرودة فقد كانت تنبعث منها رائحة الخمر والسجائر. لم يكن يفعل شيئاً سوى أن يستفزني أو يضحك على جوان خلال المسافة القصيرة التي قطعناها بالسيارة من محطة القطار، ولكن ليس إلى منزلها بل إلى حانة محلية. لم أستطع معرفة اسمها، لأنه كان يتحدث بسرعة وبلهجة لم أتمكن من فك شفرتها، وكانت مفرداته تتكون بالكامل تقريبًا من كلمات عامية عفا عليها الزمن لم أكن أفهمها.

كانت جوان تجلس عند طاولة داخل الحانة، وأمامها قدح مليء بالكامل بشراب كحولي علامة بيرنو (بيرنو ريكار وهي شركة فرنسية لصنع المشروبات الكحولية – م) وبجانبها العديد من الأقداح الفارغة. سألتني عما أرغب في شربه، ولأنها كانت الساعة العاشرة صباحًا وكنت لم أتناول وجبة الإفطار بعد، قلت إنني أود أن أشرب القهوة. فاستهزأت بي وبدأت تسخر من الأمريكيين الذين من الواضح أنهم لا يستطيعون تناول المشروبات الكحولية دون أن يسكروا. لقد تم تحذيري من أنها يمكن ان تتصرف بحدة وبشكل يثير النفور، خاصة عندما كانت تشرب الخمر، لذلك كان ينبغي أن أتعامل معها بحذر. كانت جوان الزوجة الأولى للناشر الأمريكي بارني روسيت، وقد عرفت بيكيت بقدر معرفة بارني له. كان لديها مرسم صغير في باريس في شارع فريميكورت، لكنها كانت تعيش في الغالب في منزلها في بلدة فيتيل الذي كانت تصر على البقاء فيه والذي كان يملكه سابقاً الرسام كلود مونيه. وكان يشاركها فيه الرسام الكندي من أصل فرنسي جان بول ريبيلي، أو على الأقل كانت قد عاشت معه فيه سابقاً. بحلول الظهر، بعد أن تناولتِ العديد من أكواب الكحول الأصفر ذي المذاق اللاذع بدأت تتحرك بتراخ إلى حد ما وتغمغم بأشياء غير مفهومة، وقد علمت أن معظم أشياء ريبيلي كانت لا تزال هناك على الرغم من أنه كان يعيش في مكان آخر مع امرأة أخرى.

بحلول الساعة الواحدة كانت جوان لا تزال تشرب الخمر وكنت أتضور جوعًا. كنت قد صبرت نفسي بكوبين أو ثلاثة أكواب من القهوة فيما استمرت هي في إصرارها على أن أتناول مشروباً لم يكن يخطر على بالي أبداً أنه سيكون بلا طعم هكذا، فكل ما كنت أستطيع أن أتناوله هو نبيذ مع

قليل من الصودا. بدأ صداع الإجهاد الناجم عن الأيام المشحونة بالعمل الأخيرة يتصاعد، وزاده الجوع الذي كنت أشعر به. كان العديد من الزبائن يأتون ويغادرون طوال ساعات الصباح، وكان معظمهم من العمال، وكانوا يعرفونها جميعًا. وكانوا يصرخون عند رؤيتها «جوان!»، ثم يتابعون أحاديثهم بتعليقات لم أكن أفهمها، لكنني كنت أفترض أنها كانت تحوي نكات مبتذلة ومستفزة ذات إيحاءات جنسية، لأن الكلمة الوحيدة التي عرفتها في ردها كانت اللعنة عليكم فيما كانت تخبرهم ما كانوا يقومون به من فواحش بأنفسهم. كان الجو مشحوناً ومتوتراً. أردت حقًا الخروج من هناك، ولحسن الحظ، وفي نفس ذلك الوقت تقريبًا، عاد الرجل الذي أحضرني من المحطة. أمسك بجوان من كوعها وقال إن الوقت قد حان للذهاب إلى المنزل، حيث إن طاهيتها (زوجته) أعدت الغداء وكان علينا تناوله.

أوه، سآكل أخيراً! كانت تلك واحدة من أفضل الوجبات المطبوخة في المنزل التي تناولتها طوال جميع السنوات التي ذهبت فيها إلى فرنسا. كانت مليئة بقطع من لحم الغنم، والبطاطس، والخضروات، وسلطة مع جبنة، وكيكة مذابة فيها الشوكولاتة مع صلصة شوكولاتة برتقال ذات طعم لاذع. أكلت أكثر من نصيبي بينما لم تلمس جوان صحنها؛ فواصلت تناول الكحول وتدخين السجائر فقط، مما دفعني إلى التساؤل كيف بقيت على قيد الحياة. لقد أمضت فترة تناول الطعام وهي تحدق في وجهي عبر الطاولة وكانت مرارًا وتكرارًا لا تقول لي سوى أنني «مختلة عقلياً وأحتاج إلى من يعالجني» أو أنها كانت تحبني كثيرًا وأننا سنكون صديقتين حميمتين.

بعد تناول الغداء ذهبنا إلى الإستوديو الخاص بها، حيث عرضت لي عددًا من لوحاتها الضخمة وغير العادية، كانت تحوي جميعاً ألواناً نابضة بالحياة باللون البرتقالي والأحمر مع ضربات عرضية باللون الفيروزي أو الأزرق. أدهشتني تلك اللوحات، حيث تساءلت من أين جاءت هذه المرأة النحيلة والهزيلة بكل تلك الطاقة لتنجز هذا العمل البدني الشاق. أثناء حديثها، كانت تتفحص اللوحات التي سبق لها أن رسمتها وكانت أحياناً تلتقط فرشاة الرسم لتقوم ببعض الطعنات والنكزات المتوترة في إحدى اللوحات التي كانت تعمل عليها. كانت تروي لي القصص الواحدة تلو

الأخرى عن بيكيت، بسرد لطيف وبوضوح تام. كانت واحدة من هؤلاء السكارى الذين يمكن ألا يظهر السكر عليهم أبداً، يعبرون عن آرائهم بوضوح تام، وأفكارهم منظمة جيدًا. لكنها كانت تترنح في بعض الأحيان، وكنت خائفة من أن كوب النبيذ الأحمر المملوء بالكامل أو جذوة السيجارة المشتعلة التي كانت تحملها معظم الوقت قد ينتهي بهما المطاف إلى تدمير إحدى تلك اللوحات الرائعة.

بالنظر إلى ما كشفت عنه زيارتي، فلم أُفاجأ في أن بعض القصص التي روتها جوان لا يمكن أن أذكرها في كتاب السيرة بسبب افتقاري إلى المصادر المؤيدة لها. واحد من الأشياء البذيئة التي ذكرتها أنها صادفت بعد ظهر يوم العيد الوطني في باريس بيكيت أثناء عودتها إلى المرسم الخاص بها. وقررا الذهاب لتناول المشروبات، وبعد تناول الكثير منها، قالت له جوان: «أوه بحق الجحيم، سام، ما الذي يمنعنا من أن نمارس الجنس؟» فقال لها، «حقاً، ما الذي يمنعنا»، لذلك وجدا فندقًا قذراً قريبًا. سألت جوان «وهل قمتم بممارسته؟» مع إيماءة من رأسي للإشارة إلى أنني قصدت كلمة الجنس بينما لم أذكرها. فأجابتني «الجنس، تقصدين؟ الجنس؟» وأضافت. «ماذا دهاك يا امرأة؟ لماذا لا تقولين ما تقصدينه!» لم يكن لدي أي رد، وتركت السؤال.

ثم قالت في النهاية: «اللعنة، كلا لم نمارسه». «لقد قضينا طوال الليل ونحن نزحف على أيدينا وركبنا على أرضية الغرفة الملعونة للبحث عن بعض أسنانه التركيب التي سقطت». عندما استطعت أخيرًا أن أكتم ضحكتي وظننت أنه يمكنني الوثوق بنفسي وأستطيع الرد، سألتها عما إذا كان قد سبق لهما أن مارسا الجنس ولو لمرة واحدة في الماضي، وكنت متعمدة أن أقولها بتأكيد شديد على الكلمة التي ما زلت لا أحب أن أقولها، على الرغم من أنني بخلاف ذلك يمكنني أن أتلقى أقسى اللعنات. فقالت «كلا، لم يحدث ذلك»، «لا أعتقد أنه كان يتوق كثيرًا إلى ذلك» – وبذلك قدمت لي رأياً آخر عن العوامل المؤثرة في الحياة الجنسية لبيكيت عندما كنت أكتب عنها.

كنت أتوق لاستخدام هذه القصة في سيرة حياته، لكنني لم أفعل، لأن جوان كانت المصدر الوحيد لها وكنت أشعر بالحرج الشديد في ذلك الوقت لأسأل عنها بيكيت. لكن اتضح أنها صحيحة، حيث تمكنت من التأكد منها

من بيكيت نفسه في عام 1983، بعد حوالي خمس سنوات من نشر كتاب سيرته عندما كنت أعمل في كتابة سيرة حياة سيمون دو بوفوار لقد تقاطع مسارانا حينما كنت في طريقي لرؤيتها وكان يسير في شارع راسبيل متوجهاً إلى منزله. كانت لقاءاتنا في ذلك الوقت سهلة وودية، ظننت أنه ليس لدي ما أخسره خلال محادثة عابرة، لذا سألته إذا كان ما أخبرتني به جوان قد حدث فعلا. فقال بكل بساطة نعم، وانتقلنا إلى مواضيع أخرى.

ولكن في ذلك المساء المتأخر من فصل الشتاء، أصبحت الدنيا مظلمة تماماً، حرفيًا وبالنسبة لي شخصيًا، سألت جوان مرارًا وتكرارًا عما إذا كانت ستستدعي ذلك الرجل لإعادتي إلى المحطة وكانت ترفض الإجابة. كان لدي موعد لتناول العشاء في تلك الليلة مع ليفيثال وليز، وإذا تركتها في ذلك الوقت، فيمكنني العودة إلى باريس في وقت متأخر قليلاً للحضور في الموعد المحدد عند الساعة الثامنة والنصف في ذلك الوقت كانت جوان في حالة سيئة للغاية، ولم تكن تريدني أن أذهب. كان لديها خوف عميق من أن تبقى وحدها في الليل، ولم تقرر أنني سأبقى معها فحسب، بل وأن أتناول الكحول لأدخل معها في نفس عالم النسيان الذي كانت تقترب منه بسرعة.

ظننت أن النجدة قد أتتني عندما وصل زائر آخر على نحو غير متوقع من باريس. كان زوج امرأة عرفت بيكيت منذ الطفولة، وكنت قد قابلتها في ذلك الأسبوع بالذات. سرعان ما أدركت أنه قد جاء لقضاء الليلة مع جوان والانضمام إليها على مائدة الشرب، وهو ما كان ذريعة جيدة لي لتجديد مطلبي بالتوجه إلى محطة القطارات. حينها قال زائرها إنه ليست هناك حاجة لذلك، لأنه غيّر في تلك اللحظة خططه وسيصطحبني بسيارته بكل سرور إلى باريس، حيث يمكننا قضاء الليل معًا في شقتي. فقلت، واحسرتاه، كم هو مؤسف أن لا أتمكن من قبول دعوته الكريمة، حيث كان لدي بالفعل موعد لتناول العشاء. قبل الرفض، وبما أنه كان يشرب الخمر بغزارة، غادر بعد ذلك بوقت قصير إلى إحدى غرف النوم في منزل جوان لينام بمفرده. لكنني كنت قد بقيت عالقة ولم يكن هناك من يأخذني إلى المحطة.

بعدها رن الهاتف لأول مرة طوال فترة ما بعد الظهر. كنت أسمع جوان تتحدث باللغة الإنجليزية وتقول، «نعم، نعم... حسناً... حسناً». عندما

أغلقت سماعة الهاتف، قالت: «هذا كان سام. إنه يريد مني أن أذهب بك إلى القطار حتى تتمكني من حضور موعد العشاء». وبعد ذلك، ومثل طفل شقي، تناولت كأس شرابها، وضحكت نصف ضحكة مكتومة، وقالت: «لكنني لن أفعل ذلك!» مرت نصف ساعة أخرى ورن الهاتف من جديد، ومرة أخرى كان بيكيت. واستمر الحال على ذلك المنوال. وبعد خمس عشرة دقيقة رن الهاتف مرة أخرى، ولكن في هذه المرة كان المتصل هو المؤرخ الفني بيير شنايدر، الذي قال إن «سام» اتصل به هاتفياً وطلب منه أن يقود سيارته إلى بلدة فيتيل لاصطحابي في رحلة تستغرق 40 ميلًا إلى باريس. لم أكن قد قابلت شنايدر بعد، لكني كنت قد وضعته في قائمة الأشخاص الذين كنت أريد أن ألتقيهم، لأنني كنت أعرف أنه وزوجته من أصدقاء بيكيت.

تحدثت جوان بالهاتف مع بيير لفترة طويلة جدًا، كانت تبكي دون أن يكون لذلك معنى، حتى وافقت أخيرًا على السماح لي بالتحدث معه. أخبرني أنه تكلم مع سائقها، الذي كان في طريقه إلى المرسم وأنه سيقلني إلى القطار. وقال أيضًا إنه يريد التحدث معي عن صداقته مع بيكيت وسألني عما إذا كان بإمكاني مقابلته يوم الإثنين. قلت له أكيد بالطبع، مما يعني أنه كان عليّ تغيير موعد سفري في يوم الأحد إلى دبلن حتى أتمكن من البقاء في باريس يومًا إضافيًا. عندما أنهينا محادثتنا الهاتفية، أخبرني أنه سيتصل بـ «سام» ويخبره أن كل شيء قد تم ترتيبه وأنني في طريقي إلى منزل آل ليفينثال. لم أبدأ أتساءل مع نفسي إلى أن جلست في القطار بأمان، كيف عرف بيير شنايدر، وهو شخص غريب تماماً بالنسبة إلي، أنني ذاهبة إلى ليفينثال ولي؟ وفي نفس السياق، من أين عرف بيكيت أيضاً بالأمر.

وصلت إلى موعد العشاء الذي كان مقرراً له في الساعة الثامنة والنصف عند الساعة العاشرة والنصف مساءً. قدمت لي ماريون لي كأساً من الويسكي في اللحظة التي دخلت فيها من الباب قائلةً: لقد كنا ننوي تناول لحم البقر المشوي على العشاء لكننا بالغنا في طهيه، حتى احترق «لذلك سنكون مدينين لك بعشاء اللحم البقري المشوي». «كنت أشعر بالإرهاق، لكنني ما زلت يقظة بما فيه الكفاية لأتساءل لماذا شعرت بالحاجة إلى الإشارة بشكل ساخر للغاية على كرم الضيافة الذي قدمته أنا وعائلتي بكل صدق. كنت

بالكاد أستطيع فتح فمي للمضغ، ناهيك عن التحدث، لكنني لم أكن بحاجة إلى أن أقول الكثير، لأنهم كانوا يعلمون بالفعل عن اليوم الذي قضيته عند جوان. قالت ماريون إن «سام» اتصل بهم هاتفياً لإبلاغهم بأنني في طريقي وطلب منهم ألا ينزعجوا مني.

عند تلك النقطة كان الوقت يقترب من منتصف الليل، وفي شيء ما بين الإرهاق العصبي، والذعر، والإحباط الشديد، حدث لي انهيار في نوع من الغضب والقشعريرة والنحيب نوعا ما. «ما الذي يجري بحق الجحيم؟» وتساءلت حالما هدأت. «ما نوع اللعبة الغبية السخيفة التي يلعبها صامويل بيكيت معي؟»

نظر كون وماريون بعضهما إلى بعض، ثم مد يده عبر الطاولة ووضعها على يدي. قال لي إنها لم تكن لعبة. كان بيكيت قد وقع مريضاً بسبب عودة ظهور الخراجات والدمامل التي أزعجته عندما كان شابًا في كلية ترينيتي. كان لديه الكثير منها في وجهه وحول فمه وقد شوهته بشكل خاص، ولم يكن يريدني أن أراها خوفًا من أنني سأكتب عنها.

لقد سبق لي أن علمت بأمر تلك الدمامل التي ابتلي بها خلال سنوات دراسته الجامعية، بعد أن أخبرني بها بعض زملائه الأيرلنديين في كلية ترينيتي، الذين كانوا تواقين كثيراً ليخوضوا في التفاصيل المليئة بالدماء للأوقات التعيسة التي قضاها هناك، والتي أكدها أبناء عمومته وأتباعه واثنان من أفضل أصدقائه في كلية ترينيتي، هما الأستاذان آلان وجيفري طومسون. قدمت كارولين بيكيت مورفي ابنة أخي بيكيت، المزيد من التأييد لهذه الحادثة لأنها تتذكر أنها سمعت العديد من القصص العائلية حولها عندما كانت فتاة صغيرة. لقد ترددت لفترة طويلة قبل أن أقرر تضمين الكتاب تفاصيل حول الدمامل والخراجات عند الكتابة عن سنوات بيكيت السابقة، ولكن بسبب أنه أتى على ذكرها في رواياته، قررت أنه كان عليّ أن أدرج هذه المعلومات الشخصية المحرجة. لكنني بالتأكيد لم أكرر فعل ذلك.

لقد جعلني التوضيح الذي قدمه كون أشعر بالراحة! حيث علمت أنني لم أعبر بعض الخطوط الحمراء، مما جعلني أحظى بأفضل ليلة نمت فيها منذ أن وصلت إلى باريس. عندما استطعت أخيرًا رفع رأسي المتألم وعظامي

من فراشي الصلب، في وقت متأخر من صباح يوم الأحد، كتبت خطابًا إلى بيكيت، قدمت له تصوري للبحث الذي سأقوم به في ذلك الأسبوع وأشرت إلى أنني سوف أقضي يومًا إضافيًا للقاء بيير شنايدر في مطعم كلوسيريه دي ليلا وهو مكان أعجبني لأنه جعلني أشعر أنني أغوص في التاريخ الأدبي. لكنني حذفت كل شيء شخصي، وخصوصًا أنني كنت مصممة على التفرغ بعد ظهر ذلك اليوم لشراء الهدايا لأطفالي وخططت لتناول العشاء مع صديق جامعي قديم حدث أنه كان في باريس في ذلك الوقت.

لقد عشت في هذه الحالة لأكثر من عام، وبقيت أكافح لإيجاد الكلمات المناسبة لوصف نوع العلاقة التي تجمعني مع بيكيت. هل هي علاقة عمل؟ أم تعهد متبادل؟ أم إن الأمر يتعلق بالمشروع الذي شرعنا فيه؟ ولكن كان هناك شيء واحد واضح، وهو أنني يجب أن أبقي كل تركيزي «على العمل»، كما يقول التعبير الدارج. كان آخر شيء كنت أريده من صامويل بيكيت أن تربطنا علاقة صداقة وأن تكون شخصية بشكل خاص. كنت أعلم أنني سأكشف عن الكثير من تاريخه الشخصي للعالم، التاريخ الذي من المؤكد أنه سيفضل أن يحافظ على خصوصيته، وقد أزعجتني تلك الفكرة بشدة. بالعودة إلى أيام عملي كمراسلة صحفية، كنت قد نقبت بشكل مماثل في ماضي شخصياتي، لكن في تلك الحالات لم أكن أشعر بالأسف، لأن القصص كانت تتعلق بشخصيات عامة كانت أفعالها الخاصة ترتبط بسلوكها المهني وتحتاج إلى من يكشفها. أما الآن، وبصفتي كاتبة سيرة، تبدو القواعد مختلفة، وتركتني أتصارع مع نفسي. لقد قطعت شوطاً طويلاً منذ شرعت في البحث الذي بدأ مع أطروحتي في أوائل عام 1971، وأنا الآن في عام 1974 وقد بدأت الكتابة. كيف يمكنني التخلي عن عمل استمر لمدة أربع سنوات تقريبًا لأنني كنت مترددة في الكشف عن الأمور القبيحة أو المحرجة؟ لحسن الحظ، فإن الاحتياجات العاجلة والملحة للبحث كانت لها الأسبقية على المخاوف بشأن المحتوى. في تلك اللحظة تماماً، كان علي أن أنتهي من أعمالي في باريس وأنتقل إلى دبلن ولندن لمواصلة القيام بجدول جولاتي المحددة سلفاً.

الفصل الثالث عشر

وطئت أرض المطار بحذر عندما حطت بنا الطائرة في دبلن. كنت قد ذهبت إلى أيرلندا عدة مرات خلال السنوات السبع التي عملت فيها في تأليف كتاب سيرة حياة بيكيت، وفي كل مرة كانت تنتابني فيها مشاعر مختلطة عند العمل هناك. من ناحية، كان الناس ودودين للغاية، وكرماء، وطيبين معي؛ من ناحية أخرى، كنت أضطر إلى أن أتعامل دائمًا مع السلوك المزعج لبعض الرجال الذين، إذا لم يتحرشوا بي أو يطمحوا إلى أن أشاركهم فراشهم، فإنهم كانوا يشعرون بالسرور حين يتعرضون لي بعبارات تحمل بمكر تلميحات جنسية. كانت المرأة التي تعمل بمفردها صيداً سهلاً بالنسبة إليهم، ولكن كونها أيضًا امرأة متزوجة فقد كان أمراً غير مفهوم نوعاً ما، وبالتالي كانت هدفاً لجميع أنواع السلوك غير المقبول. اعتدت على تجاهل الاقتراحات في أن أكون في علاقة «زواج حر» تسمح لي «بالتخلي عن» طفلَيّ.

لكنني أتذكر أيضًا حفلات العشاء الجميلة في منزل الزوجين شين وماري وايت، حيث أصبح الشاعر شيموس وزوجته ماري هيني صديقين لي، وعند الزوجين بادي ومونيكا هينشي، حيث لم يستطيعا هما وأصدقاؤهما من كتم ضحكاتهم وهم يشاهدونني أبصق من فمي ما قدموه لي من مشروب البوتشين، وهو نوع لاذع من الخمور الأيرلندية غير المرخصة. لقد كانت لي صديقات صحفيات ومن مهن أخرى، وما أثار دهشتي أنهن أبلين بلاءً حسناً في مهنهن وفي الحياة العامة. لقد استمتعت بصحبتهن في حفلات تناول المشروبات ووجبات العشاء الصاخبة في منازلهن، حيث تعلمت الكثير عن كيفية التملص من «العجائز المتصابين».

كانت هذه الرحلة بالذات أسبوعًا شاقًا من الأمسيات التي أمضيتها في إجراء المقابلات في حانة فندق باسويل في شارع مولسورث، وهو الفندق الذي كنت أنزل فيه وكان حينها مكاناً رثاً، كان يتوجب عليّ شراء الكثير من المشروبات في وقت متأخر جدًا من الليل لشخصيات مختلفة مقيمة في دبلن، روى لي جميعهم قصص «مغامرات سام» خلال السنوات التي عاش فيها هناك. والكثير منهم ألمح إلى أنه يمكنه أن يخبرني أكثر من ذلك بكثير إذا كنت سأتركه يضع يديه على ركبتيّ فقط، أو في واحدة أو اثنتين من أكثر الحالات فظاعة، إذا كنت قد أرغب في دعوته لتناول مشروب ما في سهرة خاصة في غرفتي. قضيت الكثير من الأمسيات المرهقة جالسة على أحد كراسي الحانة، محاولة أن تكون هناك مسافة بيني وبينهم جميعاً، سواء أكانوا شعراء أيرلنديين مخمورين أو ممثلين أو كتّاباً مسرحيين أو أساتذة جامعيين.

رويت هذه «المغامرات» إلى صديقاتي، اللواتي اتفقن معي على أن معظم الرجال الأيرلنديين كانوا يعتقدون أن وجود امرأة أمريكية بمفردها أمر غريب، لا سيما إذا كانت تقوم بالكتابة عن بيكيت. عندما قابلت بعض هؤلاء النساء للحصول على معلومات مهمة عن التاريخ والثقافة الأيرلندية، كان يثار عادة موضوع كيفية تعامل الرجال الأيرلنديين معهن. كن لا يفعلن سوى أن يضحكن ويقلن إنهن تعلمن بعد الحركة الأولى كيفية إبقاء الأشياء لطيفة ومرحة، ورفض المقترحات والحفاظ على الزملاء كأصدقاء. لقد تعلمت الكثير منهن وحذوت حذوهن.

كما أتاحت لي هذه الرحلة فرصة التعرف على مثال مهم يتعلق بالحياة الجنسية لبيكيت. لقد أكد العديد من الذين قابلتهم سابقًا على أهمية صداقة بيكيت العميقة مع الشاعر الأيرلندي دينيس ديفلين. أثناء مناقشة الموضوع مع براين كوفي، الذي أخبرني بحذر عن «أهمية» ديفلين لبيكيت، سألته إذا ما كان يشير إلى الحياة الجنسية لبيكيت. فأخبرني في إطار إجابته، أن «ألجأ إلى ماكغريفي» من أجل فهم كامل ودقيق، لما وصفه بتعبير ملطف، «حياة بيكيت وعمله». والآن بعد أن أصبحت في دبلن، شرعت في معرفة المزيد عن الصداقة العميقة والدائمة بين بيكيت والشاعر الأيرلندي الراحل توماس

ماكغريفي، التي بدأت خلال سنوات صداقة بيكيت مع جيمس جويس في باريس والتي استمرت حتى وفاة ماكغريفي في عام 1967.

كان ماكغريفي إحدى شخصيات دبلن المميزة، مما يعني أنه كان ذا شخصية تلفت الانتباه، وكان له مع كل شخص قصة، بصرف النظر عن طبقته أو منصبه الوظيفي. كان قد تقاعد من عمله كمدير للمعرض الوطني في أيرلندا وكان عضوًا معروفًا ومحبوبًا في كل من تجمعات المثقفين المحليين وحانات شرب الكحول العادية. كما تم تكريم ماكغريفي من قبل الحكومة الفرنسية باعتباره الفارس الحامل لوسام جوقة الشرف، وقد أصبح لقبه في دبلن، «الجرّاف» (كلمة الجرّاف Shoveler باللغة الإنكليزية هي تحوير لكلمة الفارس chevalier باللغة الفرنسية ومن هنا جاء هذا اللقب إضافة إلى ضخامة جسمه - م). ظل عازباً مدى الحياة وكرس حياته لرعاية أخته الراحلة وابنتيها البالغتين.

أخبرني براين عن كمية المراسلات الضخمة التي تبادلها بيكيت مع ماكغريفي، والتي كان يتحدث عنها «الجرّاف» بصراحة إلى حد ما مع أي شخص يشاركه مائدة الشراب ممن كانوا يرغبون بالاستماع إليها. لقد عرف الكثير من الناس كيف كان يتباهى ماكغريفي بما يمكن أن يكشفه إذا ما قرر نشر الرسائل. أخبرني براين أن تلك الرسائل ربما تكون أهم الوثائق التي تتيح الفهم الحقيقي لشخصية بيكيت وأن عليّ بذل كل جهد ممكن لقراءتها.

وهكذا أصبحت أهم قصة في السيرة التي كتبتها، والتي أسميتها «رسائل ماكغريفي».

حينما حلّ الوقت الذي كنت أجري فيه البحوث، كان ماكغريفي وشقيقته قد رحلا عن عالمنا، وورثت ابنتا أخته البالغتان ممتلكاته. قابلتهما معًا أولاً ثم بشكل منفصل. كانتا من صنف النساء المتعلمات والمثقفات، ومن زوجات الطبقة الوسطى والأمهات اللائي يقمن برعاية أسر كبيرة إلى حد ما بينما كن يستمتعن بالعمل في مهن وظيفية ملائمة. كانت إحداهما باحثة مجدة في اللغة الأيرلندية قامت بالكثير للترويج له في المدارس وبرامج اللغة الأخرى. كانت هي التي كنت أراها معظم الوقت بعد أن بدأت في إجراء مقابلات منفصلة مع كل واحدة منهما.

طوال السنوات الثلاث التالية، كنت في كل مرة أذهب فيها إلى دبلن (التي عادة ما تكون مرتين في السنة، أو أكثر إذا كان بإمكاني أن أستلف أموال البحث)، كنت أدعو ابنتي أخت ماكغريفي إلى مختلف أنواع موائد الشاي والغداء اللطيفة، حيث كنت أطلب منهما بأدب ومراراً وتكراراً رؤية الرسائل. وفي كل مرة كانتا تقولان لي نفس الشيء: إنهما بالتأكيد ترغبان في التعاون معي وسوف تفكران بالتأكيد في الأمر، لكنهما لم تتمكنا من اتخاذ القرار في ذلك الوقت. ربما بحلول الوقت الذي سأقوم فيه برحلتي القادمة تكونان قد قررتا. قمت أنا أيضاً بمنحهما لقباً: «شقيقات غودو. الذي لن يأتي اليوم، ولكنه بالتأكيد سيأتي غداً...». (هذه العبارة مأخوذة من مسرحية بيكيت الشهيرة: في انتظار غودو - م) جاء ذلك اليوم في النهاية، لكن بعد مرور فترة طويلة.

عندما سألت كون ليفينثال وبراين كوفي عن أسماء الأشخاص الذين عرفوا بيكيت في شبابه، وجاء ذكر الكاتبة ماري مانينغ هاو، تنهّدَ الاثنان بعمق وضمّا عيونهما تعبيراً عن الحزن والأسف - الحزن لأنها كانت حقًا مصدراً مهما للمعلومات والأسف على أنني سوف أتعرض لذكرياتها المثيرة للشجن. كانت عائلة مانينغ من جيران عائلة بيكيت وكانت سيدتا العائلتين صديقتين حميمتين. كان صامويل أقرب من الأخ إلى اثنين (من أصل ثلاثة) من أبناء مانينغ، جون وماري، لأنه كان لديهم اهتمامات مماثلة في الأدب والمسرح. أصبحت ماري ممثلة مسرحية في دبلن وتزوجت لاحقًا من مارك دي وولف هاو محامي ولاية بوسطن البارز والأستاذ في جامعة هارفارد. احتفظت هي وبيكيت بعلاقة صداقة كانت تتم في الغالب عن طريق المراسلة على مدار ما تبقى من حياتها.

اعترف كون وبراين بميل ماري للمبالغة في جعل نفسها محور قصة حياة بيكيت، لكنهما اتفقا على أنها كانت بالتأكيد شخصًا أحتاج إلى مقابلته. واتفقا على أن شقيقها، جون مانينغ، سيكون أكثر موثوقية بكثير من شقيقته التي كانت تحب لفت الانتباه إليها. ثم تنهدا بعمق مرة أخرى عندما تحدثنا عن الكاتب أرلاند أوسهر، وهو رجل له باع طويل في الأدب، لكنهما اتفقا على أنه كان قريبًا كذلك من بيكيت ويجب أن أتحدث معه مرة واحدة على الأقل وأرى بنفسي ما إذا كانت لديه ذكريات مفيدة.

لم يكن وقتي الذي قضيته في أيرلندا بمنأى عن الصراع السياسي الذي كان يعصف بالبلاد. ذهبت إلى أيرلندا الشمالية لإجراء مقابلات في مدرسة بورتورا الملكية التي تقع في مدينة إينيسكيلين، حيث كان بيكيت طالباً فيها. استقللت حافلة عند الصباح الباكر لغرض العودة إلى دبلن حتى أتمكن من الحضور في موعد غداء مع شقيقي مانينغ وكنت قلقة ومتوترة عندما توقفنا في بلدة كافان دون سبب واضح. صعد شرطي إلى الحافلة وأخبرنا أن نبقى جالسين. بعد ما يقرب من ساعة، وكنت مرهقة ومحبطة وقلقة من أنني بعد أن واجهت الكثير من المتاعب لترتيب مأدبة الغداء، لن أكون قادرة على حضورها، ذهبت إلى باب الحافلة وتصرفت بشكل سيئ. طلبت أن يخبرني الشرطيان الأيرلنديان اللذان كانا يحرسان الباص بما يجري. وبينما أدارا ظهريهما لي دون أن يجيباني، همس عدد من المسافرين كبار السن الجالسين في المقاعد الأمامية قائلين إنني يجب أن أجلس وأكون هادئة. بعد فترة طويلة، وعندما تحركت بنا الحافلة أخيرًا، أخبروني أنه قد حدث تبادل لإطلاق النار وأن رجلين قد لقيا حتفهما. كانوا غير مبالين للغاية بالموضوع، قائلين إن «كل ما يحدث يتعلق بالسياسة» ولا يجب أن يزعجك شيء. عندما قرأت صحف دبلن في تلك الليلة، علمت أنه كان هناك تفجير أيضًا. من الواضح أنه كانت هناك العديد من المواقف في أيرلندا عندما كان من الأفضل أن أكون فيها في صورة الفتاة الخجولة بدلاً من أن أكون تلك الفتاة الأمريكية الطائشة المندفعة.

بعد ظهر ذلك اليوم، عندما قابلت ماري (التي كانت تسمى دائمًا مولي) مانينغ هاو وجون مانينغ، كنت أشعر بالأسف إلى حد ما بعد الحادث الذي حصل في كافان. استمر الغداء بسلاسة تخللته أحاديث عادية حول سكان دبلن الذين عرفوا بيكيت وحالة الفن والأدب الأيرلنديين وأحوال المسرح حينها. غادر جون فورًا بعد الانتهاء من الأكل، قائلاً إنه يمكن أن نلتقي مرة أخرى. اقترحت مولي أن نبقى لتناول كوب آخر من الشاي، الأمر الذي قادنا إلى كشف كل أنواع التفاصيل الحميمة المتعلقة بالحياة الجنسية لبيكيت.

تحدثت عن علاقة غرامية مثيرة جمعتها هي وبيكيت في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي –قبل وبعد زواجها عام 1935 وقبل انتقال بيكيت بشكل دائم إلى باريس– مما أثار رعباً شديدًا لدى أمها وأم بيكيت، اللتين كانتا تعرفان كل

شيء عن تلك العلاقة. كل من قابلتهم وكانوا يعرفون بتلك العلاقة وصفوها بأنها كانت «علاقة عابرة» وكان الاعتقاد السائد أنها حدثت «مرة واحدة وأنها هي من ابتدأتها». كان وصف مولي للسلبية الجنسية لبيكيت في أيرلندا تشبه تلك التي سمعتها من بيغي غوغنهايم وجوان ميتشل. توسعت مولي هاو في شرح تفاصيل تخصها وتخص بيكيت أكثر من تلك التي أردت أن أسمعها، لكنني بالطبع جلست هناك واستمعت إليها جميعًا. على الرغم من الإرهاق الذي كنت أشعر به، فقد لفتت انتباهي تماماً عندما ألمحت إلى أن أكبر بناتها (وكان لديها ثلاث) «يمكن أن تكون» من صامويل بيكيت.

بعد أن أصبحت هذه المجموعة من المعلومات الجديدة في حوزتي، انتقلت للحديث مع الآخرين، وقد وضعت قضية الأبوة المزعومة لبيكيت في لائحة الانتظار في الوقت الحالي. كنت أعتقد أن القضية كانت حساسة للغاية لدرجة أنني كنت بحاجة إلى مناقشتها مع براين كوفي وكون ليفينثال أولاً، واعتقدت أنه من الأفضل عدم مناقشتها مع أي شخص آخر في أيرلندا. وفي نفس الوقت، كانت مولي هاو مهمومة وقلقة ومضطربة وهي تجول في جميع أنحاء دبلن، وتخبر أي شخص يستمع إليها مدى قلقها الشديد من أن «تلك المرأة الأمريكية كاتبة سيرة بيكيت» سوف «تكشف عن [سرها] الذي بقي طي الكتمان لفترة طويلة،» ذلك الذي وصفته إما بالتفصيل أو قامت بالتلميح إليه ببراعة. في النهاية، كانت هي التي «أفشته» إلى بيكيت وأحدثت ثورة من الغضب ورغم أنها لم تدم طويلاً لكنها تسببت في كل أنواع المشاكل التي حدثت لي مع بيكيت، لكن ذلك حدث لاحقًا.

تجولت في جميع أنحاء دبلن لأجري المقابلات التي تم ترتيبها مسبقًا، ووفرت إحداها على وجه الخصوص فرصة لي لكي أجمع معلومات حول حياة بيكيت الرومانسية. كانت مع رجل طاعن في السن يهتم برسائل الأدباء الأيرلنديين، وكان كاتب المقالات والمترجم أرلاند أوسهر قد باعه للتو رسائل بيكيت، وهي المجموعة التي أكدت لي مولي هاو أنها «احتلت المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد رسائل بيكيت مع ماكغريفي». التقينا في حانة تدعى ديفي بيرنز، حيث وجدت نفسي جالسة أمام رجل كبير في السن وعصبي للغاية يعتزم استجوابي للحصول على معلومات حول وجهة نظر

بيكيت بشأن عملية البيع. لم أكن على وشك أن أضع نفسي في موقف حرج قد يحدث في أية لحظة، لذلك أخبرت أوسهر أنه ليس لدي أية فكرة عما يفكر به بيكيت، على الرغم من كل ذلك – فقد كان غاضبًا من أن الرسائل أصبحت مكشوفة للعلن، لأنه كتب معظمها خلال السنوات التي عاشها في لندن وكان فيها سكيراً وبائساً بعد أن عاد إلى منزل والدته، مكسوراً، ويعيش حالة من الاكتئاب، بعد فشله في أن يصبح كاتباً. شعر أن أوسهر ليس له الحق في الكشف عنها للعامة، وذهب إلى حد القول إنه «يفضل» ألا أستخدمها.

لم يكن بيكيت يعرف أنه سبق لي أن قرأتها بالفعل عندما طلب مني المشتري المحتمل تقييم ما إذا كانت تستحق ذلك، واعتقدت أنه من الأفضل ألا أثير غضبه إلى أن أشرع في كتابة السيرة بالفعل. كنت أرغب في الانتظار حتى أتمكن من تحديد ما الذي يمكن أن تساهم فيه، إن لم يكن فيها شيء ذو جدوى، فلن أستخدمها؛ وإذا كانت تحتوي على شيء مهم، فإنني سأكافح من أجلها بكل قوتي حينها. وسوف أقلق بشأن هذا عندما يحين الوقت.

واصلت مولي هاو تزويق روايتها للأحداث التي تضمنتها رسائل أوسهر كلما كنت ألتقي بها في تلك الرحلة، ملمحةً إلى «الفضيحة» التي يمكن أن تكشفها عن «زلة بيكيت». أما أنا فحاولت أن أمثل دور البريئة الساذجة في كل مرة، وأطلب منها أن توضح ما تقصده، لكنها كانت تلوح بيدها مشيرة إلى تجاهل الأمر وتقول «إنها ميوله الجنسية الشاذة». لم يكن في نيتي إثارة شبح العلاقات الجنسية المثلية خوفًا من أن تقوم بإخبار الجميع في دبلن أنني كنت أتطفل على الحياة الجنسية لبيكيت من أجل أن يكون كتابي مثيراً.

بدأت تظهر المزيد من التلميحات عن العلاقة مع بيكيت عندما عدت إلى فندق بازوال بعد يوم حافل من إجراء المقابلات لأجد ليفنثال وماريون لي جالسين في بهو الفندق لتناول شاي ما بعد الظهر. لقد ادعيا أن لديهما شأناً عائلياً في دبلن وفجأة قررا أنه سيكون من الأفضل القيام به أثناء وجودي فيها. وحين طلبا مني أن أخبرهما بمن رأيته وما أخبرني به – فقط كوسيلة لمساعدتي، بالطبع، وفقط لمعرفة ما إذا كان يمكنهما التحقق من صحة تلك المعلومات – أدهشني أنه من الغريب أن كل مكان ذهبت إليه، كانا قد ذهبا إليه. شربت كوب الشاي الذي قدماه لي وقلت لهما ما أردت أن يعرفاه هما وبيكيت. ولا شيء آخر.

كان لدي موعد في ذلك المساء، لكنني وافقت على الانضمام إليهما لتناول العشاء في الليلة التالية. كانت ماريون قد بدأت في الشرب قبل العشاء، وأدلت على المائدة بتعليقات ساخرة اخترت الرد عليها كما أفعل عادة عندما يكون أسلوب من أحاورهم فظاً: فأتحول إلى ما أسميه وضع «السرور والتغابي»؛ وهو أن تبتسم وتحرف اتجاه الحديث. لقد كانت في حالة سكر شديد، وكما كانت تفعل عادة، أصبحت ملاحظاتها مروعة ومزعجة على حد سواء، كان حديثاً مملاً غير مترابط وملتوياً حول كيف تحدثت عني مع بيكيت بعد رحلة نيويورك. فقد أخبرته «كل شيء»، من وصفها لمنزلي وعائلتي إلى ما قاله جورج ريفي عني، وهو أنني كنت ثرية ولا أحتاج إلى معونة مالية ولي دخلي الخاص وأن الجميع في نيويورك كانوا يعرفون أنني قد تلقيت دفعة مالية كبيرة من الناشر لأقوم «بتسريب المعلومات» عن صامويل بيكيت. لم تكن هناك كلمة واحدة صحيحة في كل ما قالته.

لحسن الحظ فإن اعتداءها اللئيم، حدث في نهاية العشاء، مما سمح لي، وأنا في حالة السرور والتغابي، أن أخفي دهشتي، والتظاهر بأنني أشعر بالإرهاق، وأن أغادر بسرعة. في الواقع كنت أستشيط غضباً. وطوال الطريق إلى غرفتي كانت تتناوب عليّ فكرتان. الأولى كانت عن ريفي: «سأنتقم من ذلك الوغد الكذاب». والثانية كانت عن ماريون لي: «فقد كانت هي وصاحبها سام قد أفلحا في التعامل مع الشائعات التي دارت حولهما. فهل يجب أن أتجاهلها أم أقلق منها؟»

في صباح اليوم التالي بدأت يومي الأخير في دبلن. اتصلت ماريون بغرفتي في الفندق كما لو أنه ليس هناك شيء مزعج قد حدث، لتدعوني للانضمام إليهم لتناول الإفطار. وافقت على ذلك، وكانت المحادثة عامة جداً وكانت ظاهرياً ممتعة. لم أبق طويلاً، فقد كنت بحاجة إلى إكمال بعض المقابلات في آخر لحظة قبل أن أسرع بالتوجه إلى المطار في رحلة بعد الظهر المتوجهة إلى لندن. في طريق العودة إلى فندقي لحزم أمتعتي، رأيت ليفينثال ولي يتمشيان بتثاقل في شارع موليسورث مع ديزيريه مورهيد، وكانوا جميعاً يتحادثون بعضهم مع بعض بمرح. لم يخبرني كون وماريون أن ديزيريه كان أيضًا في دبلن، ولأنهم لم يروني، فلم أعلن لهم عن وجودي.

عندما قمت بتدوين تلك الحادثة في مذكراتي اليومية (DD)، كتبت فيها «إن السرية الهائلة والتعامل المزدوج لهؤلاء الناس لا يتوقفان عن دهشتي. ما هي اللعبة التي يمكن أن يلعبوها؟» ولكن كان هناك القليل من الوقت للتفكير في الأمر. كان يجب عليّ الذهاب إلى المطار لأن التذاكر لأيام بقائي في لندن ستكون محجوزة بالكامل.

كانت تتملكني حالة من العصبية والقلق أثناء توجهي إلى المطار، حيث واجهني مرة أخرى أفراد الشرطة الوطنية الأيرلندية، الغاردا سيوشانا، مما عزز إدراكي لمدى ما كان عليه الوضع السياسي من توتر، كنت جالسة في مقعدي على متن طائرة الركاب الصغيرة عندما أدركت أن هناك همساً عصبياً يدور من حولي. كان الركاب على جانبي الطائرة ينظرون بقلق من نوافذهم إلى قطعة الأمتعة الوحيدة على مدرج المطار التي لم يتم تحميلها على الطائرة. كان هناك رجلا شرطة يرتديان الزي الرسمي يتحدثان إلى شخص بدا كأنه المسؤول عن الأمتعة. كان يحمل في يديه شيئًا بحجم كرة القدم وكان يحاول أن يجبر رجلي الشرطة على أخذها وكانا يرفضان. أدركت فجأة أن تلك كانت حقيبتي، وكان الشيء الذي كان يحمله هو إبريق الشاي المصنوع من الخزف الذي اشتريته من صانع فخار محلي! قفزت من مقعدي وخرجت من الطائرة، ونزلت بضع خطوات إلى مدرج المطار، وصرخت، «انتبه إلى إبريق الشاي فإنه لي!» فقد كان مسؤول الأمتعة على وشك أن يوقعه. وانتزعته من يديه في الوقت المناسب.

بعد أن قمت بإزالة الغطاء الذي كان يلف الإبريق، فتح رجلا الشرطة حقيبتي حتى أتمكن من إعادة إبريق الشاي إلى داخلها وكشفا ملابسي القذرة لجميع من كانوا على الجانب الأيسر من الطائرة. تم تخزين الحقيبة وحفظها من جديد، وأحمر وجهي خجلاً بشدة وأنا أتجنب كل نظرات العيون المتوجهة نحوي، ثم أقلعت الطائرة. لم أكن أشرب الخمر عندما أسافر في الطائرة، لكن في هذه الرحلة القصيرة إلى مطار هيثرو، قبلت بامتنان كأس ويسكي وكنت سأطلب كأساً أخرى لو لم تكن الرحلة قصيرة. كان جدول أعمالي في لندن مزدحماً بجنون، لكنني كنت سعيدة جدًا بالابتعاد عن أيرلندا لدرجة أنني كنت أتطلع إلى أي شيء كان أمامي.

الفصل الرابع عشر

كانت الأموال المخصصة لهذا البحث تكفي لقضاء أسبوع واحد في كل واحدة من هذه المدن الثلاث. وتوجب ذلك مني قضاء أشهر ما قبل الرحلة وأنا أحاول تأكيد مواعيد المقابلات التي سأجريها كي لا يضيع وقتي عبثاً. على الرغم من ذلك، فإن أغلب تلك المقابلات كان يتم تغيير مواعيدها في كثير من الأحيان، وهذا يعني أنني في بعض الأحيان أضطر إلى الإقامة لفترة أطول في مكان واحد أو أكثر، ومن ثم يتوجب إعادة تنظيم كل شيء من جديد. وهذا يعني أيضًا محاولة إيجاد طرق للحفاظ على المال، وهذا يعني بالتالي البحث عن أصدقاء لديهم شقة متاحة بإيجار زهيد أو مجاناً. تمكنت من الحفاظ على نفس وتيرتي السابقة في العمل في لندن، بفضل توني جونسون، الذي سمح لي باستخدام شقته في سوق شبرد كمسكن. كانت هناك مشكلة واحدة فقط: فقد كان يقوم بتخزين نبيذه من الصنف الجيد هناك، وهذا يعني أنه يجب أن تكون درجة الحرارة خمسين درجة في جميع الأوقات. كان أول شيء فعلته بعد ليلة باردة والاستحمام على عجالة بماء فاتر هو العثور على مصففة شعر تقوم بغسل وتجفيف شعري، لأنني أساساً كانت لدي أعراض إنفلونزا خفيفة وكنت سأتعرض لخطر الإصابة بالتهاب رئوي لو أني قمت بذلك في الشقة.

كان لدي جدول زمني كامل للمقابلات، الأولى مع وكيلتي البريطانية، مارك هاملتون، التي رتبت لي لقاءات مع صحفيين بريطانيين مهتمين بكتابة السيرة. كان أحدها مع جون كالدر، الذي وصفته في مذكراتي اليومية بأنه «*ذو مزاج عدائي. فقد شعرت أنه نادم لعدم قيامه بتأليف مثل هذا الكتاب، حتى إنه وبخني على امتلاكي الجرأة لكتابته. استمر يقول إنه «سيرشدني*

للاتجاه الصحيح»، لكنني كنت أعلم أنه يقودني نحو مواضيع غير مهمة ومصادر غير موثوقة. تساءلت حينها عما إذا كان في كامل قواه العقلية لأنه كان يتمتم ويغمغم مع نفسه بينما كان يتمشى حول مكتبه. كانت مقابلة غريبة، من البداية حتى النهاية».

كانت محطتي التالية هي اللقاء مع الناشر توم ماشلر في جوناثان كيب. الذي وصفته في مذكراتي بأنه شخص «*ديناميكي، ذو عزيمة، ومتحمس جدًا لنشر الكتاب. أنا مسرورة لأنه سوف يقوم بنشره*». اقترح توم علي تناول الغداء، لكن كان عليّ أن أرفض لأنني كنت بحاجة للراحة قبل لقائي مع إدوارد ابن شقيق بيكيت، إدوارد. تحولت نزلات البرد التي أصابتني في دبلن إلى إنفلونزا شديدة التأثير في لندن، وكانت لدي مشاكل في المعدة لذا لم أتمكن من المجازفة بتناول الطعام أو الشراب. وبدلاً من ذلك عدت إلى الشقة وتدثرت بالبطانيات إلى أن وصل إدوارد.

عندما رن الجرس، كنت أشعر بالقلق من مقابلته وفي نفس الوقت مرتبكة بسبب ما قمت به في الأسابيع القليلة الماضية حين توجهت إلى الباب الأمامي للمبنى لاستقباله. كانت الشقة في الطابق الأرضي وقريبة من جهة الباب، وبمجرد أن تبادلت التحية معه، أدركت أن باب الشقة قد أغلق ورائي ولم أحضر المفاتيح. لقد شعر إدوارد بالصدمة من أول عبارة قلتها له: يا إلهي لقد أغلقت باب الشقة وليس معي المفتاح». وقفنا في الرواق لبضع دقائق قبل أن تخطر على بالي فكرة الذهاب إلى بائع الخضار عند أسفل الشارع، لكي يتصل هاتفياً بأحد مصلحي الأقفال. كان إدوارد مرتبكًا بشكل واضح من الموقف الذي كان فيه، لكنه كان عازماً على مساعدتي قدر الإمكان، وهرع ليكون بجانبي. كان إدوارد عازفاً على آلة الفلوت في أوركسترا لندن. وحين رتبنا موعد اللقاء، أخبرني أنه يمكن أن ينتظر لنصف ساعة، وأربعين دقيقة على الأكثر، قبل أن يضطر للذهاب لأنه كانت لديه بروفة. عدنا للوقوف خارج المبنى السكني بانتظار مصلح الأقفال. كنت أرتدي كنزة صوفية فقط – وإن كانت ثقيلة – بالتأكيد، ولكنها لم تكن كافية لاتقاء برد أحد أيام شهر كانون الثاني في شوارع لندن.

لم يأت مصلح الأقفال قط وكان على إدوارد المغادرة. لقد حددنا موعدًا

لاجتماع آخر بعد عدة أيام، ولكن في منطقة محايدة، في إحدى المقاهي. عدت إلى بائع الخضار، الذي كان منشغلاً بمكالمة هاتفية طويلة مع مصلح الأقفال، وكان «رجلاً من الحي المجاور»، وقد قال إنه لا يمكن أن يأتي إلا في اليوم التالي. عاد بائع الخضار معي إلى الشقة، وكسر اللوح الزجاجي في النافذة الأمامية، وقام برفعه، وزحف إلى الداخل حتى وصل إلى الباب الرئيسي وفتحه لي ودخلت. ربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي كنت ممتنة فيها لأنني أمتلك شقة في الطابق الأرضي وفي مقدمة المبنى. عندما وصلنا إلى الداخل، اتصلنا بمصلح الزجاج فقال إنه يمكن أن يأتي في اليوم التالي في التاسعة صباحًا. كان الجو باردًا للغاية وكنت مريضة لدرجة أنني اضطررتُ لقضاء المساء في الجلوس دون فعل أي شيء سوى محاولة التنفس، وفي اليوم التالي قضيت الصباح بأكمله في انتظار مصلح الزجاج الذي لم يحضر. حصلت على مزيد من الوعود من مصلح الأقفال من خلال المكالمات الهاتفية التي أجراها معه بائع الخضار من أنه بالتأكيد سيأتي «غداً». لم أر إدوارد مرة أخرى في تلك الرحلة، لكننا التقينا في رحلة لاحقة، وبالتأكيد لم أكن حينها متوترة.

قضيت بعد ظهر اليوم التالي في مقابلة أشخاص إيرلنديين طاعنين في السن كانوا قد عرفوا بيكيت في ثلاثينيات القرن الماضي، واستمعت لهم بإعجاب وهم يقرأون لي مقاطع من مذكرات ممزقة أو يخرجون من ظروف قديمة رسائل كتبها بيكيت بعد عودته إلى أيرلندا. كان ضوء النهار يتلاشى وكانت النار في المدافئ تخبو، لكن التوهج في عيون أولئك الأشخاص وإيقاع أصواتهم المرتجفة كانا مذهلين. استطعت بالكاد تدوين الملاحظات، التي أثارت الرهبة بعد ذلك، عندما انتهت المقابلة وتحولت بهجتي إلى حالة من الذعر: «*لقد توقف جهاز التسجيل اللعين عن العمل! تباً له! أنا سعيدة للغاية لأني سأعود إلى المنزل*».

كنت أشعر بالإرهاق عندما وصلت لتناول العشاء في منزل أصدقاء أمريكان كانوا يقيمون في لندن منذ فترة طويلة. عرضوا عليّ على الفور استخدام جهازهم للتسجيل إلى أن أتمكن من إصلاح جهازي، لذلك استطعت أن أتمتع بأمسية كنت بحاجة شديدة إليها لأجل الاسترخاء ونسيان

متاعب العمل. كان المنزل ممتلئًا بأصوات أطفالهم الذين كانوا يتحركون ويتحدثون ويعزفون الموسيقى الصاخبة. هبت علينا الروائح الطيبة من المطبخ وتدفقت الأحاديث على مهلها. وحين عدت إلى الشقة، كتبت في مذكراتي اليومية: «هذا هو عالمي. عالم بيكيت هو عملي. يجب أن أتذكر هذا إذا ما أردت النجاح ومواصلة ما أقوم به أثناء وجودي هنا».

على الرغم من المصاعب التي واجهتها مع النافذة التي كانت لا تزال بلا زجاج وجهاز التسجيل العاطل، كان يوم الأحد، 27 كانون الثاني 1974، أكثر الأيام صعوبة على الإطلاق في هذه الرحلة. غادرت في الصباح الباكر لأذهب من مايفير إلى هامبستيد لعقد اجتماع في الساعة التاسعة مع الدكتور جيوفراي تومبسون. كان هو وشقيقه الراحل، آلان، طبيبين وصديقين لبيكيت، خاصة خلال سنوات دراسته في كلية ترينيتي وما تلاها. كان جيوفراي يتدرب ليصبح طبيباً نفسياً، وكان هو الذي اقترح أولاً أن يأخذ بيكيت جلسات للتحليل النفسي ثم أقنعه بذلك. كنت قد التقيت به لفترة وجيزة في رحلة سابقة إلى لندن، عندما ألمح إلى أنه راغب بمقابلتي، والآن كنا على وشك الشروع في بدء مقابلة صباحية طويلة ومكثفة.

وصلت في الموعد المحدد عند الساعة التاسعة، مثلما أكد على ذلك الدكتور تومبسون بشدة، لأجده يخبرني أنني جئت في وقت «مبكر جدًا» ويجب «أن أتمشى في البراح (أرض بائرة أو حرجيَّة نبتت أو تنبت فيها الأشجار والأنجم الَّتي توافق تربتها وإقليمها – م)» لمدة نصف ساعة على الأقل وبعدها سيكون مستعدًا لاستقبالي. كان الجو باردًا في ذلك الصباح، ولم يكن هناك مكان واحد مفتوح أستطيع فيه الحصول على الدفء وتناول فنجان من الشاي. أمضيت نصف الساعة في المشي في الشوارع وقد وضعت يديَّ المخبأتين في قفازيهما تحت إبطيّ لادفئهما، وأخبط الأرض بقدميّ ليسري الدم فيهما.

عندما تنازل الدكتور تومبسون أخيرًا واعترف بوجودي، تحدثنا لمدة ثلاث ساعات، على الرغم من أنه كان مترددًا جدًا في التحدث. وقد جعلني بالمقابل، أدافع عن نفسي وعن مشروعي: باعتباري امرأة وأمريكية أيضاً، كيف يمكنني أن أظن أنه يمكنني الكتابة عن شخص أيرلندي؟ كيف يمكن

لي أن أفهم قدراته العقلية؟ تكون لدي انطباع واضح بأنه هو أيضاً إما أنه كان يخطط لكتابة سيرة حياة بيكيت أو كان يكتبها بالفعل، *بعد ذلك بدأ يتفوه بكل السخافات والشائعات التي سبق لي أن سمعتها مرات عديدة وتجاهلتها. بعد ساعتين فقط، بدأ أخيرًا في الحديث بجدية عن عالمي النفس بيون ويونغ فيما واصل القول «سأكتب لسام كي أعرف ما إذا كان ينبغي عليّ أن أقول المزيد. لمعرفة مقدار ما يجب أن أخبرك به».*

أراني رقعة الشطرنج التي كان يلعب بها مع بيكيت، ثم عرض مباراة الشطرنج المذكورة في رواية مورفي التي كتبها بيكيت، التي لم أفهمها (لم أكن لاعبة شطرنج حينها). دونت حينها ملاحظة لأطلب من ابني (الذي كان محترفاً في الشطرنج وهو مراهق) أن يشرح ذلك حتى أتمكن من الكتابة عنه. كما ظل الدكتور تومبسون يفتح ويغلق الدرج المركزي من مكتبه، كما لو كان لا يستطيع أن يقرر ما إذا كان سيُظهر لي شيئًا أم لا. لقد تعامل مع كومة من الرسائل وخلط صفحات ما بدا أنها مخطوطة مطبوعة، لكنه لم يقرأ منها، ولم يسمح لي بإلقاء نظرة مناسبة عليها. وكان يتمتم عدة مرات لدرجة أنني اضطررت لبذل جهد خارق كي أسمعه، حيث كان يقول «سأرى ما إذا كان ينبغي أن أقول أكثر من ذلك؛ سأرى كم يجب أن أخبرك».

هل كان ما يفعله عن غير قصد – أم كان عن قصد؟ لم أستطع أن أقرر بشأن ذلك – كان الدكتور تومبسون يؤكد ما كنت أشتبه فيه وما أخبرني به الآخرون، الذين لم يتمكنوا من تقديم دليل مؤكد، أن بيكيت كان يحضر جلسات للتحليل النفسي في منتصف الثلاثينيات مع الدكتور ويلفريد روبريخت بيون، وأن الدكتور بيون قد اصطحبه لحضور محاضرات عالم التحليل النفسي كارل يونغ التي كان يلقيها في معهد تافيستوك. لكن كنت ما زلت بحاجة إلى دليل لإثبات ذلك قبل أن أتمكن من سؤال بيكيت إذا كان هذا صحيحًا، ولم أحصل على هذا الدليل إلا في نهاية العام تقريبًا، عندما كنت أقوم برحلتي البحثية الثانية إلى أوروبا في عام 1974.

كان رأسي يترنح عندما غادرت هامبستيد. ركبت قطار الأنفاق المتوجه إلى ميدان بيكاديللي على أمل العثور على مطعم حيث يمكنني الحصول على غداء يوم الأحد اللذيذ والعثور على متجر اشتري منه بعض الأشياء

الصغيرة لطفليّ. لم أنجح في كلا الأمرين: «*لا متاجر مفتوحة، ولا مطاعم مناسبة. كم أكره قضاء يوم الأحد في الخارج وحدي. لذا فقد اشتريت جميع الصحف الصادرة في ذلك اليوم وطالعت الأخبار المنشورة على الصفحات الأولى التي تفيد بأن خريطة فينلاند* (وهي خريطة اكتشفت عام 1957 على أساس أنها لأمريكا قبل اكتشافها على يد كولومبوس – م) *كانت مزيفة. تناثرت ظلال المنازل. يوم غد هو آخر أيامي أتمنى ألا تتوقف القطارات اللعينة بسبب الإضراب حتى لا يضيع يومي الأخير هباءً.* (الكتابة بين قوسين وبخط مائل تشير إلى نصوص كتبتها المؤلفة في مذكراتها اليومية – م)

كنت في محطة واترلو عند الصباح الباكر لغرض الذهاب إلى قرية كومبوتون في مقاطعة سُري، حيث منزل لاثنين من أبناء عم بيكيت، مولي رو وشقيقتها شيلا رو بيج، وقد كان يعيش في منزل العائلة في ضاحية فوكسروك عندما كان صبياً. لحسن الحظ، لم يكن هناك إضراب، ولكن القطار كان يسير بشكل بطيء بدا أنه سيستمر إلى الأبد. رغم ذلك كان يوم المكافآت، لأن المنزل كان مليئًا بهدايا بيكيت. رأيت رسماً يصور بيكيت عندما كان شاباً رسمه الرسام الأيرلندي سيان أوسوليفان، وأربع لوحات رسمها الرسام البولندي – الفرنسي هنري هايدن في روسيلون بينما كانوا يختبئون من النازيين، وتمثالاً صغيراً لرجل أخبر بيكيت أولاد عمه أنه كان ملهمه لشخصية بوزو في كتابه في انتظار غودو. أخبرني أبناء العم أن بيكيت «لم يكن يحب أن تكون لديه مقتنيات» وقالوا إنهم كانوا غالباً أكثر المستفيدين من سخائه. قرأت العبارات التي كتبها في نسخ الطبعات الأولى لكتبه؛ رأيت كتباً تحمل تواقيع إهداء له من قبل كتاب آخرين. قرأت رسائله إلى أبناء العم وتمكنت من نسخ صوره التي التقطت خلال زياراته لمنزلهم. كان محتوى كتابي يكبر بشكل جيد بحصولي على هذه المواد الدسمة.

بمجرد عودتي إلى لندن، كان لدي وقت قبل مغادرتي إلى مطار هيثرو لأبعث رسالة إلى توني جونسون، لإخباره أن المفاتيح كانت مع بائع الخضار وأعتذر مرة أخرى عن النافذة المكسورة: «*ها أنا ذي أرحل ولا تزال هناك مشكلة لم أجد لها حلاً: تلك النافذة اللعينة بقيت من دون تصليح*». بخلاف ذلك، غادرت وأنا لا أحمل سوى القليل من الشكاوى وفي داخلي

خوف يقلقني للغاية: فلم يخبرني بشيء جديد إلا قلة من الناس، فقد روى لي أغلبهم قصصاً سمعتها من قبل. لقد حان الوقت لبدء كتابة الكتاب. كان السؤال الكبير الآن هو كيف ومن أين أبدأ.

الفصل الخامس عشر

كانت العودة إلى حياتي الطبيعية تستغرق بعض الوقت، لولا مساعدة الطقس. كان الشتاء قد حلّ في نيو إنغلاند، وكان الثلج يسقط بغزارة، والمدارس كانت مغلقة، والأطفال كانوا في منازلهم. جلست في مكتبي وأنا أنظر إلى كومة من أشرطة التسجيل التي تحتاج إلى تدوين محتوياتها وكانت هناك ملاحظات تحتاج إلى طبع وترتيب بالشكل الصحيح، في حين كانت تفوح رائحة المعجنات وهي تشوى في المطبخ وترتفع أصوات الموسيقى التي كانت تصدح في نفس الوقت (موسيقى الروك الغريبة المفضله لابني وشقيقته). كانت أبواب المتحف مفتوحة، المتحف الذي أعرض فيه أناقتي وألعب دوري المعتاد كزوجة الموظف المسؤول، وكان يجب علي طهي طعام العشاء حيث سيزورنا بعض الأصدقاء الذين كانوا يبحثون في مكتبات جامعة ييل المختلفة. على حين غرة انتبهت إلى أن ذلك كان يوم الإثنين، المصادف 25 شباط من عام 1974 فكتبت في مذكراتي اليومية (إنني لم أفعل شيئاً منذ يوم الخميس وأنا في حالة مستمرة من عدم القدرة على فعل شيء والشعور بالهلع. كانت مجرد ملاحظة بشكل عام) على الصعيد المالي، كنت أنتظر بقلق أخبار المنح الدراسية، لكن القرار كان سلبياً بشكل مخيب للآمال. قدمت كلية ترينيتي في هارتفورد عرضاً مغرياً بإمكانية الحصول على وظيفة قبل سحب مبلغ المنحة لأنه لم يكن هناك تمويل. كنت قد بدأت بالذهاب إلى مدينة ويستبورت عدة ليال في كل أسبوع لإلقاء محاضرات في دورة بعنوان «كتب رائعة» في أحد المراكز الاجتماعية، وكان هذا هو مصدر الدخل الوحيد الذي حصلت عليه خلال ذلك الشتاء، مما جعلني أشعر بالقلق بشأن الكيفية التي سأدفع بها تكاليف رحلة البحث القادمة. كنت أعلم

أنه بمجرد أن ينفد المال الذي جمعته، فسوف أضطر إلى العودة إلى باريس لأطلب من بيكيت تأكيد أو تصويب أو حتى استبعاد بعض المعلومات التي حصلت عليها. ومع ذلك، فإن الشيء الرئيسي الذي أردت القيام به هو كتابة مسودة أولى للكتاب حتى أتمكن من أن يكون لدي على الأقل فكرة عن الطريقة التي سينقل فيها الحقائق والأحداث المتعلقة بحياته. كان المحتوى هو أساس تفكيري، لكن كيفية بنائه أصبحت مصدر قلق كبير آخر. حينها فقط تبين لي بعد أن عرفتني الحلقة المحيطة ببيكيت وحدوث الكثير من التوقفات في عملي أن الكتابة بشكل متواصل أمر مستحيل.

جاءت جوان ميتشل إلى نيويورك في أوائل الربيع للتحضير لمعرض كبير يقام في متحف ويتني للفن الأمريكي. كان المعرض يتألف من قدر هائل من الأعمال، اثنان وعشرون لوحة جديدة تم إنجازها في فيثويل بين عامي 1969 و1973. طلبت مني أن آتي إلى الإستوديو الخاص بها في سان مارك بلايس، ليس لأن لديها شيئاً جديداً لتخبرني به عن بيكيت ولكن لمجرد أنها «أحبتني» واعتقدت أنني «قد أقدم مساعدة قيمة لها». وافقت كالعادة، لكني أحببتها حقًا، لذلك ذهبت.

وصلت إلى الإستوديو الخاص بها لأجدها تتصل بالهاتف لتحديد مواعيد مع بارني روسيت، زوجها السابق وصديقها الدائم. لقد أرادت أن يجتمع ثلاثة منا للحديث عن بيكيت، وهو ما فعلناه، وجعلني أكتشف بعض الجوانب المهمة في العمل.

لقد كان افتتاح معرض جوان بمنزلة حفل بهيج. كانت متألقة وبدت جميلة وهي ترتدي قميصاً وبنطلوناً نسائياً بتصميم فرنسي بلون بني فاتح جذاب من الجلد الفاخر (كان هو السائد في ذلك الوقت)، سرعان ما سقط مني كوب كبير من النبيذ الأبيض عندما قام أحد المهنئين بدفع كوعي بسبب التزاحم. كانت في مزاج جيد لدرجة أنها ضحكت بسبب هذا الحادث، مما أنقذني من الإحراج. تحول زوار المعرض للاحتفاء بجوان، واستطعت الدردشة مع الفنانين وموظفي المتاحف الذين كنت أعرفهم من الحفلات التي كانت تقام في متحف ودسورث إيثنيوم. لقد كان حدثاً تبادل فيه الجميع مشاعر الحب والعرفان، وقد استمتعت به جوان للغايه.

كان بارني روسيت يستمتع بوقته بنفس القدر الذي كانت تنعم به جوان، وقد أخذني جانباً ليقول لي إن لديه «الكثير من الأشياء الجديدة» يرغب في أن يريني إياها واقترح أن نلتقي، من دون حضور جوان، في مكتبه بعد يومين. سوف تكون جوان حينها مشغولة بالقيام بالدعاية لمعرضها، ولم يكن يريد الانتظار، لأن «سام» أخبره أن «يريني (أنا) المراسلات التي بينهما وأي شيء آخر» كنت أرغب في رؤيته. كانت تلك أول إشارة تلقيتها منذ رحلة البحث التي قمت بها في شهر كانون الثاني على أن الأمور بيني وبين بيكيت تسير على نحو حسن. لقد كان من المريح للغاية بالنسبة إليّ أن أعلم أن أياً من الأشخاص الذين رأيتهم في لندن ودبلن لم يرووا له حكايات مسيئة لي، وإن فعلوا ذلك، فقد اختار عدم تصديقهم.

استمرت الثلوج في التساقط بكميات قياسية، لكنني لم أدعها تمنعني من الذهاب إلى مكتب بارني، حيث سأعمل في الأيام القليلة المقبلة. ركزت عملي في الغالب على المراسلات التي تبادلها هو وبيكيت في السنوات الأولى، ابتداءً من عام 1953. كانت هناك العديد من النصوص من الروايات والمسرحيات، والصور الفوتوغرافية لمختلف المنتجات، والهدايا التذكارية الخاصة بالمناسبات (كان أغلبها بطاقات بريدية) التي بعث بها بيكيت أيام إجازته بعيداً عن عمله.

كانت نيويورك تعج بأفراد الجالية الفرنسية في ذلك الوقت. كانت الروائية ناتالي ساروت تتحدث في قاعة في الشارع الثاني والتسعين، وكان الناشر موريس جيرودياس لا يزال يقيم هناك، رغم أنه كان مشغولاً بالتحضير للانتقال للعيش في فرنسا بشكل دائم. لسوء الحظ، لم يستطع أحد منهما مقابلتي حينها، لأن جدولَي عملهما كانا مزدحمين. حدث أني التقيتهما في باريس في رحلة لاحقة وحصلت منهما على حكايات عن لقاءاتهما مع بيكيت التي ذكرتها في الكتاب.

أخبرني الناشر جيرودياس أن أتحدث مع إريس أوينز، التي ألفت عدداً من الروايات بطلب منه تحت الاسم المستعار هارييت دايملر في الخمسينيات. كانت لديها حكايات مرحة تدور حول عدد من الكتّاب الذين كانت تطلق عليهم تسمية «عصابة ميرلين»، وهم مجموعة من الكتاب الشباب الذين

ارتبطوا بالمجلة الأدبية المعروفة ميرلين، ولا سيما ريتشارد سيفر، الذي كان أول من نشر رواية وات التي ألفها بيكيت، بالاشتراك مع دار نشر أوليمبيا التي يملكها الناشر جيروديياس. كان ريتشارد في ذلك الوقت محرراً في دار نشر غروف التي يملكها بارني روسيه، وكان أيضًا أحد أصدقاء بيكيت الموثوق بهم في عالم النشر. أعطاني ريتشارد وزوجته (التي أصبحت فيما بعد شريكته في دار النشر)، جانيت، قوائم طويلة بأسماء وعناوين جميع «البلهاء الشباب» (حسب قولهما) الذين نشروا أعمالهم في مجلتي ميرلين وأوليمبيا. لقد اختصرا لي شهورًا من البحث في تلك الأيام التي سبقت ظهور الإنترنت من خلال إخباري أين يمكن أن أجد الكتّاب من أمثال أوسترين وينهاوس، وجين لويجي، وألكساندر تروتشي، وكريستوفر لوجو، وغيرهم.

أنا أذكر كل هذه الأسماء بسبب اسم آخر أعطاني شعوراً غريبًا بعد بضع سنوات حول مدى صغر العالم الفكري والفني وترابطه. كان جيروديياس ابن جاك كاهانا، الذي قامت دار أوبيليسك للنشر التي يملكها بإصدار أعمال الكاتب هنري ميلر في باريس في عام 1930، بفضل سخاء المصرفي هوغو جولير زوج الكاتبة أنايس نين، الذي تكفّل بدفع كل مصاريف كتابيه مدار السرطان ومدار الجدي. كانت واحدة من تلك المراسلات الغريبة التي لم يكن لها معنى بالنسبة إلي حتى بدأت الكتابة عن أناييس نين في عام 1990. حينها كنت قد نسيت تمامًا أنها كانت قد أرسلت إلي في عام 1974 واحدة من بطاقاتها البريدية الأرجوانية المميزة تطلب مني أن أساعدها في الاتصال بصامويل بيكيت. ولأن بيكيت كان قد أمرني بعدم الكشف عن عنوانه مطلقًا، فقد اقترحت عليها أن تطلب ذلك من الناشر بارني روسيت، لذلك لم أعرف قط ما إذا كانت قد تمكنت من الاتصال به أم لا. بعدها تلقيت رسالة أخرى منها، ردت فيها على رسالتي التي سألتها فيها عما إذا كانت قد قابلته خلال سنوات إقامتها في باريس. أجابت أنها لم تفعل، لكنها شاهدت مسرحية في انتظار غودو التي أخرجها آلان شنايدر وأرادت الاتصال ببيكيت لأنها أرادت الكتابة عنه وعن مسرحيته في يومياتها الشهيرة.

حينما كنت في مكتب الناشر بارني روسيت، انشغلت بنسخ كل محتويات الملفات التي خصصها لبيكيت، والرسائل والبرقيات الهاتفية التي

كانت متراكمة في أرجاء المنزل. كان جورج ريفي يشعر بالإهمال لأنه لم يكن لدي الوقت لمقابلته في الحانة المفضلة لديه، لذا فقد أغراني برسالة أو اثنتين «وجدهما للتو بأعجوبة». توقعت جان ريفي مني أن أكتب إلى بيكيت وأطلب منه مساعدتها في العثور على منتجين فرنسيين لمسرحياتها، وقد تطلب الأمر أن أستخدم كل ما لدي من براعة وإمكانيات لكي أتحاشاها. لم أجب على المكالمة الهاتفية من جورج الذي اتصل في وقت متأخر من إحدى ليالي شهر آذار، وكان يريد أن يخبرني أن جون مونتاغ في نيويورك ويود مقابلتي. تمكنا من أن نلتقي في مطعم ماريلز كما اقترح هو لتناول طعام الغداء. وكان يجب أن أخطط لقضاء وقت طويل معهما بعد ظهر ذلك اليوم، بالإضافة إلى ذلك وعلى الرغم من أنه لا أحد أشار إلى الأمر، إلا أنني تحملت تكاليف كل شيء. أخبرت جورج، وأنا أحاول السيطرة على أعصابي، أنه يمكنني لقاؤهم لساعة واحدة فقط ولا يمكنني الوصول إلا عند منتصف الظهيرة. لم يعجبه ذلك، ولكني خاطبت نفسي باستخدام أحد التعبيرات الفرنسية (tant pis) (ومعناها لا بأس) حتى لا أضطر إلى شتمه باللغة الإنجليزية.

وجدت نفسي أتناول الغداء مع مونتاغ وريفي وقد تمكنت من الخروج بعد أن دفعت حساب وجبتي وتركتهما يدفعان ثمن طعامهما بينما ظلا يتناولان المشروبات. كان السبب الذي جعلني أقبل في المقام الأول أن مونتاغ أخبرني أنه كان في باريس وأنه «أجرى محادثة طويلة مع سام» عني وعن كتاب السيرة، ولكن تبين أن تلك خدعة. كان لدى مونتاغ فكرة خاطئة بأن لدي نفوذاً كافياً في مختلف الكليات والجامعات وأنه يمكنني أن أحصل له على عمل في مجال التدريس، فإذا لم تكن وظيفة فعلية، فستكون على الأقل عقداً لإلقاء بعض المحاضرات المدفوعه. وحيث إنني لم أتمكن من العثور على وظيفة دائمة لي، لذلك بالتأكيد كان من المستحيل أن أجد لغيري وظيفة.

كانت جوان ميتشيل تتصل هاتفياً يومياً، سواء بمنزلي أو بمكتب بارني، وتطلب مني الحضور إلى الإستوديو الخاص بها لقضاء بعض الوقت معها. في معظم الأيام، كنت أزورها بلا موعد مسبق، ولحسن الحظ، كانت تسمح

لي بالمغادرة عندما أضطر إلى الذهاب. تكررت مرة واحدة فقط العملية التي كنت أسميها «خطفي من قبل جوان»، عندما رفضت السماح لي بمغادرة الإستوديو الخاص بها. لحسن الحظ اتصل بها هاتفياً زافير فور كاد مالك القاعة التي كانت تعرض فيها لوحاتها، وتطوع للمجيء عندها والبقاء معها، لذلك سمحت لي بالعودة إلى المنزل في الوقت المناسب لتناول العشاء مع عائلتي. عندما غادرت متوجهة إلى باريس، ودعتها بحنان كبير ووعد حقيقي بأن أراها في رحلتي البحثية القادمة.

جرت أحداث غريبة أخرى في ذلك الربيع. أرسلت لي ماريون رسالة ودية تسألني فيها متى أخطط للعودة إلى باريس. لقد أعجبتها بلوزتي التي ارتديتها في رحلتي الأخيرة، وقد أعجبتني شخصياً لدرجة أنني اشتريت أكثر من واحدة منها بعدة ألوان. وتساءلت إذا ما كان بإمكاني شراء اثنتين وإرسالهما إليها؟ وقد فعلت ذلك وبالقياس والألوان التي طلبتها، وأرسلتهما عبر البريد الجوي. بعد عدة أسابيع جاءني ردها: لم تكن ألوانهما مناسبة تمامًا ولم تكن قياساتهما مضبوطة، لذا أعطتهما إلى جمعية خيرية. لم تأت على ذكر دفع مبلغهما. غضبت كثيراً ولكن لم أقل شيئاً.

وحينها عاد الكاتب إسرائيل هوروفيتس. لقد رأيته في مكاتب دار النشر غروف برس في عدة مناسبات عندما كنت أبحث في أرشيف بارني، لكننا لم نتحدث. أرسل إليّ خطابًا يقول فيه إنه مستعد الآن مرة أخرى «للنظر في الإجابة على أي أسئلة تطرح عليه كتابة». أجبته قائلة إنه يعرف نوع الأسئلة التي سأطرحها، وإذا كان يريد الإجابة عليها، فسيكون ذلك أمراً جيدًا. وإذا لم يكن يود ذلك فليس هناك مشكلة.

ما كان واضحاً أنه على رغم كل هذا النشاط الذي قمت به، فإنني لم أكتب سوى القليل في الفترة الممتدة بين نهاية شهر كانون الثاني ومنتصف نيسان، حيث كنت أخطط للاطلاع على المحفوظات المتعلقة ببيكيت في مركز أبحاث العلوم الإنسانية في جامعة تكساس في مدينة أوستن. لقد شعرت بسعادة غامرة عندما علمت أن الشاعر جاك يونتيريكر كان أستاذاً زائراً في تلك الفترة، وعندما جلست معه عند الغداء تحدثت بلا توقف وقد أخبرته بكل ما قمت به منذ آخر مرة رأيته في جامعة كولومبيا. كان

جاك نادراً ما يتكلم ولكنه كان دائماً يتحدث بحكمة. أشار إلى اتجاهات لم أفكر في الذهاب إليها وساعدني في ترتيب الأشخاص الذين لم أتصل بهم بعد من حيث أهميتهم لبيكيت والكتاب. كانت آخر مرة رأيته قبل رحيله المبكر عام 1989.

أحد الأشخاص الذين اعتقد جاك أنه سيكون مصدراً رائعًا ليس لتراث بيكيت الأيرلندي فحسب، ولكن كمحرر أكاديمي غزير المعلومات أيضاً هو الناقد فيفيان مرسييه. الذي كان يعيش في أيرلندا، وكتبت له فور مغادرتي أوستن. طلب مني الاتصال به هاتفياً، لأننا لن نكون في نفس القارة في أي وقت قريب. فعلت ذلك، وتحدثنا لمدة ساعتين تقريباً. وكان الشيء الذي واساني أن فاتورة الهاتف كانت أرخص من تذكرة الطائرة.

كان مرسييه ينبوعًا من المعلومات حول كل الأشياء الأيرلندية، وقد تابع عرضه بإرسال كمية وافرة من المعلومات التي جمعها لكتاباته الخاصة عن بيكيت. لكنه أثناء حديثنا قال شيئًا ما دونته على الفور في مذكراتي اليومية ووضعني في حيرة لوقت طويل: (*الشخص المناسب للقيام بكتابة سيرة حياة صامويل بيكيت هي فتاة أمريكية شابة تعطي انطباعًا أنها ساذجة للغاية*).

لم أكن أعرف ما الذي يجب فعله في هذه الملاحظة سوى أن أكون غاضبة منها. اعتقدت أنني كنت أقدم نفسي ككاتبة أكاديمية تعمل بجدية لتثقيف نفسها بكل طريقة مهنية إيجابية، ورغم كل جهودي، فإن الناس الذين كان يجب أن يعلموا ذلك مازالوا يعتقدون أنني فتاة ساذجة. كان الأمر محزنًا في ذلك الوقت، ومازال يزعجني حتى الآن. ومع ذلك، فقد كان له تأثير إيجابي واحد: لقد أعطاني دفعة هائلة من الطاقة ووضعني في حالة من التصميم على أنني «سأريهم» ماذا سأفعل. لقد أجريت ما يكفي من الأبحاث، وكانت لدي الخطوط العريضة الأساسية للسيرة، وكان الوقت قد حان للاستقرار وبدء الكتابة. لقد قلت ذلك من قبل، ولكن هذه المرة كنت أعنيه فعلاً.

الفصل السادس عشر

كان «عامل التثاؤب» مصطلحًا اخترعته لما يحدث لي خلال المقابلات عندما كنت أكتم تثاؤبي من الملل لأن من كنت أقابلهم كانوا يخبرونني بأشياء سبق لي أن عرفتها. وعلى الرغم من وجود أجزاء من حياة بيكيت، كنت بحاجة إلى مزيد من المعلومات عنها قبل أن أتمكن من كتابة سرد منسجم، فقد أدركت بحلول ربيع عام 1974، أن الوقت قد حان للبدء....

عندما بدأت، قرأت كتب السير الأخرى بعناية، وكنت أدرس أسلوب وتقنية التأليف بقدر دراستي للمحتوى. كان يبدو أن كل ما قرأته حتى ذلك التاريخ يبدأ مع – الولادة – وينتهي مع – الموت. تبدأ بكلمة ولد (لأن تلك المؤلفات كانت حتى ذلك الوقت تتحدث في الغالب عن الرجال)، ثم نشأ وعمل، ورأى، وأصبح، ثم تدهورت صحته ومات. ثم نقطة في رأس السطر لتشير إلى نهاية الكتاب.

بحلول شهر نيسان، بدأ النشاط المحموم الذي عشته في الأشهر العديدة الماضية يتباطأ بما يكفي لأتمكن من التركيز بشكل أكبر على قضية من أين أبدأ بدلاً من التركيز على كيفية البدء. في هذه المرحلة من مسيرتي القصيرة ولكن المتنامية دائمًا ككاتبة سيرة جاءت إلى هذا الحقل من الكتابة مصادفة، كنت قد قرأت مؤلفات في هذا الجنس الأدبي بشكل واسع إلى حد ما، لدرجة أنني قمت بالتدريس في حلقة دراسية أقامتها كلية ترينيتي بعنوان «السيرة الأدبية». خلال البرنامج المكثف الذي قمت بإنشائه لتعليم نفسي تدريس الآخرين، بدأت بالاطلاع على مؤلفات كتاب السيرة الكلاسيكيين من أمثال: فلوطرخس وسويتونيوس وفازاري. لقد استمتعت بقراءة سيرة

حياة شارلمان التي قام بتأليفها الشاعر نوتكر وتلك التي كتبها المؤرخ إينهارد واستمتعت بسير حياة والتر سكوت وتوماس كارليل وتشارلز ديكنز وجون كيتس. كما قرأت السير النفسية لعالمي النفس فرويد ويونغ، وبسبب أنني لم أكن حينها على معرفة كافية بعلم النفس تمكنني من فهمها لم أستمتع بكليهما. ومع ذلك، فقد أعجبت بالسيرة النفسية لجيمس فورستال التي قام بتأليفها عالم الاقتصاد والت ويتمان روستو بسبب الرؤية الحكيمة التي تضمنتها حول كيفية تأثير شخصية فورستال على حياته العامة. شعرت أنني تعلمت منه بعض الأساليب المفيدة التي تمكنني من الحصول على رؤية ثاقبة في كتابات بيكيت.

كان التحدث مع كتاب السيرة الآخرين بنفس أهمية القراءة. لم أتغيب على الإطلاق عن حضور ندوات كتابة السيرة التي كانت تقيمها إيلين وارد، حيث استفدت من المناقشات التي كانت تدور حول الأعمال التي تناولت حياة الروائي ناثانيال هوثورن (من تأليف غلوريا إيرليخ)، والروائية دوريس ليسينغ (من تأليف كارول كلاين)، والكاتبة ليليان هيلمان (من تأليف جوان ميلين)، والكاتبة دوروثي باركر (من تأليف ماريون ميد)، والرسامة فيكتورين مورين (من تأليف يونيس ليبتون). كانت تلك هي المرة الأولى التي أدركت فيها التأثير الذي كان لتلك الكاتبات على هذا النوع من الكتابة، وبدأت في قراءة كتابات فرجينيا وولف غير الروائية من وجهة نظر مختلفة تمامًا، من وجهة نظر الممارسة وليس الناقدة. أسهمت مقالات الناقدة الأدبية إليزابيث هاردويك حول الكتاب الآخرين وحياتهم ورسائلهم في توسيع أفق أفكاري حول الحدود الفاصلة بين الكتابة الروائية وغير الروائية بطرق اعتقدت أنها قد تكون لها صدى في هذا النوع من الكتابة الخاص بالسيرة. وجدت نفسي منجذبة إلى الكاتبات اللاتي كن يستكشفن حياة النساء من خلال الكتابات غير الروائية وسيرة حياتهن، وكان من بينهن كاتبة السيرة نانسي ميلفورد في كتابها (عن الكاتبة المسرحية إدنا سانت فنسنت ميلاي) والصحفية سوزان براونميلر، التي كانت تكتب حينها دراستها المؤثرة بعنوان: ضد إرادتنا الرجال والنساء، والاغتصاب. أما الكاتبة أليكس كيتس شولمان فقد خلقت تسونامي أدبياً عندما ظهر كتابها مذكرات ملكة سابقة، أما كتاب السياسة

الجنسية الذي ألفته الكاتبة كيت ميليت فقد ألهم الرغبة في الحوار عبر مختلف الأطياف الاجتماعية والسياسية. حين أسترجعها الآن، أؤمن بشدة أنها جميعاً كانت ذات تأثيرات خفية وغير واعية على كل شيء كتبته عن صامويل بيكيت.

لا بد أنني استوعبت شيئًا من أساليب وتقنيات كل كاتبة، لكنني لم أكن أدرك أنني فعلت ذلك إلى أن جاء عام 2016، حين قرأت دراسة الكاتبة باولا باكشيدر حول كتابة السيرة التي صدرت في عام 1991، حيث كتبت فيها تقول إن «النظرة النسوية تتخلل» كتابتي لسيرة حياة صامويل بيكيت. في البداية شعرت بالدهشة من تقييمها، لأنني لم أكن أدرك أن النظرة النسوية كان لها تأثير فعال أثناء كتابتي. بشكل عام، فقد أسعدني أن مثل هذه العالمة البارزة قامت بتحديد هذه الميزة، لأنني عندما بدأت الكتابة، لم يكن لدي أي فكرة عما أفعله، علاوة على أنني خلقت غريزيًا طريقة للتفكير وكتابة السيرة أصبحت الأساس لجميع أعمالي اللاحقة.

بعد أن قرأت مؤلفات السيرة على نطاق واسع وعميق بدأت أعتقد أنني لا أريد أن أكتب واحدة من تلك السير التقليدية. أردت أن أفعل شيئًا مختلفًا، لأبدأ بشيء مثير، تمامًا كما فعل الكاتب دوغلاس داي عندما ألف كتاباً عن سيرة حياة الروائي مالكولم لوري. بدأ داي سيرة حياة لوري بحادثة موته، عندما سقط (ولم ينزل) من سلم منزله فقد كان سكران للغاية. في حالة بيكيت، أردت أن أبدأ بحقيقة أو حدث يكون أول شيء يفكر فيه أي شخص يعرف أي شيء عن بيكيت عندما يسمع باسمه. لذلك، قررت أنه ليس هناك أفضل من مسرحيته في انتظار غودو لأجعلها نقطة البداية في كتابي؟

كانت هذه أول خطوة غير عادية بالنسبة إلي، لأنني لم أكن أعلم قط ما هي الجملة الأولى من الكتاب حتى أصل إلى النهاية (ولا تزال هذه الحالة ترافقني). هذه المرة اعتقدت أنني أعرف بالضبط كيف أبدأ، مع الجملة الأولى التي قالتها سوزان بيكيت لزوجها بعد فوزه بجائزة نوبل: «يا لها من كارثة» Quelle catastrophe! (بالفرنسية في الأصل – م) ثم سأنتقل إلى الكتابة عن العرض الأول للمسرحية. كنت على وشك أن أنتهي من كتابة حوالي صفحة ونصف الصفحة في المسودة الأولى عندما ظهرت الأمثلة

والشكوك. وثقت جميع أسئلتي في مذكراتي اليومية، وبدأت من كيفية تضمين الكتاب شيئاً ما حول ظروف تأليف المسرحية، ولكن قبل أن أتمكن من القيام بذلك، كيف كان عليّ أن أهيئ الأمور بإخبار القارئ بمكان بيكيت في ذلك الوقت. ثم فكرت مع نفسي، أو ربما كنت بحاجة إلى التوقف لفترة كافية لشرح من أين جاء باسم غودو، أو تناول الاقتباسات التي استعارها من الكتّاب الآخرين وماذا كان يهدف من وراء ذلك. وماذا عن جعل القارئ يعلم بالدور الذي لعبته زوجته سوزان في كل هذا؟ فجأة كان شهر أيار قد بدأ. مر شهر ولم أكن في أي حالة قريبة من الشروع ببداية متماسكة. فالبدء بسيرة حياة بيكيت من لحظة نيله شهرته العظيمة لم ينجح.

اعترفت على مضض أنه، لكوني مبتدئة، ربما كان لدى الآخرين النهج الصحيح عندما بدأوا كتبهم مع بداية حياة الشخص، لذلك قررت أن أجرب ذلك. بعد أسبوع واحد كان لدي مسودة مضطربة للغاية من الفصل الأول الذي يتحدث عن بيكيت منذ يوم ولادته إلى سنوات مراهقته في مدرسة بورتورا الملكية. عندما أقول «مضطربة»، فإن الأمر لا يتعلق بوصف تلك الصفحات الأولى المحرجة والمجزأة. ربما أكون قد خلقت هيكلاً للكتاب، لكن لم يكن لديّ سوى القليل من الكتابات التي تستحق أن أثريه بها.

كنت أعلم أنني بحاجة إلى العودة إلى أيرلندا للحصول على مزيد من المعلومات حول السنوات الأولى من حياة بيكيت، لكن المشكلة كانت هي المشكلة المعتادة التي واجهتها طوال الكتابة: أين أجد المال لدفع ثمن الرحلة. كنت متعاقدة بشكل رسمي مع دار نشر هاربر ماغازين Harper's Magazine Press، ولكنني أنفقت المقدمة الصغيرة التي دفعوها. وقد أخبرني وكيل أعمالي كارل براندت، أن الناشر لاري فروندلبتش لن يقدم المزيد من المال إلى أن أكون قد كتبت فقرات مهمة من الكتاب لأريه إياها. شعرت بالقلق لأنني اضطررت للتوقف عن الكتابة لملء المزيد من طلبات الحصول على منحة، وقد حسبت نفسي محظوظة عندما أعطاني المجلس الأمريكي للجمعيات التعليمية راتباً بسيطاً سيسمح لي بالعودة إلى أوروبا في ذلك الخريف. وحين شعرت بالراحة، عدت إلى الكتابة.

كانت مهمتي الأكثر إلحاحًا ضخمة بحق حيث كانت تتمثل بتنظيم جميع

المعلومات التي لدي بالفعل عن السنوات التي قضاها بيكيت في أيرلندا حتى أتمكن من ملء ما لم أكن أعرفه عندما وصلت إلى أيرلندا. أدركت أنني بحاجة إلى تسلسل زمني مفصل يسمح لي بتتبع تنقلات وكتابات بيكيت يومًا بعد يوم، بل حتى ساعة بعد ساعة في بعض الحالات. ولكن كيف يمكن وضع كل ذلك في شكل مفيد في تلك الأيام التي لم يكن قد ظهرت فيها الجداول البيانية بعد؟ كنت من أشد المعجبين ببطاقات الملفات الصغيرة وكتبت التسلسل الزمني للأحداث مفصلاً حسب الفئة – التعليم والصحة والعلاقات الأسرية وما إلى ذلك. ومع ذلك، لم يكن لدي مساحة كافية لوضعها ورؤيتها كلها في وقت واحد؛ ما كنت بحاجة إليه هو روزنامة مرئية، أي مخطط يمكّنني من دمج جميع المواضيع في جدول زمني رئيسي.

لقد عثرت على الحل في متجر محلي لبيع السلع الرخيصة، كان في طريقه إلى الإغلاق. في صندوق، رصدت في إحدى الحاويات عدة لفات من الورق الأبيض التي تستعملها ربات البيوت المقتصدات اللاتي يحرصن على أن يبقين منازلهن نظيفة تماماً في فرش رفوف خزائن المطبخ. نظرًا لأنني لم أكن قط أمتلك مثل هذا النموذج في حياتي المنزلية التي تعود إلى منتصف القرن، فإن أول ما فكرت فيه عندما رأيتها هو التساؤل عن كيف ألف الكاتب جاك كيرواك روايته على الطريق: حيث استخدم لفة ورق متصلة وكتبها دون الحاجة إلى التوقف لتغيير الصفحة. فقررت أن أستخدم تلك اللفات لكتابة تسلسل زمني من دون توقف لأحداث بيكيت اليومية.

لم يكن العالم يعرف الكثير عن صامويل بيكيت عندما بدأت أكتب عنه. ادّعى الكتّاب الأكاديميون أنه ذلك الناسك شاعر الاغتراب والعزلة واليأس، في حين أن النقاد الأدبيين منحوه لقب فيلسوف وأن أفكاره كانت صدى لأفكار آرثر شوبنهاور والأسقف جورج بيركلي وفلاسفة آخرين. في حين استقر رأي الباحثين والكتاب المسرحيين على ادعائهم بإخلاصه لأسلافه الأيرلنديين أو أنه ينتمي إلى مسرح العبث. كان هناك جانب من الحقيقة مع كل واحد منهم، ولكن لم تكن هذه هي الحقيقة كلها. وجدت أن مهمتي هي توفير معلومات عن سيرة الحياة التي من شأنها أن تسمح لجميع أشكال الكتابة النقدية بالازدهار في اتجاهات جديدة وغير معروفة حتى الآن أو

غير مدروسة. بدأت أنظر إلى جنس كتابة السيرة باعتباره أداة للبحث عن استفسارات أعمق وأكثر تفصيلاً في جوانب عمل الكاتب.

ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بالمنهجية، لم تكن لدي منهجية معينة. كنت عازمة ببساطة على السماح للكتابة عن حياته أن تكشف بالضبط الطريقة التي عاش بيكيت - وظل يعيش - فيها حياته الخاصة. لم أحاول إنشاء هيكل معين للكتاب من شأنه أن يفرض حدودًا تعسفية على المحتوى، ولم أحاول تقسيم قصة الحياة إلى فئات مرتبة ومنظمة. عندما جلست في هدوء في مكتبي، وأنا أفكر في المهمة الصعبة التي تواجهني وأحاول صياغة نظرية أو فكرة أساسية من خلال ملاحظات عشوائية دونتها في مذكراتي اليومية، قمت بصياغة ما أسميته بالطريقة «غير المنهجية»، وهي التي اتبعتها منذ ذلك الحين. كنت قد كتبت أن كل حياة فوضوية ومتنوعة، تخضع لتقلبات الأحداث الخارجية والأقدار الفظيعة. كانت السيرة شيئاً حياً وكائناً يتنفس ويجب أن يكون حراً في السير في مساراته واتجاهاته الخاصة، وكان ذلك على عكس كل ما تعلمته في حياتي الأكاديمية، حيث توقعت المراجعات التي قام بها أقراني في الصحف والمجلات أن يتم عرض شخصية الكتاب في إطار معايير حظر صارمة.

وجدت نفسي أقول كل هذا لليون إديل عندما التقينا في المعرض الوطني للفنون. كنا كلانا في واشنطن نحضر مؤتمراً عن كتابة السيرة، هو كمتحدث بارز وأنا كمبتدئة في كتابة السيرة منتشية بحضور المؤتمر. جلسنا لأكثر من ساعة وأنا أشرح طريقتي، وأطرح أسئلتي، وأطلب نصيحته. بدا كأنه يستمتع بالمحادثة وكان كريماً بذكره أمثلة من تجربته الخاصة. ما زلت أحترم النصائح التي قدمها، وأتابع العمل بالعديد من تقنياته حتى يومنا هذا.

فيما يتعلق بأسلوبي الخاص، فكان يسمح للكتابة بحد ذاتها أن توضح الأشياء بسلاسة وفي مرحلة لاحقة كانت تتطلب على الأغلب تنقيحاً شديداً. كان هذا أكثر وضوحاً في بداياتي، في الفقرات الأولى، التي كانت تقع في مكان وسط بين المبالغة والتنميق. في مسيرتي الصحفية، كنت أكافح من أجل كتابة الجملة الأولى التي تصيب الهدف، «العبارة الافتتاحية المميزة» التي تجذب القارئ إلى القصة، لكنني نادراً ما نجحت في ذلك من أول محاولة

لي. أتذكر كيف كان يراقبني محرري المفضل وأنا أحاول أن أنهي الكتابة في الموعد المحدد، وهو يحدّق في آلتي الكاتبة من خلال نظارته الصغيرة. كان يقول لي «انهضي»، قبل أن يجلس على الكرسي، يمزق قصتي، ويكتب جملته الأولى البسيطة والمباشرة، ومن ثم يضعها بدلاً من السرد الغارق في المبالغة والتفاخر الذي كتبته قبل إرسال كل المادة إلى المطبعة. قد تعتقدون أنني تعلمت شيئًا ما من البساطة والوضوح في السنوات العديدة التي عملت فيها معه، لكني عندما شرعت في تأليف سيرة حياة بيكيت، بدأت مع عباراتي المتصنعة المعتادة. يبدو أنني لم أتعلم شيئًا.

على الرغم من أنني علمت أن «النثر المنمق المتقد حماسة» الذي كنت أكتبه، ربما لن يرى النور أبدًا في صفحات الكتاب عندما أنتهي منه، إلا أنه كان يفي بالغرض. كنت في بعض الأحيان أحتاج إلى كتابة عشر أو خمس عشرة صفحة حول مقال نقدي بسيط لبيكيت لأتمكن من فهم أي من الجمل، أو الفقرات على الأغلب، تعبر حقًا عما هو مهم. اضطررت إلى ترك الكثير من الأفكار في أوراق مهملة قبل أن أعرف ما أحتاج إلى الاحتفاظ به.

استغرق الأمر وقتًا طويلاً لإنشاء مزيج من تقويم وتسلسل زمني خاص بي في ذلك الصيف، لكنه كان يستحق ذلك. كانت هذه فترة مزدحمة بالعمل ومثمرة. كنت أكتب خلالها بشكل مستمر، وأنا أرى الكتاب يتشكل في أجزاء ومقاطع وأنا أكتب تلك الفصول التي كانت لدي عنها معلومات هامة ومصادر متعددة لتأكيدها. كنت لا أزال أقوم بإجراء مقابلات وأنا أكتب، مع التركيز حينها على الأشخاص الذين شاركوا في عروض مسرحيات بيكيت في أمريكا، وذلك لكي أتمكن عندما أعود إلى أيرلندا وإنجلترا، من مقارنة معالجاتها للنص المسرحي مع مختلف مثيلاتها في أوروبا. تحدثت إلى العديد من علماء النفس والأطباء النفسيين الذين كتبوا عن بيكيت، وكلهم كانوا مقتنعين بأنه يعاني من مشاكل عقلية جدية. لقد أصغيت لهم بعناية، وجمعت كل ما قدموه لي، ووضعته في ملف للنظر فيه بعناية. أرسل إليّ الناقد الأدبي فيفيان مرسيه مراسلاته مع بيكيت وفصلاً من الكتاب الذي كان يكتبه آنذاك؛ لقد شعرت بالارتياح حين اكتشفت أنه لا شيء فيه ما يؤثر على عملي.

ثم وصلت ماري مانينغ هاو لقضاء الصيف مع ابنتها، الشاعرة سوزان هاو، في غيلفورد. تناولنا معاً الكثير من وجبات الغداء والعشاء، وتشاركنا الكثير من المرح والأحاديث السعيدة في منزلي ومنزل سوزان، وزاد عددها عندما وصلت إحدى بنات ماري، الكاتبة فاني هاو، مع أطفالها. قريباً سيحل شهر تشرين الأول الذي يمثل بالنسبة إليّ موعد مغادرتي إلى باريس. كتبت إلى بيكيت كما كانت عادتي لأخبره بمواعيدي في باريس. لقد صُعقت عندما تلقيت رده، الذي أخبرني فيه أنه «منزعج من المشاكل التي تسببت بها مع السيدة هاو وابنتها سوزان»، وينهيه بعبارة «أفضل عدم رؤيتك».

فماذا يجب أن أفعل الآن؟

الفصل السابع عشر

كنت في حالة صدمة عندما قرأت رسالة بيكيت ولست بقادرة على وصف ردة فعلي. في محاولة لفهم ما أثار غضبه خطرت على بالي ذكرى أمسية معينة، في الثامن من آب، الليلة التي استقال فيها ريتشارد نيكسون. كانت هناك كل أنواع الشائعات، لكننا لم نكن نعرف ما الذي سيفعله نيكسون عندما دعوت مولي وسوزان وفاني إلى منزلي لتناول العشاء — لم نكن نعلم سوى أنه سيلقي بياناً في التلفاز. عندما فتحت الباب للسماح لهن بالدخول، وجدت أن فاني وسوزان تحملان تلفازاً ضخماً بين ذراعيهما. خوفاً من أن أكون لا أملك واحداً أو أن تلفازي لا يعمل، لذا أحضرتا جهازهما معهما. وضعنا جهازي وجهازهما جنبًا إلى جنب في غرفة الطعام وجلسنا جميعًا في صف واحد على الطاولة، بدأنا نحدق بهما كما لو كنا في عرض مسرحي ولم نكن قد تناولنا العشاء حتى تلك اللحظة.

في كل محادثة أجريناها في ذلك الصيف، كانت مولي تشير بشكل متكرر إلى إمكانية أبوة بيكيت لسوزان، كانت تحاول جاهدة إقناعي بأنها الحقيقة ويجب كتابتها كما هي. لحسن الحظ، كنت قد اطلعت على سجل مفصل للأحداث التي عاشها بيكيت في تلك السنة، قمت بعمل نسخة منه، كان هناك قدر كبير من الأدلة المؤكدة في رسائله وبطاقاته البريدية. لم يكن من الممكن أن يكون أبا طفلها، لأن كليهما لم يتواجدا في أيرلندا في نفس الوقت. كنت أعلم أنني لن أذكر أية شائعة أو تلميح أو ثرثرة لا فائدة منها في كتاب السيرة، لذلك قمت ببساطة بإهمالها ولم أزعج نفسي مطلقًا أن أسأل بيكيت عن ادعاء مولي الملفق. بالتأكيد، لم أقم بإثارة الموضوع مع سوزان، وفي كل مرة كانت مولي تشير إلى الموضوع في أحاديثنا الخاصة،

كنت أخبرها دائمًا بحزم وبأدب قدر استطاعتي أنني لن أكتب عنه بأي شكل من الأشكال. اعتقدت أن تلك المحادثات قد وضعت حداً لذلك الموضوع إلى الأبد.

في اجتماعنا الأخير في ولاية كونيتيكت في نهاية آب، أخبرت مولي أني سأراها في تشرين الأول، حيث كنت أخطط لجعل دبلن محطتي الأولى قبل الذهاب إلى لندن، حيث لا يزال لدي الكثير من المقابلات وأبحاث أرشيفية كثيرة للقيام بها.كنت قد أبلغت بيكيت بخط سير رحلتي، لكن ذهابي إلى باريس بعد ذلك، سوف يعتمد على مقدار ما سيتبقى عندي من أموال المنحة. إذا ذهبت، فسيكون ذلك لقاءً لفترة قصيرة، فليس من المحتمل أن يُثار شيء ويتسبب في إزعاجه، ومن الممكن تهدئة غضبه إذا لزم الأمر.

واصلت الكتابة في الفترة بين شهر آب ونهاية أيلول، وسررت بمدى ثباتي في كتابة الكتاب. لم يكن لدي سوى أجزاء وقطع صغيرة مكتوبة عن حياة بيكيت في سنوات كتاباته المتأخرة، لكن من ناحية التسلسل الزمني، كنت أبلي بلاءً حسنا مع حياته في سنوات الثلاثينيات وأوشك على البدء في الكتابة عن سنوات ما بعد انتقاله الدائم إلى باريس. لقد صُعقت برده على الرسالة التي أعطيته إياها وكانت تحتوي على مواعيدي، عندما أخبرني كيف «انزعج من المشاكل التي تسببت بها مع السيدة هاو وابنتها سوزان... بناء على إحدى رسائله إلى السيد آشر. أخبرني ألا أقوم بكتابة أي مراسلات أو صور أو رسومات في الكتاب، وأنهى الرسالة بـ «من الأفضل ألا أراك». لم أستطع أن أفهم ماهية جذور هذه القصة ولماذا اختلقتها مولي هاو.

على الرغم من أنني تذكرت براين كوفي وهي تحذرني من أن مولي هاو شخصية «تحب الإثارة» وسوف تستخدم أي موقف لأغراضها الخاصة، فإنني لم أستطع أن أفهم لماذا، كما قال بيكيت في رسالته التي بعثها لي، أخبرته أنني سأذكر في الكتاب أنه والد سوزان، أو السبب الذي جعلها تطلب منه أن يشجب تصرفي علناً، ويوقف تعاونه معي، وألا يراني مرة أخرى أبدًا، خاصة بعد أن قبلتني وهي تودعني وسلمتني كنزًا عائليًا خاصًا جدًا لتدعيم صداقتنا، كان عبارة عن قطعة من الدانتيل المطرزة من قبل والدتها. على الرغم من أنها هي التي قدمتني إلى الكاتب أرلاند آشر وهي من ذهبت معي

إلى منزله وألحّت عليه لكي يريني رسائله، إلا أنها أخبرت بيكيت كذلك أنني استعملت القوة مع ذلك الرجل المسكين لإجباره على الموافقة على أن يريني رسائله. وأصرت أيضًا على أن لا علاقة لها باكتشافي قصة النسب لسوزان وأنني لم أعلم بها إلا بعد أن قرأت رسائل آشر. لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت مذهولة للغاية من جرأتها أو مصدومة من أكاذيبها.

بعد أن تلقيت رسالة بيكيت مباشرة، ذهبت لرؤية سوزان. كانت محرجة ومضطربة وسألتني إذا كان عليها أن تكتب إلى بيكيت، على الرغم من أنها لم تكن لديها أي فكرة عن كيفية تفسير هيجان والدتها. بعد أن أخبرتها بحقيقة دوري في هذه الضجة المقرفة، قالت: إنها بالضبط أمي التي أعرفها، واتفقنا على عدم التحدث عنها مرة أخرى. شعرت بالارتياح لأن علاقة الصداقة التي نشأت بيننا خلال الصيف ظلت سليمة.

كنت حينها مضطرة إلى التعامل مع بيكيت، لكن كيفية القيام بذلك لم تكن واضحة تمامًا. لحسن الحظ، حدث شيء ساعدني. اتصل آلان شنايدر ليقول إنه وجد بعض الملاحظات التي كتبها عدد من المخرجين عن مسرحية في انتظار غودو، ويعتقد أنها قد تكون مفيدة. كان يعتزم أن يكون في نيويورك الأسبوع المقبل، واتفقنا على الاجتماع في مكتب الناشر بارني روسيت، حيث يمكننا من خلال الملاحظات تحديد مَن من المخرجين المسرحيين الموجودين في لندن هم الأكثر أهمية بالنسبة إلي لأقوم بإجراء مقابلات معهم.

أخبرت آلان وبارني دون الخوض في التفاصيل أن ماري مانينغ هاو أشعلت حريقاً عصف بعلاقتي مع بيكيت ولم أكن أعرف ماذا أفعل حيال ذلك. أصغى لي كلا الرجلين بانتباه، وبينما كنت أتكلم، كنت أراهما يتبادلان نظرات ذات معنى. تحدث بارني أولاً، متسائلاً عما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي أجرب فيها إحدى «نوبات غضب سام المفاجئة». فكرت في ذلك، وأدركت أن نوبات غضبه لم تكن نادرة بالنسبة إلي، لأن أسئلتي عادة ما تثير واحدة على الأقل من تلك النوبات في كل لقاء يجمعنا.

عرض آلان حلاً فاقتنعت به، ولكن ليس بشكل كامل. وطبقاً لما قاله

كان يجب عليّ الرد على رسالة بيكيت والاعتذار عن أي فعل طائش قمت به حسب مخيلة السيدة ماري. ثم أكتفي بذلك أي أنها لم تكن سوى ملاحظة قصيرة جدًا ولا شيء غير ذلك. كان هو من اقترح استخدام وصف «مخيلة»، وكان هذا بالضبط ما كتبته وما كنت أنوي إرساله، إلى أن جعلني التفكير بالأمر لفترة طويلة بعض الشيء أشعر بغضب شديد. بعد سنوات من لقاءاتنا الشخصية والرسائل العديدة التي تشرح لي من الذي يمكن أن أقابله ونوع الأسئلة التي كنت أطرحها، صدمتني اتهامات بيكيت الشنيعة التي ذكرها في رسالته. كما هي عادتي، قمت بتفريغ كل هذه المشاعر في مذكراتي اليومية. (*لقد أفسدت مولين مانينغ هاو الأجواء، كان بيكيت غاضباً من تفاهة آشر وكان يلومني على كل ما حدث. فكرت في الأمر طوال اليوم ولم أستطع النوم أغلب ساعات الليل، لكنني كتبت في النهاية رسالة مهذبة للغاية كنت آمل أن تظهر له أنني غاضبة من غطرسته*). لم أستطع ترك الأمور تمر دون تعليق، لأنني كنت أعرف أن اتهاماته ستتزايد وستجعلني في النهاية أنفجر غضباً، ولم أكن أريد أن يحدث هذا الانفجار عندما أكون معه. واصلت بذل جهودي لتوضيح أن كل تلك «الضجة» – وهذه الكلمة كان يستخدمها آلان – قد اختلقتها السيدة هاو.

وبسبب أن ذلك لم يكن كافياً لتهدئة ثورتي وبقيت أشعر بحالة من الغليان والغضب الذي لم أتمكن من مقاومته لذا ختمت رسالتي بفقرة قلت له فيها إنه بعد كل هذا الوقت، فإني أشعر بالأسف العميق لأنه كان لا يزال يشك في جدية وصدق مسعاي. كنت آمل أن يغير رأيه، لأنني أنجزت قسماً كبيراً من الكتاب، وأن الكثير من الأشخاص الذين كنت ملتزمة بعقود معهم كانوا يعتمدون عليّ، وأنه ليس لدي خيار سوى مواصلة عملي. قلت إنني سأكون في دبلن ولندن، حيث يمكن أن يتصل بي عن طريق الناشر، وإنني لن أذهب إلى باريس بعد ذلك إلا إذا غير رأيه وأراد رؤيتي.

إذا كان قد أجاب على هذه الرسالة وأرسلها إلى أحد الأماكن التي أستلم منها بريدي، فإنني لم استلمها قط. لكني أعتقد أنه لم يرد. لقد تبددت نوبة غضبه، وعلى أثر كتابتي للرسالة، زالت نقمتي المشروعة الرسالة التالية التي تلقيتها لم تكن منه مباشرة، ولكن من ابنة عمه مولي رو، التي قالت

إن عليّ أن أحدد مكاناً لرؤيتها في زيارتي المقبلة إلى إنجلترا، لأنها أرادت أن تعطيني نسخاً من الرسائل والرسومات التي رفضت إعطائي إياها سابقًا. وعندما سألت بيكيت عنها، أخبرها أنني يجب أن أحصل عليها. يبدو كما لو أن مراسلاتنا وأنواع الاتصال الأخرى ستستأنف كما لو أن شيئاً لم يحدث.

لم تكن خيبة مولي هاو هي معاناتي الوحيدة خلال هذه الفترة. بينما كنت أعمل بعيدًا، كنت أستفيد - أو هكذا اعتقدت - من مراسلات مستمرة وعدة محادثات هاتفية عبر الأطلسي طويلة ومكلفة مع فيفيان ميرسيه في أيرلندا. حتى هذه المرحلة من حياتي في الكتابة، ناقشت عملي في كثير من الأحيان مع زملائي أو أصدقائي، لكنني لم أظهر لأحد قط أي شيء مكتوب إلى حين أكون قد امتلكت مسودة كاملة، بغض النظر عما إذا كانت مقالة إخبارية قصيرة أو ملفاً تعريفياً طويلاً. لقد انتهكت هذه القاعدة الصارمة مع ميرسيه حيث أطلعته على أجزاء من السيرة لأنني كنت قلقة بشأن معالجتي الدقيقة لتراث بيكيت الأنغلو-إيرلندي والوسط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه وأردت التأكد من أنني لم أكن قد ارتكبت أي أخطاء فادحة. «فتاة أمريكية ساذجة»، هكذا كان وصفه لي، وعلى الرغم من أنني استأت من كلمة «ساذجة»، فإنني كنت هكذا بالضبط.

كنت قد أرسلت فصولاً من الجزء الأفضل الذي كتبته في تلك السنة إلى مرسيه وقد ساعدني في توضيح ما أسميته «أشياء أيرلندية» مختلفة، لكن رده الأساسي كان الدهشة حيال مادة اكتشفتها وكيف كانت ستغير مسار بيكيت الفكري. أخبرني مرارًا وتكرارًا أنه لا أحد يعلم أي شيء بما كنت أكتب وأن كتابي سيصبح مساهمة مهمة للغاية في التعريف «بورشة عمل بيكيت الأكاديمية». بدا الأمر كما لو كان يعرف أعماق أفكاري وأحلامي للطريقة التي سيتم استقبال الكتاب بها، حيث كان هذا بالضبط ما أردت أن يكون، مساهمة حقيقية في مساره الفكري. واظبت بكل سرور على إرسال كل ما أكتبه إليه.

كنت قد أرسلت الفصول التي كتبتها في معظم أشهر السنة إلى ميرسيه عندما بعث لي برسالة يخبرني فيها أنه انتهى من تأليف كتابه ولأنني كنت «مبتدئة» مجهولة تمامًا وكان هو «باحثًا خبيراً»، فاعتقد أنه «سيكون من

الأفضل» أن يدرج كل المعلومات التي يتضمنها كتابي عن سيرة حياة بيكيت في دراسته النقدية الخاصة. وكان رأيه أن تلك المعلومات إذا ما ظهرت هناك أولاً، فمن المرجح أن يأخذ جمهور القراء كتابي بجدية أكبر. لم يكن يقصد من ذلك سوى تقديم «خدمة عظيمة» لي حسب قوله. سرعان ما تحولت سذاجتي المزعومة إلى نشاط فعال اتصلت بوكيلي، الذي اتصل بعدد من الناشرين المختلفين الذين أعرفهم، الذين قام محاموهم جميعًا بالاتصال بناشر كتاب ميرسييه بعد ذلك قدم ناشره مخطوطة منقحة لي لضمان أنه قد تمت إزالة جميع البحوث التي أجريتها وصدر كتاب مرسييه باعتباره الدراسة النقدية التي كتبها في الأصل.

حينما أسترجع ذكرياتي عن تلك الفترة، يظهر لي كيف كنت أكسب الثقة بنفسي. لقد واجهت بيكيت دفاعًا عن النفس، ويبدو أنه تراجع. ووقفت بوجه الزوجين ريفيس مرةً تلو الأخرى، ورفضت أن أكون رهن إشارتهما وفضلت التركيز على عملي، وأخبرت جورج أنه لم يعد بإمكانه أن يساومني على المعلومات، فإما أن يقدمها لي أو لا، وأخبرت جيان بأنني لن أفعل ما تريده مني، فلم يكن لدي أي تأثير على أي من المسرحيين الذين صادقتهم، وبالتالي لم أستطع الطلب منهم إنتاج مسرحياتها. والأفضل من كل هذا، لقد قمت بتخريب محاولة ميرسييه الفاضحة لسرقة الملكية الفكرية الخاصة بي. وبهذا الإنجاز، كنت واثقة من أن رحلتي البحثية القادمة إلى أيرلندا ستكون مختلفة تمامًا عن الرحلة الأخيرة. أشارت المقابلات المختلفة التي أجريتها في نفس الفترة إلى رسائل مكغريفي باعتبارها جزءًا أساسيًا من لغز بيكيت، وقد عقدت العزم على عدم العودة إلى المنزل من دونها.

عندما حجزت رحلتي، كان قد مر ما يقرب من شهرين منذ أن أرسلت خطابًا بغرض الدفاع عن نفسي إلى بيكيت، واعتقدت أنه كان ينبغي عليّ إرسال مذكرة أخرى إليه إلى جانب مسار رحلتي. قبل أن أتمكن من كتابتها، تلقيت منه رسالة، أخبرني فيها أنه كان في طنجة وسيظل هناك طوال الشهر، ويستريح قبل حضور تدريبات مسرحيته الأيام السعيدة في لندن. ثم سيكون في برلين طوال شهري كانون الأول وكانون الثاني ليحضر بروفات مسرحيته في انتظار غودو. وجدت عائلتي ووكيلي وناشري صعوبة في تصديق أنني

مرتاحة للغاية لدرجة أنني لن أحتاج إلى رؤيته أثناء رحلته، لكن الأمر كان حقاً كذلك. من المؤكد أن الالتقاء معه وجهاً لوجه والتعرض المباشر لتقلباته المحتملة وألاعيبه المعتادة سيكون بالتأكيد من الأمور المزعجة، الأمر الذي من شأنه أن يعرقل تركيزي على المهمة قيد البحث: إنهاء الكتاب الذي يتناول سيرة حياته حتى أتمكن من العودة إلى حياتي الطبيعية.

شعرت بالغريزة أنه إذا كانت قراءتي لمراسلات بيكيت مع آرلند أوشر قد أغضبته بشدة، فمن المؤكد أن قراءة تلك التي بعثها إلى ماكغريفي ستثير نوبة جديدة من غضبه، وكان ذلك ربما هو السبب الذي منعني من قراءة تلك الرسائل المهمة بتمعن. كنت أعرف أنه قد طلب بالفعل من العديد من الذين راسلهم (لم يستجيبوا جميعاً لرغبته) أن يقوموا بإتلاف رسائله، لكنني لم أرغب حتى في التلميح إلى رسائله مع ماكغريفي إلى أن قرأتها بأمان. كنت خائفة من أنني إذا رأيت بيكيت شخصياً، فقد يزل لساني بالإفصاح عن أنني أعلم أنها موجودة. لذلك أرسلت له ملاحظة صغيرة تحمل أمنيات بالسعادة ومفردات ذات عذوبة وعبرت فيها عن أسفي لأنني لن أتمكن من رؤيته وتمنيت له الخير في عمله وسفره. ثم ذهبت إلى دبلن.



الفصل الثامن عشر

حينما كنت أحزم أغراضي لأغادر فندق بوزوال وجدت رسالة تنتظرني: تود فيها السيدة مولي هاو أن تدعوني إلى تناول العشاء غدًا في منزلها لمقابلة إيلين أوكيسي، أرملة الكاتب المسرحي شين أوكيسي، حيث إن لديها الكثير لتخبرني به عن صداقتها مع السيد بيكيت، وبما أن مولي هاو أرادت التصرف كأن شيئاً لم يحدث بيننا، فقد فعلت أنا مثلها وقبلت دعوتها.

بعدها اتصلت هاتفياً بأرلاند آشر لمعرفة ما إذا كنت بحاجة إلى تقديم أي تبريرات أو تفسيرات. أجابتني مدبرة منزله قائلة إنه يجب أن أبقى على الهاتف للحظة لتخبره. انتظرت مدة طويلة قبل أن تعود لتقول: «أتعلمين، أعتقد أنه قد رحل لتوه في مهمة تستغرق بضعة أيام». كل ما توجب عليه قوله في غضون نصف ساعة هو كلمة «حسناً» مرتين فقط، وشعرت أن بانتظاري أسبوع ممتع. لم أكن أشعر بخيبة أمل.

أصبحت مشغولة للغاية، لأن أشخاصاً عديدين من جميع الفئات أصبحوا يرغبون بمشاركتي ما لديهم من معلومات. باتت مواعيدي على مدار الأسبوع التالي، تبدأ يومياً في الصباح الباكر ولا تنتهي إلا عند منتصف الليل تقريبًا. بات أمناء المكتبات والأرشيف في كلية ترينيتي الجامعية يتوقون لإطلاعي على المحفوظات التي كانت حتى ذلك الحين غير متاحة بشكل غريب. اصطحبني جون مانينغ، شقيق مولي هاو، لتناول الغداء في نادي كيلدير ستريت الراقي ليريني ألبومًا يضم صوراً لأيام طفولته مع سام وشقيقه فرانك. كشف لي حفل عشاء صاخب حضرته في منزل أحد المسؤولين الإداريين للجامعة وكان شخصاً كاثوليكياً بارزاً عن

ازدراء مذهل لأعمال بيكيت، بينما أوضحت لي أمسية أخرى من تناول المشروبات مع راهبة ومربية تمثلان الكنيسة في أيرلندا مدى العداء الذي تحمله الكنيسة الكاثوليكية تجاه كتاباته. تلقيت دعوة من هيلاري هيرون غرين ابنة عم بيكيت، وهي رسامة كانت تعيش عند منحدر جبلي يطل على البحر الأيرلندي في ضاحية دالكي وكانت على صلة وثيقة بوالدة بيكيت، لتناول الغداء وأمضيت معها أربع ساعات وهي تريني الكثير من الأشياء التي أعطتها لها ماي بيكيت، وكانت طوال الوقت تسرد لي رواية السيدة بيكيت عن كيف ولماذا غادر ابنها أيرلندا متوجهاً إلى فرنسا، وهو الموضوع الذي سيظهر بشكل بارز في رسائل ماكغراي. بعد الحفاظ على مثل هذه الوتيرة المرهقة، خلصت إلى أن الأمر كان مجديًا حيث كنت حريصة على أن لا يفوتني شيء أو أي أحد. بحلول ليلة الجمعة، الثاني من تشرين الثاني، أثناء قيامي بتلخيص ما حدث وتدوينه في مذكراتي اليومية، لم أكن أريد سوى الزحف إلى الفراش والنوم حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي لكي أقوم بشراء سلة من الفاكهة. أردت أن أحظى بيوم واحد لا أتناول فيه إفطاراً إنجليزياً كاملاً. لم أستطع تحمل تناول البيض مرة أخرى.

لقد نمت في وقت متأخر، لكن ذلك لم يؤثر على حيويتي. في تلك الليلة، كنت أتناول العشاء في منزل المسؤول الإداري الكاثوليكي الذي سبق ذكره، والذي أراد مني أن أقابل أشخاصاً آخرين ممن يمثلون مجموعة من المعترضين من الكنيسة الكاثوليكية على أفكار بيكيت الأنجلو-إيرلندي (مصطلح استخدم لفئة معينة من سكان أيرلندا من الذين تركوا المذهب الكاثوليكي واتبعوا مذهب كنيسة أيرلندا الأنجليكانية البروتستانتية – م). كانت أمسية غير عادية للغاية، حيث لم يكن بيكيت هو الموضوع الحقيقي: بل كنت أنا. كانت معظم أجزاء المحادثة أسئلة حول وضعي الشخصي، ودار أكثرها حول كيفية «تركي» زوجي وأطفالي والذهاب بمفردي إلى بلد أجنبي وما إذا كان هذا الأمر شائعًا بين «الناشطات النسويات» في أمريكا. ولكن بعد ذلك جاء السؤال الذي جعلني عاجزة عن الكلام: لماذا تركت عائلتي لأكتب عن رجل مثل «توماس بيكيت»؟ من المؤكد أن هذا كان تهكمًا عن قصد، لأنه لم يكن هناك بينهم شخص واحد قد شرب نبيذًا كافيًا

يجعله يرتكب مثل هذا الخطأ. أدركت أن هناك اتجاهين في أيرلندا الحديثة، وأن أحدهما غير راض عن صامويل بيكيت.

أعقب ذلك يوم حافل آخر من أيام الأحد، وحين حل المساء وعدت إلى الفندق لم أكن أريد أكثر من الارتماء في سريري والاستغراق في النوم. بينما كنت أتجه إلى المصعد، جاء موظف الاستعلامات يركض خلفي وهو يحمل عدة رسائل. اتصلت إحدى شقيقات ماكغريفي هاتفياً لتقول إنها ستأتي إلى الفندق في صباح اليوم التالي في الساعة التاسعة والنصف وطلبت مني الاتصال بها قبل الساعة الحادية عشرة مساءً. لتأكيد أنني سأكون هناك. لم يتعد الوقت حينها الحادية عشرة إلا قليلاً، لذا انتهزت الفرصة، وطلبت رقمها، وكنت أشعر براحة كبيرة وأنا أسمع صوتها. تحدثت كثيراً ولفّت ودارت قبل أن تدخل في صلب الموضوع قائلة إنها كانت تتناقش مع أختها وإنهما مازالتا غير متأكدتين مما يجب فعله مع الرسائل.

كانت نفس القصة التي كنت أسمعها في السنوات الماضية ولكن هذه المرة كان هناك بعض التغيير. لقد كانتا تقرآن بعض الرسائل للمرة الأولى، واستناداً إلى ما أخبرتهما به عن كتابي، ظنتا أنني يجب أن أحصل عليها. ثم تغيران رأيهما وترفضان معتقدتين أنها ربما كانت خاصة جدًا ويجب بدلاً من ذلك إخفاؤها. وطوال الخمس والأربعين دقيقة التالية، تكرر هذا الأمر أكثر من مرة: أرادتا أن ترياني الرسائل، وكل ما لديهما من صور، لكنهما لم تعرفا ما إذا كان عليهما فعل ذلك. بالإضافة إلى ذلك، فإنهما إذا وافقتا على السماح لي بقراءة الوثائق، فقد قدرتا أن الأمر سيستغرق ما لا يقل عن ثلاثة أو أربعة أيام، إن لم يكن أطول، لكي أكمل قراءتها، ولأنهما لن تسمحا لي بمغادرة منزل شقيقتهما حيث يتم حفظها، سيكون عليهما معرفة كيف وأين ومتى يمكنني قراءتها، لأنه يجب أن يكون هناك شخص ما «ليراقبني» في جميع الأوقات. تمالكت نفسي حتى لا أقول شيئًا ساخرًا وأنا أؤكد لهما أنني جديرة بالثقة. لم يكن لدي أية نية بسرقة رسائل صامويل بيكيت. أردت فقط قراءتها للتأكد من دقة ما كتبته.

كان من المفترض أن يكون يوم الإثنين هو آخر يوم لي في دبلن. خططت للمغادرة بعد ظهر الثلاثاء إلى لندن، حيث كان لدي جدول مواعيد متواصلة،

لذلك لم يكن هناك أي طريقة لتمديد إقامتي. لقد كنت متوترة ومنهكة، لأنه بدا لي أنني سأحصل على فرصتي، ولكن بتكلفة لوجستية - ومالية كبيرة. من الواضح أنني سأضطر إلى العودة إلى دبلن والبقاء حتى الانتهاء من قراءة الرسائل، وللقيام بذلك سأذهب إلى باريس وأتخذ قراري هناك.

جاءت ابنة أخت ماكغريفي الكبرى إلى بوسويلس في الصباح التالي، وبحلول ذلك الوقت، وبعد لقاءات سابقة معها عديدة، كان بإمكاني أن أعلم من تعابير وجهها التي تشير إلى شعورها بالضيق أن حالة عدم اليقين ما زالت موجودة. أخبرتني مرة أخرى كيف أمضت هي وشقيقتها معظم عطلة نهاية الأسبوع السابقة محاولتين تقرير ما يجب فعله، حتى قالت أخيراً «قررنا التسليم بالأمر الواقع والسماح لك بقراءتها قبل أن نغير رأينا». عندما قالت هذه الجملة، أحسست بارتياح ونشوة لكن هذه النشوة لم تدم طويلاً، فقد بدأت مجدداً في المراوغة حول ما إذا كان هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب فعله. عندما جلست هناك وهي تفرك يديها بقوة، كان يعتمل شيء في داخلي، ولأول مرة، وبعد أن كان حديثي مهذباً معها هي وشقيقتها طوال تلك السنين، فقدت السيطرة على نفسي.

لحسن الحظ، لم يكن انفجار غضبي صاخبًا ومحتدمًا بل كان كلاماً عقلانيًا وهادئًا ومتزناً. أعتقد أنها كانت مفتونة بمثل هذا الصوت الناعم عندما بدأت في شرح ظروفي الشخصية. لقد استندت إلى أسلوب المبالغة قليلاً، وتحدثت عن الكتاب كمهمة، وهدية للعالم الفكري (تعبير مبالغ به لا يزال يجعلني أشعر بالخجل). ولكني كنت أتحدث أيضًا عن الجوانب العملية - كيف كنت أقوم بتمويل الكتاب من خلال أية وظائف أو منح مساعدة يمكنني أن أحصل عليها؛ وكيف كنت أشعر بالاستياء من العيش تحت ضغوط مالية كهذه؛ وكيف ندمت على أن عملية تأليف الكتاب أبعدتني عن «حياتي الحقيقية»، زوجي وطفلَيّ، وكيف عانينا جميعًا بسبب الضغوط التي خضعنا لها. أدليت بحوار عاطفي حماسي، وأخبرتها كيف كنت قلقة من أنني لن أنصف حياة هذا الرجل العظيم من خلال إصدار الكتاب الذي شعرت أنه يستحقه إذا لم يُسمح لي بتضمينه رسائل ماكغريفي الهامة للغاية.

في الوقت الذي أنهيت فيه هذه الخطبة، كنت مرهقة، وأشعر بالغثيان قليلاً، واستسلمت تمامًا لفكرة أنني لن أرى الرسائل أبداً. استمر هذا الأخذ والرد لفترة طويلة وكنت متعبة لدرجة أنني لم أعد أكترث. اختتمت حديثي بالقول إن هذه هي المرة الأخيرة التي استطعت فيها المجيء إلى دبلن، ذلك لأنني انتهيت تقريبًا من المسودة الكاملة لكتاب السيرة، وأنني سأضطر إلى العودة إلى المنزل وإنهائه قبل أن يبدأ الناشر بالشعور بالاستياء من تأخري. ويلغي عقدي. فإما أن أحصل عليها الآن وإلا فسأتركها.

أعتقد أن صراحتي أذهلتها. جلسنا هناك بهدوء، ربما لأن أياً منا لم يكن يعرف كيف ينهي اللقاء بشكل ملائم. فجأة خطرت لي فكرة: يجب أن نسأل بيكيت إذا كان سيسمح لي بقراءة الرسائل. اعتقدت أن الحل الذي توصلنا إليه للتو قد يمتد ليشمل أية مادة أرشيفية جديدة وجدتها، لأنه بعد الضجة التي أثيرت حول رسائل آشر، وافق بيكيت في النهاية على السماح لي باستخدامها، وقد أخبر أيضًا مولي رو بإعطائي المواد التي رفض أن يعطيني إياها أصلاً. كان الأمر يستحق المحاولة رغم علمي أنه سيرفض. اقترحت أن تكتب شقيقتها وابنة شقيقتها رسالة إلى بيكيت. ظنت أنها فكرة جيدة وذهبت إلى كشك الهاتف في الفندق لتسأل أختها عن رأيها بالفكرة. عندما عادت كانت تبتسم. ستكون كتابة الرسالة محاولة جيدة، لكنهما لم تعتبرا أنفسهما تمتلكان ما يكفي من التعابير المناسبة لتقوما بكتابتها، لذلك أرادتا مني أن أكتبها لهما.

وهكذا شرعت في المهمة. ذهبت إلى غرفتي لأحصل على الآلة الكاتبة الصغيرة من طراز سميث كورونا التي رافقتني في سفري، وجلسنا في بهو فندق بوزوال لكتابة رسالة إلى بيكيت. كان هناك إضراب بريدي في فرنسا ولم يتم تسليم أي بريد قادم من أيرلندا أو إنجلترا. ولذلك لم يكن أمامي سوى حل واحد على الأقل لخططي المتغيرة باستمرار: إذا كان لا يزال في باريس، فربما يجب عليّ إيجاد بعض الوقت وبعض المال للسفر إلى هناك وتسليمه الرسالة؛ وفي حال كان بالفعل في لندن للقيام ببعض التدريبات، فيمكنني توصيلها إلى هناك ولن أذهب إلى باريس. بطريقة أو بأخرى، سيتم حل مشكلتي الرئيسية فيما يتعلق بمحتوى الكتاب: إما أنه يتعين عليّ

الانتهاء من كتابته بناءً على المعلومات التي لدي بالفعل، مما يعني أنه ربما يمكنني إعطاؤها للناشر في وقت مبكر من الربيع التالي في عام 1975، أو يمكنني إخباره عن هذه الإضافة الجديدة المهمة والطلب منه منحي المزيد من الوقت.

لم يكن بيكيت في لندن عندما وصلت، وفي حينها حدثت الزوبعة التي كنت أتوقعها، والتي فاقمها ما حدث عند تناولي الشاي في فندق ريتز مع هارولد بينتر (أخبره بيكيت أنني «امرأة ساحرة وجذابة» يجب عليه «أن يراها بالتأكيد»). ركزت كل انتباهي على حديث بينتر وكيف أنه يدين بالفضل لوضوح رؤية بيكيت والحرية التي أعطته إياها لممارسة رؤيته لدرجة أنني لم أتطرق إلى الأشياء الجيدة. لم ننتبه كلانا إلى الشاي حتى أصبح بارداً حيث روى بينتر بعض قصص المغامرات الليلية التي خاضها هو وبيكيت بعد أن أقاما علاقة صداقة عميقة.

كانت هناك بعض الخدمات اللوجستية التي يجب الاهتمام بها بمجرد وصولي، بدأتها من استلام البريد الذي أرسلته عائلتي إلى مكتب الناشر مارك هاميلتون. وقد كان يحتفظ بسجل لأسماء أصدقائي والعاملين في مجال النشر الذين أرادوا رؤيتي. عند دار نشر جوناثان كيب، اصطحبني الناشر العبقري توم ماشلر لتناول المشروبات بينما كان يريد أن يعرف مني بطريقة لم تكن ودية تماماً، الوقت الذي سأسلم فيه المخطوطة. قامت المحررة آن تشيشولم، التي كانت تكتب حينها سيرة حياة الكاتبة نانسي كونارد بتهدئة الأمور بيننا، كان زوج آن، الصحفي المتميز مايكل ديفي، مسرورًا للغاية وهو يشرح لي النتائج التي أحرزها بيكيت في لعبة الكريكيت حتى عندما كان يائسًا من جعلي أفهم اللعبة. أخذني صديقاي جيمي وتانيا ستيرن لتناول العشاء ومقابلة الكاتب في. إس. بريتشيت، كان رأسي يتحرك ذهابًا وإيابًا كما لو كنت في مباراة للتنس أثناء ازدياد الحديث حماساً من حولي. دعا توني جونسون مجموعة من الأشخاص لتناول العشاء في مطعم ويلرز ضمت الصحفي السياسي باتريك سيل وزوجته الشابة لامورنا.

بناءً على هذه المقابلات وما كان يدور من حولها، وباعتمادي على حدسي، ذهبت إلى مبنى سومرست هاوس في لندن لأحصل على نسخة

من عقد زواج صامويل بيكيت. ما زلت أتذكر فرحتي عندما أخبرني أحد الموظفين أنها موجودة وستكون جاهزة بعد بضعة أيام. لقد كنت مستعجلة للغاية لأبرهن على أن حدسي كان صحيحًا، كان بيكيت مثل جيمس جويس، قد تزوج بهدوء في لندن في وقت متأخر من حياته ولذلك ورثت سوزان ممتلكاته في فرنسا. مشيت على طول الطريق الذي يمر عبر شوارع لندن وتوجهت إلى ميدان باولتونز وشارع جيرترود، حتى منطقة ووردز إيند حيث عاش بيكيت أثناء ما كان يكتب روايته مورفي. كان عليّ أن أجلس على الرصيف حتى تهدأ أنفاسي، ويمكنني أن أخفّف ألم التقرحات التي أصابتني وأنا في طريقي إلى محطة الحافلات القريبة.

خصصت اليوم التالي للأشخاص الذين عمل معهم بيكيت في المسرح، بمن فيهم الممثلان بيلي وايتلو وسيوبان أوسي ومصممة الديكور جوسلين هربرت. لقد اتصلت هاتفياً أيضًا بالناقد المسرحي كنيث تاينان، الذي أخبرني أنه لا يجري سوى مقابلات مدفوعة الأجر وسأل عن المبلغ الذي سأدفعه. قلت إنني صحفية وإنني لن أدفع، فأجاب بأنه يريد مبلغاً كبيراً من المال للمقابلة خلاف ذلك فهو لن يقوم بمقابلتي. ثم أغلق الخط. وبينما كنت أسير لأخرج من الباب، عاود الاتصال بي وأخبرني أنه يعتقد أنني يجب أن أعرف كيف ألف مسرحيته (يا كالكوتا). ثم أغلق المكالمة، ولم يتصل مرة أخرى.

كانت المغامرة التالية مع الكتّاب الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «عصابة ميرلين»، الذين كانوا مرتبطين بهذه المجلة في باريس أثناء نشر بيكيت لروايته «وات». كان معظمهم يعيشون حينها في لندن، وقد أعطاني الشاعر كريستوفر لوغ تحذيرات غامضة عما يمكن أن أكتشفه عندما أقابل أليكساندر تروشي وجيان لوجي. كنت أتمنى لو كان أكثر وضوحاً في تلك الليلة، قمت بوصف ما حدث في مذكراتي اليومية (*كانت جيان ثملة لدرجة أنها كانت غير متماسكة، ومنهكة. وكانت حركاتها عشوائية. والمدمنون مستلقون حولها في كل مكان. كان لدى أليكس رشح في الأنف ويداه ترتجفان. حاول أن يرغمني على شراء عدة نسخ متهالكة ومهترئة من مجلة ميرلين بمبلغ 38 دولارًا لأنه كان بحاجة إلى جرعة من المخدرات. واجهت صعوبة في الخروج من هناك ولوحت لسيارة أجرة لكي أهرب بسرعة*).

كانت بيتينا جونيك كانديل هي التالية في قائمتي. وهي الزوجة السابقة للناشر جون كالدر، طلبت مني مقابلتها لتخبرني عن «العلاقة الملتهبة» التي جمعتها مع بيكيت. لقد استمعت إليها بكل أدب ولكني صنفت أغلب ما أخبرتني به تحت بند «مصادر غير موثوقة».

كانت محطتي التالية مكاتب دار نشر كالدر وبويارز، لأن الإضراب البريدي في فرنسا كان لا يزال مستمراً وأردت أن أرى ما إذا كان بإمكاني ترك رسالة شقيقتي ماكغريفي هناك لإعطائها إلى بيكيت. قال جون كالدر إنه يمكنني تركها بكل سرور، لكن لم يكن لديه أي فكرة متى سيكون بيكيت في لندن. لم يقم بالرد على المكالمات الهاتفية في شقته في باريس وكان من المحتمل أنه كان لا يزال في طنجة، حيث كانت الخدمة الهاتفية متقطعة ولم يكن يرد غالبًا على الرسائل. لم أكن أرغب في خلق أي موقف قد يكشف عن وجود رسائل ماكغريفي، لذلك أخبرت كالدر أنني سأحتفظ بالرسالة، لأنني ربما أذهب إلى باريس، حيث أتركها مباشرة في صندوق بريد بيكيت.

ظلت الرسالة التي لم يتم تسليمها تسبب لي إزعاجاً. هل سأضطر حقًا للذهاب إلى باريس إذا لم أجد أي شخص يذهب إلى هناك؟ كان المال ينفد وكنت منهكة. شعرت بافتراق شديد عما أسميه نفسي «الحقيقية» (التي تختلف عن تلك التي في «العمل») لدرجة أنني أردت فقط العودة إلى المنزل واحتضان قطتي، وحيواناتي الأليفة، والأهم من ذلك كله الجلوس على طاولة العشاء والضحك والمزاح مع زوجي وولديّ. ومع ذلك، كانت هناك ضرورة ملحة للوصول إلى رسائل ماكغريفي، ويمكن أن أقوم بأي شي آخر لاحقاً.

أصبح الاستعجال أمراً حتمياً بعد المقابلة التي أجريتها مع الناقد الأدبي ألفاريز. شعرت أن الأمر سيكون حدثاً دراميًا، لأنني كنت أعرف أن زوجته كانت تعمل معالجة نفسية محترمة تعرف الكثير عن التاريخ العلاجي لبيكيت وأردت التحدث إليها كذلك. لقد سمعت عنها خلال إحدى المقابلات السابقة التي أجريتها مع صديق بيكيت الدكتور جيفري طومسون، طبيب النفس الذي منح بيكيت إمكانية الوصول إلى مستشفى الأمراض العقلية حيث كان يعمل عندما كان بيكيت يكتب رواية مورفي. ألمح طومسون

بشكل عام إلى جلسات التحليل النفسي التي حضرها بيكيت مع ويلفريد بيون المحلل النفسي الشهير، ولكن حتى بعد أن سألته مباشرة عما إذا كان بيكيت قد خضع للتحليل النفسي وعلى يد من فإنه رفض تأكيد أو نفي الأمر. كنت أعلم أنني بحاجة إلى الكتابة عن ذلك الأمر إذا كان صحيحًا، ولكن بالإضافة إلى رسائل ماكغريفي المغرية التي كانت لا تزال بعيدة المنال، كنت بحاجة إلى مصادر أخرى.

كنت أنا وآل ألفاريز نجري محادثة ممتعة بما فيه الكفاية بعد ظهر ذلك اليوم، دارت معظمها حول اهتمامه بالشاعرة سيلفيا بلاث، عندما دخلت زوجته آن إلى مكتبه. وقد تعرفت عليّ بالكاد عندما قدمني لها، لكنها التفتت إلى زوجها وقالت: «هل أخبرتها، آل؟» رد بأنه كان على وشك أن يقوم بذلك، ثم أخبرني بقصة التحليل النفسي الذي أجراه بيكيت مع المحلل ويلفريد بيون. أخيراً حصلت على التأكيد الذي أحتاجه. أمضينا نحن الثلاثة فترة بعد ظهر طويلة جدًا، وكنت أكتب بجنون عندما كنت أدوّن ملاحظات تفصيلية عن الأشخاص العاملين في مجال التحليل النفسي الذين يجب أن أراهم، والكتب التي يجب أن أقرأها، والمقالات التي يجب أن أطلع عليها. أخبراني أيضًا عن الأماكن التي كان بيون قد اصطحب بيكيت إليها، وخاصة عيادة تافيستوك للاستماع إلى العالم النفسي كارل يونغ وشددا على أن هذا اللقاء كان مهمًا لتطور بيكيت ككاتب وأنني يجب أن أدرس ما قاله يونغ في تلك المناسبة.

كان من الجيد الحصول على دعم آل وآن ألفاريز لدعم اعتقادي بأن بيكيت قد خضع للتحليل النفسي. في اجتماع لاحق مع الدكتور طومسون، وبعد أن تبادلنا التحايا، سألته مباشرة عما إذا كان ما أخبراني به صحيحًا، فأكد ذلك، شعرت بارتياح كبير. ثم قدم تأكيداً إضافياً عندما أطلعني على الرسائل التي كان قد أغراني بها في وقت سابق. كانت الأمور تسير على ما يرام حينها: أصبح لدي ثلاثة مصادر موثوقة. وكان هذا الموضوع مهمًا للغاية بحيث لا يمكن الكتابة عنه من دون العثور على الآخرين. كنت على يقين من أن المصدر الأهم والأساس الراسخ لما أخبرني به الآخرون هو رسائل بيكيت إلى ماكغريفي، وكان عليّ أن أفعل كل ما يتطلبه الأمر من أجل قراءتها.

الفصل التاسع عشر

بعد لقائي مع آل ألفاريز، اتصلت هاتفياً بابنة أخت ماكغراي الكبرى لأخبرها أنني لن أذهب إلى باريس لأن بيكيت لم يكن هناك، ولأنه لا أحد في لندن يعرف مكانه بدقة، لم يتم تسليم الرسالة. كنت على وشك البكاء وأنا أكشف لها عن الصعوبات التي تواجهني بخصوص الوقت والمال؛ خوفًا من أنني قد لا أتمكن أبدًا من العودة إلى أوروبا مرة أخرى، توسلت إليها أن تسمحا لي برؤية الرسائل إذا عدت إلى دبلن. بمجرد أن توقفت عن الحديث، قالت بهدوء شديد إنه عليّ أن آتي فور وصولي إلى هناك.

كان يوم الخميس وكان في شركة إير لينغس للطيران مقعد واحد شاغر في رحلة بعد ظهر يوم الجمعة، وعدا ذلك لن يكون هناك مقعد شاغر حتى وقت متأخر من يوم الأحد. هدأت مشاعري ووصلت إلى مطار هيثرو في رحلة الجمعة، يقطر مني العرق وقد اشتدّ عليّ الجوع، لأجد أمامي مشاجرة كبيرة عند موقع تسجيل الرحلة وطابور انتظار طويلاً عند مدرج المطار قبل الإقلاع. لم تكن بداية مواتية. لقد تأخرت الرحلة إلى حد أني وصلت إلى فندق بوزوال قبل دقائق فقط من وصول زوج ابنة ماكغراي الكبرى لاصطحابي وقادني بسيارته إلى عمق الضواحي المظلمة المؤدية إلى منزلهم.

وهناك فتحت زوجته خزانة في ممر بارد تحت الدرج، كشفت فيها عن مجموعة رائعة من علب الأحذية المليئة بالرسائل والصور. نظرت إليها بسرعة، لأن الشقيقتين قررتا أنني لن أقرأها هناك، لكنني سأذهب إلى منزل الشقيقة الصغرى ابتداء من صباح اليوم التالي. كانت تعيش بالقرب

من دبلن، ولن يتطلب الوصول إلى هناك سوى القيام برحلة قصيرة بالقطار والسير مسافة طويلة إلى حدٍ ما. رفضت الأخت الكبرى بشدة أن يعيدني زوجها بسيارته إلى فندق بوزوال، وما إن وصلت إلى غرفتي حتى بدأت أتقيأ. كتبت ملاحظات لم تكن واضحة جداً في مذكراتي اليومية لأصف ما حدث: «*كانت ليلة رهيبة. أصابتني الحمى والقشعريرة، كنت متأكدة أنها كانت بدنية جزئيًا، بسبب الإرهاق والزكام الذي أصابني حين كنت في لندن، لكنها كانت نفسية أيضًا، ولأسباب عقلية في الغالب بسبب رؤيتي الرسائل ومعرفة ما فيها*». لقد كانت غرائزي مبنية على أسس جيدة، بسبب أن نظرة عامة سريعة على واحدة أو اثنتين من الرسائل التي قرأتها أقنعتني أن الحقيقة الواقعية حول العديد من الأحداث في حياة بيكيت كانت في هذه الرسائل فقط.

في صباح اليوم التالي استيقظت وأنا متعبة للغاية لدرجة أنني بالكاد تمكنت من العمل وكتبت في مذكراتي اليومية: «*أنا مريضة بدنيًا وأصبحت مريضة عقليًا عند التفكير في مدى الزيف الذي كنت سأقدمه ربما من دون نشر هذه الرسائل. كان يمكن أن تكون مجموعة ضخمة من المعلومات غير الصحيحة*». كنت في حالة من الذعر لأنني لن أتمكن من قراءتها كلها وأترك دبلن قبل أن تصل رسالة ابنة أخي ماكغري إلى بيكيت، خوفًا من أنه لن يسمح لي باستخدامها. كانت الرسالة لا تزال معي، ومازالت ابنتا الأخ وأنا، (بدرجة أقل الآن) نبحث عن شخص ما لنقلها إلى باريس. كنت أخشى أن تجدا مثل هذا المسافر ويأخذها مني في أي وقت.

في مسوداتي السابقة لكتاب السيرة، كتبت ثم رميت نسختين مختلفتين عن كيف ولماذا ترك بيكيت أيرلندا ليعيش في باريس بشكل دائم. لم تقنعني الأولى حتى أثناء ما كنت أكتبها، وتخلصت منها بعد فترة وجيزة. لقد كانت تعتمد على الرسائل التي كتبها بيكيت إلى العديد من الأساتذة في كلية ترينيتي وإلى نخبة من المثقفين والأدباء الأيرلنديين، محاولًا أن ينال حظوة لديهم وكان يقول إنه يأمل في البقاء على قيد الحياة لكي يتمكن من كتابة الأشياء التي قد يكلفونه بها بينما كان يحاول كتابة الروايات.أما في النسخة الثانية، فقد علمت من ابني عمه آن وجون بيكيت أن والدة بيكيت قبلت على مضض

فكرة أنه لن يتكيف أبدًا مع العيش في أيرلندا، لذا وافقت على السماح له بالذهاب إلى باريس ودعمه ماليًا إلى أن يتمكن من أن يقف على قدميه في عالم الكتابة. ثم قدما لي بعض رسائل بيكيت - وقد كانت مبهمة بالتأكيد، ومع ذلك تلمّح إلى أنه ووالدته توصلا إلى تفاهم وأنه «ربما» سيغادر في وقت ما قريبًا. أما الصورة اللطيفة لماي بيكيت الودودة، والعطوفة، التي لا تريد سوى ما هو الأفضل لابنها الحبيب فلم تكن تبدو لي وببساطة صحيحة، ولكن بما أنه لم يكن لدي أية معلومات أخرى عنها، فقد كان هذا ما كتبته.

مع قيامي بالمزيد من البحوث، قدمت رسالتا أرلاند آشر وجورج ريفي صورة مختلفة. إن هذه المراسلات، بالإضافة إلى المقابلات التي أجريتها مع أشخاص عرفوا بيكيت خلال السنوات التي كان فيها من ضمن الحلقة المحيطة بالكاتب جيمس جويس في باريس (والتي كانت تضم ماريا جولاس وستيفن جويس وعمه روبرت كاستور وكاي بويل والشاعر / الصحفي والتر لوينفيلز)، قد أظهرت أنه كان شاباً ذكياً وبارعاً ويعيش صراعاً نفسياً، وكان لا يزال متأثراً بشدة بتربيته البروتستانتية الأنجلو-أيرلندية لأبناء الطبقة العليا. وقد أظهرت أيضاً أن بيكيت غير قادر على التخلص من قيود طبقته الاجتماعية وغير قادر على الاعتراف بحياة الكاتب البوهيمية التي، كان واضحًا للجميع، ما عداه هو أنه كان يعيشها.

في رسائله التي تبادلها مع ريفي وآشر، كتب بيكيت أنه تقبّل العيش في دبلن لأنه لم يكن لديه مال للعيش في أي مكان آخر. كان يخطط للإنفاق اعتماداً على المصروف القليل الذي كانت تعطيه إياه والدته طالما أنه يعيش في منزلها، وكان ينفق على الشرب والسجائر من خلال إعطائه دروساً باللغة الفرنسية للتلميذات الأيرلنديات اللواتي لم يكنّ مهتمات بتعلم تلك اللغة. عندما لم يكن لديه أي تلاميذ، كان يأخذ بعضاً من مجموعة كتبه الشخصية إلى الأكشاك الموجودة على نهر ليفي ويبيعها بمبلغ لا يكفيه لأكثر من قضاء أمسية يسكر فيها قليلاً. وكان يحترس من قول الحقيقة كاملة لصديقيه لأن وضعه كان محرجًا للغاية، وقد ختم إحدى رسائله بشكل شبه متفائل بالقول إنه وضع طاولة للعمل عليها في غرفة صغيرة في الجزء العلوي من مبنى المكتب الذي كان يعمل فيه والده الراحل - مساحاً مختصاً بتقدير التكاليف

في أعمال البناء (والذي كان يديره حينها شقيقه فرانك). وأكد لـريفي أنه سيكون قادرًا على إنهاء كتابة روايته مورفي هناك، وأخبر آشر أنه يعتزم كتابة مراجعات ومقالات للمطبوعات الدورية الأيرلندية. وكثيراً ما اختتم رسائله بإشارات يقصد منها أنه يشعر بالاطمئنان، حول الكيفية التي ينوي بها أن يكون سعيدًا على رغم ظروفه، لكن في أغلب الأحيان ينتهي الأمر بشعوره بالمرارة، وأنه لم يكن متأكدًا من أنه يمكن أن يكسب رزقه من خلال أي من الخطتين ودون أن تكون لديه أية فكرة عما يجب القيام به إذا لم تنجح خططه.

التفسير الذي خرجت به لأنه كان الأكثر صدقًا (على الرغم من اعتقادي أنه لم يكن صحيحًا تمامًا) هو أن ماي بيكيت لم تستطع أن تحتمل رؤية ابنها الحبيب يعاني، لذلك اختارت أن توقف هذه المعاناة بمنحه حرية مغادرة أيرلندا وتقدم له الدعم المالي للعيش بينما كان يشق طريقه في باريس. كان ذلك هو ما توصلت إليه، حيث بدا أنه التفسير الأكثر صدقًا لظروفه طبقاً للأدلة المتاحة. لكن خطابات ماكغريفي أكدت شكوكي حول زيف قصة تضحية الأم القديسة. كانت هذه الرسائل حقًا أهم اكتشاف للحصول على وصف صادق لحياة صامويل بيكيت.

لقد شعرت بالذهول والارتياح عندما وجدت أن حدسي كان صحيحاً – أن الشخص الوحيد الذي كان بيكيت صادقًا معه تمامًا هو توماس ماكغريفي، وقد أخبره الحقيقة في الرسائل التي بدأ يرسلها منذ أيامه الأولى في باريس ولم تتوقف إلا عند وفاة ماكغريفي. عندما قرأتها، أظهرت لي بُعدًا مظلمًا وعميقًا لقرار بيكيت. لقد ذهلت من شدة ما كان يشعر به من قسوة وانتقادات قاسية، ومرارة، وغضب، وقبل كل شيء شدة كراهيته لأمه. لم يعانِ صامويل بيكيت من مخاطر صحية نتيجة إفراطه في تناول المشروبات الكحولية، بل إن هياجه العاطفي تسبب في إصابته بمرض جسدي، فتكرر ظهور الدمامل والخراجات المشوهة لمظهره الخارجي التي كان يعاني منها عندما كان طالباً جامعياً. أزعج سلوكه كثيراً شقيقه الصبور والعاقل فرانك الذي لاحظ الكثير من أعراض الأمراض العقلية والعاطفية عليه وخشي على سلامته. أدرك فرانك أن الأم وابنيها لن يتمكنوا من العيش معًا في نفس المنزل، على رغم أنه كان فسيحاً وواسعاً، لكن ماي بيكيت لم تستمع إلى أي من مقترحاته

لكيفية العيش بشكل منفصل. وصف صامويل بيكيت بالتفصيل لماكغريفي كيف كان يصبح عنيفًا للغاية خلال نوبات سكره بحيث بات يخشى أن يدمر أمه أو نفسه، بغض النظر عمن يكون أولاً.

بينما كنت أجلس هناك بعد ظهر ذلك اليوم في الغرفة التي تدرس فيها ابنة أخت ماكغريفي الصغرى، وأنا أستمع إلى أصوات أفراد الأسرة السعيدة وهم يستمتعون بغداء يوم الأحد في غرفة الطعام، لم أتمكن من تحديد ما إذا كنت أرتجف من البرد والإنفلونزا أم بسبب تلك الرسائل التي قرأتها. على الرغم من أنني كنت أقرأها بسرعة وأكتب ملاحظاتي عنها بحماس شديد، أدركت أن هناك عشرات الرسائل - وكل واحدة ذات أهمية بالغة لكي أستطيع فهم قرارات بيكيت وخياراته - ولم يكن أمامي سوى ستة أيام لاستعراضها جميعًا. الأمر الأكثر إثارة للقلق، أنها كانت أيامًا قصيرة، لأنه سُمح لي بقراءتها من الساعة الحادية عشرة إلى الثالثة أيام الأحد ومن الساعة العاشرة حتى الساعة الخامسة في أيام الأسبوع التالية. وحيث إني كنت في مواجهة مهمة مستحيلة على ما يبدو، اتخذت بعد ظهر ذلك اليوم قراراً بالاحتيال كان الوحيد طوال حياتي المهنية.

على الرغم من أن الشقيقتين فحصتا جميع الصناديق عندما غادرت في ذلك اليوم، وكان ذلك بلا شك للتأكد من أنني لم أسرق أي شيء، فإنني أخذت معي بعض الرسائل مؤقتًا. تمكنت من ترتيب الصناديق بحيث لا يكون من الواضح أنني دسست حفنة من الرسائل في حقيبتي في نهاية كل يوم عمل لأعود إلى الفندق، حيث كنت أمضي الليل في العمل إلى أن يأخذ التعب مني مأخذاً فلا يعود بمقدوري أن أقرأ أو أكتب. ومع ذلك، بحلول نهاية اليوم الثالث، كنت أعرف أنني كنت أكتب ببطء شديد، لذلك بدأت في استخدام جهاز التسجيل. وحدث أنني أمضيت ليلة كاملة وأنا في «أجواء عمل سيئة للغاية، *قمت بتسجيل الرسائل لمدة ساعة كاملة بينما كان زر تشغيل جهاز التسجيل إلى الأسفل فلم يسجل شيئاً، بعدها راجعت شريط مقابلتي مع الممثلة بيلي وايتلو ثم نفدت بطاريات الجهاز. بعدها عدت إلى الكتابة. وقد أدى تسرعي إلى أن تتراكم الكثير من المواد التي تحتاج إلى تصحيح. كنت محبطة*». لا عجب أن صحتي كانت في حالة سيئة بنفس

الدرجة: «*كنت أعاني من قرحة الزكام والقشعريرة وحرقة في المعدة ورشح في الأنف. كان كل شيء في ذلك المكان رطباً للغاية. لم يتعرض إلى أشعة الشمس منذ شهر*».

قررت مع نفسي أنه «يجب أن أنتهي من الأمر في يوم الأربعاء!» لكن الأربعاء جاء وذهب وأنا ما زلت أسجل. لقد استخدمت مجموعتين من البطاريات في يوم واحد ولم يكن هناك ما يشير إلى أنني سأنتهي قريباً. ساءت حالتي الصحية أكثر فأكثر. لم أتناول وجبة طعام جيدة منذ أيام، وبالتأكيد لم أنم جيدًا. طوال الوقت، كان قيامي بدس الرسائل في حقيبتي واستغفالي ابنتي شقيق ماكغريفي يزعجانني للغاية: «كانت ابنتا شقيق ماكغريفي من أكثر الناس المحترمين الذين قابلتهم منذ فترة طويلة. سوف تشعران بالخجل والعار عندما يكتب بيكيت لهما رسالة يخبرهما فيها ألّا تُرياني هذه الرسائل، وكان ذلك شعوري أنا أيضاً».

انتهيت من نسخ الرسائل بعد ثمانية أيام من بدء قراءتها ولم أضيع دقيقة من وقتي فقمت بحجز رحلة طيران إلى نيويورك. ولكوني ما زلت مريضة، استغللت عطلة نهاية الأسبوع للسماح لأفراد عائلتي بالعناية بي، وفي صباح الإثنين كنت على الهاتف مع كارل براندت لإخباره لماذا اضطررت إلى إعادة كتابة الجزء المهم من الكتاب، والذي من شأنه أن يؤخر موعد تسليم المخطوطة إلى وقت لاحق أبعد مما كان مقرراً مسبقاً. أصغى لي بهدوء وطلب أن أخبره بكل ما علمته، من الرسائل والمقابلات على حد سواء. وقد صدمه على وجه الخصوص خبر خضوع بيكيت للتحليل النفسي، وقال لي إنه قبل أن أكتب أية كلمة، فإنه يتعين عليه الاتصال بالناشر، ولا شك أن لاري سيتعين عليه استشارة محامي دار النشر. قال كارل إن تلك المعلومات كانت صادمة للغاية لدرجة أنه لم يكن متأكدًا من إمكانية استخدام أي منها. وقد صعقني هذا الأمر.

في ذلك الوقت (كانون الأول عام 1974)، كان يتم اتباع قواعد الخصوصية والملكية الفكرية بشكل أكثر صرامة مما عليه الأمر حالياً في ظل الشعار السائد في الصحافة والأدب «أي شيء مسموح، وليس هناك شيء ممنوع». كنت قد فرضت بالفعل العديد من القيود على نفسي فيما يتعلق بالأشياء التي

يمكنني استخدامها في كتاب السيرة، لكنني علمت أيضًا أن محامي دار النشر سيحتاجون إلى فحص النص. كانت العقبات العديدة التي واجهتني بالفعل والقيود الذاتية التي قررت الالتزام بها تخلق دوافع قوية عندي من وقت إلى آخر تجعلني أقول مع نفسي ليذهب كل شيء إلى الجحيم وأن أترك تأليف الكتاب وأعود إلى عملي في الصحافة أو أواصل جهودي لأصبح أستاذة جامعية. لكن هذه لم تكن واحدة من تلك اللحظات. قضيت بقية اليوم في محاولة للتفكير في الطرق التي يمكنني بها تضمين الكتاب المعلومات التي حصلت عليها دون الحاجة إلى تحديد من أين أتت، على الرغم من أن كل مصادري الموثوقة للغاية وتعليقاتي وشروحاتي جعلت المهمة مستحيلة.

لم أكن على استعداد لما أخبرني كارل به عندما اتصل هاتفياً في وقت متأخر بعد الظهر ليعلمني بما قرره محامو دار النشر المختصون بالملكية الفكرية: لا يمكنني استخدام أي معلومات في الرسائل دون إذن شفهي أو كتابي، وذلك استناداً إلى حق المؤلف في القانون العام. وهذا يعني أنه إذا كانت الرسائل موجودة في ملف في مكتبة إحدى الجامعات ومتاحة للباحثين، يمكنني إعادة صياغتها. ومع ذلك، لا يمكنني اقتباس الرسائل الموجودة ضمن مقتنيات خاصة، على الرغم من أن مالك الرسائل الفعلية قد يوافق على السماح لي بإعادة صياغة محتواها. كان وضعي أكثر خطورة لأن كاتب الرسائل كان لا يزال حياً ويمكن أن ينكر تقديمه جميع الأذونات. إضافة إلى ذلك، كان الموضوع الوحيد المسموح به هو تاريخ بيكيت المرضي، الذي لا يمكن اقتباسه أو إعادة صياغته. بالنسبة لكل المواضيع الطبية، وخاصة التحليل النفسي الذي أجري لبيكيت، فإنني سأضطر إلى الاستدلال عليها أو التلميح إليها أو الإيحاء. قاطعت كارل وهو يوضح لي الأمر وقلت له إنني لم أؤلف كتاب رأي أو تلميحات، وإن حذف الكثير من الحقيقة الواقعية من سيرة حياة بيكيت سيقلل، إن لم يدمر، مصداقيتي بصفتي المؤلفة. قال كارل إن هذا لن يحدث طالما أن لديّ أدلة واقعية يمكن طلبها بعد النشر لدعمي. أجبته كلا؛ يجب ذكر كل شيء بوضوح في الكتاب بحيث لن يكون هناك شيء يثير الجدل.

ثم قام كارل بإثارة بعض المخاوف التي سيطرت على تفكيري طوال

الشهر التالي بقوله: إن بيكيت يمكن أن يحصل على أمر منع نشر مؤقت أو دائم إذا أراد ذلك، لأن الجميع سيكون متعاطفًا مع شخص يتم نشر سجلاته الطبية على الملأ. ومع ذلك، إذا تمكنت من إقناع شخص ما بأن يحلف اليمين أن خضوعه للتحليل النفسي كان معروفاً على نطاق واسع في دوائر العاملين في الطب النفسي في لندن فإن ذلك من شأنه أن يخدم قضيتي بشكل كبير.

لقد أثقل كاهلي الحديث عن المحامين، والتقاضي، والإنذار القضائي بوقف النشر - وعن مجموعة الإجراءات القانونية الواسعة - وجعلني أشعر بالعجز. كنت محطمة نفسياً بعد أن أيقنت أن كل الأبحاث المهمة التي قمت بها أصبحت بلا معنى، وأن الكتاب الذي سيكشف الحقائق والغزير بالمعلومات الدقيقة الذي أردت تأليفه لن يرى النور أبدًا: فما دام الأمر سيصبح بيد المحامين، من كان يعرف متى أو حتى إذا كان سيتم نشره؟ كنت أتخيل نفسي مرمية في سجن المدينين. بعد أكثر من أسبوع بقليل من الكآبة والعذاب، قررت أن هناك شيئًا واحدًا يجب القيام به، وهو الكتابة عن رحلة بيكيت من أيرلندا إلى فرنسا تمامًا كما أردت كتابتها ثم إرسالها إلى الناشر والانتظار لنرى ماذا سيحدث. وقد فعلت ذلك في نوبة من الحماس الشديد. اتصل بي هاتفياً كل من كارل ولاري بمجرد قراءة ما كتبت. قال كارل إنهما «متحمسان تمامًا» لذلك. فيما قال لاري: «امضي قدماً في هذا الأمر واكتبيه كما لو كان لديك إذن بكل شيء. سوف نتعامل مع ما يحدث في حينه».

كل هذا الدعم الرائع عزز معنوياتي وأزال ما تملكني من المشاعر السلبية والاكتئاب على حد سواء. بعد أن تجددت حيويتي، تذكرت ما قاله لي صامويل بيكيت عدة مرات مختلفة على مدار السنوات العديدة التي عرفته فيها: «أنا عند وعدي». وفكرت في وعده بعدم مساعدتي أو الوقوف في وجهي، وهو ما اعتبرته إذناً ضمنياً منه لتناول تلك المواضيع في سيرة حياته التي قد تكون محرجة له أو تجعله يشعر بالخجل أو التعاسة. زاد ذلك من تصميمي على كتابة هذا الكتاب تمامًا كما اعتقدت أنه ينبغي كتابته. وأدركت حينها أن الوقت قد حان للمضي في طريقي بحزم حتى النهاية.

لقد استخدمت الكثير من الاستعارات المختلطة في ذلك الوقت لوصف وضعي، ولكن أكثرها تناسقاً كان انتظار سقوط فردة الحذاء الأخرى.. وكنت

أنتظر سقوط فردتين: الأولى رد بيكيت على رسالة الشقيقتين، ورده عليّ الذي يوضح فيه قراره. في 27 كانون الأول 1974، كتبت إلى إحدى الشقيقتين. كنت قد تركت الرسالة التي كنا ننوي إرسالها إلى بيكيت معها عندما غادرت دبلن، وقد وجدت هي شخصًا كان متجهًا إلى باريس فطلبت منه أن يضعها في صندوق بريد بيكيت. بعدها تلقت رده بطريقة ملتوية: أن الإضراب البريدي لا يزال مستمراً في فرنسا، لذلك أعطى الخطاب الذي يحمل رده إلى شخص كان قادماً إلى الولايات المتحدة، ونسي إرساله بالبريد إلى أيرلندا لأكثر من أسبوع بعد وصوله. وقد وصلهما الخطاب للتو، يطلب فيه بيكيت منهم ألّا تُريا الرسائل لأي شخص بل تقومان بإتلافها. «*كنت أتوقع ذلك*» كانت تلك هي العبارة التي كتبتها في دفتر مذكراتي في ذلك اليوم.

ردت الشقيقتان على بيكيت، وكذلك فعلت أنا، على الرغم من أنني لم أسمع منه ذلك مباشرة. أوضحنا له جميعًا الضغوط التي كنت أواجهها لتبرير سبب السماح لي بقراءة الرسائل قبل سماع رأيه. لم يرد بأي إشارة مباشرة عندما أجاب على رسائلنا الثلاث، ولم نتلقَّ رسائله إلا بعد شهرين تقريبًا وقام بإرسالها من لندن. وجه بيكيت الشكر للشقيقتين على رسالتهما، ولم تذكر رسالته لي شيئًا عن تلك الرسائل، لكن سألني فقط فيما كنت أخطط للعودة إلى باريس؛ كان يعتزم المغادرة قريبًا إلى مسرح شيلر برلين ومسرح شيلر وأراد تنبيهي إلى أنه سيمضي معظم الأشهر الأولى من عام 1975 هناك. لم يكن لدي أي فكرة عن متى يمكنني القيام برحلة بحثية أخرى، وكان السبب كالمعتاد: توفير المال اللازم لدفع تكاليفها. لكنني بالتأكيد قررت ألا أخبره بذلك. لم أخبره قط بالضغوط المالية التي كنت أتعرض إليها بسبب هذا الكتاب، ولم أكن على وشك البدء به حينها.

كان الشيء الأكثر أهمية، هو أنني كنت أكتب بشكل ثابت، وكان يلوح في الأفق هدفي المتمثل في الانتهاء من الكتاب – ليس في أوائل الربيع، كما كنت أهدف في الأصل، ولكن في وقت لاحق من عام 1975–. في نهاية كانون الثاني، كان برجي في الصحيفة المحلية يقول: «ستحصل على المال وتنهي مشروعًا مهمًا هذا الشهر». لم أستطع مقاومة التفكير بالأمر، وكان يحدوني الأمل أن يتحقق ذلك.

الفصل العشرون

كانت فصول الشتاء في نيو إنجلاند دائمًا ما تكون شديدة البرودة، ولكن الفترة ما بين كانون الثاني – آذار عام 1975 كانت قاسية بشكل مميز. كان هناك الكثير من العواصف الثلجية والكثير من المشاكل الشخصية، مثل التعامل مع فرن لا يعمل بكفاءة، وتهيئة ما يحتاجه أحد طفليك للالتحاق ببرنامج تبادل طلابي في فرنسا والثاني الذي سيذهب لإقامة طويلة على الساحل الغربي، واستضافة طالب برنامج تبادل من السويد. ومع ذلك، كان ينبغي عليّ أن أدرك جيدًا كيف سأقوم بالكتابة عندما أخذت أول آلة كاتبة كهربائية ليتم إصلاحها من قِبل أشهر اختصاصي في نيو هافن، وهو السيد وايتلوك، حيث أخبرني أنها مهترئة لدرجة أنني يجب أن أتخلى عنها وأشتري واحدة جديدة. وقد قمت بذلك، وعندما انتهيت من الكتابة، اهترأت الثانية أيضًا.

أثناء عملي في الأشهر الأولى من عام 1975، لاحت لي فرصة لإعلام الناس بأن كتابي قد أصبح جاهزاً. كانت دار النشر غروف برس على وشك أن تصدر رواية بيكيت (مرسييه وكاميه) مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، فاتصلت بالناقد جون ليونارد، الذي كان يعمل آنذاك رئيساً لتحرير ملحق صحيفة نيويورك تايمز الأدبي، وأقدم نفسي كمراجعة كتب محترفة. وافق ليونارد وسط دهشة وكيلي والناشر – وليس دهشتي. لقد افترضت ببساطة أنه لا أحد يعرف هذه الرواية أكثر مما كنت أعرفها، لكنني كنت مندهشة عندما نشرت المراجعة كما كتبتها تمامًا، دون أي حذف أو تصحيح أو أية انتقادات، لأن الجريدة اشتهرت خلال عهد ليونارد، بأنها تجعل الكتاب يقدمون مراجعات مطولة على ما يبدو.

أثارت المراجعة اهتمام توم بيشوب، أستاذ اللغة الفرنسية المرموق في جامعة نيويورك، وخصوصاً فيما يتعلق بكتاب جار تأليفه يتناول سيرة حياة بيكيت. كان حينها يقوم بتحرير عدد خاص من المجلة الأدبية الفرنسية المرموقة (دفاتر هرني Cahiers de L'Herne)، تكريماً لعيد ميلاد بيكيت السبعين، ودعاني للمشاركة فيه بمقال. وأدى هذا إلى انتشار الإشاعات في الأوساط الأكاديمية وكذلك في أماكن أخرى تشير إلى أنني سأصدر قريبًا كتاباً يتناول سيرة حياة بيكيت، وغالبًا ما كانت تلك الأقاويل منقوصة أو غير صحيحة.

عندما نشرت مراجعتي في ملحق نيويورك تايمز الأدبي، أشارت المقدمة التعريفية بي سهواً أن كتابي عن سيرة حياة بيكيت سينشر في العام نفسه، مما دعا الصفحة الخاصة بإصدارات الكتب إلى أن تشير إلى أن كتاباً عن سيرة حياة بيكيت من تأليف «ديدر بلير» - سيصدر قريباً وكان ذلك الخطأ الأول في سلسلة من الأخطاء الإملائية. (اسم المؤلفة هو ديردر بير وليس ديدر بلير - م) وكم كان جميلاً لو أن موجة النقد التي ستعقب صدور الكتاب كانت ستوجه سهامها نحو السيدة بلير وليس نحوي!

وكان أول الأقاويل التي سمعتها قد جاء في رسالة إخبارية قصيرة أرسلت إلى عدد من وكالات تقديم المنح، والتي أشارت إلى رسالة غير موقعة فحواها أنني «هددت وأجبرت صامويل بيكيت ليسمح لي بكتابة سيرة حياته». شعرت بالرعب، وصليت ألا يطلع بيكيت على المقالة أبداً.

بعد ذلك، تدخل العديد من الأشخاص الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أوصياء على حياة وعمل صامويل بيكيت. لقد أخبرني أحدهم أنني لست «مؤهلة بشكل كاف» لكتابة سيرة حياة بيكيت، لكن بعد قراءة المراجعة التي نشرتها النيويورك تايمز، غيّر رأيه وقال حول الكتاب بأنه «ربما لن يكون بهذا السوء على كل حال». أخبرني شخص آخر أنني بحاجة إلى «تعلم كيفية الكتابة» حتى أتمكن من «إزالة» تأثيراتي في الكتاب، لأن المراجعة التي نشرتها النيويورك تايمز كانت «شخصية للغاية» وتناولت الكثير من جوانب شخصيتي. كما أن هناك أستاذًا آخر بجامعة محترمة، كتب خطابًا شديد اللهجة قال فيه إنني يجب أن «أشعر بالخجل من الغطرسة» التي

أظهرتها من خلال كتابة المراجعة تلك، لأنه هو من كان يجب أن يكتبها، وكان من الأفضل لي «أن أكون حذرة و«أعرف [مكانتي]» إذا كنت أرغب في الحصول على منصب أكاديمي. كانت معظم هذه الانتقادات مسلية أكثر من كونها مؤلمة، لكن العديد منها، مثل تهديد الأستاذ الصريح، حذرتني من أن هناك مشاكل أكثر خطورة ستواجهني في طريقي.

كانت مجموعة من المختصين ببيكيت -«البيكيتيون»- كما أسميتهم (وقد أطلقت عليهم بشكل متعمد لقب أعضاء نادي بيكيت)، وهم عدد من الرجال البيض ممن يشغلون مناصب أكاديمية آمنة ويتمتعون بالنفوذ والسلطة - هي من تشكل جبهة المعارضة الأساسية التي وقفت بوجهي. كانوا يمثلون الصراع الكبير الذي كان يدور في الأوساط الأكاديمية بين المؤسسة التقليدية والتهديد المزعوم الذي كانت تشكله نساء مثلي ومثل زميلاتي في برنامج المنح الذي كانت تقدمه كلية دانفورث للنساء واللواتي كن يتنافسن على نفس المناصب الأكاديمية التي يتنافس عليها الذكور. بالنسبة للبيكيتيين على وجه الخصوص، كنت مثالاً واضحاً على ذلك، «مجرد فتاة» «غزت المعبد المقدس لعالم بيكيت». سألني واحد أو اثنان من الأعضاء الصغار السن في (نادي بيكيت) الذين كانوا شجعاناً بما يكفي للتحدث معي على انفراد ما إذا كنت أجهل تمامًا مستواهم الاجتماعي، بينما كانوا يتجنبونني في العلن من «أجل الحفاظ على الصورة المشرقة للأشخاص ذوي النفوذ والسلطة) لوح لي أحدهم بشكل مفاجئ طالباً الانضمام إليه بينما كان يتسلل خلف أحد الأعمدة في بهو الفندق الذي كان يستضيف مؤتمر جمعية اللغة الحديثة. قال لي بخيلاء «أنت إنسانة منبوذة ولا يمكن أن يراني الناس وأنا أتحدث إليك»، وكان من الواضح أنه كان يتمتع بالشجاعة التي جعلته يدخل في هذه المحادثة السرية البسيطة. أما تصرفه الطفولي فقد جعلني (بشكل غير عادي) عاجزة عن الكلام وغير قادرة على التفكير برد سريع. عندما بدأت أتحدث، قلت إنني لم أفهم سبب تعرضي للنبذ، حيث إن ما نشرته عن بيكيت استقبلته الأوساط الأكاديمية بشكل إيجابي. فقال هذا الرجل «كان ذلك في عالم الأوساط الأكاديمية، ولكن ليس في عالم بيكيت».

يقول المثل لقد أعذر من أنذر، ولذلك قررت لأول مرة خلال السنوات

الثلاث التي أعقبت نيلي شهادة الدكتوراه، أن أكون جادة بشأن الحصول على منصب أكاديمي دائم. تمنيت أن أجد وظيفة في جامعة مرموقة حتى أكون أقل عرضة لهجمات البيكيتيين، كان عملي يتركز على كتابة السيرة أكثر منه على الجوانب النظرية، مما يجعلني أعتقد أنه يمكنني التملص من المعارك المتبادلة الشائعة في الأوساط الأكاديمية. لقد شهدت العديد من هذه المعارك بنفسي في كلية الدراسات العليا لأن كتابة السيرة كانت لا تزال غير مرغوب بها في معظم الأقسام الأدبية، لذلك توقعت أن يخجل زملائي المحتملون مني ويتركوني في سلام خوفًا من أن تصيبهم العدوى المهنية مني. اعتقدت أنني في أمان في أي عدد من جبهات القتال المهنية لمجرد أن طبيعة بحوثي تختلف. فلن يأخذ الأساتذة المنشغلون بالبحوث النظرية العمل في كتابة السيرة على محمل الجد بما يكفي للاعتقاد بأنه يستحق النظرة النقدية في المقام الأول. كان هذا مجرد مثال آخر على مدى خطئي تمامًا بشأن لعبة الحياة أو الموت التي كانت تشكل السياسة السائدة في الأوساط الأكاديمية.

تتميز كتابة السيرة بوجود أعراف وتقاليد معينة، مما يعني أنها تحمل قيودًا نصية. فهناك مواضيع عديدة ومتنوعة تتداخل مع الموضوع الرئيسي فيجب تحديدها واستكشافها، ولكن إلى الحد الذي تساهم فيه في فهم حياة شخصية معينة فقط. بالنسبة إلى بعض النقاد، قد يجعل هذا العمل يبدو سطحيًا وليس شاملًا. كان هدفي من كتابة سيرة بيكيت هو توفير أداة يمكن من خلالها تحديد جوانب من حياته وعمله ليتمكن الباحثون الآخرون من استكشافها بشكل دقيق. يجب أن يتذكر المرء، أنه لم يكن أحد يعرف عنه الكثير قبل أن أبدأ، ومن وجهة نظري كان نقد أعمال بيكيت يفتقد الحيوية بعض الأحيان، مليئًا بالعبارات المتكررة التي لا توضح شيئاً. خطرت على بالي الأغنية الألمانية التي أداها بطلا مسرحية في انتظار غودو، التي تتحدث عن الكلب الذي يدخل إلى المطبخ، ويعطيه الطباخ عظمًا، وهكذا، في كل مرة يفعل نفس الشيء ويستمر ذلك إلى الأبد. كنت أعتقد أن نقد أعمال بيكيت قد توقف في قالب معين وكان الوقت قد حان لتقديم آراء جديدة. وبينما كان الآخرون ينظرون إلى بيكيت في المقام الأول من خلال منظور القلق الوجودي، وجدت أن أعماله تحمل روح الدعابة ومشاعر الحزن

بنفس القدر، كانت معظم آرائي مستمدة بشكل مباشر من الأشياء التي عرفتها عن خلفيته العائلية والتقاليد الأدبية الأيرلندية. كنت أرغب في فتح سبل جديدة لتفسير أعماله، ولكن الأهم من ذلك، أن تحصل على التقدير الذي تستحقه. لم أكن أريد أن أكتب لمعشر الأكاديميين فقط ولكن أيضًا للقارئ العام الذكي الذي يريد فهم الرؤية الإبداعية لهذا الكاتب الذي قدم لنا الكثير من الروايات الرائعة والتجارب المسرحية. قال لي أستاذ جامعي صديق: «بعبارة أخرى، أنت تريدين أن يقرأ كتابك أكثر من ثلاثمئة شخص».

كنت قد اعتقدت قبل كل شيء أن مسؤوليتي كمؤلفة جعلتني أتبع القول المأثور للناقد ديزموند مككارثي من أن كاتب السيرة يجب أن «يؤدي القسم». بعبارة أخرى، كانت مهمتي ألا أقول سوى «الحقيقة» التي يمكنني إثباتها، ولكن يجب عليّ في نفس الوقت أن أجذب انتباه القارئ ليقوم بقلب الصفحة. ألم يكن هذا ما يفترض أن يكون عليه الباحث؟ أليس من المفترض أن يقدّر الباحثون الآخرون جهودي؟ حين أفكر في الأمر بعد كل هذه السنوات، أجد نفسي أنني مازلت تلك الفتاة الأمريكية الساذجة كما وصفها فيفيان ميرسييه ذات يوم.

كنت في هذه الأثناء، في أواخر ربيع 1975، في مرحلة الكتابة حيث كنت في حاجة ماسة إلى وقت للراحة، والتسلية، وطريقة أنعش وأجدد فيها نفسي. لقد بدأت أكتب عن بيكيت منذ عام 1971، إذا أخذت في الحسبان أطروحتي عنه، أو 1972، إذا كان الأمر يتعلق فقط بكتابة سيرة حياته. في الحقيقة فأنا لم أبدأ كتابة سيرة حياة بيكيت إلا في أواخر الستينيات، وفي ذلك الوقت لاحظت، «يا إلهي، دعني أنهيها.. أنا أتعرض لموجات من القلق والصداع النصفي وآلام الظهر.كان الأمر مروعاً. وكنت أشعر بالتوتر طوال الوقت».

أرسلت تحياتي إلى بيكيت بمناسبة عيد ميلاده في شهر نيسان، وكان جوابه الشكر ظاهريًا ولكن كان هدفه في الغالب التعليق على ما أخبرته عن كيفية تقدم عملية كتابتي.أشرت في رسالتي أيضًا إلى قراءة مسرحية حضرتها، أقامها المخرج المسرحي لي بروير بالاشتراك مع فرقة مابو ماينس المسرحية لم أقم سوى بالتعليق، ولكن عندما رد بيكيت، أخبرني أن العديد من الناس أرسلوا له نسخًا متعددة من مراجعة مجلة نيوزويك لها. وختم

قائلاً: يبدو لي أنها قراءة ملتوية ومباشرة، ذكّرني مرة أخرى بمدى غزارة معرفته ويجب أن أكون حذرة لكل ما أقوله أو أكتبه عنه.

ورطتني جيان ريفي كالعادة، في مشكلة صغيرة أخرى مع بيكيت عندما أخبرتني أنها وجدت ملاحظة كتبها بيكيت إلى جورج، يعود تاريخها إلى أوائل الستينيات، موضحة أن نيته الأصلية كانت تسمية مسرحيته في انتظار ليفي وليس غودو. لقد رفضت تصديق هذا الادعاء لأنه لم يكن له أساس في الواقع عندما لم تقدّم جيان أي دليل عليه، ولكن يبدو أنها كتبت إلى بيكيت، لتخبره أنني سوف أدرج هذه المعلومة في كتاب السيرة، مما أثار لديه نوبة غضب أخرى قصيرة الأجل.

بعد أن تمكنت من حل تلك المشكلة غير المتوقعة، أخبرني بيكيت أنه على وشك الانتهاء من العمل مع الممثلة الفرنسية ماديلين رينو بخصوص مسرحيته لست أنا التي كتبها بالفرنسية، وبعد ذلك سيذهب إلى المغرب لقضاء فترة راحة طويلة. طلب مني أن أخبره حين أكون في باريس في المرة القادمة ليتيقن أنه سيراني، فقد مر وقت طويل منذ أن تحدثنا عن «مشروعي».

ركزت معظم جهودي في ذلك الوقت على الكتابة فقط، وكنت أتوق إلى عبور خط النهاية. في أحد الأيام خلال تلك الفترة، تناولت طعام الغداء مع آلان شنايدر وزوجته، جان، وقد طال أمد ذلك الغداء طويلاً، حيث طرحا الاثنان أسئلة حول مدى التقدم الذي وصلت إليه في تأليف الكتاب. أخبرتهما أنني على وشك الانتهاء منه، ولم يتبق سوى الخاتمة. وبعد قيامي بمراجعة واحدة أخرى له، كنت أتوقع أن أسلمه للناشر في أواخر ذلك الصيف أو في بداية الخريف. وأثناء حديثنا، أمطرني آلان وجان بأسئلة حول محتواه، مما أوحى لي باكتشاف مفاجئ آخر. عندما عدت في تلك الليلة إلى المنزل، كتبت في مذكراتي اليومية: «ذهبت اليوم لرؤية آلان شنايدر. أشعر الآن فعلًا بأني مستعدة لنشر الكتاب. يبدو لي أنني أعرف الكثير جداً عن «سام» أكثر مما يعرف هو».

ثم أضفت ملحوظة صغيرة، «تقول جان إنه سيكون من أفضل الكتب مبيعًا. كنت آمل أن تكون على حق».

الفصل الحادي والعشرون

تم حل مشكلة دفع تكاليف رحلة البحث الأخيرة (كما كنت آمل) على يد الناقد فيفيان مرسييه، الذي كان يرغب بشدة في رد الجميل لي بعد أن وافقت على طلبه استخدام بحثي في كتابه. أخبرتني زوجته، الكاتبة الأيرلندية إيليس ديلون، أن اللجنة الدولية للكنيسة الكاثوليكية لترجمة الشعائر الدينية إلى اللغة الإنجليزية تبذل جهوداً كبيرة للعثور على شباب أميركيين، وخصوصاً من النساء، وطلبت مني أن أصبح عضواً فيها. في غضون أسابيع دعيت لحضور اجتماعها التالي في لندن، مع الحصول على راتب سخي بما فيه الكفاية لدفع ثمن رحلات جانبية إلى أيرلندا وفرنسا واصطحاب زوجي معي.

كانت احتياجاتي المالية ملحة، وكان هذا سبب آخر جعلني أتوق إلى أن أنتهي من كتاب سيرة بيكيت. كان عليّ أن أحصل على الدفعة الأخيرة من مبلغ المقدمة الصغيرة التافهة بعد تقديم المخطوطة النهائية وقبولها، وكنت بحاجة إلى هذا المبلغ لدفعات رسوم الدراسة المستحقة لطفليّ. في نفس الوقت الذي كنت أنتظر فيه رداً من الناشر لاري فروندليتش بخصوص المسودة الأخيرة، كنت أسمع شائعات تنذر بالشؤم عن حالة دار نشر هاربرماغازين. كان الناشر الرئيسي حامل العلامة التجارية بصدد قطع العلاقات مع المؤسسات المسؤولة عن قضايا مثل التوزيع والدعاية، مما يشير إلى أن هناك مزيداً من الانقسام الحاد بين أقسام الدار في المستقبل. وعلمت أيضًا من الأصدقاء الذين أرسل وكلاؤهم الأدبيون مخطوطاتهم إلى دار نشر هاربر ماغازين أنها لم تعد تشتري كتباً جديدة. في كل مرة كنت أسأل فيها كارل براندت عن الموضوع، كان يقول لي أن أسترخي وأواصل الكتابة، وسيكون كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى كتاب مهم مثل كتابي.

كنت أتكهن أن هناك مصدراً لقلق آخر سيأتي في ذلك الصيف الحار للغاية. فقد قام أحد الجيران، وهو طبيب نفساني محترم من أتباع فرويد، بتنظيم لقاء يعرفني فيه على بعض زملائه من أتباع فرويد. وكان من بينهم مريض نفسي سابق كان يتعالج على يد ويلفريد روبريشت بيون المحلل النفسي لبيكيت. كان هناك أيضًا شخصان من أتباع يونغ ورجل ادعى أنه يتبع «مزيجاً مؤلفاً من العديد من الأفكار المهمة»، لعلماء نفس من أمثال فرويد ويونغ ولانغ. كان العديد من هؤلاء الأشخاص قد قرأوا معظم كتابات بيكيت، وكتب اثنان منهم دراسات «مهمة» حسب وصفهما حول كيف أن رواياته كشفت الكثير عن حالته العقلية. اتفقوا جميعًا على الرأي القائل إنني «يجب أن أكون حريصةً للغاية: لأن بيكيت كان يعاني من الذهان وكان شخصاً خطيراً، وأن كتاباً مثل كتابك قد يجعله تعيساً». كان أقل ما يقال عن هذا الأمر أنه محير للعقل، ولأنني لم أكن أنوي أن أكتب سيرة نفسية، لم أشعر أنه يتعين عليّ أن أشغل بالي بآرائهم.

ولكن كان هناك بانتظاري الأسوأ عندما جاء لاري فروندليتش لمقابلتي في بداية شهر آب، قبل يومين من مغادرتي لحضور اجتماع اللجنة الدولية للكنيسة الكاثوليكية في لندن. لقد أرسل خطابًا من عشر صفحات يقول فيه إنني «أجعل القارئ يبذل جهداً كبيراً» وأن عليّ أن أخبر القارئ منذ البداية بما يعتقد هو (فروندليتش) أن الكتاب يتحدث عنه وهو: «إن بيكيت كان يعيش حالة من توقف النمو هذا هو جوهر المسألة»، وأن والدته هي المسؤولة تماماً عن ذلك. أنت بحاجة إلى التأكيد على الاختلالات النفسية المضمرة لهذه العلاقة المزعجة وحالة الذهان التي كان يعاني منها بيكيت بشكل خاص. بدا مرتاحًا للغاية عندما تحدث عن كيفية تسويقه للكتاب «التدمير بيكيت لأنه سيتم الكشف عنه كشخص فظيع جدًا ولن يشتري أحد كتبه». أخبرته أنني لا أعتقد أن هذا صحيح، وحتى لو كان الأمر كذلك، فقد أردت أن يجعل كتابي القراء يريدون شراء وقراءة أعماله ليحكموا عليها بأنفسهم. لقد شعرت بالرعب من الاعتقاد بأن فروندليتش كان يعتزم عرض كل السنوات التي قضيتها في البحث الجاد كمادة قد يقرأها المرء في صحيفة شعبية.

لم يقدم لي وكيلي أي دعم سوى أن يطلب مني الاسترخاء والاستمرار في الكتابة وأن كل شيء سيكون على ما يرام.

وهكذا ذهبت أنا وفون إلى لندن. قضيت نهارات طويلة في جلسات العمل في اللجنة الدولية للكنيسة الكاثوليكية أما الليالي وعطلات نهاية الأسبوع فقد خصصتها لمتعتي الشخصية. دعانا جيمي وتانيا ستيرن، وهما من أصدقاء بيكيت منذ ثلاثينيات القرن الماضي، لقضاء ليلة واحدة في منزلهما، في منطقة هانش مانور، في قرية تيسبوري، في مقاطعة ويلتشير، كان منزلاً ريفياً رائعاً يحوي منحوتات لألكسندر كالدر في الحمام، ولوحات لبيكاسو في غرفة نومنا، وللرسامة دجونا بارنز في الرواق، وكانت الطبعات الأولى من كتب بيكيت في كل مكان. كان جيمي يواجه صعوبة في المشي، لذلك قضينا فترة ما بعد الظهيرة جالسين في المروج الخضراء الجميلة في منطقة هانش نتبادل الأحاديث ونحن نستمتع بمشاهدة المناظر الرائعة التي ازدانت بها أعمال الرسام جون كونستابل.

أعرب جيمي عن قلقه بشأن حالة علاقتي مع بيكيت. كنت قد أخبرته عن البركان الذي انفجر بعد حادثة مولي هاو، فأخبرني هو أن لديه ما أسماه «العديد من النقاشات الغريبة» مع بيكيت في رسائلهما الأخيرة. ثم وصفت له ما كتبت وكيف كنت غاضبة من ردود أفعال لاري فروندليتش والأطباء النفسيين. عندها طرح سؤالًا غريبًا ومقلقًا: إذا كانت مخاوف الأطباء النفسيين هذه صحيحة جزئيًا، وإذا أثار بيكيت اعتراضات على نشر الكتاب، فهل سأكون مستعدة لمنع نشره حتى وفاته؟ أخبرته أنني أعتزم التعامل مع هذا الموقف بأمانة كما تعاملت مع كتابة الحقيقة، وإذا أصبح من الضروري تأخير النشر، فسوف أفعل ذلك. أخبرت جيمي مدى صعوبة كل هذا، وإذا كان عليه أن يختار بين الصداقة مع بيكيت ومعي، فسوف أتفهم لماذا سيختار بيكيت. أكد لي أن الأمور لن تصل إلى ذلك الحد أبداً. قلت له سوف نرى. ثم أخذ مني وعداً بأن أقابل بيكيت في باريس وأتحدث عن كل ما كتبته وقد وعدته بأن أفعل ذلك.

ذهبت لرؤية توم ماسشلر في دار نشر جوناثان كيب لأنني أردت أن أخبره ماذا أتوقع حدوثه عند استلام المخطوطة ومعرفة ما إذا كان رد فعله سيكون

نفس رد فعل لاري فروندليتش. لم يكن لدى توم أي من تلك التكهنات حول صحة بيكيت العقلية. بل على العكس، كان مستمتعاً بالطريقة التي قدمت بها إنجازه لأعماله من خلال سيرة حياته وكيف أدمجت المعلومات التي حصلت عليها من مئات المقابلات التي أجريتها في ذلك الوقت. وقد حفزني حديثه عن المحتوى والبنية والتقنية بطريقة إيجابية. وقد حصلت منه على ملاحظات وفيرة، أثرت الكثير منها المخطوطة النهائية للكتاب.

لم نتمكن من مغادرة إنجلترا دون زيارة بريدجيت وبراين كوفي في ساوثامبتون. تحدثنا حتى الساعة الثالثة فجراً وأنا أخبرهما ماذا كنت قد كتبت وكم كان مختلفاً رد فعل الناشرين الاثنين عليه. وقد طرحا أسئلة حول موضوعات اعتقدا أنها تحتاج إلى مزيد من التوضيح والتفصيل، وتطوعا برواية قصص من الذكريات الجديدة التي خطرت على بالهما، وقدما اقتراحات حول أفضل السبل للتعامل مع «سام المزعج» عندما أكون في باريس. لم يكونا مهتمين تقريبًا بكيفية رد فعله على محتوى الكتاب كما كان الحال بالنسبة لأصدقائه (الذين أصبحوا الآن أصدقائي) الذين رأيتهم في إنجلترا. لقد حذراني من الخوض في تفاصيل كبيرة للغاية. قالت بريدجيت، «أنت تصنعين حلقات من أصدقائه تكبر باستمرار، بينما هو يريد تفرقتهم. يريد أن يرى شخصًا واحدًا في كل مرة ويبقيهم منفصلين بعضهم عن بعض. قد لا يستسيغ شخصيتك الأمريكية المنفتحة وربما لا يحب أن تكوني في وسط جميع صداقاته».

حتى ذلك الحين كانت رحلاتي أنا وفون تتركز على عملي، ولأننا لم نتمتع بعطلة حقيقية منذ سنوات، فقد قررنا أن الوقت قد حان لفعل شيء لا علاقة له بحياة وعمل صامويل بيكيت وأن كل ما يجب القيام به ينبغي أن يتعلق بحياتنا الزوجية. سافرنا إلى بلدة فورنالوكس، الواقعة في إقليم مايوركا الإسباني، لتمضية بعض الوقت مع صديقينا النحات الإسباني خوان بالا، وزوجته الروائية الأمريكية، دولوريس، اللذين اصطحبانا إلى زيارة صديقيهما المقربين الشاعر روبرت غريفز وزوجته، بيريل، حيث ساعدانا في قطف سلال من قرون عشبة القديس يوحنا التي تباع «كمهدئات». في إحدى الليالي المرصعة بالنجوم، شاهدنا أحفاد غريفز وهم يؤدون مسرحية مقتبسة

من كتابات جدهم بينما كنا نجلس في مغارة في ممتلكاتهم، كانت عبارة عن مدرج حجري طبيعي محفور في أحد التلال الصخرية. ضحكنا كثيراً على ذلك المزيج من الأساطير اليونانية والرومانية، الذي قدم بالإنجليزية واللهجة المحلية.

سافرنا إلى باريس، ولحسن الحظ لم أضطر إلى التعامل مع أي من المخاوف التي ناقشتها مع الزوجين ستيرن وكوفي خلال فترة توقفنا القصيرة. كانت تنتظرني رسالة من بيكيت في مكتب وكيلي، يعتذر فيها عن عدم وجوده في باريس أثناء إقامتي هناك. وقال إنه غادر برلين وكان منهكاً وتوجه مباشرة إلى طنجة لإقامة طويلة. لقد تسبب ذلك براحة كبيرة لي، لأنني لم أكن على استعداد لرؤيته حتى أكون قد فرغت من خلافاتي مع لاري فروندليتش وتأكدت أنه سينشر الكتاب الذي كتبته وسوف يروج له بالطريقة التي أريدها. على الرغم من أن بيكيت أصر على أنه لن يقرأ الكتاب قبل نشره، وكثيراً ما كان يمازحني قائلاً إنه لن يقرأه على الأرجح حتى بعد صدوره، إلا أنني كنت ما زلت أخشى من أنه قد يغير رأيه ويطلب رؤيته. تركت ملاحظة مختصرة في صندوق البريد الخاص به تخبره بمن قابلت في إنجلترا وكيف سأكرس أيامي القليلة في باريس للتحقق من المعلومات التي حصلت عليها. ولأجل طمأنته بأن كل شيء على ما يرام، أخبرته أن الرحلة بأكملها كانت مرضية، لكنني تركت التفاصيل. وقررت حينها أنه في حالة حدوث أي خلافات، فسوف يتعين علي القلق بشأنها عندما يحين الوقت.

انتهت رحلتي في أوروبا مع اقتراب شهر أيلول بسرعة. كان أمامي عدة أسابيع لأعتني بكل الأشياء التي سيحتاجها طفلاي قبل بدء السنة الدراسية، لكن لم يكن لدي سوى عطلة عيد العمال. للاعتناء بشؤوني. شعرت مرة أخرى بالحاجة إلى الالتقاء بعدد من الأصدقاء في يوم الإجازة، وبالنسبة إلى فصول التدريس لخريف 1975 فقد حصلت على موعد في كلية ولاية كونيتيكت الحكومية، حيث كان عليّ أن أدرس مادة التأليف لثلاثة صفوف، كان عدد الطلبة في كل منها يتراوح بين 35 إلى 40 طالبًا، وأدرس صفاً رابعاً مادة القصة القصيرة، كان يضم أربعين طالباً آخرين. كانت جميع هذه المواد مطلوبة، مما يعني أن عددًا قليلاً جدًا من الطلاب (إن وجدوا) لا يريدون

حضورها، خاصةً عند المحاضرات التي تبدأ في الثامنة صباحاً. كان يجب أن أغادر منزلي بحلول الساعة السادسة صباحًا إذا أردت الوصول في الوقت المحدد، لأنه في تلك الأيام لم تكن هناك تلك الطرق السريعة التي تربط بين الولايات، كانت مدينة نيو بريتن تقع في جزء بعيد من الولاية لدرجة أن النكتة السائدة آنذاك كانت تقول «إن كل الطرق لا تؤدي إليها».

كنت بالكاد أحاول أن أعاود الرجوع إلى روتين حياتي المعتاد عندما حصل حدثان مهمان في يومين متتاليين. في 25 أيلول، وصلت إلى المنزل في وقت متأخر بعد يوم تدريس طويل وصعب لأجد خطاباً من كارل براندت، أرسل بالبريد من نيويورك قبل ستة أيام. لم يكن معي حتى مبلغ إجراء مكالمة هاتفية وقد أخبرني أنه قد تم تصفية أعمال دار نشر هاربر ماغازين، وأن لاري فروندليتش سوف يغادر إلى دار نشر كراون، وأن أمامي خيار الذهاب معه أو أعهد بنشر كتابي إلى دار نشر هاربر آند رو. كانت قد مرت فترة طويلة بعد ساعات من العمل عندما قرأت الرسالة، لذلك لم أتمكن من التحدث معه حتى اليوم التالي. أقل ما أستطيع قوله، أنني قضيت ليلة قلقة ومضطربة.

في اليوم التالي، الذي صادف الجمعة السادس والعشرين من أيلول، شعرت بانزعاج شديد للغاية، لأنني لم أتمكن من الاتصال إلّا بمكتبه فقط أثناء الاستراحات التي تفصل ما بين الفصول الدراسية ولم يكن موجوداً ليرد على مكالماتي. بعد يوم محبط، كنت أقود السيارة إلى المنزل وسط هطول أمطار غزيرة على طريق سريع غمرته المياه عندما فقد سائق شاحنة السيطرة عليها عندما كان يقوم باجتيازي، واصطدم بسيارتي في الممر الأيسر، ودفعها إلى الممر الأيمن مع سيارة أخرى. لقد حوصرت سيارتي بينهما، وكان المطر ينهمر من النوافذ المحطمة على كلا الجانبين. كان زوجي في بوسطن يحضر مؤتمراً للمتاحف، وكل ما كنت أفكر فيه هو طفلاي اللذان كانا ينتظرانني في المنزل لأصطحبهما لتناول العشاء في الخارج، حيث كانت الثلاجة فارغة وكان من المقرر أن أقوم بالتسوق في صباح يوم السبت.

أخرجني رجال شرطة الولاية من السيارة لكنهم لم يسمحوا لي بالعودة إلى المنزل. وبدلاً من ذلك، نقلتني سيارة إسعاف إلى أقرب مستشفى، في

بلدة واتربري، بعيدًا عن منزلي في منطقة وودبريدج وعيادة طبيب عائلتي في مدينة نيو هافن. لم أسمح لرجال الإسعاف بنقلي إلى سيارة الإسعاف إلّا بعد أن اتصلت الشرطة بصديقتي أليسون ستوكس، التي ذهبت إلى منزلي، وتولت مسؤولية الطفلين، واتصلت بزوجي، الذي قاد سيارته متوجهاً إلى المنزل في نفس تلك الليلة.

تعرض رأسي إلى إصابة شديدة ولحق الأذى بظهري، لكن الأطباء قالوا إنهم لم يتمكنوا من العثور على إصابات خطيرة بما يكفي لإبقائي وأرسلوني إلى المنزل في صباح اليوم التالي على الرغم من شعوري بصداع حاد وتشنج في ظهري واختلال في الرؤية. قالوا لي إنه لا شيء يمكنهم القيام به. فكتبت في مذكراتي اليومية: «*تناول حبوب الدواء لا ينفعني بشيء. من الأفضل أن أنام. كنت أبكي كثيراً*». كان ما هو أسوأ من الألم الشعور الرهيب والمدمر بالذنب. فأنا لم أتلف كل أموال عائلتنا من خلال متابعة هذا الحلم البائس في تأليف كتاب دخلت عملية نشره حينها في حالة من الفوضى، بل إني أتلفت أيضًا كل شيء للأشخاص الذين اهتممت بهم أكثر من غيرهم. كان مؤتمراً هاماً للغاية لزوجي، وقد اضطر إلى ترك بحثه ليتم قراءته من قبل شخص آخر. صديقتي العزيزة أليسون، الشخصية الودودة والأكثر لطفاً بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم على الإطلاق، كان عليها إنقاذ ولديّ اللذين كانا في بيت تسوده الفوضى، وأن تطعمهما وتسهر على راحتهما لأنني لم أكن هناك للقيام بذلك. اعتقدت أنني كنت المسؤولة الوحيدة عن كل المشاكل التي سببتها من خلال تخطي حدود مسؤولياتي كربة عائلة التي يفترض أن تتحملها كل أمراة عن طيب خاطر. والآن سأضطر لدفع الثمن الذي سيكون باهظاً.

الفصل الثاني والعشرون

لقد أطلقنا على منزلنا تعبيراً ساخراً نوعاً ما بوصفه «أيرلندا الغربية» لأنه بدا أن كل «شاعر أو كاتب مسرحي أيرلندي أو حتى رئيس الوزراء لتلك البلاد» كان يعرف أنه سيجد سريرًا مريحًا ووجبة طعام لذيذة في مدينة وودبريدج، في ولاية كونيتيكت. كان تدفق الزوار على منزلنا لا يتوقف، كان معظمهم (ولكن ليس جميعهم) موضع ترحيب كبير. لقد كانوا أشخاصًا ساعدوني بعدة طرق لدرجة أنني كنت سعيدة لأن الفرصة أتيحت لي لأن أرد لهم كرم ضيافتهم الشخصية ومجاملاتهم اللطيفه. ومع ذلك، كان هناك أشخاص آخرون كثيرون استغلوا الأمر، وكان أسوأ الآثمين بينهم هو الشاعر جون مونتاغ.

منعني الحادث الذي تعرضت له من التدريس طوال شهري تشرين الأول وتشرين الثاني. ولأجل إنقاذ وظيفتي، قام الزملاء في كلية سنترال بالتدريس نيابة عني مما زاد من العبء عليهم. لقد ساعدتني صديقتي، الروائية كيت ريد، على الحفاظ على وظيفتي حين أخذت على عاتقها القيام بمهامها، ولم يعترض رئيس القسم على ذلك لأنه كان سعيدًا للغاية بوجود مثل هذه الكاتبة المرموقة في الحرم الجامعي. كنت لا أزال على غير ما يرام عندما عدت إلى التدريس وكنت أتطلع إلى أن تحل عطلة عيد الشكر عندما تلقيت مكالمة هاتفية من (كما يلقبه أطفالي بسخرية) «الشاعر مونتاغ». كان في سياتل وتوقف في نيويورك وهو في طريقه إلى دبلن، وسأل عما إذا كان بإمكانه تمضية يوم أو يومين معنا. أخبرته أننا بعيدون عن نيويورك واقترحت أنه ربما كان لديه أصدقاء هناك يستطيعون أن يستضيفوه. قال إنه يعتقد أنه سيكون من الجيد أن يكون في الريف وأنه يفضل البقاء معنا. قلت له ألا

يأتي إلّا بعد عيد الشكر، حيث كانت لدينا خطط عائلية لا يمكن تغييرها ولا يمكن أن تشمله. (لاحظ أنني قلت «لا تشمله»). أنهينا المحادثة بموافقته على أن ينبهني مقدماً عندما يخطط للمجيء.

خلال الأسبوع الأول من شهر كانون الأول، وبعد يوم من التدريس الشاق للغاية تضمن عدة لقاءات مع طلاب كانت الكلاب قد التهمت واجباتهم المدرسية (وقد اطلعت فعلياً على إحدى الحالات، حيث أراني أحد الشباب بحثاً ممزقًا وقد طبعت عليه أسنان الكلب آثاراً)، عدت إلى المنزل ومعي أكثر من مئة ورقة امتحان يجب أن أصححها قبل نهاية الأسبوع. لم أكن أتوقع أن ينتظرني زوجي عند الباب الأمامي لتحيتي. كان التعبير على وجهه مختلفًا عن أي شيء رأيته خلال زواجنا الطويل. «لدينا ضيوف»، تمتم بانزعاج وهو يمسك بكوعي ويقودني نحو غرفة الجلوس.

حين وصلت لم أجد جون مونتاغ فحسب، بل زوجته إيفلين وابنتهما الصغيرة، أوناغ، التي كانت مشغولة في ترويع إحدى قططنا وهي تزعق وتصرخ بينما قام كلبانا بإرعابها بدورهما. لقد وجدهم زوجي وهم ينزلون من سيارة أجرة عندما كان يتوجه بسيارته إلى منزلنا قبلي بخمس عشرة دقيقة.

كان التحدي المباشر هو كيفية جعل أربع قطع من اللحم مع البطاطا المشوية تكفي لإطعام سبعة أشخاص على مائدة العشاء، بمن فيهم طفل صغير لم يعتد إلا لتوه على تناول الطعام على الطاولة. التحدي التالي هو وضع البياضات على سرير الضيوف والمناشف في حمام الضيوف أثناء محاولة معرفة كيفية ومكان نوم الطفل. ثم كان هناك التفكير في اليوم التالي، عندما أضطر إلى العودة إلى الحرم الجامعي عند الفجر وأتركهم وحدهم. كان ينبغي أن ننتبه إلى ما ينتظرنا من متاعب عندما أخبرنا الشاعر مونتاغ بأنه لا داعي للقلق بشأنه لأنه يتوقع أن يقوم أحدنا بنقله إلى محطة القطار في الصباح، حيث إن سيارات الأجرة «باهظة الثمن». كان علينا أيضًا اصطحابه في منتصف الليل تقريبًا بعد أن يمضي نهاراً طويلاً في نيويورك (ليشرب) مع أصدقائه الأيرلنديين. ستكون إيفلين وأوناغ راضيتين لقضاء نهارهما في منزلنا. لم أفهم أن هذا يعني أنهم يخططون للبقاء لبعض الوقت، لأنني كنت مشغولة جدًا بالقلق على اليوم التالي. كنت أعلم أنه لم يكن هناك

سوى القليل في مخزن المؤونة الذي يمكنهم استخدامه لإعداد طعام الغداء لهم، لذا بدلاً من تصحيح الأوراق في تلك الليلة، أمضيت وقتًا في المطبخ لتحضير شيء يمكنهم تناوله حتى أصل إلى المنزل لطهي العشاء.

نظرًا لأننا كنا مهذبين جدًا فلم نسأل عن المدة التي يخططون فيها للبقاء، فقد استمر هذا الحال لمدة أربعة أيام، حيث نعود أنا وعائلتي إلى المنزل كل ليلة لنجد شكلاً جديداً من الفوضى. كانت إيفلين تمضي صباحها في السرير بينما كانت أوناغ الصغيرة تدور حول المنزل وهي تصرخ. بعد عدة أيام، قررت إيفلين أن تساعدنا في المطبخ، وعدت في إحدى الليالي لأجد أنها قد استخدمت مواد تكفينا لأسبوع لصنع كمية كبيرة من السلطة مغموسة عميقاً في صلصة غير صالحة للأكل مما أدى إلى إلقائها في القمامة دون أن تؤكل. لقد كانت كارثة على رأس العديد من الكوارث الأخرى لدرجة أنني سألت إيفلين – وبأسلوب خشن – كم من الوقت ينوون البقاء ضيوفاً عندنا.

قالت إنها ستتحدث مع جون عندما يعود من نيويورك وستعلمني بذلك. في صباح اليوم التالي، أعلنوا بكل سرور أنهم لا يستطيعون تحمل تكاليف الذهاب إلى فندق أو استئجار شقة، وبما أنه لا يمكن لأي صديق آخر أن يستضيفهم بشكل مريح مثلما كنا نفعل معهم، فإنهم سيبقون طوال أيام العطلة، حتى موعد رحلتهم إلى دبلن في 6 كانون الثاني. حدث ذلك في يوم 8 كانون الأول. شعرنا بالصدمة، لكن لم يكن هناك وقت لمناقشة الموضوع، حيث كان يتوجب علينا جميعًا الذهاب إما إلى العمل وإما إلى المدرسة.

في حوالي الساعة التاسعة من تلك الليلة، كان فون يعمل على طاولته في غرفة نومنا حتى منتصف الليل وكان وقت ذهابه إلى المحطة ليعيد جون إلى بيتنا. كنت متمددة على السرير من التعب وكنت أحاول تصحيح أوراق امتحان الطلبة عندما سمعنا طرقاً خجولاً على بابنا. فقد جاء طفلانا سكوت وكاتيني ووجها لنا إنذاراً. لن أنسى أبداً وجهيهما الجادين حينما قالا في انسجام تام: «إما يذهبون أو نذهب نحن. سنذهب إلى بيت جدتنا في بيتسبورغ ولن نبقى معهم لمدة يوم واحد». كان هذا إعلانًا مذهلاً، لأن حب جدتهما كان يختفي بشدة وراء جديتهما الصارمة، وأن زيارتهما لها ستحرمنا من قضاء الوقت السعيد والمريح الذي كنا جميعًا نرغب به.

في صباح اليوم التالي، واجهنا نحن الأربعة جون على طاولة الإفطار (كانت إيفلين لا تزال في السرير؛ وكانت أوناغ لا تزال تتجول حول المنزل). أخبرناه أنه يمكنهم البقاء يومًا آخر ولكن بعد ذلك عليهم المغادرة، حيث إننا نستعد لقضاء العطلة معاً. لم يقل شيئًا وقام فون باصطحابه إلى المحطة كالمعتاد. في تلك الليلة عندما عدنا من المدرسة والعمل، كانت عائلة مونتاغ قد اختفت، وقد ترك أفرادها وراءهم فوضى هائلة في غرف الضيوف وغرفة الجلوس وفاتورة هاتف بقيمة 400 دولار شملت مكالمات دولية إلى أيرلندا كما قاموا من دون استئذان بأخذ نسخة من مجلة هوريزون لأنها كانت تضم واحدة من قصائد جون، مما أدى إلى إتلاف مجموعة كاملة من النسخ الأصلية. لم يتركوا أي ملاحظة ليقولوا لنا أين ذهبوا أو لشكرنا على الأيام الثمانية التي استضفناهم فيها.

اكتشفنا في اليوم التالي أنهم اتصلوا بصديق من بروكلين، الذي جاء بسيارة ليقلهم بها. ذهبوا. في البداية إلى غيلفورد، إلى منزل سوزان هاو وزوجها، النحات ديفيد فون شليغل، قائلين إنه كان يتعين عليهم مغادرة منزل عائلة بيير لأن ديردر كانت تحاول بلا خجل استمالة جون –وأمام أطفالها وزوجها أيضاً. كان ديفيد مستلقياً في السرير لأنه كان مصابا بالإنفلونزا، وصاح من الشرفة الموجودة في منزلهم الذي يشبه شكله المثلث، قائلاً إن كلامهم مناف للعقل، ويجب عليهم مغادرة منزله في الحال.

حذرتني سوزان من أنه سيكون هذا حديث كل سكان دبلن بمجرد عودة عائلة مونتاغ، لكنني كنت منهكة جدًا إلى درجة أنني لم أفكر بأي شيء آخر يضاف إلى سلوكهم المشين لأنني كنت سعيدة جدًا بالتخلص منهم. لم أهتم بما قالوا. قبل مغادرتهم نيويورك، اتصل أصدقائي هاتفياً ليحذروني من أن إيفلين كانت تخبر الجميع «*كم أننا فقراء والحالة المزرية التي كنا نعيشها وكم كنا جهلة ومدى سوء معاملتنا لهم*».

أصبحت محاولتي المزعومة لاستمالة الشاعر مونتاغ مثار حديث سكان دبلن بالفعل، كما علمت في رحلتي البحثية الأخيرة بعد عام تقريبًا. ظللت أسمع عنها طوال الثمانينيات، بعد صدور كتاب السيرة، وعندما كانت توجه لي الدعوة سنويًا لإلقاء المحاضرات والتدريس في مدرسة جيمس جويس

الصيفية في كلية دبلن الجامعية. بعد سنوات، كان الرجال (لأن جميع من كان يسألني كانوا رجالاً) ينظرون إليّ بحيرة عندما يسألونني كيف أمكن لي محاولة إغواء الشاعر مونتاغ، «فتاة جميلة مثلك يا للعجب». في ذلك الحين شعرت بالغضب مما لحق بكرامتي كامرأة من إهانة ولكني عرفت كيف أتعامل معهم. لم أدافع عن نفسي قط ولم أظهر لهم أية كراهية. كنت لا أفعل سوى النظر إليهم باستهزاء، ويسعدني أن أقول إن معظمهم كانوا يخافون على الفور من إثارة غضبي وتهبط معنوياتهم تمامًا. لقد كانت تسرني رؤيتهم يتراجعون وينسلون مبتعدين عني.

جاءنا ضيف إيرلندي آخر كان مزعجاً بشكل يثير السخرية، هو الممثل باتريك (بات) ماغي. كان بيكيت يعشق بات، ولا سيما صوته، الذي قال إنه كان يسمعه يطنّ في رأسه عندما تخطر على باله وهو يؤلف أصوات الشخصيات الذكورية في مسرحياته. عندما كنا نتطرق إلى الممثلين في «أحاديثنا»، كان بيكيت لا يبدي أي حماس، ولكن عندما يتحدث عن بات، يصبح مفعمًا بالحيوية ويتورد وجهه بشكل غريب

بعدها كنا نحن أفراد عائلة بير الأربعة نجلس في هدوء بعد ظهر يوم الأحد، وقد انتشرت الصحف في جميع أنحاء غرفة الجلوس وما زالت مائدة الطعام تحوي بقايا وجبة فطور متأخر فخمة عندما رن جرس الهاتف. كان صوت أجش يتكلم على الطرف الآخر «أنا بات ماغي». لقد حضر إلى نيو هافن لتقديم عرض مسرحي في مسرح شوبرت، وطلب منه صامويل بيكيت الاتصال بدير در بير، التي ستستضيفه. قال بات إنه يجب عليّ اصطحابه على الفور وإحضاره إلى منزلي.

كان يوم الأحد، وكانت لا تزال تسري في ولاية كونيتيكت القوانين التي تمنع فتح الأسواق في يوم السبت. لم نكن مستعدين لاستقبال الضيوف، وكانت محلات بيع الخمور والبقالة مغلقة. أمرت الطفلين بتنظيف المنزل وطلبت من زوجي الاتصال ببعض الأصدقاء والطلب منهم الانضمام إلينا، شريطة أن يتمكنوا من المساهمة في الطعام والمشروبات. جاء اثنا عشر من أصدقائنا المقربين، جالبين معهم مواد لطعام العشاء والكثير من المشروبات الكحولية. عندما عدت مع بات، ألقى نظرة على الناس ولكنه توجه ببصره

مباشرة إلى زجاجات الشراب. وشرع في ملء كأس كبيرة بالويسكي، وأمسك بالزجاجة من الرقبة، وتوجه إلى أريكة طويلة. «وأمر الشخصين الجالسين عليها: تحركا من هنا!» قبل أن يتمدد عليها ليستغلها بالكامل وحده.

حاول الجميع إشراكه في أحاديثهم المهذبة، لكنه إما كان يقاطعهم ببرود في منتصف كلامهم أو يقول شيئًا لاذعاً إذا خالفه شخص ما. بالنسبة إلى بقية فترة ما بعد الظهر الطويلة التي استمرت حتى الليل، فقد جلس في عزلة رائعة، وشرب ما تبقى في زجاجة الويسكي وأفصح عن مشاعره جهاراً بصوته الشديد القوة. قالت إحدى صديقاتي ساخرة أثناء محاولتها الخروج بهدوء دون أن تثير انتباه بات: «مدهش كيف يمر الوقت بسرعة عندما يكون المرء مستمتعاً». ومع ذلك، فقد رفع صوته عالياً قائلاً إنها يجب أن تعاود المجيء لأنه «يحتاج إلى رفقة امرأة».

كان المسرح بمنزلة فندق لبات، وكان الوقت متأخراً عندما أعدته إلى هناك. لقد رفض مغادرة السيارة إلى أن أوافق على قضاء الليلة معه قائلاً «لا أريد سوى أن تقضي الليلة معي». عندما أقنعته بأن ذلك لن يحدث، هز رأسه وقال، «ديردر، أنت أمرأة مثقفة إلى أبعد الحدود» أجبته: «شكراً لك، بات، هذا أجمل شيء قلته لي من قبل». كان ذلك بالضبط هو الانطباع الذي أردت أن يحمله الآخرون عني طوال تلك السنوات التي عملت فيها على تأليف سيرة حياة بيكيت.

في صباح اليوم التالي عند الإفطار، وجدت ابني يحدق في وجهي. سألته «ما الخطب؟» فسألني مع تنهيدة عميقة وحزينة «ماما، أين تجدين هؤلاء الناس؟»

حقاً أين كنت أجد هولاء الناس؟

الفصل الثالث والعشرون

(الثاني عشر من كانون الثاني 1976. لقد تحطمت حياتي بعد ظهر هذا اليوم عندما هاتفني كارل براندت قائلًا إن دار نشر هاربر آند رو قررت عدم نشر كتابي.) كنت قد وافقت على البقاء مع الشركة الأم بعد تصفية دار النشر أعمالها، ووافق المحرر الشهير سايمون مايكل بيسي على البدء في تحرير الكتاب في تشرين الأول 1975، حال عودته من معرض فرانكفورت للكتاب. ثم ادعى بعدها أن التزامات أخرى حدثت له منعته من القيام بالتحرير، لذلك قام بإرساله إلى عدد من المحررين، ولم يرغب أحد منهم بالعمل على تحريره. قال أحدهم: «أنا لا أحب بيكيت لدرجة تجعلني لا أحتمل تحرير مثل هذا الكتاب الطويل عنه». وقال آخر: «إنه ليس كاتبًا مهماً حتى يستحق مثل هذه الدراسة المفصلة». وحينها تنصلت دار النشر هاربر آند رو من التزاماتها مستندة إلى الحجة الشهيرة التي يستخدمها الناشرون في مثل هذه المواقف، بالقول إنني كتبت «مخطوطة غير صالحة للنشر». كان هذا يعني أنني كنت حرة في تسويقها من أي مكان آخر، ولكن إذا قبل ناشر آخر بها، فسيتعين عليّ سداد مبلغ المدفوع مقدماً لي من قبل دار نشر هاربر ماغازين.

لا يبدو من الصواب أن يتم سداد المبلغ المدفوع مقدماً إذا اعتبرت دار نشر أخرى الكتاب «صالحاً للنشر» اعتبرته أخرى «غير صالح للنشر»، ولكن كما قال كارل، هذا هو ما معمول به في عالم النشر. حينها كنت تلك الشابة التي تربت جيدًا والتي كانت تحترم دائمًا السلطة ولم تكن تمتلك الوعي النسائي الذي يجعلها تعبر عن احتجاجها، لذلك قلت ببساطة «أمرك سيدي» وتركت الموضوع. قال كارل إنه سيعرض المخطوطة على عدد من الناشرين

ولكن واحداً بعد الآخر، وكان ينزعج بشكل ملحوظ كلما سألته لماذا فعل ذلك بهذه الطريقة، ولماذا لم يقم بإرسالها إلى عدة ناشرين في وقت واحد، لأن الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً. رفض أن يقدم لي توضيحات أو يخبرني من كان يقرأها أو ما هي آراؤهم بها. كنت أغلي من الغضب ولكن لم أحصل على إجابات لأنه نادراً ما كان يرد على مكالماتي الهاتفية أو يجيب على رسائلي. اعتقدت أنه كان يعاملني كطالبة مدرسة تسيء التصرف، لكنني لم أكن أعرف بعد ما يكفي من الكاتبات اللواتي نشرن كتبهن لأطلب منهن أن يشاركنني خبراتهن. شعرت بالخجل الشديد والإحراج من سؤال الكاتبة نانسي ميلفورد عما إذا كان يعاملها بنفس الطريقه، لذلك لم أقل شيئًا لأحد. بدلاً من ذلك أصبحت أكثر كآبة.

تلاشت حالة ازدواج الرؤية التي أصابت بصري عقب حادث السيارة، لكني بقيت أعاني من الصداع. وصف طبيب الأسرة لي قائمة كاملة من أقراص العلاج المختلفة، ابتداءً من الفاليوم وانتهاءً بالعديد من العلاجات التي كانت رائجة في ذلك الوقت. في نهاية عام 1975، كتبت في مذكراتي اليومية أصف حالتي: «*أنا في حالة من الكآبة الشديدة، بسبب مصاعبي المالية الرهيبة، والوظيفة البغيضة، وعملية تأليف الكتاب التي طالت أكثر من اللازم، وشعوري بعدم امتلاكي خطة عمل واضحة بشأنه. كنت أشعر بوجود أزمة عميقة في حياتي الشخصية. واكتشفت أخيرًا أنني لا أريد القيام بأي شيء بعد الآن. لا أريد أن أكون المرأة المعجزة التي تطبخ، وتشوي، وتقوم بتزيين البيت، وتدير شؤون العائلة، وتتغلب على المشاكل، إلخ. كنت أود أن أكون زوجة وأماً جيدة، بالتأكيد. لكنني كنت أريد أن أكون باحثة وكاتبة أيضًا. كل شيء آخر كان وزناً زائداً سيجرني إلى الأسفل. بدأت أظن أن ما أريده مستحيل: حياة شخصية هانئة ومهنية تلبي جميع طموحاتي. هل هناك امرأة على الإطلاق تمتلكهما في نفس الوقت؟ أنا محتارة للغاية. من الأفضل عدم القيام بأي شيء، وعدم القيام بأي تحرك على الإطلاق إلى حين أعرف ما يجب القيام به. أحتاج إلى أن أضع نفسي في حالة انتظار وتأهب* (هي الحالة التي يجب على قائد الطائرة الانتظار فوق نقطة معينة أو مطار معين للحصول على إذن الهبوط بسبب انشغال المطار في حركة

الإقلاع والهبوط أو بسبب عدم قدرة الطيار على الهبوط في الوقت الحالي -م)، *هِهِه.. قد يكون هذا عنوانًا جيدًا لرواية: حالة انتظار وتأهب*»، لم أكن أنظر إلى الأمور هكذا في ذلك الوقت، لكنني حين أسترجع ذكرياتي، أدرك أنني على الرغم من شعوري بالاكتئاب، فإنني حين وضعت نفسي في حالة انتظار وتأهب، قد عرفت أخيراً متى وأين يمكنني الهبوط. كان هذا يعني أنني مصممة على إخراج نفسي من كل تلك الفوضى التي كنت فيها. وأنا الآن أنظر إلى ذلك الأمر باعتباره صحوة نسوية مبكرة.

كان العمل الحر بالكتابة والتدريس بدوام جزئي يبقيانني بالكاد قادرة على تدبير أموري، وأصبح تفكيري مشوشاً للغاية إلى أن لاح في الأفق حبل للنجاة بعد يومين فقط من المكالمة الهاتفية الكارثية مع كارل، كانت وظيفة شبه مضمونة. وجه إليّ قسم اللغة الإنجليزية في جامعة بنسلفانيا الذي أنهيت فيه دراستي الجامعية، دعوة لتعييني أستاذة مساعدة. وإذا ما قلت إنني مثقلة بالأعباء، ومنهكة، وغير مركّزة تمامًا، فإن ذلك سيضيع من يدي الفرصة. ولكن ما الذي سأقوله في الجامعة حين يسألونني عن وضع كتاب السيرة؟ سارت المقابلة بشكل جيد وأخبرني رئيس القسم أن المادة التي سأدرسها هي الأدب المقارن المعاصر (وبشكل رئيسي الأدب البريطاني والفرنسي) وأن الوظيفة ستكون من نصيبي إذا وافق العميد على تمويلها، لكن الأسابيع مرت من دون أن أستلم منهم أية رسالة. ولم يصلني شيء من وكيلي، لذلك لم يكن لدي أي عمل ولم تتصل بي أي دار نشر. بعد مرور شهر آخر، استجمعت شجاعتي واتصلت بكارل. أخبرني سكرتيره أنه لا شيء جديداً، لأنه في اليوم السابق فقط، عندما كان يستعد للذهاب إلى أريزونا لقضاء عطلة لعدة أسابيع، أرسل مخطوطتي - للمرة الأولى! استشطت غضباً، وكتبت في مذكراتي، «*لا أعتقد أن ابن العاهرة هذا. يتعامل معي بجدية. إنه يخفي مفاجأة حقيقية في جعبته*». ولن تكون هذه هي المرة الوحيدة في تلك السنة التي فشل فيها كارل في الاتصال بالمحررين الذين يتمتعون بتقدير كبير والذين كانوا كما علمت، من أصدقائي، مهتمين برؤية المخطوطة. لقد كان مستعدًا دائمًا ليقدم لي الأعذار والحجج عن أن هذا المحرر أو دار النشر تلك غير مناسبين لي. بات موعد تخرج ابني في المدرسة

الثانوية قريبًا ليستعد بعده لبدء الدراسة الجامعية في الخريف. ولأن معظم الأموال التي خصصناها لتعليمه قمنا بإنفاقها على بحوثي وسفراتي، شعرت بقلق لم يتوقف بشأن الكيفية التي يمكننا بها دفعها. كنت أعلم أن جامعة بنسلفانيا تقدم دروسًا مجانية لأبناء أعضاء هيئة التدريس، لكن الدخول في هذا المسار ظل مجرد احتمال متوقع.

كان لا بد أن أكون في حالة رهيبة، لأن جميع أصدقائي بدأوا يسألون - بأدب ولطف وبشكل غير مباشر - عما إذا كنت قد فكرت باللجوء إلى التحليل النفسي. عندما أخبرت زوجي بالأمر، قال إنه، أيضًا، كان يشعر بالقلق مني بسبب صداعي وبكائي المستمر وحالات الغضب التي تنتابني بين الحين والآخر. وقد اعتقد أن التحليل النفسي قد يكون فكرة جيدة. سأل كلانا من حولنا من الأصدقاء، واقترحوا علينا عدة أسماء، كانوا جميعهم من الرجال، وكلهم يسرعون في البحث عن صدمات طفولية خفية أو يشوشون تفكيري بوصفة طبية أخرى (كنت أرفض أن آخذها)، هذا إذا كانوا مخلصين بما يكفي ليحترموا مواعيدي.

كانت صديقتي أليسون ستوكس تعرف محلّلة نفسية في مدينة ويلتون وكانت تحظى بتقدير كبير من قبلها ومن قبل العديد من أصدقائنا الآخرين. قالت أليسون: «إنها امرأة، وهي متعاطفة للغاية مع مخاوف النساء»، مضيفة «لكن في الوقت نفسه، يجب عليّ أن أحذرك». ثم قالت بنبرة منخفضة، كما لو أنه شيء غير ملائم وسري لا يمكن أن يقال إلا همساً: «إنها من أتباع العالم كارل يونغ». كان ذلك مناسباً لي، لأنه على الرغم من أنني لم أكن أعرف ما يكفي عن نظرية فرويد، لكني كنت أرفض أفكاره حين كنت في مدرسة الدراسات العليا، مثل العديد من صديقاتي، بسبب الطريقة التي كتب بها عن النساء. كنت أكثر ميلاً إلى كارل يونغ رغم أني لم أعرف عنه إلا القليل بسبب الطريقة التي كتب بها عن النساء، وخاصة نظريته عن «الأنيما والأنيموس» (وتعني أن للرجل جانباً أنثوياً «أنيما» من العطف والرقة والعناية وللمرأة جانباً ذكوريا «أنيموس» من العقلانية والقوة -م). عندما قابلت المعالجة، باتريشيا دونتون، ولأول مرة، لاحظت عدم وجود الأريكة المعتادة في عيادات الأطباء لذا قمت بممازحتها قائلة، «أين هي الأريكة، وماذا سنفعل إذا لم أرغب في

الاستلقاء والتحدث عن طفولتي؟» ضحكت ضحكة خافتة وهي تدعوني للجلوس على أحد كرسيين من الخوص كانا يواجهان بعضهما بعضاً وقالت: «من الواضح أنك هنا لأن لديك شيئًا يحدث الآن وتريدين التحدث عنه، فلماذا لا نبدأ به؟» عرفت لأول مرة معنى التعبير الدارج فتح الباب على مصراعيه، وحين كنت أتكلم، كان يبدو الأمر كما لو أن مياهاً ملوثة يحجزها سد منذ سنوات بدأت تتسرب من خلف بواباته. كان الإحساس بالانطلاق والارتياح الذي حصلت عليه على أثر حديثي شعوراً غير عادي ولا ينسى. كانت تلك الليلة التي مررت فيها بتجربة لم أتمكن من تصنيفها بشكل صحيح إلا بعد عشرين عامًا، تشبه الليلة التي بدأت فيها الكتابة عن يونغ - والذي كان «حلمًا كبيرًا». بالنسبة إليّ في ذلك الوقت. في تلك الليلة كنت في منزلي عندما كان في الخارج شخص ما على هيئة أنثى هزيلة مغطاة بالوحل ومياه المجاري تحاول الدخول إليه. المشكلة في الأمر أن تلك المرأة كانت أنا.

لقد حلمت بالأمر خلال الفترة التي انضممت فيها إلى عدد من المجموعات النسوية. في ولاية كونيتيكت، كنت جزءًا مما أطلقنا عليه «لقاءات التوعية»، وهي مجموعات صغيرة من النساء اللواتي اجتمعن للحديث عن مواضيع لم نتمكن من التطرق إليها إلا بعد سنوات، مثل لماذا تكون بطاقات الائتمان العائدة لنا باسم أزواجنا. أو لماذا كان من الصعب جدًا الحصول على وظيفة في المقام الأول، ومن ثم لماذا يتقاضى الرجل الذي يعمل معنا أجراً أعلى منّا. الأمر الذي كان يشغلنا أكثر، هو كيف نستطيع منع جميع من نقابلهم من الرجال من التحرش بنا وأتذكر الغضب الذي انتابني عندما وصفت ما حدث في مقابلة عمل أجريتها في إحدى الكليات المحلية، حين قال رئيس القسم إنه من المحتمل أن يقوم بتعيين رجل بدلاً مني لأنه كان لدي زوج «يحميني» ولا أحتاج إلى الراتب. وفي نيويورك، شاركت في مسيرات وحضرت اجتماعات كبيرة حيث كنت شخصاً عادياً من بين الحضور وكيف كانت رموز الحركة النسوية يستنهضن قوانا للعودة إلى ديارنا والمطالبة بحقوقنا السياسية. كنت أكثر اهتمامًا بالمطالبة بحقوقي الشخصية، لكني وباستخدام التعبير الرائج للحركة النسوية في ذلك الوقت، كنت مع جعل الشأن الشخصي شأناً سياسياً أيضاً.

كان هناك جانب غريب واحد في صحوتي النسوية، ما زال يحيرني حتى يومنا هذا. كان العديد من صديقاتي النسويات الجديدات فخورات بأن يطلقن على أنفسهن اسم «النينيسيات»، ومعناها محبات أنايس نين الروائية الأمريكية المعروفة. كن يقلن لي تعالي معنا، يتوسلن إليّ في عدة مناسبات لحثي على الذهاب معهن إلى شقتها في قرية غرينتيش الواقعة في ضواحي نيويورك، حيث كانت تقوم في كثير من الأحيان بدعوة مجموعات صغيرة من النساء لمناقشة كتابها الذي كان قد صدر حديثاً بعنوان «اليوميات». ما زلت لا أعرف سبب رفضي الذهاب، لكني كنت أجد دائمًا ذريعة لأي سبب من الأسباب، لعدم الذهاب. لم يحدث قط أن التقيت بها شخصياً، وهو الشيء الذي كنت أفكر فيه كثيرًا وندمت عليه بعد عدة عقود، حينما ألفت كتاباً عن سيرة حياتها. وبينما كنت أمعن النظر في عدة مئات الآلاف من الصفحات التي كتبتها عن نفسها أو أقرأ مراسلاتها الضخمة، رأيت مرارًا كيف اضطرت أنايس نين لغربلة كل حدث في الشأن العام في جميع أنحاء العالم من خلال مصفاتها الخاصة ووضع نفسها في قلب تلك الأحداث على الرغم من عدم وجود صله لها بتلك الأحداث. وقد اكتشفت أن ما كتبته عن بيكيت هو إصرارها على أنها كانت أول أمريكية اعترفت بعبقرية الشخص الذي كتب مسرحية في انتظار غودو وأنها فعلت الكثير لتعزيز سمعته بين الأميركيين ذوي النفوذ. كنت أفكر في هذا الأمر في كل يوم تقريبًا عندما بدأت أكتب عنها في تسعينيات القرن العشرين، ولكن حين كان عام 1976 يغذ الخطى بثبات نحو عام 1977، كان فكري مشغولاً بمكان آخر.

لم يتسنَّ لي أن أقابل بيكيت منذ فترة طويلة، لكننا كنا نتبادل الرسائل بانتظام. كانت غايتي من كتابة الرسائل إليه، هو إخباره بالمراحل التي وصلت إليها عملية تأليف الكتاب؛ وكانت ردوده عادة تشير إلى آخر نشاطاته الأدبية. كان أحياناً يدلي ببعض الملاحظات في رسائله الجوابية عندما أخبره عن أصدقائه الذين رأيتهم، لكنه لم يسأل حينها بشكل مباشر عن موعد الانتهاء من كتاب السيرة بعد أن مرت السنة بسرعة ولم يكن لدي ناشر له. لم أكن قد أخبرت أحداً بالأمر باستثناء عائلتي وعدد قليل من الأصدقاء الموثوق بهم، لأنني كنت خائفة جدًا مما قد يفعله بيكيت إذا اكتشف ذلك.

في تشرين الأول، ذهب آلان شنايدر إلى برلين ليحضر عروض مسرحيتي بيكيت وقع الأقدام وهذه المرة اللتين كانتا تقدمان على خشبة مسرح شيلر، وفي ليلة العرض الافتتاحي سافر إلى لندن مع بيكيت لمشاهدته وهو يخرج عملاً تلفزيونيًا. أخبرني آلان أن بيكيت استجوبه مطولاً عن كتابي، لكنه لم يسأله عن أي شيء يتعلق بي شخصياً. وقال لي آلان إن بيكيت لم يخرج من الفندق ولم ير أحداً. كما قال إن بيكيت كان مكتئباً للغاية وأخبره أن سوزان مريضة، وأن الجميع يموتون، وكان هو نفسه مشغولاً عمومًا بفكرة الموت. الشيء الوحيد الذي بدا أنه يرضيه ويثير حماسه، حسب آلان، هو أنه كان يعلم أنني أتوقع نشر الكتاب في عام 1977. كنت سعيدة لأننا كنا نتحدث عبر الهاتف حتى لا يتمكن آلان من رؤية وجهي. كنت متوترة للغاية رغم فرحي بسماع خبر أن بيكيت يشعر بالسعادة، لأنني ما زلت لا أملك ناشرًا للكتاب. كان عندي في ذلك الوقت على الأقل موعد مع جامعة بنسلفانيا وكان منصبي كأستاذ مساعد قد تأكد رسمياً لأن يكون وظيفة دائمة. ومع ذلك، كانت بيئة العمل مرهقة، حيث كان زملائي الجدد يسألونني بشكل متكرر عن حالة الكتاب. لا أعرف كيف كنت أتمكن من الابتسام وأقول لهم إن كل شيء يسير بسلاسة، مع أن هذا لم يكن صحيحًا.

وهكذا، عدت إلى كارل براندت، وطلبت معلومات حول ما كان يجري. أخبرني أنه في تموز الماضي قدم الكتاب إلى محررة كانت «محبوبة للجميع» وكان متأكدًا من أنها كانت تقرأه بعناية. لقد اعتقدت أنها لا بد أن تنجز شيئاً بخصوصه في شهر تشرين الثاني. كانت فترة أربعة أشهر وقتًا كافيًا بالتأكيد لمعرفة ما إذا كانت ترغب في الحصول عليه. في نهاية شهر تشرين الأول، اتصل كارل هاتفياً بمكتبي في جامعة بنسلفانيا ليقول لي إنها دعتنا لتناول الغداء في اليوم التالي في مطعم فخم للغاية في نيويورك. كنت مستاءة نوعاً ما من الطريقة التي أمرني بها بالحضور في الوقت المحدد وكيف يجب أن يكون مظهري الخارجي وطريقة تصرفي، قلت مع نفسي لا يهم: المهم أننا نحرز تقدمًا.

يا لها من خيبة! «*نظرت إليّ من فوق إلى تحت وكانت مهتمة بملابسي أكثر من كتابي: بدأت مع سترتي التي قالت عنها إنها من نسيج صوفي غير*

عادي وسألتني من أين اشتريتها؟ وهل وشاحي من متاجر هيرميس؟ ثم بدأت تتكلم – وهي تنظر إليّ من فوق إلى تحت: لتقول إنها غير متأكدة من أنني كاتبة جيدة بما يكفي لنجاح الكتاب ولكن كان لديها مساعد حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة ييل، وسيسعده أن يحرره لمصلحتي» كنت أغلي من الغضب لكني لم أقل شيئاً، بقيت جالسة في مكاني وأحدّق في طاولتي. قبل أن ينفجر غضبي، تدخل كارل –وشكرها، وقال إننا نقدرها كثيراً، وهرع بي لنغادر المكان. كنت أعلم أنه كان غاضباً مثلي لأنه ترك كأسه الثالثة من شراب المارتيني من دون أن يمسها. كان يريد أن نتحدث أكثر في مكتبه، لكنني رفضت وقلت له: «لا أريد سوى أن تعيد لي المخطوطة. أنا لا أريد أن أراها مرة أخرى أبداً».

وفقًا لما قاله كارل، كانت هذه هي المرة الأولى منذ فترة طويلة جداً التي اعتقدت فيها أنه يتصرف بشكل يثير الإعجاب، حين أخبرني بشيء مثل «إنه طريقنا أنت وأنا، يا طفلتي. وسنسير فيه معاً. لقد ألفت كتابا جيدًا وسيكون لديك ناشر جيد». لم أقل شيئاً وتركته يقف هناك. لم أستطع تحمل الحديث معه خوفًا مما قد أقوله حول الطريقة التي كان يعاملني بها. من الواضح أنني كنت لا أزال تلك الفتاة المطيعة التي لا ترغب في الإساءة إلى الرجل الذي كان يعرف أفضل منها.

لم أكن أعرف كم من الوقت يمكنني الاستمرار في تحمل هذا الرفض إذا بقي حظي سيئاً هكذا، بعد أسبوعين، في العاشر من تشرين الثاني، اتصل كارل بي فرحاً. لقد أعطى المخطوطة لتوم ستيوارت، وهو محرر شاب كان يعمل في دار نشر هاركورت بريس يوفانوفيتش، التي طلبت مبلغاً كبيراً من أجل نشره. قال كارل، «هذا الكتاب سيصنع لك سمعة، لكنه لن يحقق لك ثروة». أخبرني أن ما عرضه كان أقل بكثير من المبلغ الزهيد الذي تلقيته من دار نشر هاربر ماغازين، و«سنحاول إقناع دار نشر هابر ورو بأنك عانيت بما فيه الكفاية ويجب ألا تضطري إلى سداده، لكن الوضع لا يبشر بخير». لم توافق دار النشر، وقد تعيّن عليّ سداد المبلغ لها. في تلك المرحلة لم أهتم. كان لدي محرر متحمس، وناشر جديد ممتاز، ومن المحتمل أن يصدر الكتاب في عام 1977. هل بقي هناك شيء يعيق نشره؟

الفصل الرابع والعشرون

عند الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الثامن والعشرين من شباط 1977، كتبت الكلمات الأخيرة لكتابي صامويل بيكيت: سيرة حياة، الكتاب الذي بدأت في كتابته في 17 تشرين الثاني 1971. بدأت أبكي وأضحك بالتناوب في نوبات من الهستيريا، لقد كتبت الكلمات الأخيرة. يا له من شعور غريب أنني قد انتهيت منه أخيراً. الآن جاء دور الجزء الذي يثير القلق: الانتظار.

لقد كان من دواعي سروري الشديد العمل مع توم ستيوارت، والآن بات الجميع من العاملين في أقسام التحرير إلى السكرتارية إلى المبيعات في دار النشر التي سيصدر عنها كتابي يعبرون لي عن ردود فعلهم الإيجابية التي غمروني بها. لم يبخل القائمون على دار النشر على إصدار كتاب جميل. استعان المدير الفني، هاريس ليفين، بمصمم الغرافيك الشهير ميلون غلاسر لرسم صورة جانبية لبيكيت وهو يرتدي السترة، وقررا أن المكان الوحيد المناسب للرسم هو «عند أحد جدران الماخور المفضل لهنري ميلر في باريس) وعلى هذا الأساس توجها إلى باريس! تم التعاقد مع المصور جيري باور لالتقاط صورة لي، الأمر الذي أبهجني لأنه قام أيضًا بتصوير بيكيت. لم أكن سعيدة عندما أخبرني بأنني موديل جيد ولكن لا يزال ينقصني أن أخسر عشرة أرطال، ويجب أن أكون سعيدة لأنه قام بإزالة جميع التجاعيد في وجهي. ومع ذلك، يبدو أنه أصبح بإمكاني أن أرتاح أخيراً وأستمتع بتجربة صدور أول كتاب لي: أناقش شكل الغلاف الخارجي، وأجلس أمام المصور حتى يلتقط صورة للمؤلف، والسماح بإرسال نسخ عديدة من الكتاب إلى نادي الكتاب والنقاد لمراجعته، كان كل شيء مثيرًا للغاية.

ولكن كانت هناك ملاحظات من جهة أخرى كانت أقل تفاؤلاً: قرر محامو الناشر أن الوقت قد حان لفحص المخطوطة، وقالوا إن عليّ الحصول على إذن كتابي من بيكيت لكل اقتباس قمت به من رسائله أو من مخطوطاته غير المنشورة. ألقى ذلك بي في حالة من الذعر.

تذكرت كيف اتفقت مع بيكيت في الأصل على القواعد الأساسية للمشروع، وتعجبت من الظروف غير العادية التي منحني فيها حرية الكتابة عنه. لقد تعرفت على عدد لا بأس به من كتاب السيرة وكونت صداقات جيدة معهم وجمعتنا معًا ما كنا نسميه «جلسات التذمر والشكوى». لقد استمعت بصمت إلى قصصهم المرعبة عن القيود والعراقيل التي وضعها الأشخاص الذين كانوا يكتبون سيرتهم أو ورثتهم أو منفذو وصياتهم الذين كانوا يصرون على إعاقة النشر إن لم يكن وقفه فعلياً، وقلت كل ذلك لمجموعة محامي دار نشر هاركورت بريس جوفانوفيتش، شخصيًا وعن طريق عدة رسائل، حيث ناشدتهم عدم دفعي إلى أن أطلب من بيكيت أن يفعل أي شيء قد يجعله يسحب تعاونه. أخبرتهم أنه قد يجد طلبي مهينًا، كما لو كنت أشكك في نزاهته، وأنه قد يستاء من مطالبته بوضع موافقته الشفهية بشكل مكتوب. وفي إحدى المرات اندفعت قائلة إنه «قد يخبرنا جميعًا أن نذهب إلى الجحيم، ثم ماذا نفعل؟ هل أقضي عامين آخرين في إعادة كتابة هذا الكتاب واخترع قصة حياته؟» لم يتأثر المحامون بكلامي وقالوا لي أن أكتب الرسالة.

كنت أعتقد أن ذلك كان أسوأ توقيت ممكن لفعل شيء من هذا القبيل، لأنني تلقيت للتو ردًا موجزًا من بيكيت على رسالتي التي أخبرته فيها أنني قد غيرت الناشر وأنني أتوقع الآن أن ينشر الكتاب بحلول نهاية عام 1977. كان رده على هذا الخبر لا يلزمه بشيء، على غرار «هذا جميل، حظًا سعيدًا»، لكنه استمر في الإفصاح بشكل غير عادي عن فيض من المعلومات الشخصية. قال إنه كان يعاني من هذا الشتاء الصعب. أراد أن يقضي كانون الثاني وشباط بهدوء في بلدة أوسي، لكن تم اقتحام منزله الصغير وتمت سرقته للمرة الثالثة، وهو الآن متردد في الذهاب إلى هناك. أخذ اللصوص معهم آلته الكاتبة وعدة لعبة الشطرنج ومعدات المطبخ، وكما فعلوا في المناسبتين السابقتين، تركوا جميع كتبه وأوراقه ومخطوطاته، متناثرة في جميع أنحاء

الغرفة الرئيسية. وبروح الدعابة المميزة التي يمتلكها، التي تحمل الشماتة بهم بالتأكيد، هنأ اللصوص على حكمتهم في اختيار ما لا يستحق.

لقد كان بيكيت متبسطاً في حديثه للغاية، كما علمت من كون ليفنثال وماريون لي عندما جاءا إلى نيويورك مجدداً واجتمعنا لتناول طعام الغداء. قالا إنه أخبرهما أنه يشعر بأن حرمة بيته قد انتهكت وكان تعيساً بسبب سرقة رقعة الشطرنج على وجه الخصوص، التي كان يحبها بشكل خاص. وأخبر آلان شنايدر وبارني روسي أنه مكتئب جدًا لدرجة أنه لا يعرف ما إذا كان يمكنه المشاركة في أي نشاط مرتبط بعمله مرة أخرى، ناهيك عن محاولة تأليف أي شيء جديد.

بعدا أن عرفت كل هذه المعلومات المؤلمة، شرعت في كتابة رسالة تشرح الموقف، وكيف أنها لم تكن فكرتي ولكن فكرة المحامين الذين أرادوا أن يضع توقيعه بالأحرف الأولى على كل اقتباس مطبوع أردت استخدامه. أخبرته أنني ما زلت أحترم كلماته الأولى، لكن الوضع القانوني في الولايات المتحدة كان خارجاً عن إرادتي بالكامل. لقد اعتذرت عن تكليفه بعمل لا لزوم له وشرعت في كتابة الاقتباسات، كانت ثلاثاً وعشرين صفحة من دون فراغات بين سطورها.

أرسلتها في أوائل شباط، وبعد أسبوع تلقيت رده. كان دافئًا ومهذبًا لدرجة أنني اضطررت لقراءته عدة مرات، وتشوش بصري بسبب الدموع التي ملأت عينيّ. لقد وقع بالأحرف الأولى على كل اقتباس باستثناء واحد، وهو قصيدة كتبها عندما كان طالبًا في مدرسة بورتورا الملكية وفي الثانية عشرة من عمره. قال إنها «تظهر اجتهادك كباحثة أفضل من تطوري ككاتب». لقد قابلت العديد من الأشخاص المحترمين طوال حياتي المهنية الطويلة، ولكن لم يكن هناك شخص قط تكافئ نزاهته ما كان يحمل صامويل بيكيت. كان يلتزم بكلمته فعلاً.

على حين غرة انتهى فصل الصيف، وعلى الرغم من أن كل شيء كان يسير بسلاسة نحو نشر الكتاب، إلا أن الوقت المتبقي لإصداره في الخريف كان ضيقًا جدًا، لذلك تم اتخاذ قرار لأغراض تجارية بتأجيل نشر الكتاب

إلى ربيع عام 1978. ومن أجل الترويج له، تم إعداد الإعلانات الخاصة به لتوزيعها على الصحف، وقد حصلت على مجموعة كبيرة منها لأخذها معي إلى مؤتمر جمعية اللغة الحديثة (جمعية اختصاصية مرتبطة بالبحث اللغوي والأدبي في الولايات المتحدة الأمريكية. -م) الذي كان سيعقد في نيويورك في شهر كانون الأول.

كنت أتطلع إلى حضور الجلسة التي تناقش أعمال بيكيت لأن اثنين ممن اعتبرهم أفضل الباحثين والنقاد البريطانيين، وهما جون بيلينغ وجون فليتشر، كان من المقرر أن يقدما فيها بحوثهما، كما أن العديد من المتخصصين بأعمال بيكيت من الباحثين الأمريكان كانوا من ضمن المشاركين في المؤتمر. والأهم من ذلك أن جيمس نيلسون، الأستاذ في جامعة ريدينغ في إنجلترا قام بالتعاون مع بيكيت في إنشاء أرشيف مهم للمخطوطات والمواد ذات الصلة، وقام مع الناقد جون بيلينغ، بإصدار مجلة متخصصة بالدراسات التي تتناول أعمال بيكيت (وكانت تعرف في الأوساط الأكاديمية بالأحرف الأولى لها JOBS)- Journal of Beckett Studies)، كان هو المتحدث الرئيسي في المؤتمر. كنت حريصة على إعطائه نسخة من الإعلان عن صدور الكتاب ومناقشة نشر جزء من كتاب السيرة في المجلة. بعد أربعة عقود، بينما كنت أستعد للكتابة هنا عما حدث حينها، كانت التجربة لا تزال تؤلمني كثيراً ومازال ذكرها أمراً شاقاً بالنسبة إليّ لدرجة أنني اخترت القيام بذلك من خلال اقتباس ما كتبته في مذكراتي آنذاك.

«قابلت في هذا المؤتمر عدداً من النقاد والباحثين كان من بينهم دوغالد ماكميلان، وإينوك براتر، وبورتر أبوت، وكالفين إسرائيل، وديفيد هايمان، وستة على الأقل من الوشاة المتملقين الذين كانوا لا يفعلون سوى أن يضحكوا مني ويلاحقوني بنظراتهم. كان الكاتب جون أوهارا قد نفش ريشه متفاخراً لأنه دعي للحديث ونشرت مقالات عنه في صحيفة نيويورك تايمز وحصل على نسخة من كتابي قبل نشره. كان الآخرون جميعاً يريدون رؤية نسخة الكتاب ولكني خمنت أنه لن يريه لهم. قال لي الناقد الأدبي دوغالد ماكميلان إنه «يعرف جيدًا كم أنا سافلة وكيف أفسدت كل ما عمله

بيكيت بدأب ومثابرة». انضم إلى حديثنا العديد من النقاد الآخرين معربين عن رفضهم لما قاله، أما أنا فقد رددت عليه قائلة على أي حال أنا لست بالسافلة، والكتاب ليس بتلك القيمة فلا تضيع وقتك في الحديث عنه معي. حدثني الآخرون ولعابهم يسيل إلى أبعد حد كيف سيقومون بمراجعته ولكن النتيجة كانت سلبية. فقد قال كالفن إسرائيل: رغم أني كنت أكتب «تحفة أدبية» عن بيكيت ولكن «سام» لم يخبرني قط بأي شيء شخصي، لذلك سألني بنظرة خبيثة للغاية عن الذي توجب عليّ فعله لحمله على أن يفتح لي خزانة أسراره. تعالت أصوات ضحكات عالية من كل مكان عندما قال ذلك، رافقتها الكثير من غمزات العيون واللكمات في كوعي. لذلك كان من الطبيعي أن يكرر الأمر عدة مرات لأجل إثارة المزيد من الضحك والقهقهات. ثم أخبر مجموعة الحاضرين ما حدث عندما ثملا معاً في زيارته الأخيرة إلى باريس، فقد أخبره «سام» أنه يندم على لقائي. المصيبة هي: أنني كنت أعرف أن «سام» لم يكن في باريس في ذلك الوقت بالذات – لقد كان في طريقه من برلين إلى لندن!».

وأثناء حدوث كل هذا، كان جيمس نولسون يقف منتصباً بثبات على الجانب الآخر من الغرفة يتهامس مع جون كالدر. استطعت أن أرى أنه استدار جانباً بما يكفي لمراقبة كل ما يحدث من حولي. من الواضح أنه لم يكن ليتحدث معي إلا إذا ذهبت إليه – كنت أعلم أنه كان من المتوقع أن أقدم له شديد الاحترام – لذلك انفصلت عن مجموعة الأشخاص العدائيين ومشيت نحوه سلمت على كالدر بحرارة، لأنه كان سخياً في وقته معي حينما قابلته في لندن، لكن هذه المرة غمغم بما يكفي ليقول كلمة أهلاً وسرعان ما غادر كما لو أنه خائف أن تصيبه عدوى من مرض أحمله.

ساد الصمت الكامل الغرفة عندما بقيت وحدي مع نولسون. لقد شعرت أن الجميع كانوا يراقبوننا ويجهدون لسماع حديثنا. عندما عرفت بنفسي، كان يتحرك بالفعل جانباً للابتعاد عني، لكنني وضعت نفسي أمامه تمامًا فلم يستطع أن يتحاشاني. قال لي إنه لا يمكن رؤيته وهو يتحدث معي، لذلك فإن من الأفضل بالنسبة إليّ أن أغادر. وقفت لمدة طويلة جدًا كي أمنعه من الابتعاد عني وحدّقت فيه بشدة. فكرت في إخباره كم يحمل من تصرفات

صبيانية هو وكل شخص آخر كان موجوداً هناك، لكن بدلاً من ذلك، وبدون أن أقول كلمة واحدة، استدرت وتوجهت نحو باب الخروج.

وأنا في طريقي إلى مغادرة القاعة، كان الأستاذ فريد م. روبنسون يقف مختبئًا في الردهة. همس لي حين مررت من أمامه، «إذاً أنت الفتاة الصغيرة التي ارتكبت الخطيئة وهربت» لم أقل شيئاً وهززت رأسي فقط وواصلت المشي. كل ما استطعت أن أفكر فيه هو الدائرة السابعة في جحيم دانتي (ملحمة الكوميديا الإلهية التي ألفها دانتي أليغيري – م)، حيث يغرق الخطاة في مستنقع نهر ستيكس، تملأهم مشاعر الغضب والغيرة حيث يغرزون أسنانهم في أجسادهم وبعضهم في أجساد بعض في حالة من الغضب والإحباط.

كان معي اثنتان من زميلاتي في جامعة بنسلفانيا، وكانتا أستاذتين في المجالات التي يهيمن عليها الرجال وكانتا تعانيان من نفس مشاعر العداء والإهانة. كانتا غاضبتين، وحانقتين وممتعضتين. طلبتا مني معرفة ما سأفعله حيال ذلك وأرادتا مني أن أعود إلى تلك القاعة وأن أواجه كل أولئك الرجال. ومع ذلك، كنت عكس ذلك تمامًا – باردة الأعصاب، لامبالية، وأريد أن أنأى بنفسي عن كل ذلك. أستطيع أن أتذكر الإحساس بالابتعاد عن كل ما حدث حينها، وكيف كنت مصدومة من الهجوم الذي تعرضت له. ومع ذلك، بعد كل هذه السنوات، لا أستطيع أن أشرح كيف أو لماذا – لم أفعل شيئاً سوى أن أترك كل تلك الإهانات والتلميحات. كان جزء مني يفترض أن السبب في ذلك يعود إلى أنه كانت لدي ثقة بما كتبته لدرجة أنني كنت متأكدة من أنه لا يوجد شخص ذو تفكير سليم لا يقدر قيمته إلا إذا لم يكن موضوعياً. ولكن كان هناك سبب آخر بالتأكيد وهو الوعي الذي تنامى عندي عقب إجرائي عدداً من الأحاديث مع صديقاتي النسويات، والاستماع إلى كل تلك المحادثات وحضور جميع التجمعات بقيادة زعيمات الحركة النسوية. لطالما كنت أثق بغرائزي كصحفية وكنت على استعداد للقيام بذلك الآن بعد أن كنت باحثة. كل شيء تواطأ ضدي ليعلمني أن أؤمن بنفسي وأحكامي، وأفترض أن هذا هو السبب في أنني تمكنت من تجاهل أولئك البيكيتيين.

خرجت النسخ الأولى من الكتاب من المطبعة في أوائل أيار 1978. احتفظت بنسخة واحدة لنفسي وأرسلت نسخة إلى بيكيت. وكما هي العادة دائماً، أجابني بسرعة بعد أن شكرني على ذلك، وكتب يقول، «يبدو أنه كتاب أنيق للغاية». ادعى أنه لم يسبق له قط أن قرأ أي شيء مكتوب عن نفسه، لذلك أقنعت نفسي بأن حقيقة أنه لم يكن غاضبًا أو مستاءً كان بحد ذاته نجاحًا. شعرت بالارتياح عندما لم يسأل عن خطط سفري المستقبلية، حيث لم يكن عندي أي شيء يجعلني أعود إلى باريس في أي وقت قريب.

صدرالكتاب في حزيران، لكن المراجعات الرئيسية له لم تنشر في الوقت المناسب، والأسوأ من ذلك أنها مهدت الطريق لشن حملات عداء لا هوادة فيها تضمنتها كل مراجعة لاحقة كتبها البيكيتيون. أخطأ الكاتب جون أوهارا في كتابة النص الترويجي للكتاب على غلافه الأخير، لذلك رفضه هارفي شابيرو، رئيس التحرير الجديد للملحق الأدبي لصحيفة نيويورك تايمز الخاص بمراجعات الكتب، وكلف الناقد البريطاني جون ستوروك بكتابته. وقد تأخر كثيراً في إرساله لأن شابيرو كان لديه مراسل صحفي في لندن يدفع مبلغاً من المال إلى إحدى المضيفات لتحمله معها إلى نيويورك، حيث يأخذه منها صحفي آخر وينشره. ظهر النص في أسوأ وقت ممكن، في الطبعة التي صدرت في الرابع من تموز. وصفني ستوروك، الذي لم ألتق به من قبل ولم يرَني شخصيًا قط، (بالمتفائلة) و«تمتلك مرونة تحسد عليها*» حين كان يشير إلى «ست سنوات مفرطة في النشاط» قضيتها «في السعي وراء» بيكيت. أما وجهة نظر الناقد الكندي هيو كينر فقد كانت نقداً مليئاً بالشتائم وغير واضح وسخيفاً نشرته مجلة ساترداي ريفيو. بعثت الكاتبة روبي كون رسالة إلى الناقد الأدبي ريتشارد إلمان أشادت فيها بالهجوم الذي شنه على الكتاب في مراجعته التي نشرتها مجلة ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس، وتوسع هذا المديح ليشمل جميع البيكيتيين الآخرين الذين هاجموا الكتاب. ثم هاجمها إلمان بدوره، منتقداً محاولتها أن تنسب إليّ كل الأخطاء الموجودة في الكتاب. كتب إلمان في مراجعته، أنني تمكنت من «الحصول على سبق صحفي في التاريخ الأدبي مثل الذي قام به الصحفيان برنستيين وبوب ودوارد في التاريخ السياسي». وقال إنني (اكتشفت «في ميدان

الرمي... بطة كبيرة، أو علجوم بط يدعى بيكيت [و] استهدفته ونالت منه»، مصراً (زوراً وبهتاناً) على أنني «كنت أكتب الرسائل الواحدة بعد الأخرى» لإقناع بيكيت بالتعاون معي. كان تلميحه هذا مشابهاً تماماً لما قاله ستوروك، عن أنني كنت أتصل بالعديد من الصحفيين الذين كانوا يجرون المقابلات معي فقط لأجل أن أصبح مشهورة. ربما تم التعبير عن الأمر بشكل أفضل من قبل الكاتبة الراحلة ماري بول في مجلة هامدين كرونكيل الأسبوعية التي تصدر في ولاية كونيتيكت، عندما سألت بشكل مباشر كما سأل بكل أريحية كل ناقد ومحاور من مدينة بورتلاند في ولاية مين، إلى مدينة بورتلاند في ولاية أوريغون، «كم مرة توجب عليك أن تنامي مع بيكيت حتى حصلت على مثل هذا السبق؟» يبدو أن المرأة برأيهم لا تمتلك دماغاً، بل عضواً تناسلياً فقط. (يؤسفني أن أقول إنه في عام 2017، قام صديق للكاتب جان هيرمان بالطلب منه أن «يسألني عن عدد المرات التي اضطررت فيها للنوم مع بيكيت لجعله يتعاون معي. حينما سمعت ذلك تنهدت وسألت نفسي، ألم يتغير أي شيء منذ ذلك الوقت؟ - ملاحظة المؤلفة)

حتى مديرة مدرسة ابنتي أبدت وجهة نظرها عندما صدر الكتاب، ملوحة بنسخة من المجلة التي نشرت مراجعة إلمان لها خلال ساعة الغداء وأمام جميع صديقات ابنتي، قائلة: «يا للدهشة، ولكن هل إن والدتك قامت فعلاً بذلك!» يمكنك أن تتخيل حالة تلك الفتاة البالغة من العمر ستة عشر عامًا عندما عادت إلى المنزل في تلك الليلة وهي تبكي. كان كارل براندت، الذي لم يكن على رأس قائمتي للرجال الذين يعاملون النساء على قدم المساواة، هو من منحني رد الفعل المريح والإيجابي الوحيد عندما قال إنه «لا يستطيع أن يفهم ما هو مصدر كل هذا الغضب الذكوري من امرأة واحدة. هؤلاء الناس مجانين حقاً».

أقنعني رد الفعل المثير للدهشة، الذي كان محزنًا في كثير من الأحيان، بأن كتابي الأول هذا سيكون كتاب السيرة الوحيد الذي سأكتبه. أخبرني أستاذ في قسمي في جامعة بنسلفانيا بأنني كنت «*مندفعة للغاية وطموحة بشكل مفرط من أجل كتابة هذا الكتاب. ألا تعتقدين أنك تجاوزت حدودك كامرأة؟*» كتب عضو آخر في قسمي مراجعة للكتاب في مجلة خريجي

الجامعة – وهو المطبوع الذي يكتب فيه الخريجون من نفس دفعتي، والذي يقرأه جميع زملائي أيام الدراسة – يهاجم فيها الكتاب: «أنا لا أحب بيكيت ولا أعتقد أنه يستحق مثل هذا الكتاب الضخم». كان الجميع يحدقون بي في اجتماعات هيئة التدريس، لكن القليل من الأساتذة كانوا يتحدثون معي مباشرة، على عكس الطالب الذي أوقفني في الردهة للسؤال، «ألم يسبق لي أن عرفتك؟» قلت له كلا وأنا أرتعد من الغضب واستمررت في المشي. وكان أكثر من جعلني أشعر بخيبة الأمل من بين الجميع هي تلك المرأة التي لم تكن تحمل مؤهلاً أكاديمياً، والتي كنت أسمعها تقول مرارًا، «إنها لم تحقق إنجازاً كبيراً، فهي مجرد كاتبة سيرة». اصطحبني زميلان في قسم آخر فزعا من الطريقة التي عاملوني بها في قسمي لتناول الغداء والاحتفال بتناول زجاجة من النبيذ الجيد. لقد كانت مناسبة مفعمة بالحيوية، لكنهما كانا جادين للغاية عندما أخبراني، «إذا كنت تريد المضي قدمًا في مجالك الأكاديمي، فيجب أن يكون شعارك: نشر أشياء بسيطة أو الفناء. لا يمكنك كتابة سيرة حياة شخصية أخرى مثل بيكيت».

اضطررت للضحك. كيف يمكنني أخذ هذا الكلام على محمل الجد؟ لسوء الحظ لم آخذه على محمل الجد، وقد سبب لي ذلك الأذى. وقد شعرت بالخوف فعلاً عندما اضطررت إلى الاتصال برجال الأمن للتخلص من مطاردة أحد موظفي الجامعة لي فقد كان يلاحقني طالباً مني بكتابة بيان استنكار علني لبيكيت لأنه «ليس مسيحياً ولا يؤمن بالله». بالنسبة إلى كتاب باهظ الثمن تم بيعه جيدًا ولكن ليس إلى الحد الذي جعله أكثر الكتب مبيعًا، كان من المدهش كيف أن أشخاصاً من جميع الفئات صار لديهم شعور بأنهم ملزمون بطرح وجهة نظرهم عنه.

«رسائل المعجبين» (وهذا تناقض) كانت لا تعد ولا تحصى. كتب أستاذ في الجامعة الأمريكية ليقول إنه يأسف لغزو خصوصية بيكيت لكنه كان قد «قرأ الكتاب مرتين بالفعل وربما لا أستطيع منع نفسي من قراءته مرة أخرى»، وبعد ذلك «سيعد قائمة بآرائك المتعنتة». تساءلت في مذكراتي اليومية «*متعنتة؟ ماذا يعني بذلك بحق الجحيم!؟* ».

ومع ذلك، كان هناك العديد ممن راجعوا الكتاب قد فهموه وأدركوا

سبب أهميته. في إنجلترا أشاد به الكاتب أنتوني برجس، وأستاذ الأدب مات ثيو هودجارت، والناقد الأدبي كريستوفر ريكس - ونجحوا في تفنيد هجوم إلمان وأشباهه في نفس الوقت. لقد أثارني الروائي ويليام كينيدي بعمق مراجعته التي نشرها في صحيفة الواشنطن بوست، وقد احترمت للغاية ما قاله الكاتب بنيامين ديموت في مجلة أتلانتك الشهرية، من أنه يحب كتابي ولكن ليس أسلوب كتابي. أخبرني العالم البارز وأستاذ جامعة ستانفورد ألبرت جيرارد أن كتابي واحد من أهم كتب السيرة في جيلنا- وسيكون نقطة الانطلاق للأجيال القادمة من الدارسين. ردد المؤلف كليفتون فاديمان ما قاله جيرارد عندما كتب في نشرة نادي كتاب الشهر أن كتابي كان «عملية إنقاذ، حيث صور بيكيت بعيدًا عن عقائده وأمزجته». حسنًا، ربما فعل ذلك، لكن ليس تمامًا.

جاءني مديح من نوع آخر من أورهان باموك، الروائي التركي والفائز بجائزة نوبل. بعد عدة سنوات، عندما التقيت به في نيويورك، فقد أخبرني أنه اشترى نسخة من الكتاب في باريس، ولأنه محظور في تركيا، فقد حرص على تهريبه إلى البلاد. وقام بإعطائه إلى جميع أصدقائه الأدباء، الذين قرأوه بشغف لدرجة أنهم مزقوا الغلاف وتسببوا في اهتراء بعض صفحاته. في الوقت الذي أنهوا فيه جميعًا قراءتهم الخفية له، كانت صفحاته قد أصبحت مفككة من الغلاف إلى الغلاف. أخبرني أنها أكثر دراسة تناولت حياة وأعمال بيكيت نالت مثل هذا التقدير الكبير في بلاده وشكرني على كتابتها. لقد تأثرت بشدة لدرجة أنني اضطررت إلى الاستئذان منه والذهاب إلى الحمامات الخاصة بالنساء في المبنى لأهدئ من مشاعري.

لكن البيكيتيين لم يستسلوا، وخططوا لعقد ندوة ضخمة «لإنقاذ بيكيت من بير». كانوا من المشتبه بهم المعتادين، وهو الاسم الذي أطلقته على جميع أولئك الذين هرعوا إلى إنقاذه من (حسب تعبير كالفن إسرائيل) «همجية بير»، تأكدوا من أنني أعرف كل شيء عن الندوة، وأنني أعرف أنني غير مدعوة. بالإضافة إلى تلك المجموعة الصغيرة المتشددة، حضر عدد قليل جدًا من الباحثين الحقيقيين. لا أعتقد أن الوقت قد تجاوز العشر دقائق عندما رن الهاتف لأول مرة وكان «الأصدقاء» على الهاتف الذين أرادوا

إخباري بذلك: «كان كل النقاش اللعين يدور حول «كتاب السيرة» (كان الكتاب الوحيد الذي لم يكتبه صامويل بيكيت المعروض للبيع هناك). يبدو أن جميع الحاضرين أرادوا معرفة رأي «المتخصصين» في ذلك. دافع الناشر بارني روسيه عنه بينما سخر منه البقية. قلت مع نفسي إنني يجب أن أتأكد من صحة المصادر».

نعم، كان يجب أن أتجاهل كل شيء كما فعلت من قبل، وأمضي قدماً. بدلاً من ذلك، تعرضت لانهيار بسيط. لقد أوقفت جميع نشاطاتي - فرص الإعلان عن الكتاب، وعروض لكتابة المقالات عنه (رغم أني كنت بحاجة إلى المال)، ودعوات لحضور حفلات ممتعة، والأكثر من ذلك تركت عائلتي والأصدقاء والمنزل. ذهبت إلى منزل أخي في مدينة سان دييغو، أمارس المشي عند شاطئ ديل مار، وأقضي وقتي بين الفقمات والبكاء.

في صباح أحد الأيام القاتمة، بعد أسبوعين من «الاكتئاب الخلاق» حسب تعبير العالم النفسي كارل يونغ، الذي أفسح فيه المجال لكل تغير عاطفي شعرت به أن يتلاشى من تلقاء نفسه، شاهدت إحدى الفقمات الأمّات وهي تحرس جرويها وفجأة صرخت بصوت قوي مذهل أنني أحتاج أن أعود إلى المنزل والاستمرار في حياتي. أصدرت الفقمة الأم شخيراً عالياً كرد لصرختي وبدأت تتمايل مع طفليها بينما كنت أتحدث معها، لأخبرها أن الطفلين سيعودان إلى المنزل من المخيم الصيفي وعائلتي بحاجة إلي ويريدونني في المنزل، وهو ما كان يخبرني به زوجي يوميًا خلال أحاديثنا الهاتفية. ولكن حاجتي إليهم كانت هي الأكبر.

غمرني شعور بالخجل بسبب اعتقادي أن هروبي كان أنانية مني، وشعرت أنني بحاجة إلى أن أكفّر عن ذنبي. لكن... ألم يكن لدي أيضاً التزام تجاه نفسي؟ وإذا لم يكن عقلي في رأسي، فهل يمكنني أن أكون مفيدة لأي شخص آخر؟ انتصرت غريزة العاطفة على العقل - كنت أحب زوجي وطفليّ، وبكل بساطة، أردت أن أراهم. قمت بإهداء الكتاب إلى زوجي فون، «الذي تقاسم أعباءه معي»، وإلى طفليّ كاتني وفون سكوت، «اللذين كبرا معه». وكان يجب أن أضيف، «إلى الثلاثة الذين أحبهم حباً جماً والذين كانوا أقوياء بما يكفي لكي يرى الكتاب النور».

في ذلك الصباح، عندما اخترقت الشمس الضباب وغشاوة الصباح في وقت مبكر عن المعتاد وتوجهت صديقاتي الفقمات نحو أمواج البحر، جلست على صخرة أتحدث مع نفسي. قلت لنفسي إنني كتبت أفضل كتاب يمكنني تأليفه، وليس لدي ما أخجل منه أو أعتذر عنه. سأرفع رأسي عالياً ولن أدع مجموعة من التافهين الحاقدين يقولون لي خلاف ذلك. عدت إلى منزل أخي، وغيّرت حجزي، وحجزت الرحلة الأخيرة في ذلك اليوم، وعدت إلى المنزل وقررت مواجهة التحديات، وكل أنواع الكراهية والعداوات والأخطاء، وهذا ما اتضح أنه يمثل ميزاتي الشخصية.

الفصل الخامس والعشرون

فتحت المدارس أبوابها في أيلول 1978، وكنت للسنة الثالثة على التوالي أستقل صباح كل يوم ثلاثاء القطار المحلي من نيو هافن إلى فيلادلفيا ثم أعود في ليلة الخميس. عندما أتصفح مذكراتي اليومية في الأشهر القليلة الأولى، لا أرى سوى جمل غير مترابطة، معظمها عن جميع المسؤوليات المهنية التي يجب عليّ القيام بها لكني لا أتمكن من تحقيقها. قلت لمحرري مراجعات الكتب والمجلات كذبة صريحة، أن جدول أعمالي كان ممتلئًا لدرجة أنني لا أستطيع قبول عمل جديد. تبادلنا المزاح أنا وأخي بالقول إنني حين كنت في الثالثة من عمري وكنت حينها أكبر طفل في العائلة، كانت من النعم (أو اللعنات) التي أصابتني أنني كنت أشعر بإحساس عال بالمسؤولية، لكن في هذه الفترة المشوشة أصبحت غير مبالية لدرجة أنني لم أعد أهتم بأنني أتنصل من التزام تلو الآخر. كان من بنود عقدي مع دار نشر هاركورت بريس جوفانوفيتش (HBJ) أن لديهم الحق في رفض كتابي التالي، وقد حثني وكيلي على «حذفه» ما دمت في قمة توهجي. فلم أتفق معه، بسبب إصراري على أنني لن أكتب سيرة أخرى.

مر عام كامل، دون أن يكون في بالي هدف معين. لم أستطع التفكير في أي شيء أريد أن أكتبه، وفيما يتعلق بكتابة السيرة، كنت مصرة على أنني لن أضع نفسي أو عائلتي مرة أخرى في نفس المواقف السابقة أبدًا! في الواقع، وجدت أنه من المستحيل أن أكتب أي شيء عدا قائمة مشترياتي من محلات البقالة. غالبًا ما كنت أقوم بتدريس الطلبة من دون قراءة المادة جيدًا أو الإعداد بشكل جيد للمحاضرات. لم أكن أبذل جهداً كبيراً وكنت أعد الأيام في جامعة بنسلفانيا، لم أعر اهتماماً لحملات السخرية المستمرة،

واغتيابي، والأقاويل الباطلة بحقي ولم أدعها تؤثر في حياتي. كنت أغادر المنزل وأذهب إلى ولاية كونيتيكيت في عطلات نهاية الأسبوع الطويلة وكنت استمتع بالوجود هناك، ألعب مع الكلاب والقطط الشيرازية، وأطبخ وآكل، وعمومًا كنت لا أفعل أشياء كثيرة.

انتقلنا إلى فيلادلفيا في أيلول 1980، عندما حصل زوجي على منصب في متحف جامعة بنسلفانيا. لقد كانت خطوة غير سعيدة بالنسبة إلي، حيث اضطررت لترك منزلي اللطيف في وودبريدج، وقد رافقت تعاستي تلك تشنجات في الظهر أبقتني حبيسة الفراش وأخذت إجازة طبية في ذلك الفصل الدراسي. أخبرني الأطباء أن سبب نصف التشنجات التي شلت حركتي كان انحراف العمود الفقري جانبياً ولكن النصف الآخر كان نفسيًا وعلى الأرجح تفاقم بسبب ردود الأفعال المعادية التي أعقبت صدور كتابي.

في تلك الفترة، كان كارل براندت يتصل بي هاتفياً بشكل دوري يقترح فيها إجراء لقاءات مع المحررين لمناقشة الموضوعات المتعلقة بإصدار كتاب آخر. ظهر كونراد أيكن وآن سيكستون كمحررين محتملين، لكن أياً منهما لم يتشبث بي بقوة كافية لإخراجي من مزاجي الكئيب. ظننت أنني قد توقفت فعلاً عن التعامل مع هذا النوع من الجنس الأدبي (كتابة السيرة) إلى أن وجدت نفسي في أحد أيام شهر حزيران 1980، عندما وجدت نفسي في بوسطن مع زوجي، الذي كان يشارك في مؤتمر عقده المتحف الذي كان يعمل فيه. كنت في حاجة ماسة إلى قضاء إجازة وحريصة على تجنب اللقاءات والأحاديث، وهو ما اعتقدت أنه يمكنني تحقيقه من خلال قضاء عدة أيام وحيدة في مناطق على البحر مثل كيب آن، وروكبورت وماربلهيد، قبل بدء المؤتمر.

وكان لكارل خطط أخرى لوقت فراغي. لم أكن أعرف أنه كان يتلقى استفسارات من ديك ماكدونو، وهو محرر في دار نشر ليتل وبراون، الذي أراد أن يعرض عليّ عقدًا لكتابة سيرة حياة أي شخص يهمني على الإطلاق. قال كارل إنني سوف أحب ديك، وحتى لو لم أقم بتأليف كتاب له، فإنني سأحصل على مأدبة غداء على الأقل.

كان ديك من المعجبين بكتاب سيرة حياة بيكيت، وقد تجلى مدى جاذبيته العالية في اختياره مطعم ميزون روبرت الأنيق، الذي كان أحد أفضل المطاعم في بوسطن في ذلك الوقت. كان بعد ظهر ذلك اليوم من حزيران مذهلاً بطقسه، وقد حجز لنا طاولة على الشرفة. كان الطعام والنبيذ الممتازان المقترنان بالمحادثة الذكية قد فعلا فعل السحر، ولأول مرة منذ وقت طويل، كنت مرتاحة وسعيدة، وأضحك على النكات، وأتبادل المزاح، وأستمتع بكل المعلومات التي قالها عن عالم الناشرين. تهادت فترة ما بعد الظهيرة وسط غشاوة من السرور إلى أن فتح ديك كما هو متوقع موضوع كتابي التالي. وقال كل كلمات المديح بشكل رائع التي يمكن للمحرر الذي ينوي أن يتودد إلى كاتبة مترددة أن يقولها عن قدراتها. قال إنه سيقدم لي عقدًا للكتابة عن أي شخص أريده، لكن مرشحته الأولى كانت الكاتبة يودورا ويلتي، وبعدها، كان مقتنعاً بأنني أستطيع «تناول سيرة حياة أية شخصية إيرلندية أو حتى فرجينيا وولف». ظننت أنه يمزح إلى أن أدركت أنه كان جاداً للغاية، وقد ساد فترة ما بعد الظهر التوتر قليلاً عندما أخبرته مرارًا وتكرارًا أنني لن أكتب سيرة حياة أخرى. أخيرًا، وأعتقد أنه كان ساخطاً، تخلى عن الأمر وقبل قراري. أو هكذا اعتقدت، إلى أن جاءت اللحظة التي غيرت كل شيء.

وافق بالقول «حسناً»، وأتذكر أنه قال شيئًا على غرار «لكن دعينا نتأمل قليلاً فقط لغرض المتعة، إذا كنت ستكتبين سيرة حياة، فمن هي الشخصية التي ستختارينها؟ يمكنك اختيار أي شخص في العالم، حياً أو ميتاً، ولكن عليك أن تشرحي سبب اختيارك».

وهكذا قام كل واحد منّا بذكر عدد من الأسماء، كان معظمها غير ملائم للغاية، وغالباً ما تكون من تلك التي اشتهرت في تلك الفترة. بعد مرور خمس عشرة أو عشرين دقيقة، توقفت، وقلت إنه ليس لدي اسم ولكن لدي فكرة. «إذا كنت سأكتب سيرة حياة أخرى، فستكون عن امرأة نجحت في كل جانب من جوانب حياتها. وكان يتعين عليها أن تتمتع بحياة مهنية قوية، وحصلت على الاحترام والإعجاب، ولكن أكثر من ذلك، كان عليها أن تتمتع بحياة شخصية سعيدة وهانئة. وبما أنني لا أستطيع التفكير في وجود امرأة واحدة لديها كل هذه الصفات أعتقد أنني لن أكتب سيرة حياة أخرى».

وسط دهشتي لما قلته، ارتشفت كأساً من النبيذ بصوت مرتفع وكنت حتى تلك اللحظة أتناوله بصمت. تساءلت مع نفسي كيف قلت ذلك، وحين فكرت فيه لاحقًا عندما عدت إلى الفندق، لم يكن لدي أدنى شك في أنه كان مظهرًا من تجليات اللحظة الثقافية.

كانت حملة «التآلف معاً» التي قامت بها مجلة ماكولز النسائية الشهيرة عام 1957 ترنيمة تمجيد «للحياة المنزلية، حيث استخدمت صورة الوحدة الأسرية الكبيرة للتمويه على رسالة مفادها أن النساء يجب أن يبلعن المرّ من أجل تلك الحياة وأن يرضين بوضعهن كربات بيوت سعيدات. لم تعطِ الكثير من النساء هذه الرسالة سوى الأذان الصماء، وفسحت الطريق في عام 1963 لصدور كتاب اللغز الأنثوي الذي ألفته الكاتبة والناشطة النسوية الأمريكية بيتي فريدان، الذي جعل ربات البيوت، وخاصة من النساء اللائي لديهن تعليم جيد، أن يتساءلن، «هل هذا هو كل شيء في حياتنا؟» مثل معظم النسويات في مجموعات صداقاتي الصغيرة، كنت قد قرأت كتاب سيمون دي بوفوار الجنس الآخر في الكلية، لكنني لم أهتم به كثيرًا إلا بعد أن قرأت كتاب فريدان. ثم قرأت بوفوار مرة أخرى، هذه المرة بعناية أكبر وبتجربة حياة أغزر بكثير. أتذكر دهشتي من اطّلاعها الواسع النطاق على حياة النساء، لكن مثل معظم صديقاتي النسويات، شعرت بالصدمة أكثر من القصص التي تضمنها كتاب فريدان عن عدم رضا النساء في أمريكا. كان كتابها هو الذي أدى إلى إحداث تغييرات في حياة المرأة قامت بها نساء كنت أعرفهن حق المعرفة.

بحلول الثمانينيات من القرن الماضي، كان نشاط الحركة النسوية المعاصرة قد اتسع بشكل كامل، وكان كل شيء في حياة المرأة – أهدافها وغاياتها وطموحاتها وسماتها ورغباتها الجنسية – في حالة تغير مستمر. في حالتي، كنت أخوض كفاحاً من أجل البقاء أمراة متزوجة، تقوم بتربية طفلين مراهقين، وتحصل على وظيفة أكاديمية ثابتة ومستقرة، وأوه نعم، أحدد كيف سأكتب هذا الكتاب الثاني الأكثر أهمية الذي أحتاجه لضمان البقاء في موقعي. قلت لصديقاتي النسويات إن الخيارات التي اتخذناها جميعًا جعلت من اتخاذ تعبير «التأهب والانطلاق» كعنوان لرواية محتملة

أمراً عفا عليه الزمن. كان هناك تعبيران آخران يناسبان هذه اللحظة بشكل أفضل هما: «التصدع» و«الالتصاق» لأنهما وصفا بأفضل شكل ما كان يبدو أننا جميعًا نفعله.

لا بد أنني بذلت جهداً جباراً حين أخبرت ديك أنني مهتمة بدراسة حياة المرأة المعاصرة أكثر من اهتمامي بسيرة حياة شخصية محددة، وذكرت مجموعة من الأمثلة على الخيارات العديدة والمتنوعة التي اتخذتها النساء المعاصرات، ربما تمكن من بناء وتقديم نموذج للطريقة التي كن يعشن فيها حياتهن.

حينها قال إن كل ذلك جيد وحسن، وبالطبع كان لدي سجل حافل بكل ما قمن به باعتباري صحفية، لذلك ليس هناك شك في أنه يمكنني كتابة مثل هذا الكتاب. لكنه عاد وقال إنني بعد كتابة سيرة بيكيت، «أليس من الأفضل أن تدرسي المسألة من خلال مثال امرأة قامت بذلك كله بالفعل ولديها كل تلك الصفات؟ أليس من الأفضل أن تقومي بالتعبير عن اهتماماتك من خلال سرد حياة امرأة مثالية؟» أصر ديك على أن مثل هذه المرأة يجب أن تكون موجودة – «علينا فقط أن نحدد النموذج المثالي». بدأ يعدد أسماء نساء مختلفات، بدءاً من جان دارك وانتهاءً بالكاتبة مارغريت ميد والروائية آين راند، وقد رفضتهن جميعاً.

مازلنا إلى يومنا هذا نغالب ضحكنا حينما نتجادل حول قضية من قال اسم سيمون دي بوفوار أولاً، لكن كل ما أتذكره من تلك اللحظة السحرية كلمة «وجدتها!» التي انطلقت مني لحظة الانفجار الذي أصابني عندما سمعت اسمها. وقلت حينها «*بالطبع بكل تأكيد! ربما هي المرأة الحديثة الوحيدة التي حققت نجاحًا في كل شيء*». في ذلك الوقت، وكنت أعتقد مثل كل امرأة أخرى قرأت المجلدات الأربعة لسيرتها الذاتية، أن علاقتها مع جان بول سارتر كانت بنفس المثالية التي وصفتها. ومثل الكثير من النساء الأخريات اللواتي اعتبرن كتابها الجنس الآخر من أنضج الكتب وأهمها، كنت أعتبره نموذجيًا ورمزًا. لقد كان الأمر منطقيًا جدًا – فهي تتيح لي استخدام كل تلك المفاهيم التي كنت أفكر فيها، وكل إمكانيات الحياة والعلاقة المثالية التي كنت أعلم أنني لا يمكنني استخدامها أبدًا في

كتابة أية سيرة حياة أخرى، ولتكن على سبيل المثال، للشاعرة الأمريكية آن سيكستون. كان كل شيء يناسب سيمون دي بوفوار بشكل طبيعي لدرجة أنني لم أستطع أن أصدق أنني لم أفكر فيها من قبل، بل ومنذ فترة طويلة.

كنت متحمسة جدًا للمشروع، لكن وكيلي لم يكن كذلك. ولا حتى ماري كلينغ التي كانت تمثلني في فرنسا. عندما سألت عن السبب، قال كارل، «لا أحد يهتم بالناشطات النسويات الفرنسيات العجائز». أما ماري فقالت بإيجاز، «إنها ليست مشهورة في فرنسا الآن». استجمعت كل حجة يمكن أن أفكر فيها وأنا أطلب من كليهما بدء مفاوضات توقيع العقد، وبعد ذلك سأقرر ما إذا كان ذلك ممكنًا. أصبح نقاشي أكثر سخونة وأشد حدة، وقد قوبلت جميعها بتبريرات من قبيل أنني يجب ألا «أضيع وقتي عليها». وعلى مضض، وأعتقد أنه ليس هناك سبب غير أنهما أرادا أن يضعا حداً لمكالماتي الهاتفية، وافق كلاهما مكرهين على محاولة تسويف الفكرة. وكانت خلاصة قول كارل، «إنها من الطراز القديم. لم يعد أحد يهتم بها الآن». كان الأمر الأكثر إثارة للصدمة هو موقف ماري: «ماذا تمثل من دون جان بول سارتر؟ الآن وقد رحل [توفي في 15 نيسان 1980]، لم تعد تساوي شيئًا». لقد ذهلت، لكن بعد أن قطعت شوطًا طويلاً في كتابة سيرة حياة جديدة، لم أكن حينها مستعدة للتنازل.

مر شهر دون أن أتلقى أي اتصال آخر. في نهاية حزيران، كتبت في مذكراتي اليومية: «*لا توجد كلمة من براندت حتى الآن لا بد أنهما ما زالا يناقشان الأمر. إذا كان هذا هو الحال، أعتقد أن المشروع قد يرى النور*». كان المشروع على قيد الحياة ولكنه كان يتعثر في سيره، ومرت أشهر قبل أن يتم حسم الموضوع، ولم تكن النتيجة مثلما كنت أتصور.

الفصل السادس والعشرون

كنت متحمسة عندما عدت إلى فيلادلفيا. كنا نسكن في منزل مستأجر، لمدة عام تقريبًا لأن أسعار الفائدة على القروض العقارية ارتفعت إلى ما بين 15 إلى 18 في المئة، ولم نتمكن من شراء منزل والاستقرار فيه. كانت كل غرفة تشبه جنة من المكتنزات، مملوءة بصناديق كنا نأمل في فتحها بمجرد أن ننتقل للإقامة بشكل دائم. على الرغم مما كان يحيطني من جو كئيب، فإن طاقتي التي أنفقتها لمدة عامين تقريبًا بدأت أستعيدها عندما شرعت أفكر في سيمون دي بوفوار. بدأت العمل على إخلاء مكتبي من كل الأشياء المتراكمة: مقالات للمجلات الأكاديمية، ومراجعات للصحف، ومراسلات مر عليها زمن طويل، ودعوات لإلقاء محاضرات وكلمات ألقيت في افتتاح مسرحيات بيكيت. انتهت كل عملية التنظيف هذه في غضون عدة أسابيع قصيرة، بحلول نهاية حزيران 1980 ومع ذلك، لم تصلني أية كلمة من وكيل أعمالي. كنت أتوقع عرضًا سريعًا للعقد، لكن لم يكن هناك أي شيء قادم.

حلّ علينا فصل الصيف، كان حارًا وثقيلًا، ومعه جاءت كل أنواع الأزمات العائلية. أولاً أصيبت كاتي بنوبة بمرض الحمى الغدية المعدية البيضاء، الذي جعلها طريحة الفراش لمدة شهر ثم انتقلت العدوى إلى أبيها. وقد أصابته العديد من الأعراض المزعجة مما جعلنا نقضي معظم شهر تموز في مكاتب عيادات العديد من الأطباء المتخصصين، الذين كانوا مقتنعين أنه ليس حمى غدية بل فيروس غريب وربما يهدد حياته. حينما كنت لا آخذ المريضين كاتي وأباها إلى مواعيد الطبيب، كنت أتحرك في المنزل، وأتنقل بشكل مكوكي بين غرفتي نومهما والمطبخ، وأحاول إغراءهما بتناول الطعام. وحين اجتاحت رطوبة آب الخانقة منزلنا غير المكيف، قلت

لنفسي إن صمت وكيل أعمالي ربما كان في مصلحتي، ما دمت غير قادرة على إجراء أي بحث على أي حال.

أجاب كارل براندت أخيرًا في منتصف آب، بعد رفضه الرد على مكالماتي الهاتفية دفعني ذلك إلى إرسال عدة رسائل مؤثرة تطالب بمعرفة ما يحدث، إن كان قد حدث أي شيء. أشار إلى تسريح العاملين في دار نشر ليتل وبراون (رغم أن ديك ماكدونو كان لا يزال يمتلك وظيفة) وحذر من أن الوقت الحالي ليس بالمناسب لطلب تمويل تأليف كتاب عن «امرأة فرنسية عجوز». إذا لم تقدم دار نشر ليتل وبراون عقدًا، فمن المحتمل أنه لن يتصل بالناشرين الآخرين، حيث من المحتمل ألا يريد أحد إصدار تلك السيرة. أخبرته أنني لا أهتم، كنت سأكتبها بغض النظر عمّا سيحصل، وسوف أجد طريقة أخرى. حينها ثار غضباً، وبدأ يوبخني لرغبتي في كتابة الكتاب رغم كل شيء: «*سيستغرق الأمر من أربع إلى ست سنوات من حياتك. قد تحصلين - وربما لا - على تثبيت في وظيفتك، وإذا كتب له أي نجاح على أي حال، فإنه لن يكون سوى نجاح «محدود» فقط، مما يعني أن 300 شخص فقط قد يقرأونه. لن يحصل على أي مبيعات في أوروبا، ولا حتى في فرنسا. أنت إلى الآن لم تسددي مبلغ المقدمة عن الكتاب الأول وستنفقين كل ما تملكين على كتابته*». لقد طرح اسم آن سيكستون مرة أخرى، مدعياً أن سيرة حياتها ستكون من أكثر الكتب مبيعًا، ومن الغباء أنني لم أتابع الموضوع عندما طلبت ابنتها ليندا غراي سيكستون مقابلتي. (لقد اتخذت قراراً حكيماً، حين اختارت صديقتي ديان ميدلبروك، التي كتبت سيرة رائعة لوالدتها - ملاحظة المؤلفة).

قمت بلوم نفسي حينها لأنني تركت هذا الرجل يوبخني ويقلل من شأن مشروعي. استغرق الأمر مني بضعة أسابيع للتعافي من هذا الانتقاد، لكنني استعدت عافيتي، وكتبت في ذلك الوقت: «*لقد قررت أن أكتب سيرة حياة سيمون دو بوفوار بغض النظر عما يحدث. كنت أريد القيام بذلك الأمر من أجلي. كنت بحاجة إلى كتابته. كنت أريد القيام به فعلاً، لذا قدمت طلبًا للحصول على منحة وزمالة وشرعت في الكتابة*» حدث ذلك في وقت متأخر من العام، وكانت معظم المواعيد النهائية قد انقضت، لكنني خططت

لبدء العمل على جبهتين في وقت واحد: بينما كنت أقرأ أو أعيد قراءة كل ما كتبه بوفوار، قمت بملء طلب لكل منحة اعتقدت أنني من المؤهلين لها. ومع ذلك، كان للواقع الحقيقي وسيلته التي يدمر بها أفضل خططي.

انخفضت أسعار الفائدة على القروض العقارية إلى النسب المئوية التي يمكننا تحملها، وتمكنا أخيرًا من شراء منزل والاستقرار فيه. في نفس الوقت كنت أواصل العمل على تجهيز متطلبات تثبيتي في الوظيفة التي تستلزم التركيز دون توقف لمدة أسابيع، وجمع أو إعداد جميع الوثائق الداعمة المطلوبة مني. علاوةً على هذه الأشياء التي كانت تتسبب في تشتيت أفكاري، كنت أقوم بتدريس ثلاث صفوف دراسية كان عدد طلبتها يفوق العدد المعتاد كثيراً منحتني إياها الجامعة كمكافأة، كان يقدمها باحترام أحد أعضاء مجلس إدارة الجامعة، أو أي من المانحين الأثرياء وأي شخص آخر أراد المسؤولون تكليفهم بالمهمة. وطوال تلك الفترة كان الأشخاص ذوو النفوذ في القسم يتسمون وهم يخبرونني كيف أن نشري الكتاب «ساعدني كثيراً» في الحصول على منصبي الوظيفي. أخبرني أحدهم أن الصحفي والتر كير وصف كتاب السيرة بأنه أفضل ما كتب عن بيكيت على الإطلاق، وكان يضحك جذلاً وهو يقول لي إنه لم يخبر أحداً بالأمر سواي لأن كير أخطأ في كتابة اسمي واسم عائلتي على حد سواء.

لم تكن تلك الأيام تمثل أسعد الأوقات بالنسبة إليّ. تعلمت ألا أنام سوى أربع إلى خمس ساعات في كل ليلة لأنه كان هناك الكثير من العمل الذي يتعين القيام به لرعاية شخصين مريضين في عائلتي ومواصلة الأعمال المتعلقة بالانتقال إلى المنزل الجديد لدرجة أنني لم أكن أستطيع القيام بأعمالي الخاصة إلى أن يهجعوا ليلاً. وجدت نفسي أفعل شيئًا لم أفعله منذ أن كنت أعمل في تأليف كتاب بيكيت، عندما كنت يائسة جداً من الانتهاء منه إلى حد أنني لجأت إلى العلاج بالتحليل النفسي مستخدمة طريقة العالم كارل يونغ. فقد أصبحت أحلامي مزعجة مجدداً لدرجة أنني بدأت في الاحتفاظ بسجل لها. كان معظمها من ذلك النوع الذي أسميته أحلام «لا يمكن ربطها»، والأكثر تكرارًا فيها هو أني كنت أحلم أني أركب مترو مدينة نيويورك في سنوات الدراسات العليا بجامعة كولومبيا. وبينما أقفز من

مقعدي لغرض الخروج وتغيير القطارات من القطار السريع إلى المحلي في شارع ستة وثمانين، تنفتح حقيبتي وتقع جميع أوراقي على الأرض. لم أستطع جمعها في الوقت المناسب قبل أن تغلق الأبواب، وينطلق القطار متوجهاً إلى حي هارلم وأنا عالقة في الداخل. كنت أستيقظ عادة لأجد نفسي غارقة في العرق بسبب الفزع. وبينما كنت أستعيد الضغوط اليومية في الساعة الرابعة صباحًا التي تزيد من القلق الذي يتبع عادة الحلم، كتبت في مذكراتي اليومية، «*لا يمكن أن يستمر الأمر هكذا. فأنا أتعرض إلى الكثير من الضغوط*». سألت نفسي كيف يمكن أن أتخلص من كل هذه الفوضى، خاصة أنني «*خلقتها بنفسي!*» لم تستيقظ صحوتي النسوية حينها بقوة كافية كي تجعلني لا أظن أنني الملومة في كل شيء.

بحلول شهر أيلول، كانت عملية الانتقال إلى البيت الجديد قد انتهت، وكانت جميع الصناديق قد تم تفريغها، واسترد المريضان عافيتهما واستأنفا أنشطتهما المعتادة. قررت الاستمرار في كتابي التالي، بعقد، أو من دون عقد. فكرت حينها أنه ربما حان الوقت لإعلام سيمون دي بوفوار بأنني أريد أن أكتب سيرة حياتها.

كما فعلت مع بيكيت، كتبت خطابًا. وأرسلت معه نسخة من الترجمة الفرنسية لسيرة بيكيت، قائلةً إنني أعتقد أنه من المهم أن تعرف بوفوار ما كتبته عن موضوعي الأخير قبل أن توافق على أن تصبح الموضوع التالي. كان ردها سريعًا مثلما كان رد بيكيت. قالت إنها قرأت بالفعل كتابي وأعجبت بالطريقة التي استحوذت فيها «الأمريكانية» – وهي تسمية كانت تعبر عن الازدراء شاعت في الأوساط الأدبية والثقافية الفرنسية حينها – على «الكاتب الفرنسي» – لأن الفرنسيين كانوا في الواقع سعداء باعتبار بيكيت يخصهم. وقالت إن الأكثر من ذلك كله، الذي جعلها ترحب بي لأنني أردت أن أكتب «عن كل شيء، وليس فقط عن نشاطي في الحركة النسوية أوعلاقتي مع سارتر». وأنهت رسالتها بدعوتي للحضور إلى باريس في أقرب وقت ممكن «حتى نتمكن من البدء».

عندما نقلت هذا الخبر إلى كارل براندت، عبر رسالة تركتها مع سكرتيرته، أخبرني أنه تم إعداد العقد. سوف تمنح لي دفعة مقدمة لا تكاد تغطي مبلغ

تذكرة رحلة جوية واحدة ذهاباً وإياباً والمبيت أسبوعاً أو أسبوعين في فندق رخيص. لقد وجهت لي إهانة وسألت عما إذا كان ينبغي أن آخذ معي زبدة الفول السوداني وعلبة المربى الخاصة بي لأتأكد من أنني سأحصل على شيء آكله. ثم كشف ما أسميته (فقرة العقد المميتة) التي تشير إلى أن الناشر يحق له في أي وقت أثناء كتابة الكتاب، حتى قبل أن يقرأ أي شخص كلمة واحدة، أن يقرر عدم نشره، ويجب أن أقوم بتسديد المبلغ المدفوع مقدماً. لم أصدق أنه توقع مني أن أوقعه. لكنني لم أفعل.

في هذه الأثناء احتفلت أنا وعائلتي بالخبر السار أن سيمون دي بوفوار تنتظر الترحيب بي. وكما يفعل الأطفال في كثير من الأحيان، فقد سخر طفلاي بمحبة مني، ومن لغتي الفرنسية على وجه الخصوص. قالوا لي مازحين: «نعتقد أنك سوف تسجلين في مدرسة لتعليم اللغات قريباً». في الواقع، لم يكن كل ذلك مضحكًا، بل كان شيئًا فكرت فيه ولكن لم أفعله بسبب ضيق الوقت. كنت قد درست اللغة الفرنسية منذ المدرسة الثانوية وحصلت على دورات متقدمة في الأدب خلال سنوات الكلية، وفي مدرسة الدراسات العليا اجتزت بسهولة امتحان الكفاءة في اللغة. كنت أتمكن من قراءة الروايات والشعر دون الحاجة إلى الترجمة. ومع ذلك، في كل تلك السنوات لم أتعلم قط التحدث باللغة بشكل صحيح. كان بإمكاني التحدث بالفرنسية إلى الجميع ابتداء من النوادل مروراً بالموظفين وانتهاءً بالباحثين والكتاب، لكن كنت أضطر دائمًا إلى استخدام أبسط أشكال الأسماء والأفعال وتراكيب الجمل. غالبًا ما كان الفرنسيون يصححون لي قواعد اللغة المروعة التي كنت أستخدمها، وكنت ممتنة لذلك.

مع بيكيت، لم يكن نطقي للفرنسية يشكل مشكلة قط، لأن جميع من كان في دائرة أصدقائه، بغض النظر عن جنسيته أو لغته الأم، كان يعرف ما يكفي من اللغة الإنجليزية وكنت أنا أعرف ما يكفي من اللغة الفرنسية لكي نفهم بعضنا بعضاً. لم أكن قلقة بشأن التواصل مع دائرة بوفوار لأنني افترضت أن لغتي الفرنسية «كافية»، لكن كان ينبغي عليّ القلق، لأن عددًا قليلًا من الأشخاص المقربين منها لا يتحدثون بلغة غير لغتهم الأم.

لقد افترضت أن كل ما تعلمته عن الجنس الأدبي المتمثل بكتابة السيرة

أثناء تأليف سيرة حياة بيكيت سوف ينطبق ببساطة على كتابة سيرة حياة سيمون دي بوفوار. لم يكن ذلك سوى أول افتراض من بين العديد - كلا، الأول من جميع - افتراضاتي حول السيرة الذاتية التي يجب عليّ تجاهلها عندما عدت إلى باريس.



الفصل السابع والعشرون

مع بداية عام 1981، كانت لدي فسحة من الزمن ليس لي فيها مشاغل أمدها عشرة أيام تفصل بين العطلة وبداية الفصل الدراسي الجديد، عندما سأبدأ فصلًا دراسيًا جديدًا مرهقاً لتلك الصفوف المكتظة بالطلبة. كنت في حاجة إلى تلك الأيام العشرة للتأهب لهجوم الفصل الدراسي القادم، لكنها كانت الفرصة الوحيدة التي يمكنني فيها الذهاب إلى باريس. وبدلاً من تهيئة المناهج الدراسية، قضيت الأيام الأخيرة من السنة الماضية في إجراء مكالمات هاتفية محمومة على نحو متزايد للفنادق المتواجدة على طول شارع جاكوب حيث كنت أقيم في السابق. لم أحصل من أي فندق على تأكيد لحجز غرفة فيه، ولكن جميع مسؤولي تلك الفنادق أخبروني أن آتي على أي حال فبالتأكيد ستكون هناك غرفة شاغرة. لقد كانت بداية مشؤومة، لكنني قررت أن أمضي قدماً بالأمر.

كانت الرحلة كابوساً، فقد تأخرت بسبب سوء الأحوال الجوية وحدوث بعض المطبات الجوية، وكانت الخاتمة أن شركة الطيران أضاعت حقائبي. كنت نصف مستيقظة ومنهكة، حين استقللت سيارة أجرة أنزلتني في إحدى نهايات شارع جاكوب، وكنت أعتزم السير فيه حتى النهاية الأخرى إلى أن أجد فندقًا فيه غرفة شاغرة. لحسن الحظ، وجدت غرفة في ثاني فندق وصلت إليه، كان شعري أشعث وهيئتي متسخة وليس عندي ملابس أرتديها. لقد كان منظري يرثى له، وعلى الرغم من أن تقديم الإفطار قد انتهى منذ فترة طويلة، فإن موظف الاستعلامات أشفق على حالي وأرسل فنجاناً من القهوة مع كعكة كرواسان إلى غرفتي، «مع عبارات الترحيب». كانت على الأقل بداية جيدة.

أخذت دشاً وأسرعت إلى أقرب متجر ملابس من ماركة مونوبري لشراء بعض الملابس غير الغالية الثمن قبل أن أحاول الاتصال هاتفياً ببوفوار. في تلك اللحظة، علمت أن نظام الهاتف في جميع أنحاء فرنسا قد تم تغييره مؤخرًا، وتمت إضافة أرقام جديدة لكل رقم وهذا ما جعل الرقم الذي أعطته لي بوفوار غير صالح. كانت فكرتي الأولى هي الاتصال بناشرها، لكنني أدركت بعد ذلك أن دار غاليمار لا تعطي رقمها أبداً إلى شخص غريب. اتصلت بماري كلينج بدلاً من ذلك وطلبت منها أن تتدخل، لأن بوفوار كانت تعلم أنني قادمة في الثالث من كانون الثاني وتوقعت مني الاتصال بها هاتفياً في ذلك اليوم للإعداد لأول لقاء بيننا. انتهى ذلك اليوم تقريبًا ولم أجد طريقة للوصول إليها.

كانت ماري مريضة بالإنفلونزا وراقدة في المنزل ولم يوفق العاملون في مكتبها في تعقب الرقم الجديد. وكما فعلت مع بيكيت، لجأت مجدداً، إلى تلك الرسائل الزرقاء الصغيرة. أرسلت واحدة إلى بوفوار ذكرت فيها اسم فندقي ورقم هاتفي المباشر، وانتظرت مرة أخرى. وإلى أن جاء منتصف النهار في اليوم التالي لم يردني منها شيء، لذا كتبت خطابًا باللغة الفرنسية غير السليمة من الناحية النحوية، وركضت إلى المترو، وهرعت إلى مبنى شقتها.

لم يكن لدي أي فكرة عما سأفعله عندما وصلت هناك لأن الأبواب تتطلب إدخال رمز معين لكي تفتح، ولم أستطع حتى رؤية صناديق البريد في المدخل. إذا تمكنت من الوصول إلى الداخل، فلم أكن أعرف المكان الذي سأتمكن من ترك رسالة فيه لتجدها. لحسن الحظ، جاء رجل عجوز إلى المبنى بينما كنت أقف أمام الباب أسأل نفسي ماذا عساي أن أفعل. سألني عما كنت أفعله، فسردت له قصتي الحزينة بأكملها، وكنت أمسك برسالتي وألوح بها طوال الوقت. ظلّ يستمع لي حتى تقطعت أنفاسي واستنفدت مفرداتي الفرنسية المحدودة، غير متأكدة ما إذا كان أي شيء قلته كان منطقيًا بدرجة تجعله يفهمه. بدون أن يقول كلمة واحدة، مد الرجل العجوز يده وأخذ الرسالة، مؤكداً لي أن «السيدة» ستحصل عليها. ثم قال عليك الآن أن تخرجي من المدخل حتى يتمكن من دخول بنايته، مما يوضح أنني لا

أستطيع الدخول بعده. لم يكن أمامي سوى التنحي جانباً مع البقاء ممسكة بالباب ليتسنى له الدخول.

لقد مرّ يومان، همت فيهما على وجهي في أنحاء باريس في طقس شديد البرودة. لم يكن هناك الكثير من الثلج، لكن تساقط المطر المتجمد المستمر جعل الشوارع زلقة وملابسي رطبة، لذلك كنت أدخل إلى أحد المتاجر لأخرج منه وأدخل أحد المقاهي وهكذا، في محاولة لقتل الوقت والحصول على مكان دافئ. على الرغم من أن بوفوار قد طمأنتني قبل أن أقوم بالرحلة أنها ستبقى في باريس طوال أيام الإجازات وستكون متفرغة لي، إلا أنني كنت قلقة من احتمال حدوث شيء ما يؤدي إلى تغيير خططها. واستناداً إلى تجربتي مع بيكيت، خطرت على بالي جميع أنواع السيناريوهات: ربما كانت قد أصيبت بالمرض واضطرت إلى الذهاب إلى مكان دافئ لاستعادة عافيتها، أو أنها غيرت رأيها بالكتاب. وبطبيعة الحال، كان الاحتمال الأخير هو الذي كنت أعاود التفكير فيه مراراً وتكراراً.

زاد قلقي بشكل كبير إلى أن جاء يوم الثامن من كانون الثاني، عندما وجدت رسالة في صندوق بريدي من سيمون دي بوفوار. لقد اعتذرت عن إعطائي الرقم القديم - لم تدرك أنها فعلت ذلك - وطلبت مني الاتصال هاتفياً بالرقم الجديد لتحديد موعد. غمرتني موجة من الارتياح قبل أن أتمكن من أن أتمالك نفسي لفترة كافية وأتصل بها.

تكلمت معها بالفرنسية وهي فعلت كذلك. لا أعرف ما كنت أتوقعه، لكن سماع صوتها لأول مرة فاجأني. لقد تحدثت بوضوح، ولكن نبرة صوتها كانت عالية وجافة، وهي إشارة إلى أنها لا تريد الدخول في محادثة طويلة ليس لها جدوى وكانت في عجلة من أمرها لتحديد الموعد وإنهاء المكالمة: «الساعة السادسة غداً في شقتي». كنت أتلمس طريقي نحو إنهاء المكالمة مع بعض المجاملات عندما فاجأتني مرة أخرى بمواصلة المحادثة في اتجاه غير متوقع. أخبرتني عن مدى سعادتها لأن تكتب عنها باحثة مثلي سبقتها سمعتها، «تتفهم كثيراً الطابع الفرنسي». ثم بدأت تكيل المديح لكتابي عن سيرة حياة بيكيت. لم أستطع معرفة متى قامت بقراءته لتثير الكثير من النقاط المحددة. أخبرتني أنها طلبت بالفعل من الناشر كلود غاليمار شراء الكتاب

الذي يتحدث «عنها» – وهو كتاب لم أكن قد كتبته بعد. كنت سعيدة بكل هذا، لكنه أخافني أيضًا حتى الموت.

ثم قالت شيئاً مثل «حسنا! أراك غداً!» (Bon! À demain! بالفرنسية في الأصل) وأنهت المكالمة بنفس السرعة التي كانت تتحدث بها. جلست على حافة سريري وقد احتاج مني الأمر وقتاً طويلاً جداً لاستيعاب ما حدث للتو. عندما تناولت دفتر مواعيدي لأدون فيه وقت ومكان موعدنا الأول، أدركت أنه سيكون في التاسع من كانون الثاني، وهو عيد ميلادها. سبق لي أن شعرت بالتوتر والقلق إلى حد ما، لكن في هذه المرة كان هناك مستوى آخر من التوتر. ربما كانت قد ارتكبت خطأً حين حددت لي موعدًا في هذا اليوم المهم. من المؤكد أن هناك مجموعة من الناس سيطرقون بابها، خاصة في الساعة التي يجتمع فيها أصدقاؤها لاصطحابها لتناول طعام العشاء والمشروبات. تساءلت عما إذا كان ينبغي عليّ معاودة الاتصال بها لأسألها ما إذا كنت قد أخطأت في سماع التاريخ أو لا أفعل شيئًا وأحضر في الموعد فقط. فكرت أنه إذا ما طردتني بسبب تصرفي الأحمق بالمجيء، يمكن أن أقدم عذراً بأنني كنت مرهقة من السفر ولم أسمع بشكل صحيح وأطلب تحديد موعد آخر. وغني عن القول أنني لم أنم جيداً في تلك الليلة.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، خلقت معضلة أخرى لنفسي حيث تساءلت عما إذا كان ينبغي عليّ أخذ هدية لها، وإذا كان الأمر كذلك، فما هو نوع الهدية. وكيف سأقضي الوقت ما بين الساعة السادسة صباحًا، حين استيقظت، والساعة السادسة مساءً؟ كنت قد تعرفت على عدد غير قليل من الناشطات النسويات الفرنسيات اللواتي كن صديقات لزميلاتي الأمريكيات من اللواتي كن يقمن بالتدريس في الجامعات الفرنسية أو يعملن في عالم النشر، وكان بإمكاني الاتصال بأي منهن لتؤنس وحشتي. لكنني كنت متوترة للغاية لدرجة أنني قررت أن أبقى وحدي، لأنني كنت أشك في أنه يمكنني الاستمرار في محادثة متماسكة. كنت أحد الأشخاص الأوائل في الطابور عندما فتح متحف اللوفر أبوابه في ذلك اليوم، وبقيت هناك حتى وقت متأخر بعد الظهر، تجولت في كل قاعات المعرض وكنت أتوقف بين الحين والآخر لشرب القهوة، لأن تناول الطعام كان مستحيلاً. حدقت بلا اهتمام

في معروضات محل لبيع الهدايا، وقررت في نهاية المطاف أنه لا يحوي شيئاً مناسباً، ولا حتى بطاقة تهنئة.

كنت خالية الوفاض عندما وصلت إلى محطة مترو دنفر روشيرو في الساعة الخامسة مساءً. كان بيكيت قد وبخني ذات مرة لكوني تأخرت ثلاث أو أربع دقائق عن أحد لقاءاتنا المبكرة، لذلك كنت في كل مرة أذهب فيها لمقابلة بوفوار، كنت أقلد إحدى شخصياته في رواية مورفي، التي كانت إحدى مزاياها الوصول إلى الموعد في الوقت المحدد تماماً. كان هناك مقهى في الزاوية، لكنني كنت أخشى الاقتراب منه خشية أن أرى بيكيت، الذي قابلته هناك أحيانًا. لقد كان مكانه المفضل بعد المشي، وقد اختاره ليشرب فيه القهوة ويلعب الشطرنج مع العديد من الرجال الساكنين في تلك المنطقة الذين كانوا سعداء دائمًا باللعب معه.

خطر بيكيت على بالي كثيراً خلال الأيام القليلة التي كنت أنتظر فيها مكالمة هاتفية من بوفوار. بمجرد أن استلمت أول رسالة منها تخبرني فيها أنها تريد مني أن أكتب سيرة حياتها، كتبت لأخبر بيكيت أنني قررت أن أفعل ذلك وأنني سأحضر إلى باريس من وقت إلى آخر. لم يرد على تلك الرسالة، أو على الرسالة التي كتبتها بمجرد أن تم تثبيت تواريخ محددة لمجيئي، وقلت إنني سأكون جاهزة متى ما يكون راغباً في لقائي. كنت مازلت أعيش دوامة الهجمات السلبيّة التي شنها عليّ البيكيتيون، شعرت بالارتياح في البداية لأنني لن أراه لأنني ربما سأضطر إلى الدفاع عن شيء ما في كتابي أو توضيحه.

عندما رأيت كون ليفينثال وماريون لي في وقت لاحق، أوضحا سبب صمت بيكيت، ولم يضيّعا الوقت ليقولا لي إنني ارتكبت خطأً كبيراً في «هجر بيكيت، لأنه كان يتوقع من أي باحث كتب عنه أن يظل مخلصًا له». وهكذا، فإنه علاوة على كل إهانة وجهها إليّ الآخرون، اعتبرني بيكيت أنني هجرته لأنني لم أخطط لقضاء بقية حياتي المهنية في الكتابة عنه.

لكن في ذلك اليوم البارد من كانون الثاني، بينما كنت أقف محدقة في التمثال الهائل لأسد بلفور الذي يهيمن على ساحة دنفر- روشيرو، أدركت

أنه إذا بدأ المرء التفكير وهو عند التمثال، وبلمحة طفيفة فقط من الخيال، يمكنه القول إن صامويل بيكيت وسيمون دي بوفوار عاشا في نهايتين مختلفتين من نفس الشارع - حيث كانت هي في طرف شارع فاديفو حيث نقطة التقائه مع شارع شوليشير، وكان يعيش هو في الاتجاه المعاكس مباشرة أسفل جادة سان جاك. ولأني وبيكيت قد التقينا عدة مرات في ذلك المقهى الذي على الزاوية، فقد نظرت إليه نظرة سريعة تحمل شعوراً بالذنب وأنا أمر من أمامه مسرعة، وبالكاد تجرأت على النظر في النافذة خوفًا من رؤيته. شعرت بالارتياح حين لم أرَ غير طاولات فارغة بالقرب من النافذة حيث كان يجلس عادةً.

ليس بعيداً عن المقهى، رأيت كشكًا لبيع الزهور حيث كانت البائعة تغلق أبوابه لذلك اليوم. كان كل ما تبقى عندها عدة باقات من زهور الأقحوان الصفراء الذابلة وباقة كبيرة ولطيفة من أزهار الأكاسيا الصفراء. اشتريتها جميعًا، وبمجرد أن جهزتها البائعة لي، توجهت - في الوقت المحدد تمامًا - إلى المبنى رقم 11، في شارع شوليشير.

نادتني سيمون دي بوفوار ودخلت في الممر الطويل الموجود في الطابق الأرضي حتى استدرت إلى زاوية على اليمين وأخذت الممر الأقصر الذي يؤدي إلى بابها، على اليمين أيضًا. بعد سنوات، عندما كنت أكتب سيرة حياة أنايس نين وأقمت صداقة مع شقيقها، الملحن جاكوين نين-كلميل، أجريت معه مقابلة غير رسمية تحدث فيها عن السنوات الأولى لعائلة نين في باريس. «لقد عشنا في شارع شوليشير»، وبدأ يصف أول شقة سكنوها في المدينة. فقلت حينها كم هو مثير للاهتمام، لأن سيمون دو بوفوار عاشت في هذا الشارع أيضًا. فقال، نعم، عاشت هي ووالدتها «في الشقة رقم 11 مكرر في الطابق الأرضي، أسفل الممر الطويل، ثم القصير ثم.. إلى اليمين، كانت شقتنا على اليسار في الخلف، وأنايس وهوغو إلى اليمين وفي المقدمة». ما زلت أتذكر القشعريرة التي أصابتني عندما علمت أن شقة بوفوار الجميلة كانت أول سكن لآنايس نين في باريس.

عندما انفتح الباب نظرت أمامي مباشرة فلم أرَ سوى الهواء فأنا امرأة طويلة القامة. بدا الأمر كأنني أعيش لحظة كوميدية وقد صعقتني المفاجأة

قبل أن أخفض رأسي لأنظر إلى الأسفل لأرى امرأة صغيرة جدًا وهي تنظر إليّ. أتذكر أنني كنت أفكر في مدى صغر حجم سارتر، فقد كان دائمًا أطول منها في جميع الصور التي رأيتها وهما معاً. مددت باقة الزهور نحوها وتمتمت شيئاً ما من تحيات أعياد الميلاد بينما كانت تومئ لي لتشير أن الأمر لا يستحق وطلبت مني الدخول. سارت أمامي ووضعت الزهور في تمثال لزوج من الأيدي البشرية كان موضوعاً على طاولة صغيرة مستديرة؛ علمت فيما بعد أنه نموذج عن يدي سارتر. فجأة، كما لو أنها قررت أن هذا ليس مكانًا مناسبًا للزهور، استأذنت مني للذهاب إلى مطبخها والعثور على مزهرية. لاحظت الصعوبة التي كانت تواجهها وهي تجر قدميها ببطء ذهابًا وإيابًا.

كما لاحظت أيضاً كيف كانت ترتدي ما يشبه رداء حمام أحمر قديماً وفي حالة سيئة من كثرة الاستعمال فوق قميص النوم. كم كان غريبًا، حسب اعتقادي، أنها تلبس بهذه الطريقة مساء يوم عيد ميلادها. أصبح هذ ا الرداء مألوفاً فيما بعد، لأنها ارتدته في العديد من لقاءاتنا خلال السنوات الخمس التالية. كانت ترتدي أيضاً في رأسها التربان (ما يشبه الحجاب النسوي يلف به الرأس – م)، الذي أطلقت عليه من دون إبطاء وبشكل غير مؤدب لقب «الخرقة التي لا تفارقها»، لأنني لم أرها قط من دونها. كانت عيناها زرقاوين ذكيتين، على الرغم من أن زرقتهما كانت باهتة بسبب الصبغة الصفراء الشاحبة للبياض الذي يحيط بها. كانت بشرتها خالية من العيوب لم يشوهها سوى لونها الأصفر فقط وليس التجاعيد، رغم أنها بلغت الثالثة والسبعين في ذلك اليوم. ازداد اللون الأصفر حدة على مر السنين التي عرفتها فيها، وهو أحد الأعراض المثيرة للقلق لمرض تليف الكبد الذي من شأنه أن يسهم في وفاتها.

تركت الزهور في المطبخ وجرجرت قدميها مرة أخرى إلى غرفة المعيشة، حيث كنت لا أزال واقفة. كنت مستغرقة للغاية في التفكير في ذلك اللقاء الأول أراقب الأثاث والديكور عن كثب، باستثناء ما يتعلق بأريكتي النوم النهاري اللتين استخدمتهما ككنبتي جلوس، ووضعتهما بشكل متعامد على طول الجدران وكانت تواجههما ثلاثة كراس صغيرة بلا مساند تفصل

بينهما طاولة توضع عليها القهوة. وحينما عادت، أشارت وهي تمد ذراعها إلى أنني سأجلس على أقرب كرسي بينما غاصت هي عميقاً في إحدى الأرائك، التي تحركت قليلاً بسبب ثقل جسمها. من الواضح أنه كان المكان الذي تقضي فيه معظم وقتها، وكان هو المكان ذاته الذي كانت تجلس فيه دائمًا عندما كنا نكون معًا.

بدأت أتمتم ببعض الكلمات، بدءًا من شكري لها لأنها منحتني بعضاً من وقتها في يوم عيد ميلادها. أخبرتني نظرتها المثيرة للاستفهام أثناء ردها عليّ أنني لم أقدم انطباعًا أوليًا إيجابيًا للغاية. فقد قالت «وما المانع؟» «حسناً أليس يوم عيد الميلاد هو يوم مثل باقي الأيام؟» لم أكن أعرف ماذا أقول جواباً على ذلك، لكنها لم تتوقف لفترة كافية للسماح لي بالإجابة فقد سألتني قائلة، «هل نشرع بالعمل؟»

لقد افترضت أن هذه الجلسة كانت عبارة عن جلسة تعارف قصيرة ولم أحضر أي شيء معي؛ لم يكن معي دفتر ملاحظات أو جهاز تسجيل شريط، ولم أحضّر أية أسئلة. كان الشيء الوحيد الذي استعددت له هو التدرب على كيفية إخبارها، بأفضل ما تعينني به لغتي الفرنسية، أنه يجب عليّ أن أعود إلى بلدي في الثاني عشر من الشهر للتدريس خلال الفصل الدراسي الربيعي ولن أتمكن من البدء بإجراء مقابلات جادة معها حتى الصيف على الأقل، هذا إذا كان جدول أعمالي يتيح لي وقتًا كافيًا لإعداد نفسي من خلال القيام بالقراءة والبحث الجاد خلال الفصل الدراسي. وقلت متلعثمة بعض الكلمات لأشرح كيف أني لم أكن أرغب في فرض نفسي عليها حين أصبحت متأكدة أن الليلة ستشهد أمسية احتفالية، لذلك لم أحضر معي أي مواد عمل. فشخرت من أنفها بطريقة تعبر عن سخريتها من الأمر. أخبرتني أنه لم يكن هناك احتفال. سوى أن صديقتها سيلفي ستأتي في وقت لاحق جالبة معها شيئاً للعشاء، ولكن حتى يحين ذلك يمكننا أن نبدأ.

بدأت أفتش في حقيبتي عن شيء ما أكتب فيه ملاحظة ما وأن أجد كتاب المواعيد الخاص بي، حتى أتظاهر على الأقل أنه دفتر ملاحظات. حصلت على فرصة لالتقاط أنفاسي من طرح الأسئلة حين انطلقت في الحديث لتخبرني كيف سنعمل: «سأتحدث، وسأخبرك بما هو مهم في حياتي – كل

الأشياء التي تحتاجين إلى معرفتها. يمكنك أن تدوينيها، لكن يجب عليك أيضًا إحضار جهاز التسجيل، وسيكون لديّ جهاز أيضًا. يمكننا مناقشة ما أخبرك به إذا كنت بحاجة إلى أن أشرح ذلك، وسيكون هذا الكتاب الذي تحتاج إلى كتابته. سيكون هذا هو الذي تنشره».

أتذكر بوضوح كيف خفضت رأسي ووضعته بين يديّ وقلت بصوت عال، «آه يا عزيزتي». كان لدي إحساس بالتعاسة لاعتقادي أن الكتاب قد مات وانتهى قبل أن أبدأ بكتابته. فسألتني مستفهمة «ما المشكلة؟». فأعدت ما قالت «ما المشكله؟» كنت مرتبكة جداً لدرجة أنني لم أكن أفكر بالفرنسية وسألتها إن كان بإمكاني الرد باللغة الإنجليزية. قالت بالطبع، لأنها كانت تقرأ بها وتفهمها أفضل بكثير مما تتحدث بها.

قلت لها «لم تكن طريقة عملي مع صامويل بيكيت هكذا» ثم شرعت في شرح كيف منحني حرية القيام ببحوثي وإجراء المقابلات التي أرغب بها، وكتابة ما اعتقدت أنه يلزم كتابته. أخبرتها كيف اتفقنا على أنه لن يقرأ ما أكتب قبل نشره، وحتى إني أخبرتها كيف قال لي إنه لن يساعدني ولن يعيقني، وهو ما فسرته عائلته وأصدقاؤه على أنه موافقته على التعاون بشكل كامل. أخبرتها أنني، بعد أن عملت في مثل هذه الظروف الاستثنائية، لم أر كيف يمكنني العمل بأي طريقة أخرى. كنت آمل أن تكون كريمة وسخية بما يكفي لإعطائي أي مساعدة أطلبها، لكنها ستسمح لي أيضًا بالاستقلال في عملي لتأليف كتاب كامل وموضوعي عن حياتها وعملها.

جلست هناك بهدوء وكأنها ستصمت إلى الأبد وثبّتت عينيها بأرض الغرفة. وأخيراً نظرت في عيني وقالت: «حسنًا، إذا عملت بهذه الطريقة معه، فأفترض أنه سيتعين عليك العمل بهذه الطريقة معي أيضًا. وبغض النظر عن كل شيء، يجب أن يكون كتابي مساوياً للكتاب الذي كتبته عنه».

كنت متأكدة من أن الأنفاس الهائلة التي كنت أكتمها سوف تكسر نوافذها إذا ما انطلقت. لا يمكنني وصف الارتياح الذي شعرت به، وهو ما أكده لاحقًا كل من بيكيت وبوفوار عندما طلبت من كل واحد منهما تأكيد قصة علاقتهما. عندما كان بيكيت كاتباً يكافح في بداياته، قدم الجزء الأول من

إحدى قصصه لمجلة سارتر، الأزمنة الحديثة. كان الجميع يعرف أن بوفوار هي من كان يقوم بالعمل الشاق في تحرير المجلة وكانت هي كذلك من يتخذ معظم قرارات نشر المواد. لقد قبلت القصة وتم نشرها وقد لاقت إشادة من النقاد والقراء الصغار للمجلة. بعد بضعة أسابيع، قدم بيكيت النصف الثاني من القصة، فلم يكن من بوفوار إلا أن ترفضها وأخبرته أن المجلة لا يمكنها أن تضيع أية مساحة إضافية على مثل هذه الأشياء غير المهمة في الوقت الذي توجد فيه الكثير من القضايا السياسية الهامة التي تحتاج إلى معالجة. لم يغفر لها بيكيت ذلك قط، وأعلن استياءه. وكتب لها خطابًا قاسيًا، نُشرت نسخة منه بعد وفاته في رسائله التي تم جمعها. رمت الرسالة بعيداً ورفضت النظر فيها باعتبارها لا تستحق المزيد من الاهتمام.

منذ ذلك اليوم فصاعداً، بدآ يكرهان بعضهما بعضاً بشدة. كنت قد وضعت نفسي مباشرة في وسط نزاعهما، ولكن الأمر في هذه الحالة كان يعمل لمصلحتي. كانت لي نفس الحرية في الكتابة عنها التي كانت لدي أثناء الكتابة عنه. لقد اعتبرت نفسي من أكثر الكتاب حظًا عندما ودعنا بعضنا بعضاً في ذلك اليوم.

الفصل الثامن والعشرون

عدت إلى فيلادلفيا في اليوم السابق لبدء الدراسة، وكنت طوال ساعات العمل أركض من طرف إلى طرف آخر داخل الحرم الجامعي. كان صندوق بريدي مكتظًا بإشعارات من اللجان التي تم تعييني فيها، وطلبات من طلبة الدراسات العليا يطلبون فيها تقديم المشورة لهم فيما يخص أطاريحهم، ومقترحات من الطلاب الجامعيين المهتمين بمواصلة دراساتهم المستقلة. وقد كانت طلبات الحصول على مراجعات أو مقالات ذات صلة بكتاب سيرة حياة بيكيت وحدها تستغرق مني وقتاً يساوي يوم عمل كاملًا. ونظرًا لأنني كنت أتوقع أن أحصل في أية لحظة على عقد الكتاب الثاني الأكثر أهمية والذي سيكون من متطلبات التثبيت، وقد طلبت أن ينظر في أمره قبل عام من الموعد المحدد، الأمر الذي أثار ضجة كبيرة واستدعى شكاوى العديدين بسبب ما اعتبروه وقاحة وجرأة مني، أو، على حد تعبير أحد زملائي الأكثر تعاطفاً معي، وهو يتحدث بنبرة سخرية، «تحدياً صارخاً!».

ما أثار دهشتي، أن قسم اللغة الإنجليزية قد قدم التوصية بتثبيتي من خلال اقتراع صوتت فيه أغلب الأصوات لمصلحتي، على الرغم من أنني لم أكن من النوع الذي يرغبون به تماماً لأنني كنت «باحثة» غير تقليدية، بل والأسوأ من ذلك بكثير أنني كنت شخصية عامة. أخبرني حلفائي الذين كانوا قلة قياساً بمجموع الأساتذة أن الرسالة الرسمية للتوصية وضعت كلمة «باحثة» بين هلالين لأن زملائي كانوا محتارين أين يجب أن يضعوني. كان ينبغي أن آخذ حذري عندما أخبروني أيضًا أن اثنين من كبار المسؤولين في القسم قد وضعا «خطابات مدمرة ومضرّة بموقفي في ملفي». لم يخبراني من الذي كتبها، لكن كان من السهل بما فيه الكفاية تخمين هوياتهم بناءً على

بذلهم أقصى جهد في تملقي وكسب رضاي بعد أن أثبتت تحركاتهم ضدي عدم فعاليتها.

أما بالنسبة لكوني «مشهورة جدًا»، فإن الجوائز الكثيرة التي حصلت عليها ربما خلقت مثل هذا الانطباع، كان من أبرزها جائزة الكتاب الوطني، وهي أهم جائزة تشرفت بنيلها في حياتي المهنية، والتي حصلت عليها في شهر نيسان من ذلك العام. لقد بدا هذا الاعتراف الرفيع المستوى دليلاً على أنني لم أتبع طريقًا أكاديميًا تقليديًا - بغض النظر عما كان من المفترض أن يكون - لكن لم يكن لدي أدنى شك في أن كوني امرأة كان يمثل أيضًا مشكلة لبعض هؤلاء السادة المخضرمين. فقد استاءوا من أن النساء كن يتسلقن بنجاح الحواجز والدخول إلى المجالات التي يهيمن عليها الذكور، لكن كان من الملهم بالنسبة إليّ أن أعرف أنني لست وحدي من تقوم بصياغة طريق غير تقليدي نحو الحصول على التثبيت. فقد قاتلت من أجله امرأة قبلي وفازت به في جامعة بنسلفانيا، وكانت هناك معارك أخرى مستمرة للنساء في جامعات هارفارد وبرينستون وروتجرز، وربما كان هناك العديد من الجامعات الأخرى لم يكن لي علم بها.

بدا كل شيء على ما يرام لعدة أسابيع، وتعبير «ما يرام» هو اختصار لأيام هادئة تمر دون حوادث، عندما تمكنت من الجلوس في مكتبي والعمل على تأليف كتابي. كل هذا انتهى ذات صباح عندما اتصل بي عميد الجامعة هاتفياً بينما كنت أشرب قهوتي الصباحية. على الرغم من أن إدارة القسم قدمت توصية قوية بحقي، إلا أن لجنته (الخطوة التالية في عملية التثبيت) رفضتها. كان الأستاذ الأقدم في قسم اللغة الإنجليزية الذي كتب الرسالة الأكثر ضررًا من بين تينك الرسالتين اللتين تضمنهما ملفي، وهو رجل كان يتمتع بسمعة طيبة في عالم الأدب، قد سبق له أن حضر أمام لجنة العميد شخصياً ليزعم (أنها ليست باحثة) بل مجرد كاتبة سيرة. كان لديه تأثير كافٍ على العديد من الأعضاء الذين نجحوا في إقناع الباقين برفضي. وإذا مرّر هذا التصويت، فهذا يعني أنني بعد ربيع عام 1982، لن تكون لدي وظيفة. وكنت حتى ذلك الحين لم أحصل بعد على عقد للكتاب.

في أعقاب هذا الحدث الصادم، تعلمت من هم أصدقائي الحقيقيون.

جاء أساتذة لم أكن أعرفهم من أقسام أخرى لمواساتي وتقديم المشورة لي. وحثني البعض على محاربة القرار؛ أخبرني آخرون (وكانوا الأغلبية) أن أبدأ بالبحث عن وظيفة أخرى وعرضوا مساعدتي في العثور على وظيفة. طلب مني العميد، وكان رجلاً هادئاً وكريماً وباحثاً حقيقياً، أن أبقى هادئة وأن أسمح له بالعمل نيابة عني. وأخبرني أنه سيتم استبدال أعضاء اللجنة الحالية بأعضاء جدد في الفصل الدراسي الخريفي وسوف يقوم بعرض ملفي على المجموعة الجديدة. وحثني بالقول «التزمي بخططك، واصلي عملك، واتركي عميدك يعمل من أجلك». وهذا ما فعلته.

كانت الأمور فوضوية بنفس القدر في المنزل، على الرغم من أن كلا الطفلين كانا في الكلية وكانت مسؤوليتي اليومية الوحيدة هي الاعتناء بزوجي. منذ بداية زواجنا، تقاسمنا شؤون البيت والمسؤوليات الأسرية قدر الإمكان. لقد فاجأني ذلك، حيث نشأت في منزل لم يكن والدي يجلب فيه كوبًا من الماء بنفسه قط إذا كانت والدتي على مسافة قريبة. نشأ زوجي فون في مزرعة في ولاية أيداهو مع أربعة أشقاء، ولم يكن هناك قط تقسيم للعمل «هذا للرجل» و«هذا للمرأة». كان هناك ببساطة عمل يجب القيام به، وكان على كل واحد أن يساهم بمجهوده ويقوم به. كان الأمر كذلك معنا معظم الوقت، ولكن كانت هناك فترات شعر فيها أحدنا أنه مثقل بالأعباء، وشهدت السنوات التي عشناها في فيلادلفيا عددًا منها. في شتاء عام 1981، تقاعدت منظفة المنزل التي كانت تأتينا أسبوعياً وبقينا من دون منظفة لعدة أشهر، وهي فترة كنا مشغولين في وظائفنا بشكل كبير لدرجة أنه لم يكن لدينا سوى القليل من الوقت لإيجاد بديل لها أو رعاية الأشياء بأنفسنا. ومع تراكم كتل الغبار تحت الأثاث وفي زوايا المنزل، وأكوام الصحف، وتزايد كمية الغسيل، أصبحت الأمور متوترة.

كانت وظيفة فون كمدير متحف تتطلب اختلاطاً اجتماعيًا مكثفًا، وبالنسبة إليّ، وقد كنت حتى ذلك الحين أتشوق إلى حضور الفعاليات الاجتماعية، أصبحت منشغلة جدًا في حياتي المهنية لدرجة أنني لم أستطع في كثير من الأحيان، أن أرفّه عن نفسي في المنزل بتنظيم جلسة عشاء غير رسمية أو حفل عشاء رسمي كما كنت أفعل دائماً في السابق. مع نجاح كتاب

سيرة حياة بيكيت على نطاق أوسع بعيداً عن مجال تأثير البيكيتيين، كنت أتلقى عروضاً من مؤسسات أخرى لإلقاء محاضرات أو أن أكون محاضرة على المدى الطويل. وكانت هناك أيضًا تلميحات من جامعات أخرى بأن الوظائف التدريسية قد تكون متاحة لي في مجال اختصاصي، مع دعوات لزيارة الجامعات الأخرى والسماح لي بالنظر إليها كأمر محتمل. وحيث إني كنت مدركة أكثر من أي وقت مضى للوضع المحفوف بالمخاطر الذي يتعلق بتثبيتي في الوظيفة، حاولت قبول أكبر عدد ممكن من تلك الدعوات. كنت أجهز نفسي عدة مرات لتلك الدعوات في كل شهر وكان على فون أن يقلني بسيارته إلى عدة مطارات أو محطات قطار مختلفة أو يجلبني منها، مما يعني تركه مسؤولاً عن منزل كبير وأربعة حيوانات أليفة إضافة إلى أعباء وظيفته اليومية والتزاماته في المساء. شعر بالإهمال من جانبي والتخلي عنه، وكان محقاً في ذلك. رغم شعوري بالذنب الشديد لعدم تواجدي معه، شعرت أيضًا بدرجة معينة من الاستياء.

لم أعد «ربة المنزل التي لا تفعل سوى القليل»، كما كان يلقبني أصدقاء سابقون لي في رابطة الصغار ورابطة الآباء والمعلمين، حتى حين كنت أدعم الأسرة مادياً بوظيفة بدوام كامل كمراسلة في إحدى الصحف بينما كان زوجي في مدرسة الدراسات العليا. أتذكر الكثير من عبارات عدم الرضا والتجريح عندما تخليت عن العمل التطوعي لأتفرغ لمهنتي ككاتبة وباحثة. على الرغم من التغيرات الاجتماعية الأوسع نطاقاً التي تجري حالياً، لا يزال الرجال يهيمنون على عالمنا. حصلت على وظيفة بدوام كامل كان يحسدني عليها معظم الرجال في حلقة أصدقائي المقربين، لكن لم يكن لدي سوى القليل من الدعم المهني الذي كانوا يتمتعون به. كان لدي 215 طالبًا في الصف الدراسي الخاص باستعراض تاريخ الروايات البريطانية و24 طالبًا في حلقة دراسية خاصة بالرواية البريطانية، ولم يكن عندي مساعد يعينني في تصحيح أوراق الامتحان. ولم يكن لديّ طالب يدرس ويعمل، بحيث يكون عندي مساعد يقوم بكل الخدمات الملحقة بعملي التدريسي التي لم يكن لدي الوقت للقيام بها. لم أستطع إلا أن أفكر في المعايير المزدوجة السائدة في معظم المنازل والمطبقة في الوظائف أيضًا: لقد قيل لنا نحن

النساء أنه بإمكاننا الحصول على كل شيء، ولكن فقط بعد أن نوافق على القيام بكل شيء.

لم تكن تلك أوقاتًا سهلةً لي ولا لزوجي فون، وبعد الكثير من النقاشات الساخنة، اتفقنا في النهاية كما يقول المثل القديم على أن ما نحتاجه كلانا هو زوجة صالحة. ولأننا لن نحصل على واحدة، فسيتعين علينا احترام الحياة المهنية لكل واحد منا والعمل على إيجاد حلول لمصاعبنا.

في تلك الأثناء، كان عملي في سيرة بوفوار في حالة توقف، كانت خطتي هي أن أكون مستعدة للذهاب إلى باريس بمجرد انتهاء الفصل الدراسي، بحلول الأول من حزيران على أبعد تقدير، وأستأجر شقة كبيرة بما يكفي لسكن فون والطفلين والأفراد الآخرين من العائلة. ومن سيأتون لزيارتنا عندما يكون لديهم وقت فراغ. ومع ذلك، كان الفصل الدراسي مزدحمًا للغاية لدرجة أنه لم يكن لدي ما يكفي من الوقت للتحضير للمقابلات المكثفة التي قررت القيام بها، مع كل من بوفوار ومع عائلتها وأصدقائها.

في نهاية الفصل الدراسي، وفي ذروة ارتباكي حيال حياتي غير المنظمة، وجهت لي دعوة للمشاركة في مؤتمر عن أعمال بيكيت يقام في جامعة ولاية أوهايو. قبلت الدعوة، على أمل أن تكون هذه إشارة إلى أن الهجمات العدائية الشرسة التي تعرضت لها قد انتهت أخيرًا. (للأسف، لم يكن الأمر كذلك). أثناء وجودي هناك، سألني أستاذ أسترالي من جامعة جريفيث عما إذا كنت مهتمة بأن أصبح باحثة زائرة في معهد السيرة الحديثة التابع للجامعة. ضحكت من سؤاله، لأنه يبدو أن السبب الوحيد الذي دعاني إلى حضور المؤتمر هو أنني سمعت نقداً شخصياً علناً وتلميحاً. كنت متشوقة للوصول إلى المنزل لبدء الاهتمام بكتابي عن سيمون دي بوفوار. كنت قد وضعت هذا العمل في رف الانتظار لفترة طويلة جداً.

كان من المقرر أن أقوم بالمقابلة الوحيدة الواعدة في الولايات المتحدة في العاشر من أيار، حينما أذهب إلى مدينة ساغ هاربور لمقابلة نيلسون ألغرين، أحد أهم الرجال في حياة سيمون دي بوفوار. لقد تبادلنا أنا وألغرين عدة مكالمات هاتفية للاتفاق على موعد، وفي كل مرة كان يواصل الحديث

عن كثب وبغضب حول مدى حرصه على أن يروي من جانبه قصة علاقتهما الرومانسية. اعتقدت أن مقابلته ستكون حاسمة لعملي وستفعل الكثير لمساعدتي في تنظيم الأسئلة التي تتعلق بالرجال الذين دخلوا حياتها إلى جانب سارتر. استيقظت في التاسع من أيار على عدة رسائل هاتفية تخبرني أنه تم العثور على نيلسون ألغرين ميتاً إثر نوبة قلبية واضحة. أصبت بالذهول من تلك الأخبار لكنني كنت غاضبة أيضًا من نفسي. لقد تأخرت عن رؤيته طوال الأشهر الخمسة الماضية بسبب الضغوط المستمرة لمسؤولياتي الأكاديمية، والآن كان قد فات الأوان.

كنت على اتصال بوكيلة ألغرين، الشخصية المعروفة كانديدا دوناديو، طوال الأشهر العديدة التي لم أتمكن فيها من إيجاد الوقت لمقابلته، وتحدثنا مرة أخرى بعد يومين من وفاته. أخبرتني أن أمنحها أسبوعين وستنتهي كل المشاكل، واقترحت أيضًا أن أتصل بمجموعة محامي ألغرين على الفور وعندما أتصل بها لاحقًا، تكون قد حصلت على إذن لاطلاعي على «منجم الذهب» الذي تركه وراءه، وخاصة الثلاثمئة وخمسين رسالة التي تبادلها مع بوفوار خلال علاقة الحب التي جمعتهما. ومع ذلك، حذرتني من أنه توفي دون أن يترك وصية، وهذا يعني أنه يتوجب على المحامين العثور على أقرب ورثته، وقد يمثلون حجر عثرة لا يمكن التغلب عليه.

قام ديك ماكدونو من دار نشر ليتل وبراون وروبرت جينا، محرر وصديق ألغرين، برسم صورة مماثلة، وإن كانت أكثر حدة. قالا لي إن كل شيء ربما كان لا يزال في منزله في ساغ هاربور ولم يطلب أي من أقارب ألغرين تسلم جثته، وقامت كانديدا بذلك، وتولت جميع ترتيبات الدفن. قبل يوم من وفاته، أجرى ألغرين مقابلة غاضبة ذكر فيها كل أنواع الملاحظات القبيحة بحق بوفوار، وأنهاها بأنه سيقوم ببيع الرسائل التي تبادلها معها من أجل كسب الكثير من المال.

كتبت في مذكراتي اليومية أن «*هذا قد يكون منجم ذهب لن أراه أبدًا. وأعتقد أني سأترك كل هذا الهراء المتعلق بالتثبيت لأنه يمنعني من الحصول عليه!*» كنت غاضبة جدًا من نفسي لأنني سمحت للمشاغل الأكاديمية من أن تمنعني من رؤية ألغرين لدرجة أنني كنت بالكاد أفكر بشكل سليم، ناهيك عن

الكتابة إلى مجموعة محاميه. ومما زاد في الطين بلة عندما مازحني الزملاء والأصدقاء قائلين «بعض الناس سيفعلون أي شيء لتجنب الاضطرار إلى التحدث إلى ديردر بير». لطالما شعرت بالندم لعدم حصولي على شهادات ألغرين الشخصية عن سيرة حياة بوفوار، لكنها أصبحت لحظة فارقة: قررت منذ ذلك الحين، ألا أترك أي شيء يقف في طريقي ويمنعني من رؤية مصدر مهم.

لم أكن بعد أمتلك عقدًا مكتوباً رغم انتهاء شهر أيار وقدوم حزيران، لكنني حصلت على منحة منحتني فرصة التفرغ وعدم التدريس في السنة الدراسية 1981-1982. كانت المنحة المعروفة باسم ماري إنغراهام بونتينغ والمقدمة من كلية رادكليف ذات نعمة مزدوجة؛ في الواقع كان هذا شرفًا كبيرًا، وكنتُ ممتنة لها إلى الأبد، لكنها أيضًا كانت تتطلب إقامة في الحرم الجامعي في جامعة هارفارد. ولكن إذا وجدت أنا وفون أنه من المستحيل تقريبًا تنسيق حياتنا المهنية والشخصية أثناء إقامتنا في نفس المنزل، فكيف سنتمكن من ذلك وأنا أنتقل مع كل هذه المسافة؟

وحين كنا نتحدث أنا وفون عن بعد المسافة تلك، جاءتنا صدمة أخرى من مكالمة هاتفية حدثت في منتصف حزيران من أستراليا. كان ذلك في ساعة العشاء الخاصة بنا، وحدث أن كان معنا كلا الطفلين، وبعض أصدقائهما، واثنان من زملائي يتناولون الطعام معنا في ذلك المساء، وكانوا جميعًا متحمسين للتعليق على الأخبار. كانت من الأستاذ الذي سبق أن التقيته في المؤتمر الخاص بأعمال بيكيت فقد كان جادًا بشأن العرض الذي قدمه لزيارة جامعة غريفيث في مدينة بريسبان الأسترالية. تم توجيه دعوة رسمية لي لقبول الإقامة في معهد السيرة الحديثة (الذي هو مغلق الآن مع شديد الأسف) من منتصف شهر تموز وحتى شهر أيلول، الذي يتزامن بشكل جيد مع بداية زمالة بانتنغ في تشرين الأول. لقد كانت أمسية مرحة حيث كان جميع الموجودين معنا مصرين على أنني يجب أن أقبل. كان الجميع يرغب بذلك، ما عداي أنا وفون. لقد شعرنا بالقلق من احتمال حدوث المزيد من الاضطرابات التي قد يسببها هذا الافتراق الثاني بيننا، لكن بطريقة ما تمكنا من أن نكون مضيفين جيدين، حتى حين كنا نتجنب النظر بعضنا إلى بعض، وتركنا الأسئلة حول كيفية إدارة ما يحدث حولنا، من دون إجابة.

بعد عدة أيام من النقاش المستمر، قررنا قبول الدعوة المقدمة من الجامعة الأسترالية بدلاً من الذهاب إلى باريس لإجراء البحوث. بات موعد استحقاق نفقات دراسة ابنينا في الكلية قريباً جداً، وكانت الجامعة في أستراليا تدفع بسخاء، وما كنت بعد أمتلك عقداً رسمياً للكتاب. أضف إلى ذلك، أن العائلة ستزورني «في أستراليا»، وهو تغيير مرحب به للرحلات القديمة المعتادة التي جعلت الذهاب إلى باريس أمراً روتينيًا تقريبًا مثل الذهاب إلى نيويورك. وإلى جانب قبولي منح بانتنغ، لكنني سأحاول العودة إلى الديار في نهاية كل أسبوع.

مع كل ما كان يتوجب عليّ فعله قبل أن أذهب إلى أي مكان، كنت في الواقع سعيدة بالعودة إلى وضع ربة المنزل السعيدة لفترة وجيزة، حتى لو كان ذلك يعني وضع الأبحاث المتعلقة بكتاب سيرة حياة بوفوار جانباً. لقد عينت منظفة تأتي أسبوعيًا يمكن الاعتماد عليها في المنزل، وأمضيت أيامًا وليالي في ملء المجمدة، وصممت تقويمًا بارعاً لجميع الأعمال التي يجب القيام بها، وتواريخ دفع الفواتير، وأيام ميلاد أفراد الأسرة وجميع احتفالاتنا السنوية التي كنت أتذكر مواعيدها دائمًا. ولكن توجب عليّ الآن تركها لفون ليهتم بها. شعرت بالإحباط بسبب عدم تمكني من القيام بالأعمال الضرورية التي كانت تتفاقم تحت نار هادئة في الخفاء، لكنني شعرت أن كل هذه الأشياء كانت مسؤوليتي وكان عليّ أن أبقيها تحت السيطرة. ما زلت أفكر بهذه الطريقة، على الرغم من أنني علمت أنها ليست مهمتي «أن أجعل العالم آمناً من أجل الديمقراطية»، كما أخبرني المحلل النفسي الذي كنت قد استشرته ذات مرة أثناء تأليفي الكتاب عن بيكيت. لكن بطريقة ما لم أتمكن من إخراجها من رأسي وبقيت أحاول أن أنجح في ذلك.

الفصل التاسع والعشرون

كانت هناك مهمة ملحة يجب أن أقوم بها مع بوفوار، وهو إخبارها أنه بسبب الدعوة التي تلقيتها من الجامعة الأسترالية وحصولي على زمالة بانتنغ، لم يعد بإمكاني الذهاب إلى باريس حتى بداية عام 1982، عندما يكون بإمكاني تخصيص الشهرين اللذين يفصلان ما بين الفصول الدراسية لزمالة بانتنغ لأكون عندها. قمت بصياغة رسالة دقيقة للغاية لأوضح أسباب قبولي لهذه الدعوة المهمة وتأجيل لقاءاتنا. وأرفقت مع الرسالة نسخة منمقة قليلاً من البحث التحضيري الأساسي الذي كنت أقوم به وقائمة طويلة من الأشخاص الذين حددتهم لمقابلتهم أثناء وجودي في باريس. منذ البداية، أدركت أن بوفوار كانت تحب الجداول الزمنية والخطط، لذا فقد واظبت على إبقائها على اطلاع. لم أر أي مشكلة في إخبارها بمن كنت أرغب في مقابلته وما هي المحفوظات التي سأحتاج إلى استشارتها، لكن الشيء الوحيد الذي لم أخبرها به مقدمًا كان عن الوثائق أو المراسلات التي بحوزتها شخصياً وأحتاجها في عملي. علّمني العمل مع بيكيت عدم المخاطرة في خلق صعوبة محتملة إلى أن أكون مضطرة إلى ذلك.

أرسلت هذه الرسالة في حزيران، بعد عدة أسابيع من القلق. واتصلت هاتفياً بها بعد وفاة ألغرين مباشرة لأستفسر عما إذا كان هناك أي شيء يمكنني فعله لها ولا أتمكن من فعله عبر الهاتف، لكن ساد الصمت بيننا. اتصلت بالعديد من الأشخاص في باريس الذين يكونون عادة على اتصال معها، لكنها لم تخبر أحداً إلى أين تذهب، ولم يستطع أحد أن يوضح سبب عدم وجودها. أخبرتني بوفوار لاحقًا أن الصحافة كانت تطاردها، لذلك

ذهبت للاختباء في شقة صديقتها سيلفي لو بوا (أصبحت لو بوا تعرف باسم لو بوا دو بوفوار بعد أن تبنتها بوفوار – ملاحظة المؤلفة)

كانت إحدى المقربات من بوفوار ممن استطعت الوصول إليهن هي إلين رايت، أرملة الروائي ريتشارد رايت، الذي كان يتصرف في بعض الأحيان كوكيل لبوفوار ويقوم بالاتصال بالناشرين باللغة الإنجليزية. حدثتني عن الأخبار المقلقة جراء الشائعات التي انتشرت باحتمال إصابة بوفوار بالسرطان. قالت لي إلين، التي غالبًا ما أعربت عن آراء غير تقليدية، إنها كانت قلقة لأنها تعتقد أن الناس يمكن أن يتمنوا الإصابة بالسرطان لأنفسهم، ومن وجهة نظرها، كان لدى بوفوار هذا النوع من التفكير: «من يعرف ماذا فعلت لها خسارة سارتر ورحيل ألغرين الآن». لقد أدركت بعد هذه المحادثة بفترة وجيزة أن إلين، مثل ماريا غولاس من قبلها، يمكن أن تكون مصدراً غير موثوق به.

كما فعلت ماريا مع بيكيت، حافظت إلين رايت على روايتها الخاصة لحياة سيمون دي بوفوار، التي لم يكن لها أرض صلبة في الواقع. لم يكن لدى بوفوار مثل هذه العقلية: في جميع السنوات التي عرفتها، وعلى الرغم من العلامات الواضحة على تدهور صحتها، لكنها كانت تعتبر نفسها بكامل صحتها – وكانت إنساناً لا يقهر فعلاً. لقد كانت تهتم بأمور تتعلق برفاهها البدني، ولكن فقط لتلك التي يمكن التعامل معها بطرق شمولية للشفاء، وبالتحديد حاسة إدراك الحركة. كانت تتجاهل أي شيء قد يحتاج إلى تناول أدوية أو علاجات طبية تقليدية أخرى.

في نهاية أيار، تمكنت أخيرًا من التواصل مع بوفوار عبر الهاتف. أخبرتني قائلة «ربما تكون ابنة سارتر هي من تنشر تلك الشائعات» بأنها كانت مريضة. في الحقيقة، كما أخبرتني، كانت في صحة جيدة لدرجة أنها تخطط للقيام برحلة إلى نيويورك، «في حوالي العاشر من تموز مع صديقتها المقربة سيلفي». (*كانت بوفوار تشير إلى أرليت ألكيم سارتر، التي تبناها سارتر في السنوات الأخيرة من حياته باسمها. أما سيلفي فكانت تدعوها بـ «الصديقة المقربة» – ملاحظة المؤلفة) كانت تأمل حينها في قضاء بعض الوقت معي. ومع ذلك، فقد استغرق الأمر عامين لوضع اللمسات الأخيرة

على خطط السفر الخاصة بها التي كانت تتأجل المرة تلو الأخرى قبل أن تذهب في النهاية إلى نيويورك، وخلال ذلك الوقت تعلمت شيئًا آخر عنها، كان أفضل من عبّر عنه صديقها الأمريكي جون غراسي بقوله: «إنها تتقلب بآرائها مثلما يتقلب الدايم (أصغر عملة معدنية أمريكية حجماً وسمكاً – م) وهو يتطاير في الهواء».

عندما طلبت منه أن يشرح ذلك، أخبرني بالتناقض الغريب بين المرأة التي تقوم بتكوين آراء متسرعة ومن ثم تصبح غير مرنة تمامًا في أحكامها، وتتمسك بعناد بالآراء التي تعرف أنها غير دقيقة أو غير صحيحة، والمرأة التي يمكن أن تتصرف بعفوية عندما تقرر القيام بشيء ما أو الذهاب إلى مكان ما؛ كانت مشهورة بأنها حين تسافر لا تخبر أحداً بذلك، مما كان يثير قلقًا كبيرًا لدى أصدقائها المقربين. وأضاف غراسي «كما أنها تماطل بشكل رهيب، وعليك الانتباه عندما تؤجل القيام بالأشياء مرة بعد أخرى، أو حين تخبرك أنها تفعل شيئاً ما ثم تقول بعد ذلك إنها لا تستطيع القيام به. إنها لا تكذب، لكنها تقدم الكثير من الأعذار الرهيبة، وعندما تذهب إلى مكان ما أو تفعل شيئًا معيناً، تكره أن يتم انتقادها عن الأكاذيب والأعذار التي قدمتها. من الأفضل أن تكوني حذرة فيما يتعلق بالطريقة التي تتعاملين بها معها عندما تسألينها عن هذه الأشياء».

لم أكن أرغب بسماع ذلك عندما انطلقت في رحلاتي حول العالم. فبالإضافة إلى عدم حصولي على تثبيت في الوظيفة (وإمكانية عدم وجود وظيفة في المستقبل)، وعدم حصولي على عقد للكتاب، وما كانت تعانيه الأسرة من فوضى، لم تكن هذه النظرة إلى سيمون دي بوفوار مشجعة للغاية. ومع ذلك، لم أطل التفكير في الأمر، فقد لجأت إلى أحد تعابيريِ المفضلة: سأقلق على الأشياء في وقتها.

سافرت إلى بريسبن وأمضيت ثلاثة أشهر كانت مفيدة للغاية في مقابلة الباحثين والكتاب الأستراليين الذين أصبحوا أصدقاء لي مدى الحياة. كان هناك حضور قوي للحركة النسوية في جميع أنحاء البلاد واهتمام متزايد بالدراسات المتعلقة بقضايا المرأة، لذلك تحدثت عن بوفوار بقدر ما تحدثت عن بيكيت وكتاب سيرة حياته. عندما غادرت أستراليا ووصلت إلى

بوسطن في نهاية شهر أيلول، كنت لا أزال أشعر بالمتعة بسبب القيام بتلك الأنشطة، وكنت أهدف إلى خلق نفس النوع من الإثارة بين النساء اللواتي سيصبحن زميلاتي في العام الدراسي القادم. في وقت مبكر، اكتشف العديد منا حين كنا مجتمعين حول طاولة كبيرة في قاعة المؤتمرات في غداء عمل أنه على الرغم من أننا كنا في تخصصات مختلفة تمامًا – كان فينا المؤرخون وعلماء الأدب وعلماء السياسة والاقتصاد والتراث الشعبي – فإننا تناولنا موضوعات البحث بتقنية مماثلة بطريقة مدهشة. تركزت بحوثنا على القضايا المتعلقة بالمرأة، والشيء الوحيد الذي كان مختلفاً بيننا هو المفردات المهنية الفريدة لكل تخصص من تخصصاتنا.

بحلول الوقت الذي انتهى فيه الفصل الدراسي في كانون الأول، بعد ثلاثة أشهر من القراءة والمحادثات المكثفة، كنت قد اكتسبت العديد من الأفكار حول كتابات سيمون دي بوفوار، ومكانتها في الحياة الثقافية الفرنسية، ومساهماتها الفكرية في مجتمعها، وصداقاتها، ورحلاتها، وحتى قصص حبها. قمت بجمع مجموعة كبيرة من بطاقات الملفات تتضمن أسئلة أردت أن أطرحها عليها، وكان كل ما أحتاجه الآن هو الذهاب إلى باريس والحصول على إجابات لها. استطعت بالكاد كبح جماح حماسي لفكرة مصاحبتي لها لمدة شهرين.

الفصل الثلاثون

وصلت إلى باريس في كانون الثاني 1982 لأجد الأوضاع مشابهة تماماً لما كانت عليه في العام السابق. فقد كانت سيمون دو بوفوار كما عرفتها جادة في عملها، حيث أخبرتني بصوتها الخشن أن أعود مجددًا في يوم عيد ميلادها، التاسع من كانون الثاني، لكن هذه المرة عند الساعة الرابعة مساءً. (الذي أصبح بعد ذلك وقتنا المعتاد لجميع لقاءاتنا). قالت إنها تتطلع إلى رؤيتي وأنهت المكالمة. على الرغم من أن طريقتها الجافة في إصدار التعليمات كانت دائمًا مزعجة إلى حد ما، إلا أنني وجدت ذلك أمراً مريحاً في الواقع مقارنة بالحيل الذهنية التي كنت أمارسها مع صامويل بيكيت في كل مرة كنت أحاول فيها ترتيب لقاء بيننا.

سافرت مع ابنتي وزملائها الذين كانوا عائدين بعد انتهاء العطلة لإنهاء عامهم الدراسي الثالث في جامعة بولونيا في إيطاليا. كان من المقرر أن نمضي أنا وكاتني أسبوعاً واحداً معًا في باريس، لكننا حين وصلنا تعرضنا إلى نزلات برد قاسية بحيث لم يستطع أي منا أن يخرج من الفراش إلى أقرب متجر يبيع حساء الدجاج وعصير البرتقال. كنت قد أستأجرت شقة جديدة في هذه الرحلة، ولم يخبرني المالك أنها كانت في أسفل أنبوب التهوية المؤدي إلى فناء داخلي فلم يكن يخترقها ضوء النهار. كانت المدافئ نادراً ما تعمل، ورفض الطقس أن يعيننا. كنت في حاجة ماسة إلى استبدال أحذيتي الأنيقة بزوج أحذية قوية أخصصها للخروج من شأنها أن تسمح لي بالتجول وسط الجليد المتجمد والثلوج الخطرة التي كانت تملأ شوارع باريس والتي لم تتم إزالتها أو تغطيتها بالرمل.

لم أتطرق إلى مثل هذه المواضيع في محادثاتي مع سيمون دو بوفوار، لأن عدم الكلام في الأمور التي لا تتعلق بالعمل كان من أهم ميزات شخصيتها. مرت عدة سنوات قبل أن أخبرها أي شيء عن نفسي، لأنها ببساطة لم تسألني شيئاً عنها حتى ذلك الوقت. كل ما كانت مهتمة به خلال جلسات مقابلاتنا الأولى كان الكتاب الذي كنت على وشك البدء بتأليفه، وعلى الرغم من اتفاقنا السابق على أنها لن تفرض آراءها عليّ، فإن الانطباع الواضح بأنها توقعت مني أن أكتبه تحت إشرافها ظلّ ملازماً لي.

لم يكن أمامي سوى أن أعود بذاكرتي إلى لقاءاتي الأولى مع صامويل بيكيت وأقارنها بما واجهته في لقاءاتي الأولى مع سيمون دي بوفوار. فهو لم يأخذني على محمل الجد في البداية، ولكن بمجرد إدراكه لنوع الكتاب الذي كنت أنوي تأليفه وافق على التعاون معي، والتزاماً بوعده لي، فقد قدم لي كل دعم ممكن. ربما يكون من المبالغة القول إن بوفوار حاولت التحكم بما أكتبه، لكنني أعتقد أنها حاولت التأثير عليّ. بالنظر إلى تنوع وتعقد المواضيع التي كان عليها مناقشتها في جلسة واحدة والحدة التي كانت تناقش بها، فقد استغرق الأمر مني وقتًا لفهم إستراتيجيتها.

في يوم عيد ميلادها، تساقطت الثلوج بلا توقف، وكان الجو باردًا. كان الطقس الذي جعل رحلتي تعيسة قد شمل البلد بأكمله - اجتاحت الفيضانات جميع أنحاء فرنسا، وكانت مياه نهر السين على وشك أن تفيض على الأرصفة. كان جزء من الإعداد المكثف للرحلة الذي قمت به مسبقًا هو تدوين كل شيء يمر في ذهني ابتداءً بالأفكار وانتهاءً بالمخاوف في مذكراتي اليومية. في هذه المرة كتبت: «*أنا عصبية للغاية ويملأني القلق. ستبلغ الرابعة والسبعين من العمر هذا اليوم، ولست متأكدة ماذا سأجد عندما أصل إلى هناك*». ما وجدته كان «*امرأة ساحرة تمامًا، دافئة وودودة، تخبرني أنه من الأسهل لي التحدث باللغة الإنجليزية بسبب الزكام الرهيب والتهاب الحنجرة اللذين كنت أعاني منهما، فيمكن لي أن أواصل حديثي بالإنجليزية وسوف ترد هي باللغة الفرنسية*».

غاصت بوفوار في مكانها المعتاد عند حافة إحدى الأرائك بينما كنت واقفة هناك، وكنت لا أزال ارتدي معطفي، غير متأكدة مما ينبغي عليّ فعله.

خلعت المعطف وقررت الجلوس على أحد الكراسي الثلاثة التي كانت تواجهها ووضعت معطفي على الكرسي المجاور لي، لأنها لم تعرض عليّ أن تأخذه أو تعلقه. في كل اللقاءات التالية، كنت أؤدي نفس هذا العمل الروتيني الصغير الذي يجعلني أشعر بالراحة. كان همها الوحيد هو العمل الذي ينتظرنا.

لقد لاحظت أنها كانت قد وضعت على طاولة القهوة التي تفصل بيننا جهاز تسجيل خاصاً بها بجوار ثلاثة أو أربعة أقلام حبر مرتبة بعناية ودفتر ملاحظات صغير لتكتب فيه. تكلمت بعصبية وأنا أنقب في حقيبتي بحثًا عن أدوات مماثلة، ثم قمت بوضعها قبالتها. قمت بإيماءة عفوية بسحب كومة من البطاقات تحوي الأسئلة التي كنت أنوي طرحها، وبطاقات تشبه أوراق اللعب خاصة بي، ربما كنت أقصد أن أريها أنني أنا أيضًا، أملك أدوات «العمل». لم يشاهد بيكيت مطلقًا البطاقات التي قمت بصنعها خلال الفترة التي عملنا فيها معًا، ولم يكن لديه أي فكرة عن الجهود الشاقة التي كنت أبذلها قبل كل لقاء يجمعنا في تذكر وترتيب الأسئلة التي كنت أريده أن يجيبني عنها في ذهني. لكن بوفوار كانت مختلفة، وقد لمعت عيناها عندما رأتني أخرج أول مجموعة من البطاقات. لقد أثبتَ لها ذلك أنني أتعامل مع الكتاب القادم بجدية وأنني أمضيت بالفعل العام السابق في إجراء الأبحاث، والقراءة المكثفة، والتوصل إلى نظريات مختلفة. كانت هذه المجموعة الأولى، التي كان يبلغ سمكها بين بوصتين وثلاث بوصات، تحتوي فقط على الأسئلة السهلة التي اعتقدت أننا قد نغطيها في الجلسة الأولى. كان لدي العديد من أكوام الأسئلة من هذا القبيل في الشقة، وكانت جاهزة بانتظار عقد جلسات حوار أخرى في المستقبل.

وهكذا بدأنا. ظننت أنني سأسهل عليها الأمر حين أبدأ بسؤالها عن ذكريات الطفولة المبكرة، لكنها ابتدأت الحديث لأنها أرادت أن تشكرني فقالت لي. «تأتيني نساء من جميع أنحاء العالم ليكتبن عني، ولكن كل ما يردن الكتابة عنه هو كتابي الجنس الآخر». عندها ضربت بقبضتها يدها الثانية المفتوحة وقالت، «لقد كتبت الكثير. في حقول الفلسفة والسياسة والرواية والسيرة الذاتية.». كانت تتوقف مؤقتًا بعد ذكرها كل حقل من تلك الحقول

لالتقاط أنفاسها كما يبدو، ثم قالت: «أنت الوحيدة التي تريد أن تكتب عن كل شيء. لا يريد الآخرون سوى الكتابة عن الحركة النسائية». لقد أربكني كلامها، لكن لم يكن لديّ رفاهية التفكير في مديحها السخي حتى بعد مغادرتي، عندما أدركت حقيقة ما قالت. خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، شقت طريقها لتتربع في مكانها كأيقونة الحركة النسوية - كان كل هذا أمراً جيداً وحسناً، لكنها لم تكن تريد البقاء هناك إلى الأبد. وإدراكاً منها للعديد من مساهماتها المختلفة في الثقافة والمجتمع التي كانت فخورة بها للغاية، أرادت أن تعترف الأجيال القادمة بإنجازاتها.

بعد أن شكرتها على تعليقها، شرعت في توجيه أسئلتي الأولى عن طفولتها. كانت إجاباتها على أول سؤال أو سؤالين روتينية، ويمكنني أن أقول إنه كان لديها شيء آخر في ذهنها. وعندما بدأت أسأل سؤالاً آخر قاطعتني قائلة: «معذرة، فهمت أنك اتخذت ترتيبات للتحدث مع العديد من الأشخاص هنا في باريس. من هم يا ترى؟ توقفت عند سؤالها واستخرجت دفتر يومياتي مع قائمة بجميع مواعيدي. بدت متأثرة بالإيماء برأسها مرارًا وتكرارًا صاحبه صوت خفيض بدا كأنه قرقرة. كان من المفترض أن أبقى في باريس لمدة شهرين، حتى نهاية شباط، وكنت قد حجزت المقابلات والمواعيد لكل يوم لا أقابلها فيه. كان يجب أن نلتقي مرتين أسبوعيًا على الأقل، ونحتفظ بإمكانية عقد جلسة ثالثة أو حتى رابعة إذا لزم الأمر.

أخبرتها أنني سأبدأ مقابلاتي مع الأشخاص الذين كانت الأقرب إليهم، والذين اختارت هي وسارتر أن يطلقا عليهم لقب «العائلة». كان من بينهم الصحفي جاك لورينت بوست وزوجته أولغا، وحبيبها السابق وصديقها الطبيب كلود لانزمان؛ وصديقاها تلميذا سارتر وهما جان بويون وجان برتراند بونتاليس؛ وصديقة طفولتها جيرالدين باردو التي كانت تدعوها «جيجي» وصديقتها التي أصبحت للتو ابنتها المتبناة حديثًا، سيلفي لو بون دو بوفوار وبنفس القدر من الأهمية كانت هناك أيضاً شقيقتها هيلين دي بوفوار دي روليت.

كانت بوفوار سعيدة للغاية لأنني رتبت لقاءات مع الكاتبتين ناتالي ساروت ومارغريت دوراس، لأنها كانت فخورة جدًا لأنني اعتبرتهما

زميلتين لها. كان لديها نفس رد الفعل عندما أخبرتها أنني تحدثت إلى الروائية ماري مكارثي، لأنها كانت حريصة دائمًا على سماع آراء الكتاب الأمريكيين في أعمالها. عرضت عليها القائمة التي وضعتها من الكتّاب والناشرين والأساتذة والناشطات النسويات وطلبت منها المساهمة بذكر اسم أي شخص ربما كنت قد سهوت عنه. كانت متحمسة للغاية لكل هذه الأسماء، لكنها كانت سعيدة للغاية لأنني قابلت إيفيت رودي، التي كانت تشغل منصب وزيرة حقوق المرأة في الحكومة الفرنسية.

كما عرضت عليها قائمة الأشخاص الذين قابلتهم خلال العام السابق، ولم يكن معظمهم من الأمريكيين، بل كان هناك أيضًا علماء وكتاب فرنسيون كانوا يحضرون مؤتمرات في الولايات المتحدة أو كندا. كانت تحب أن تحتوي القائمة على أسماء الباحثين الذين تخصصوا في أعمال سارتر، لأنها شعرت أن الكثير منهم لم يكونوا يأخذونها على محمل الجد: (إنهم يتجاهلونني؛ إنهم لا يريدون أن يعترفوا بمدى أهمية كل واحد منا للآخر).

بمجرد أن رأت بوفوار كيف قمت بدراسة حياتها وأعمالها بشكل مركز ومقدار التحضير الذي قمت به للكتابة عنهما هما الاثنين، استرخت وقالت: حيث إننا فعلنا ما يكفي ليوم واحد، يجب أن نتوقف الآن ونتناول مشروبًا طبيعياً قبل أن أغادر. وضع هذا اللقاء الأول الأسس لنمط من التعامل بيننا كان من شأنه أن يتكرر، مع القليل من الاختلاف، خلال السنوات الخمس القادمة. سألتني «هل تشربين الويسكي؟»، وقبل أن أتمكن من الإجابة، سارت نحو الثلاجة، التي لم تكن في مطبخها ولكن في مكان بارز وكانت تستند إلى حائط غرفة المعيشة. عندما فتحتها، استطعت أن أرى أنها كانت نظيفة للغاية وفارغة باستثناء زجاجة ويسكي كبيرة علامة جوني ووكر ريد – وكنت أرى فيها أحيانًا في لقاءاتنا اللاحقة، زجاجة من الفودكا أيضًا. كان فيها في بعض الأحيان طبق من حلويات البيتي فور مغطى بالبلاستيك موضوع فوق أحد رفوفها، قد بقي هناك دون أن يلمسه أحد أو يحركه من مكانه أغلب أيام السنة. اعتقدت أنه ربما لم يكن طعامًا حقيقيًا، ولكنه كان قطعة فنية من نوع ما. وكنت من حين إلى آخر، أرى فيها شريحة جافة من شيء نسيت أن تأكله أو بعض الفاكهة التي لم تعد طازجة، ولكن في معظم الوقت كانت

الثلاجة لا تخلو من شراب كحولي. أخبرتني أنها لا تحتفظ بالطعام عادة لأنه في أغلب الأحيان كانت سيلفي تحضر لها عشاءها، أو كانت هي تخرج لتناوله مع الأصدقاء. في سنواتها الأخيرة، عندما لم تعد تخرج لتناول طعام الغداء بشكل روتيني، كانت سيلفي تحضر لها أيضًا شيئًا لليوم التالي.

بينما كانت بوفوار منشغلة بجلب الزجاجة والأقداح، أتيحت لي الفرصة لأجول ببصري في المكان الذي تشغله غرفة الجلوس. رأيت غطاءً من قماش الساتان الذهبي السميك يمتد فوق الأرائك والوسائد التي تتلألأ باللون الأرجواني كأنها جواهر مصنوعة من الجشمت والزمرد والياقوت، وهو نفس اللون الذي كان يزّين جميع الكراسي الصغيرة المقابلة للأرائك. كانت الأرائك نظيفة ومرتبة في ذلك اللقاء الأول، ولكن بمرور الوقت وتعودها على زياراتي، لم تعد تكلف نفسها عناء إخفاء الفوضى التي كانت تراكم في المكان الذي تجلس فيه عادةً، والتي منحت المشهد مسحة كوميدية نوعاً ما. كانت بوفوار، تمثل كما هو حال والدتها من قبلها، السلوك العملي لربة بيت برجوازية مدبرة: فلأجل حماية الغطاء الذهبي للأريكة التي كانت المكان المفضل لديها لكي تستريح وتقرأ من أن يتجعد غطته بإحدى بطانيات الهنود الحمر المزخرفة. لقد كان الأمر متنافراً للغاية مع محاولتها لجعل المكان يفيض بالأناقة الفخمة، حيث وضعت البطانية في المكان الذي كانت تحتفظ فيه بدليل هاتفها وكتبها ومخطوطاتها وأكوام من الرسائل التي لم تتم الإجابة عليها ورزم من المناديل الورقية وكنزة فضفاضة قديمة، وأوراق زائدة من مكان عملها.

كان الظلام سائداً في الخارج عندما انتهينا من جلسة العمل، وقد رفعت جسمها من الأريكة لتشغيل المصباح الأرضي الذي صنعه لها النحات دييغو جياكوميتي. كان المصباح بجانب الرف الذي وضعت عليه مجموعة من المنحوتات المعدنية الصغيرة التي صنعها شقيقه ألبرتو، وقد نشر ما يكفي من الضوء لجعلها تلقي بظلالها السحرية. عادت بوفوار إلى طاولة القهوة وهي تحمل زجاجة الويسكي مع كأسين وكوب قياس للنبيذ فضي قديم. أخذت لها كأساً كبيرة مصنوعة من زجاج مكسيكي، أما كأسي فكانت صغيرة ومن زجاج عادي. أفرغت في كأسي، بعناية كوب قياس كانت قد

ملأته بالويسكي إلى النهاية، ثم وضعته جانباً قبل أن تملأ كأسها إلى الحافة. أخبرتني أن «سيلفي تخفف الويسكي بالماء لأنها تعتقد أنني أشرب كثيراً. وهي تظن أنني لا ألاحظ ذلك، لكنني مدركة لما تفعل». لم يكن الويسكي مخففاً كثيرًا في تلك الزيارة الأولى، ولكن في السنوات اللاحقة بدأت أواجه صعوبة في تناول ويسكي لم يكن مخففاً بالماء إلا قليلاً. أما بوفوار من ناحيتها، فقد كانت تصب بعجالة عدة أكواب من الماء في كأسي، كما لو كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلها تستمتع بشرابها.

كانت بوفوار امرأة كبيرة في السن عندما التقيت بها، ولأنها كانت ترتاح لوجودي، فقد كانت ترتدي في كثير من الأحيان ذات الرداء الأحمر الداكن الذي ارتدته في أول لقاء بيننا. أما في الأوقات التي كنت أصطحب فيها شخصًا لمقابلتها، أو عندما كنت أرافقها لحضور حدث معين أو حفلة عشاء، فإنها تقوم في تلك المناسبات ببذل كل ما تستطيع من جهد للفت الأنظار إليها. وحينها تتكون ملابسها عادة من بنطلون بني أنيق، وقميص بلون بيجي، وبلوزة منقوشة بلا أكمام، وبالطبع لفة الرأس التي لا تفارقها. عندما كانت ترتدي الرداء الأحمر، كنت أحاول ألا أنظر إليها كما وصفتها في مذكراتي اليومية، بأنها كانت «بدينة، ومتجهمة، وملابسها عتيقة الطراز، وقصيرة»، بل على العكس كنت أتخيلها تلك المرأة الشابة والجميلة والمليئة بالحيوية والديناميكية. كانت تلك هي المرأة التي أردت أن أكتب عنها وأصفها بأقوى العبارات، امرأة بارعة ذات تجربة حياتية غزيرة.

أصبح شرب الويسكي في نهاية كل جلسة – وعادة ما كانت تستغرق ساعتين، إن لم يكن أطول – من طقوسنا الثابتة. لم أقم قط بتسجيل أحاديثنا بعد المقابلة، ولم أكن أدون أية ملاحظة، لأن هذه كانت فترة تواصلنا الاجتماعي، عندما نبدأ نستمتع بتبادل الأحاديث العشوائية لأننا نتحرر من التوتر الذي يتملكنا أحيانًا خلال الجلسات التي تشهد حالات نكد وجدل بيننا. لكن هذا الأمر لم يكن يمنعني من تدوين ملاحظات مكثفة فور انتهائها، عندما أهرع إلى (دوم) المقهى المفضل عندي الذي يقع في شارع مونبارناس، للجلوس على طاولة صغيرة تطل على الشارع حيث يمكنني مشاهدة الناس، وشرب كأس من النبيذ الأبيض، وكتابة أو تسجيل انطباعاتي.

في كثير من الأحيان كانت بوفوار تتطوع بالإدلاء بمعلومات أثناء هذه الأحاديث التي تعقب المقابلة الأمر الذي كان مفاجئاً بالنسبة إليّ، كما فعلت في لقائنا الأول. كان لدي شعور بأنها كانت تحاول التودد إليّ عندما انطلقت تتحدث بعصبية حول كيف أن كتابي يجب أن يختلف عن بعض الكتابات التي صدرت عنها أخيراً. كان من الواضح أنها قرأت كل ما كتب عنها، وعلى عكس صامويل بيكيت، الذي كان يدّعي الجهل لكنه كشف عن معرفة كبيرة بما كان يكتب عنه، لم تتردد بوفوار في التعبير عن آرائها. لقد كانت معجبة بالكتاب الذي ألفته عنها الروائية كارول آشر عام 1981 لكنها أصيبت بخيبة أمل لأن آشر كتبت «الكثير عن نفسها ونسيت أن تكتب عني» حسب تعبيرها. أما عن الكاتب الأمريكي أكسل مادسن فقد قالت، «اعتقدت حينها أنني يجب أن أقاضيه على كل الأكاذيب التي نشرها، لكن سيلفي طلبت مني ألا أنزعج. فإن ذلك سيعطيه الكثير من الاهتمام». وفيما يخص الكاتب بيني ليفي (المعروف أيضًا باسم بيير فيكتور)، الذي كتب عن سارتر في سنوات حياته الأخيرة الكئيبة، فقد كان يثير غضبها الشديد إلى حد أنها قالت: «أنا أكرهه! أكرهه!»

كانت غالبًا ما تتنقل بين المواضيع بسرعة، وأحيانًا أسرع مما يمكنني متابعته. بعد قيامها بتحليل جميع الكتب التي تحدثت عنها، سألتني ما هو الاسم الذي يجب أن تناديني به. هل يجب أن يكون «مدام بير»، أو يمكنها أن تناديني – وهنا حاولت نطق اسمي الأول، الذي نطقته ليبدو شيئًا مثل «داريد» ولكن مع حرف راء طويل للغاية مع التأكيد عليه بشدة، بذلك اللفظ الفرنسي الذي لم أستطع قط إتقانه. أخبرتها أنها يجب أن تناديني بأسهل اسم بالنسبة إليها، وهكذا اختارت «داردر» (أو هكذا بدا لي). لم أسأل قط عن الاسم الذي يجب أن أناديها به، لأن الاسم الذي كنت دائمًا أناديها به كان «مدام» أو «مدام دي بوفوار».

كانت قد قررت منذ اللقاء الأول أن تتحول علاقتنا بشكل طبيعي إلى نوع من التقارب الشخصي الذي لم أكن أملكه قط مع صامويل بيكيت. طوال السنوات التي كتبت فيها عنه، كنت أشعر بالحزن على تعامله معي بشكل رسمي وكنت أحيانًا أستاء من كيفية تعامله بود أكبر مع أشخاص غرباء

نسبياً عنه وكانوا يتصلون به بشأن بعض جوانب عملهم التي لا يمكن أن تكون مهمة أو ذات طبيعة شخصية بقدر ما كان عليه عملي. ومع ذلك، حين بدأت بوفوار في دعوة (داريد) كما بدأت تناديني لمرافقتها في تجمعات مثل حفلات توقيع الكتب وافتتاح المعارض، والذهاب لتناول العشاء معها ومع بعض أصدقائها، كنت لا أحبذ الأمر دائماً. إذا كان الحدث شيئًا كنت أعتقد أن حضوره مفيد للكتاب، مثل اجتماع للناشطات النسويات للتخطيط لنوع من الأنشطة أو الأعمال، فكنت أرافقها. أما إذا كان حدثاً اجتماعيًا بحتًا، كنت أحاول اختراع التزامي بموعد مسبق أو أقدم عذراً آخر.

بمجرد نشر كتاب بيكيت، أدركت أن صامويل بيكيت قدم لي معروفًا بالإبقاء على مسافة بعيدة تفصل بيننا. لقد كفل ذلك لعلاقتنا أن تكون مهنية تمامًا وأتاح لي أن أكون موضوعية تمامًا عندما كتبت عنه. أدركت منذ البداية أنني أحببت بالفعل سيمون دي بوفوار، وأدركت أن هذه الأحاسيس قد تشكل خطراً على عملية تأليف الكتاب. قررت حينها أنه سيكون من الأفضل بالنسبة إليّ أن أبقى بعيدة عنها بمقدار المسافة التي تتطلبها طبيعة العمل الذي أقوم به، لكنها جعلت من الصعب جدًا عليّ القيام بذلك.

بدأ الأمر عندما قالت بوفوار «آ ه يا داررِيد»، وحينها انكمشت خوفاً: يا إلهي، ترى ماذا تريد... وفي الحقيقة أن سبب خوفي هو أن بوفوار كان لديها دائمًا «صديقة شابة لطيفة» تريد القدوم إلى أمريكا وتحتاج إلى وظيفة، وكانت متأكدة تمامًا من أن جامعتي تحتاج دائمًا إلى شخص تكون الفرنسية لغته الأم لتعيينه في الكلية. من بين ستة مرشحين أو نحو ذلك اقترحتهم عليّ، لم يكن لدى أي منهم أي نوع من المؤهلات، لكن ذلك لم يكن يهمها، ورفضت الاقتناع بأنني لا أملك سلطة لتوظيفهم ولا عندي نفوذ لإقناع أي شخص آخر بتقديم هذه الخدمة لي.

لم تكن لدى الشخص الذي كانت بوفوار مصممة على إرساله إلى فيلادلفيا وهو الروائي كلود كوغشيه رغبة في الذهاب إلى هناك. لقد كان قد فاز لتوه بجائزة أدبية مرموقة عن روايته Retour à Malaveil واشترى منزلًا كلاسيكيا يعود بناؤه إلى نهايات القرن الماضي كان هو المنزل الأخير المتبقي في شارع مونبارناس. كانت بوفوار قريبة جدًا من كلود، وهو أيضاً

صديقها الوحيد الذي أصبحت قريبة منه، حيث فعل الكثير لمساعدتي على أن أفهم بشكل دقيق مكانة بوفوار في الثقافة والمجتمع الفرنسيين.

من بين جميع من أوصت بهم بوفوار، كان هناك واحد فقط منهم نجحت في العثور له على وظيفة تدريس، وفي أثناء ذلك وجدت له أيضًا زوجة. كان سيرج جوليان كافيه، الذي ألف كتابًا بليغًا وذا نظرة ثاقبة عن بوفوار، يعيش في نيويورك عندما احتاجت مدرسة وارتون لإدارة الأعمال التابعة لجامعة بنسلفانيا إلى أستاذ فرنسي يحاضر في الدورة التي أقامتها في موضوع إدارة الأعمال الدولية، ووافق سيرج على التدريس في الدورة. وحينها عرفته على زميلتي، عالمة الأنثروبولوجيا بيغي ساندي، وفرحتُ كثيراً عندما قررا أن يتزوجا.

مرت أيام شهر كانون الثاني البائسة سريعة كالبرق لأنني كنت مشغولة للغاية فلم ألاحظ عدد المرات التي تساقطت فيها الثلوج وكم كان البرد قارساً. كنت أستيقظ مبكراً وأخرج من الشقة المظلمة القاتمة في وقت مبكر كل يوم لإجراء مقابلات، وعندما كنت لا أجري مقابلة مع شخص ما، كنت أذهب إلى المكتبة الوطنية أو أحد الأرشيفات الأخرى التي تضم وثائق أحتاج إلى رؤيتها. كنت أعمل مع بوفوار مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع، ولأن الأسئلة كانت لا تزال تتناول في الغالب سنوات طفولتها ومراهقتها وشبابها، لم تكن تحوي ما يثير الجدل وكانت الجلسات تسير بشكل ممتع. أخبرتها أنني سأقابل أختها في أوائل شباط، كما اتصلت ببنتي عمها ورفيقتي صباها، ماجدولين مانتيس دي بيسشوب وجان دي بوفوار دورياك، اللتين كانتا تعيشان آنذاك في منطقتي ميغنياك ولا غريبه في الجنوب الغربي من فرنسا حيث أملاكهم العائلية التي اعتادت بوفوار تمضية الصيف فيها. كانت مسرورة وقالت إنها «راضية عن التقدم الذي أحرزناه نحن». لم أكن متأكدة من شعوري حيال استخدامها لتعبير نحن.

لم أكن أشعر بالرضا التام، لأن هناك جوانب من «واقع حياتي» ظلت تلقي بظلالها على عملي. اتصل بي كارل براندت ليخبرني عن حدوث جولة أخرى من التسريح الجماعي في دار نشر ليتل وبراون، وكان من بين من فقدوا وظائفهم هذه المرة ديك ماكدونو. كان كارل لا يزال يلاحقني لجعلي

أقوم بتوقيع عقد دار نشر ليتل وبراون المهين، لكن لم يكن لدي أية فكرة عما إذا كان ذلك الخيار سيبقى قائمًا بعد رحيل ديك. تلقيت بعض الأخبار المشجعة من جامعة بنسلفانيا، حيث بذل العميد مساعيه على أكمل وجه وقررت لجنته الجديدة تثبيتي في المنصب في ذلك الخريف. لقد كانت هذه أخباراً جميلة ممزوجة بالمرارة بالنسبة إليّ: لقد شعرت بالارتياح عندما علمت أنه سيكون لدي وظيفة أعود إليها في خريف عام 1982، فقط لأنه كان من غير المحتمل أن يكون لدي عقد كتاب ليعينني ويدعم أبحاثي.

كنت ممتنة جدًا للابتعاد عن الوسط الأكاديمي، وكنت أستمتع بكل يوم أمضيه في باريس، فقد كان كل يوم يجلب معه شيئاً جديدًا ومثيرًا لكتابي. لقد شحذت همتي من خلال عدة أشياء حدثت مجتمعة وكانت تتناول العديد من المواضيع المختلفة. على سبيل المثال، فقد أوضحت لي مقالات تتحدث عن الصحف اليمينية المحافظة في السنوات الأولى من القرن العشرين الكثير عن موقف والد بوفوار من تربية أبنائه. وبالتوازي مع ذكريات صديقة صباها جيجي باردو، فإن هناك فقرات من مذكرات بوفوار ساعدتني في توضيح بعض القرارات المتمردة التي اتخذتها بوفوار خلال سنوات المراهقة. كانت الأمور تسير على ما يرام في ذلك الشتاء، وقد استمتعت بشكل خاص بامتلاك الوقت الكافي للتدقيق في صحة تلك الأفكار، وفرز المعلومات، والتوصل إلى استنتاجات. لقد أصبح شعاري «ما أعتقده اليوم، سيكون بلا شك عرضة للتغير غدًا»، الذي غالبًا ما أثبت صحته.

تعرفت في تلك الرحلة البحثية على بعض الأشخاص الذين أصبحوا أصدقاء لي مدى الحياة وقاموا لي بالواجبات الاجتماعية اللازمة على مآدب الغداء والعشاء، حيث كانت الأحاديث الودية التي تدور بيننا تؤدي غالبًا إلى التعرف على طرق للتفكير أو أنماط للبحث لم أكن لأعلم عنها شيئاً لولاهم. وفي تلك الرحلة أيضاً، ساعدني صحفيون يعملون في المطبوعات الأمريكية والبريطانية، وكانوا مقيمين في فرنسا منذ فترة طويلة، وقد أصبحوا مصادر مهمة لمعلوماتي العميقة وكانوا في الغالب أدوات فعالة في مساعدتي في اختراق الدوائر البيروقراطية للحصول على المعلومات التي كانت لولاهم ستظل مغلقة بوجهي. من بين الناشطات النسويات الفرنسيات البارزات

والجريئات اللواتي أصبحن صديقات حميمات لي، يمكن الإشارة إلى أستاذة الأدب الأمريكي ماري كلير باسكييه والناشرة النسوية فرانسواز باسكييه (ليس لها علاقة بدار نشر باسكييه بل الأمر تشابه أسماء). أصبحت ماري لو ديكوسو، وهي طالبة دراسات عليا أمريكية من أصل فرنسي، مساعدة بحثية لي كنت في حاجة ماسة إليها. كما أن كارين أوفن، وهي باحثة أمريكية في تاريخ المرأة الفرنسية تعمل في الأرشيف، أصبحت عوناً ممتازاً لي لاستشارتها بخصوص أفكاري المتغيرة باستمرار. كنت أشعر بالسعادة عند لقائي بهن لتناول المشروبات والعشاء بعد انتهاء يوم عملي الروتيني، وكنت أستمتع معهن تمامًا – إلى أن صدمت بتلك المكالمة الهاتفية.

كنت عائدة للتو من نهار طويل قضيته في الاطلاع على عدة شرائط مايكروفيلم محفوظة في الأرشيف وكانت ملابسي مبللة وشعري أشعث بعد أن سرت وسط عاصفة ثلجية، كنت حريصة على خلع حذائي المبلل قبل أن تتشكل أي بثور أخرى في قدميّ. كنت أسمع رنين الهاتف وأنا أشرع بفتح الباب. كانت المكالمة من أستاذ في قسم آخر في جامعة بنسلفانيا التي منحته يوم إجازة للذهاب إلى باريس حيث تم تكليفه من قبل لجنة منح الشهادات الفخرية في الجامعة لتقديم واحدة إلى سيمون دي بوفوار. وبنبرة متعالية، أخبرني أنه «مخول» أن يطلب مني أن أزوده بمعلومات الاتصال الخاصة بها. وحينها عليّ أن أتنحى جانباً، لأنه سيتولى إجراء جميع اللقاءات اللازمة معها لغرض القيام بهذا العمل.

كنت شاردة الذهن بعد ذلك النهار الطويل الذي قضيته في الأرشيف، وقد جعلتني غطرسته غير قادرة على التفكير بشكل سليم. كان من حسن الحظ أن الأمر لم يستمر سوى مساء ذلك اليوم وليلته التي جافاني فيها النوم بسبب ما كنت أشعر به من غضب، ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، جاءني البواب حاملاً خطابًا رسميًا ومهذبًا أرسله رئيس الجامعة يقول فيه إن ذلك الاستاذ سيتصل بي ويطلب مني أن أتلطف وأستخدم نفوذي في مساعدته على إقناع بوفوار بقبول الشهادة. لم يخبرني أحد أنه سيتم تقديم هذه الشهادة الفخرية، ولم يشركني أحد في التخطيط لكيفية التعامل معها. يبدو أنه على الرغم من أنهم كانوا ينظرون إلي على أني مجرد «كاتبة سيرة»، فإن

الشخصية التي سأتناول حياتها في كتابي كانت على درجة كافية من الجدارة لتستحق التكريم، وعلى الرغم من أني صاحبة المشروع فإنه قد تم تهميشي. كانت مفارقة مزعجة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه كان تكريماً لامرأة رائعة وجديرة به، لذا فإنني بالطبع سأقوم بمساعدة الجامعة، على الرغم من أنني كما كتبت في ذلك الوقت كنت ممتعضة من وقاحة أولئك «الأشخاص ذوي النفوذ الذين تسلموا زمام الأمر وقرروا أن ينحّوا الفتاة الصغيرة جانباً».

في نفس اليوم الذي استلمت فيه خطاب رئيس الجامعة تلقيت مفأجاة أخرى، لم تكن مزعجة جدًا ولكنها جعلتني أعاني من الاضطراب. اتصلت سيمون دي بوفوار لتخبرني أنها قررت فجأة الابتعاد عن باريس لمدة أسبوعين، من 1 إلى 15 شباط. وهي تظن أنها قد تعرضت لحالة خفيفة من الإنفلونزا، وقد أقنعتها سيلفي أن تذهب إلى بلدة بياريتز لتستحم بمياه منتجعها الصحي الذي كانت تحبه. لقد أمضيت الساعات القليلة التالية وأنا أكتم غضبي إلى أن قلت مع نفسي إنه من الأفضل أن أصرف التفكير في الأمر، على الرغم من أننا خططنا لعقد اجتماعات لمدة ثلاثة أيام خلال كل أسبوع من تلك الأسابيع؛ فإنه كان لدي الكثير من العمل الأرشيفي الذي يمكنني القيام به. ولكن قبل أن تغادر، كان عليّ أن أتحدث معها عن هذه الشهادة الفخرية.

أرادت بوفوار أن تنهي المحادثة الهاتفية بشكل مفاجئ كالمعتاد، لكنني تمكنت من مقاطعتها لأخبرها أن لديّ شيئًا أحتاج إلى مناقشته معها وطلبت رؤيتها في ذلك اليوم على الرغم من أننا لم نحدد مسبقاً موعدًا لذلك. أخبرتني أنه يمكنني المجيء في الثانية بعد الظهر وألا أبقى طويلاً لأنها تحتاج لأن ترتاح قليلاً بعد تناول الغداء قبل أن تلتقي بعض صديقاتها من الناشطات النسويات عند الساعة الرابعة.

دخلت في الموضوع مباشرة عندما رأيتها، أخبرتها أن أستاذاً من جامعتي يريد أن يتعرّف بها حتى يتمكن من تقديم عرض منحها شهادة فخرية. أردت أن تمنحني إذنها بتزويده برقم هاتفها وعنوانها، في حال أراد الكتابة وعدم الاتصال. قالت، دون أن تعير للأمر أهمية، إنه يمكنه المجيء بعد ظهر اليوم التالي في الساعة الرابعة. سألتني عما إذا كنت أريد أن أكون موجودة، فقلت

إنه سيسرني ذلك، لولا أنها كانت قد رتبت لي مسبقاً مقابلة مع صديقتها سيلفي عند الساعة الرابعة والنصف في شقتها في شارع دو مين، وأنا أفضّل الالتزام بهذا الموعد. قالت إنه ينبغي عليّ أن ألفت انتباه هذا الأستاذ إلى أنه قد عرضت عليها العديد من الأوسمة قبل هذا التاريخ ورفضتها جميعًا لأنه قد تم الطلب منها أن تحضر مراسم المنح شخصياً: «أنا سيدة عجوز الآن، ولم أعد قادرة على القيام بهذه الرحلات الباهظة» اعتقدت أنه من المفارقات أنها كانت حينها لا تزال تتحدث عن السفر إلى نيويورك، ثم التجوال في مدن الساحل الشرقي بالسيارة والقطار. احتفظت بتلك الفكرة لنفسي وقلت لها إنني سأخبره عن الموعد لكنني سأترك كل شيء آخر لها.

عندما أخبرها الأستاذ بأنه سيُطلب منها حضور مراسم المنح شخصيًا، تمامًا كما كانت تشك في ذلك، رفضت الدعوة (كما أخبرتني لاحقًا) «بكل لطف وتهذيب»، قائلة إنها لم تعد قادرة على السفر. أستطيع أن أقول إنه شعر بالضيق من رفضها، خاصة بعد أن اندفع غاضباً ليقول «كيف، إذن، أخبرتني أنها تعتزم القيام برحلة إلى نيويورك بعد عام من الآن، عندما تكون أكبر سناً؟» أذهلتني المفاجأة عندما علمت أنها أخبرته بهذا، لكنه أوضح لي أنه بعد أن سألته عن لهجته وقال لها إنه من مواطني نيويورك الأصليين، أخبرته بشكل عرضي أنها تخطط لزيارتها. هكذا علمت أنها عادت لتفكر مجدداً في الرحلة التي كانت تخطط لها على مدار الأعوام الماضية. ولكن لأنها غيرت رأيها مرتين أو ثلاث مرات من قبل، لم أكن أعلم أنها تأخذ الأمر على محمل الجد ولم أقل شيئًا للأستاذ.

اقتربت نهاية شهرين من عملي في باريس سريعًا، وستنتهي قريبًا متعة الأيام التي كنت أحدد فيها جدولي الزمني. لقد شعرت بالخوف من العودة إلى كل تلك التطفلات على كتابي. سأعود إلى كامبريدج وستستمر إجازتي حتى أيار، لكنني شككت في أنني سأجد الهدوء اللازم للتفكير والكتابة الأمر الذي كنت أعول عليه. في تلك الليلة، وبينما كنت أخطط لعدد المقابلات التي سأقوم بها في الوقت الذي ستكون فيه بوفوار في بلدة بياريتز، كتبت قائمة بجميع الأشياء التي توقع مني الآخرون أن أقوم بها في حياتي المهنية. لقد كانت فترة طويلة، وفي النهاية شعرت بأنني قريبة من

اليأس بشأن كيف كنت سأكتب هذا الكتاب ومن أين ستأتيني الأموال لذلك، علاوة على الوقت.

لكن بعد أخذ كل ذلك في الحسبان، كان لا يزال أمامي ثلاثة أسابيع في باريس، وقررت الاستفادة منها.

الفصل الحادي والثلاثون

خلال الأسبوعين اللذين غادرت فيهما بوفوار، كنت أجري المقابلات بشكل يومي. وحينما قابلت أقاربها وأصدقاءها ومعارفها، لاحظت وجود اختلافات واضحة بين أصدقائها الفرنسيين وأصدقاء بيكيت الفرنسيين. أولها أنهم لم يكونوا يرغبون في إجراء المقابلات في الصباح، وكانت فكرة عقد لقاء على الفطور في وقت مبكر من الصباح، وهي شائعة في أمريكا، تجعلهم يشعرون بالرعب. ارتعد بعض أصدقائها من الكتاب ممن أمضوا وقتًا في الولايات المتحدة من هذا الاقتراح، مسترجعين ذكرياتهم حين تعرضوا لمثل هذه اللقاءات في نيويورك أو لوس أنجلوس. كان هناك شخص ما يقابلني من حين إلى آخر ليتناول معي قهوة الصباح، ولكن ليس قبل الحادية عشرة صباحاً. لقد كان ذلك مناسبًا لي تمامًا، حيث كان يتيح لي الوقت لإعداد أسئلتي لذلك اليوم.

لقد وجدت فرقًا آخر يميزهم عن أصدقاء بيكيت، الذين كانوا يميلون إلى التحدث باللغة الإنجليزية جيدًا لأنهم انخرطوا في مجتمع ثقافي أوسع. لقد عاش الكثير منهم أو عملوا أو درسوا في إنجلترا أو الولايات المتحدة، وقدموا منظوراً أوسع لمكان فرنسا – وبالتالي مكانهم – في الفضاء الفكري والثقافي. على الرغم من رحلات بوفوار الواسعة وعملها في تحليل الثقافات الأخرى، فإن حلقة من كانوا يرتادون منزلها في باريس كانت ضيقة بشكل غريب. كانت بيئة عملها تشمل الفلسفة والسياسة والأدب في بلدها الأم، وكان الأشخاص الذين ارتبطت بهم أكثر انعكاسًا لذلك. كان قليل منهم يتكلم بلغة غير لغته الأم، وإذا ما سافروا، كانت الغاية من سفرهم في الغالب قضاء العطلات والإجازات في الأماكن التي يتجمع فيها

آخرون مثلهم. قليل منهم رأوا أن هناك حاجة ماسة للابتعاد عن باريس حتى بالنسبة إلى عملهم؛ فالأساتذة الذين شغلوا مناصب في جامعات بعيدة عن المدينة كانوا يذهبون إلى وظائفهم هناك لكنهم أبقوا مقر إقامتهم الرئيسي في العاصمة. كل واحد منهم تحدثت إليه كان شخصاً محنكاً للغاية، ولكن بالمقارنة مع الأشخاص الفرنسيين الذين قابلتهم عندما كنت أعمل على تأليف كتاب سيرة حياة بيكيت، كانت هذه المجموعة من الأشخاص أقل تنوعاً نسبياً في وجهات نظرها وطرق تفكيرها. كان هذا اختيارهم الواعي، بالتأكيد، فهم يفضلون ببساطة تركيز اهتماماتهم ومساعيهم على مجتمعهم الأصلي. من خلال قضاء بعض الوقت معهم، اكتسبت نظرة ثاقبة في التاريخ والثقافة الفرنسيين ساعدتني على فهم سبب اتخاذ سيمون دي بوفوار الكثير من القرارات المثيرة للجدل التي كان يتساءل عنها القراء غير الفرنسيين.

اعتقدت أن فهم علاقات بوفوار مع الرجال كان مكانًا جيدًا لبدء مقابلاتي، ولان كلاً من سارتر وألغرين كانا ميتين، كان كلود لانزمان، الذي اشتهر بإخراجه فيلم المحرقة (Shoah)، أحد أوائل الرجال الذين اتصلت بهم. كان يعمل صحافيًا وكان أصغر من بوفوار بسبعة عشر عامًا عندما التقيا بعد أن كتب مقالًا عن سارتر، وعاشا علاقة حب استمرت منذ عام 1952 حتى عام 1959. وظلا صديقين مخلصين حتى نهاية حياتهما.

على عكس معظم أصدقائها المقربين الآخرين، أخبرني لانزمان أنه يفضل المجيء إلى شقتي بدلاً من إجراء اللقاء في مطعم أو في بهو فندق، وفي صباح يوم سبت، عندما يكون متفرغاً طوال اليوم ويمكنه التحدث باستفاضة. وافقت، على الرغم من أنني لم أكن أرحب بدخول حتى أكثر أصدقائي قرباً لي إلى هذا المكان المظلم والكئيب القابع في أسفل عمود التهوية. وفي ذلك اليوم الشديد البرودة عندما كان الثلج يتساقط، كانت درجة الحرارة منخفضة للغاية لدرجة أنني كنت قلقة من أن أرحب بلانزمان وأنا أرتدي معطفي وقبعتي. وحين اقتحم المكان فجأة، سرعان ما نسيت أمر البرد. لقد كان رجلاً ضخماً وذا حضور طاغ، متنشياً بنجاح فيلمه المحرقة، وسرعان ما انطلق في الحديث وفقاً لأجندته الخاصة.

لقد أظهر اختلافًا آخر بين أصدقاء بيكيت الفرنسيين وبين مَن أسميتهم

في مذكراتي اليومية أصدقاء دو بوفوار الفرنسية من «الفرنسيين». عادة ما كانت المقابلات مع أصدقاء بيكيت تبدأ بتبادل المجاملات قبل أن أشرع بتوجيه أسئلتي، وتكون البداية مع الأسئلة العامة، مثل متى التقيت به لأول مرة، وكيف كان يبدو في الأيام الأولى من صداقتكم — ودائمًا ما كان يؤدي هذا الأمر إلى التطرق إلى ذكريات سعيدة وتكون له ردود فعل إيجابية. ثم ينساب الحديث على مهل، خلال هذه الفترة أكون في حالة تأهب لالتقاط أية معلومة جديدة حتى أتمكن من التحول عرضياً نحو موضوع كنت أريد معرفة المزيد من التفاصيل عنه، وكنت أرغب في أن أتعمق فيه كثيراً. نادراً ما كنت قادرة على القيام بذلك مع أصدقاء دو بوفوار من الفرنسيين.

حاولت أن أبدأ حديثي مع لانزمان بالسؤال عن أحوال الطقس - وهو موضوع شائع في أي بلد أو ثقافة، كما أعتقد - بينما كنت أقدم له القهوة لتدفئته. تجاهل محاولتي تدفئته تلك بجملة قصيرة حين أشار ألى أنه قد جاء بواسطة المترو وتناول ما فيه الكفاية من القهوة، وقبل أن ينزع معطفه، انطلق في الحديث عن المرأة التي عرفها لسنوات عديدة، كان في السنوات الأولى حبيباً لها وهو الآن صديق مخلص وأمين لها. على مدار عدة ساعات، كان يتحدث وأنا أصغي له. لقد كان يعرف ما يريد أن يقول لي، لذلك سمحت له بأن يمضي قدماً، لأن كل شيء قاله كان مهمًا ومفيداً. في بعض الأحيان، كنت أقاطعه لكي أطرح سؤالًا يتعلق بموضوعه؛ وكان أحيانًا يرفض الإجابة عليه مباشرةً، لكنه في الغالب كان يواصل الحديث في الموضوع الذي يتناوله حتى ينتهي منه بشكل طبيعي. بعدها فقط يقوم بالإجابة عن سؤالي. لقد كان يستخدم هذه الطريقة دائمًا في كل مرة كنت ألتقيه فيها طوال فترة حياة بوفوار، وحتى بعد وفاتها، عندما استشرته للتحقق من الحقائق التي كانت في مخطوطة الكتاب. لقد كان وقحاً، وغاضبًا على ما يبدو من أسئلتي الاستقصائية (التي غالبًا ما كانت تتكرر). لقد كان رجلاً صعبًا ومتعنتاً بآرائه، ولكنه كان أيضًا ثاقب النظر وصادقًا للغاية. استطعت أن أتجادل معه وأعارض بعض آرائه، لكن دفاعاته النهائية عنها كانت عادة ما تثبت صحتها، لذلك كنت أثق به.

يوضح جدول مواعيدي مع لانزمان اختلافًا آخر بين سيرتي حياة بيكيت

وبوفوار. في عالم بيكيت، لم يكن هناك الكثير من الأشخاص الذين كنت بحاجة إلى مواعيد لاحقة معهم. باستثناء أولئك الذين كانوا أقرب إليه، كانت مقابلة واحدة عادةً كافية لمساعدتي في التأكد من الدور الذي لعبه ذلك الفرد في حياته. في عالم بوفوار، كان كل فرد تقريبًا ممن تحدثت إليهم، بغض النظر عن مدى قربه منها أو أن علاقته بها كانت هامشية، يتطلب أن أجري معه عدة لقاءات. كان لكل منهم أجندة محددة، ربما يجب أن أسميها من الناحية الفكرية الفرنسية المناسبة، نظرية أو أطروحة، وكانوا لا يسمحون لي بمتابعة أسئلتي. إلا عندما يكونون مقتنعين بأنهم قد عبروا عن أجندتهم بشكل كامل.

ولأضرب بعض الأمثلة، في لقائي الأول مع أولغا وجاك لوران بوست، لم يشاءا التحدث عن حياة بوفوار إلا في الفترة التي أعقبت وفاة سارتر. لكنهما كانا من أصدقائها المقربين طوال فترة حياتها وهي أمراة ناضجة، لذلك كان هناك الكثير مما كنت بحاجة إلى تعلمه منهما. كان لدي شعور بأن رؤيتهما معاً تمنع على الآخر ما يريد أن يقوله لي، وكنت على صواب. كان من الطبيعي أن أراهما على انفراد عندما أصيبت أولغا بالإنفلونزا وطلب مني بوست أن ألتقي به في حانة تقع في شارع بونت رويال. كان يجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه مع سارتر وبوفوار لعدة ليال، كان أكثر طلاقة في الحديث، وهو يتذكر قصة بعد أخرى، وشخصاً بعد آخر. كانت تلك الجلسات المنفردة مع بوست، التي كنا نحتسي فيها عادة الكثير من المشروبات في بداية المساء، مفيدة للغاية. كانت أولغا، ربما بسبب ماضيها الشخصي كعشيقة لسارتر وموضوع إحدى روايات بوفوار، أكثر تحفظاً. كنت أراها دائمًا في شقتهما، وبعد اللقاء الثالث أدركت أنني كنت أزعجها كثيرًا من خلال مطالبتها باستعادة ذكريات علاقتها الحميمة بسارتر وكذلك مع بوفوار. أنهيت لقاءاتي المباشرة معها ورأيتها مرة واحدة فقط، في رفقة زوجها في دعوة سريعة لتناول المشروبات.

أما بويلون وبونتاليس فقد قرأ كلاهما الترجمة الفرنسية لكتابي عن سيرة حياة بيكيت وكتبا نقداً له، بالإضافة إلى مقالات منفردة شرحا فيها بالتفصيل تفسيرات كل منهما لنفسية بيكيت. لم يقبلا أن يتحدثا عن بوفوار إلا بعد أن سمحت لهما بالتحدث عن بيكيت أولاً، وعندما تحدثا عنها، فعلا ذلك

من خلال تناول كيف تختلف حياتها وعملها عن حياته. لقد قرأ الكثير من أصدقاء بوفوار كتابي عن سيرة حياة بيكيت، وأعتقد أن كثيرين افترضوا أنني سأكتب عن بوفوار من خلال مقارنة حياتها وأعمالها مع حياته وأعماله. لم يناقش أولئك الذين كانوا يحملون هذا الرأي بوفوار بالأمر إلى أن استنفدوا قائمة الاختلافات بين الكاتبين، بدءًا من أساليب الكتابة إلى طبيعة شخصيتيهما. كان كل واحد منهم مصممًا على النظر إلى كتابي الثاني على أنه استمرار لما اعتبروه «أطروحة» كتابي الأول، وهي أطروحة لم يترددوا في عرض «تصويباتهم» عليها. لم يكن بإمكاني الاستماع لهم إلا مع ابتسامة مهذبة إلى أن تتاح لي أول فرصة لمقاطعتهم وجعلهم يعودون إلى المسار الصحيح ويتحدثون عن سيمون دي بوفوار فقط.

ولكوني كنت أدرك جيدًا مدى العداوة والنفور اللذين كانا قائمين بين بيكيت وبوفوار، كنت حريصة على تجنب ذكر أحدهما للآخر في أحاديثنا أو مراسلاتنا. كنت أسمح لهما بأن يقوما هما بذكر أحدهما لاسم الآخر أو أن يسألا أسئلة «عادةً عن شيء مرتبط بعملي معهما»، وأبذل جهدي كي أنتبه إلى إجابتي. لقد وجدت أنه من الغريب أنه رغم مرور سنوات عديدة، لم يتغير العداء الذي كان يحمله بيكيت ضدها ولا اللامبالاة التي أبدتها هي تجاه استيائه..

كنت محظوظةً في ذلك الشتاء لأن جميع اللاعبين الأساسيين في حياة سيمون دي بوفوار كانوا في باريس حينها وجاهزين لإجراء المقابلات معهم. كانت على رأس القائمة شقيقتها هيلين وكذلك سيلفي، التي أصبحت حينها ابنتها المتبناة رسميًا.

أعتقد أن سيلفي كانت قد أخذت حذرها مني قبل أن نلتقي، وظلت متحفظة تجاهي وتتجنبني بقية الوقت الذي كنت أعمل فيه مع بوفوار. في وقت مبكر من شهر كانون الثاني، بعد لقائنا الثاني، كنت أنا وبوفوار نجلس كما تعودنا بعد انتهاء كل مقابلة لنتناول قدحاً من الويسكي المخفف عندما سمعنا شخصًا يقوم بإدخال مفتاح في باب الشقة. توهج وجه بوفوار؛ واحمرّ خدّاها، استقامت بجلستها، وانحنت إلى الأمام وهي متلهفة. وقالت: «لا بد أنها سيلفي». «إنها تريد أن تلتقي بك». لقد فاجأتني تماماً بقولها هذا.

دخلت امرأة نحيفة ذات شعر داكن متوسطة القامة تبدو في الخمسينيات من عمرها، وتوجهت على الفور إلى بوفوار دون النظر إلى وجهي. تبادلتا التحايا مع عدة قبلات وبضع كلمات عن الطقس السيئ وحركة المرور الكثيفة قبل أن تستدير بوفوار لتقدم «دارييد» إلى صديقتها سيلفي. حينما قالت بوفوار اسمي الأول بتلك الألفة، ظننت أنني رأيت ظلًا داكنًا يعبر وجه سيلفي، لذلك، نهضت من مكاني كعلامة على الاحترام، ومددت يدي وناديتها «سيدتي».

نظرت إليّ باهتمام لكنها لم تقل شيئًا جواباً على كلامي ووجهت حديثها بالكامل نحو بوفوار. جلست أنا مبتسمة بهدوء ولكن لم أحاول الانضمام إليهما. بعد فترة وجيزة، شاركتني سيلفي في حديثها موضحة أنها توقفت لفترة وجيزة فقط لرؤية ما تريده بوفوار لتناول العشاء، وهي الآن في طريقها إلى التسوق. أثناء مغادرتها، أخبرتها أنني مسرورة جدًا لمقابلتها وسألتها ما إذا كانت على استعداد لمنحي فرصة إجراء مقابلة منفصلة معها. بدت مندهشة وكانت منزعجة بشكل واضح حتى قفزت بوفوار لتقول، «بالطبع سوف تقابلك سيلفي. سنحدد الموعد الليلة عندما نتناول العشاء».

بعد عدة أيام ذهبت إلى شقة سيلفي الواقعة في شارع ماين. ومجدداً كانت متحفظة، وحذرة، وكنت متيقنة أنها لم توافق على رؤيتي إلا مجبرة. لقد نبهتني بوفوار إلى «أن أكون لطيفةً» مع سيلفي وأن أجعلها تعرف بقدر ما أستطيع كل شيء عن الكتاب الذي كنت أنوي كتابته. كان لدي شعور أنها أرادت مني أن أطمئن سيلفي أنه لم يكن لدي رغبة في أن أسلبها المحبة التي كانت بوفوار تحيطها بها وليس لدي أي نية لمحاولة القيام بذلك، لذلك كان ذلك هو ما شرعت في القيام به. أمضيت الجزء الأول من لقائنا وأنا أحدثها عن نفسي وعن زوجي وحياة أولادي في الكلية وعن مسيرتي المهنية كأستاذة. ضرب ذلك الحديث على وتر حساس لديها، حيث كانت هي أيضًا معلمة. وقمنا بتبادل الأحاديث حول المواقف اللامبالية التي كانت لدى طلبتنا تجاه التعلم، وقد وفر ذلك انتقالاً سلساً للتطرق إلى بعض الموضوعات التي كنت آمل أن أشير إليها في كتابي، ولا سيما السنوات التي قضتها بوفوار في العمل كمدرسة في المرحلة الثانوية.

مرت الساعات العديدة التالية بسلاسة، ولم تخيب أملها أي واحدة منا. لم أرغب في طرح أي سؤال قد تعتبره مثيرًا للجدل أو سلبيًا، لأنني شعرت أنها لا تثق بي تمامًا. في الواقع، طوال اجتماعاتنا اللاحقة، شعرت دائمًا أنها ببساطة لا تحبني. لم أسهب في الحديث عن ذلك، ولم أحاول تغيير موقفها، لأنني لم أكن أبحث عن أفضل صديقة جديدة أو أي نوع من العلاقات الشخصية. كل ما أردته كان مشروعًا ناجحًا، كتابًا يجعلنا نفخر به كلانا.

كنت أستمتع بالعمل في الكتاب الجديد، لكن الكتاب القديم استمر في اقتحام حياتي. وبصرف النظر عن الأسئلة المستمرة حول بيكيت من أصدقاء بوفوار، تلقيت طلبات من الصحفيين الذين سمعوا أنني في باريس لمقابلتي والحديث عنه أو الظهور في برامج إذاعية للتحدث عنه. لقد رفضت معظم هذه العروض، لأن تلك الأنشطة المعنية لن تكون ذات فائدة كبيرة لمبيعات طبعته المترجمة إلى الفرنسية، ومحاولة جدولة مواعيدي لكي أشترك في هذه البرامج التي كانت تُبثّ في الصباح الباكر أو البرامج الحوارية التي كانت تقدم بعد منتصف الليل كانت أمراً مستحيلاً. لقد تحدثت على الهاتف مع عدد غير قليل من الأصدقاء الذين تعرفت عليهم في عالم بيكيت، لكنني تمكنت من إقناع معظمهم أنه لم يكن لدي الكثير من الوقت ولدي الكثير من العمل بخصوص الكتاب الجديد لذا لن أستطيع أن أراهم. في وقت لاحق، اعتقدت أنني فعلت ذلك لأنني كنت خائفة للغاية من أن يتداخل الكتابان. كان هذا مشروعًا جديدًا ومنفصلًا تمامًا، وكنت بحاجة إلى إجراء فصل واضح بينهما.

أما بالنسبة إلى بيكيت نفسه، فقد دفعتني مجاملتي المعتادة له لإخباره أنني في باريس وأعطيته عنوان ورقم هاتف شقتي. أرسل أحد ردوده المعتادة في منتصف فترة إقامتي، وكان عبارة عن إحدى بطاقات البريد الخاصة به وقد وضعها في مغلف بحجم الرسالة. كتب فيها أنه مشغول للغاية بترجمات العديد من مسرحياته الجديدة ويخطط للبقاء في بلدة أوسي لأطول فترة ممكنة لإكمال العمل. عاد شبحه ليظهر من جديد، ولكن ليس أمامي أبدًا، بل كان يتأرجح دائمًا في ذهني. كان ما يثير قلقي دائمًا أن أكتشف

مدى معرفته بما أقوم به، حيث كان يعلم هذه المرة أنني سأذهب إلى مدينة كاسل الألمانية في ختام إقامتي في باريس لأتحدث في ندوة تتناول أعمال بيكيت - وتمنى لي التوفيق.

لم أكن أتطلع إلى ذلك، لكنني قبلت دعوة من الجامعة الألمانية لأنني أقنعت نفسي بأنني يجب أن أقف في وجه الانتقادات الحادة الموجهة إليّ وبالتالي يجب أن أقبل كل هذه الدعوات. بعد فترة قصيرة من صدور كتابي عن بيكيت، قرأت ملاحظة أدلت بها النحاتة لويز بورغوا، التي أخبرت أحد المحاورين أن «المرأة ليس لها مكان كفنانة حتى تثبت مراراً وتكراراً أنه لا يمكن القضاء عليها». أصبحت تلك العبارة واحدة من التعاويذ التي حصنت بها نفسي للقتال المحتمل.

بالإضافة إلى ذلك، كان بإمكاني صرف النظر عن حضور المؤتمر في مدينة كاسل في الغالب لولا أنني في طريقي سأتوقف عند بلدية صغيرة في منطقة الألزاس تدعى غوكسويلير، حيث سألتقي هيلين دي بوفوار. وكنت بالكاد أستطيع الانتظار حتى يحين موعد ذلك اللقاء.



الفصل الثاني والثلاثون

استقللت قطارًا ليلياً ذاهباً إلى مدينة ستراسبورغ وأمضيت الليل في فندق كانت مدافئه تعمل بشكل صحيح إلى حد أنه كان حارًا جدًا قياساً بشقتي الشديدة البرودة مما جعلني اضطر إلى فتح النوافذ قبل أن أتمكن من النوم. عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، جاءت أخت سيمون دي بوفوار لاصطحابي إلى منزلها، حيث سنقضي اليوم في إجراء محادثة. لقد عرفتها لحظة دخولها إلى بهو الفندق، لأن هيلين دي بوفوار دي روليت لديها نفس القوام الجميل، ولون الجلد الفاتح، والبشرة الرائعة مثل أختها. الفرق الوحيد بينهما كان في لون الشعر. كان شعر سيمون بنياً كثيفاً بينما كان شعر هيلين أشقر طبيعياً.

لا بد أن هيلين عرفتني أيضًا، حيث وقفت عند طاولة موظف الاستعلامات في محاولة للحصول على مساعدته في تغيير حجزي إلى مدينة كاسل الذي لم يكن مناسباً لي لأنه كان في قطار ينطلق في وقت متأخر من الليل. ومن دون تردد، أخذت الأمر على عاتقها، وبعد مكالمة هاتفية واحدة، تمكنت من إصلاح تلك الفوضى الهائلة. لقد أكدت لي شيئاً عرفته من حديثي مع أقرب أصدقاء سيمون، أولئك الذين كانت تدعوهم «بالعائلة»، وكذلك عرفته من الناشطات النسويات اللواتي قابلتهن إما في مجموعات أو بشكل فردي: ربما كانت الشقيقتان سيمون وهيلين تبدوان متشابهتين، لكن سلوكهما كان مختلفًا كليًا. لم تكن سيمون قادرة تمامًا على التعامل مع أي نوع من التفاصيل، وكانت تشعر بالملل أو نفاد الصبر عندما يُطلب منها ذكر التفاصيل. كانت هي التي تمكنت من إدارة كل جانب من جوانب حياة سارتر لسنوات طويلة منذ وفاته حين تنازلت عن كل ما يتعلق

بها إلى سيلفي. كانت الناشطات النسويات يشعرن غالبًا باليأس بسبب عدم رغبتها في المساهمة في أي نوع من النقاش المنطقي أو اتخاذ قرار. كانت هيلين عكسها تماماً. فقد كانت تسعى دائماً إلى حل المشاكل.

ونحن في طريقنا إلى غوكسويلير، القرية الواقعة على الطريق المؤدي إلى مدينة فانس حيث كانت هيلين تعيش في مزرعة تم تجديدها يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر، وكانت أثناء حديثنا الذي تكلمت فيه عن نفسي أغلب الوقت تلفت انتباهي إلى كل موقع ذي أهمية تاريخية، كانت هيلين على عكس أختها، مهتمة بالناس، خاصة (كما وصفتني) «الصغار منهم». لقد قرأت أيضًا كتابي عن سيرة حياة بيكيت، وقرأه كذلك زوجها، ليونيل دي روليت، وهو دبلوماسي متقاعد، وأخبرتني أنهما كانا حريصين على التحدث عن ذلك أثناء الغداء. ولكن قبل ذلك رغبت أن تريني منزلها وأن نتناول القهوة ونتحدث عن أختها.

لقد فوجئت عندما أنزلت في ممرات القرية الصغيرة لندخل إلى الفناء المؤدي إلى منزلها، لأنني كنت أتخيل شيئًا يشبه مزرعة ريفية. كان داخل الفناء نوع من حظيرة طفحت فيها مخلفات مزرعة كأنها تعود إلى عدة قرون. وكان بجانبها مرسمها الصيفي، وهو عبارة عن منطقة صغيرة محصورة ولكن لا تحتوي على وسائل تدفئة حيث رسمت فيها لوحات كبيرة في الطقس الدافئ. كان المنزل الرئيسي عبارة عن متاهة من الغرف بمستويات مختلفة، مما يدل على وجود أبنية تمت إضافتها بشكل عشوائي على مدار عدة قرون. ومع ذلك، كان مكانًا مريحًا وممتعاً وكان يبدو بوضوح أنها كانت تعيش فيه حياة هانئة. كان لدى ليونيل غرفة نوم وغرفة للقراءة في إحدى نهايات المبنى، وكانت غرفة نوم هيلين تقع في الجهة الأخرى. كانت غرفة النوم أيضًا بمنزلة مرسمها الشتوي، حيث كانت تعمل في مشاريع أصغر، وقد وضعت في مكان مميز على طاولة متينة كانت بجانب سريرها حجرًا مسطحًا كبيرًا كانت تستخدمه في العمل الذي بدأت تستمتع به مؤخرًا، وهو النقش الدقيق على لوحات مصنوعة من النحاس.

جلسنا هناك طوال الصباح، تحدثنا لفترة طويلة للغاية لدرجة جعلت ليونيل ينادينا من الجزء الآخر من المنزل لتذكيرنا بأن الوقت قد تأخر عن

الغداء وأنه يشعر بالجوع. كانت هيلين طباخة ممتازة، وقدمت لنا على الغداء طعاماً وفيراً على طاولة جميلة في صحون من الخزف الصيني القديم وأطباق الفضة القديمة الخاصة بالعائلة. في وقت لاحق، عندما قدمت لنا شاي فترة ما بعد الظهيرة، وكان من صنف لابسانغ سوشونغ (صنف من الشاي يشار إليه أحيانًا باسم الشاي المدخن، وهو شاي أسود أصله من منطقة ووبي الجبلية في مقاطعة فوجيان في الصين - م) وبطريقة احتفالية في أكواب من البورسلين كانت رقيقة لدرجة أنها بدت شبه شفافة. كان كل شيء لمسته هذه المرأة بهياً وجميلًا، على النقيض تماماً من الحياة التي كانت تعيشها أختها في شارع شوليشير. تبادلنا المزاح حول عدم معرفة سيمون شيئاً عن جميع الأمور المنزلية، وبدأت هيلين تقلد طريقة ازدراء أختها التعامل مع تلك الأمور حين تلوح بيدها رفضاً لها وحديثها الذي لا يتوقف عن أن لديها أشياء أكثر أهمية تفضّل القيام بها.

تحدثنا لساعات طويلة طوال فترة ما بعد الظهر إلى أن حلّ المساء، عن أيامها كطالبة فنون في باريس وكزوجة رجل دبلوماسي في البرتغال وإيطاليا. عندما تحدثنا عن أيام صباها، أخبرتها كيف تختلف ذكرياتها السعيدة بطرق عديدة عن ذكريات سيمون القاتمة. أخبرت هيلين كيف وصفت سيمون الشقة التي كانت تسكنها عائلتهما بأنها كانت مظلمة دائمًا لأنها لم تحصل إلا على القليل من الضوء الخارجي وكيف أن والدتها لم تكن تسمح باستخدام الإضاءة الصناعية. انفجرت بالضحك وهي تصف لي الشقة المليئة بالضوء في الطابق الثالث من المبنى الذي يضم مقهى لا غوتوند الشهير، ذات النوافذ الكبيرة التي تفتح على شرفات تقع مباشرة فوق الأشجار التي تصطف على جانبي شارع مونبارناس.

كانت سيمون تتذكر المناسبات الرسمية التي تتجمع فيها السيدات اللواتي يرتدين ثياباً سوداء مقرفة حول طاولة الطعام بوجوه متجهمة رفضاً لحركات الأطفال المتململين، الذين كان من المفترض أن يجلسوا صامتين احتراماً للأشخاص الأكبر سناً. في حين كانت هيلين تشير إلى ذكرياتها عن بعد ظهر يوم الأحد بأنه من أسعد الأوقات، فبعد الانتهاء من مأدبة غداء ضخمة كان جدهم يطلب سماع الموسيقى فيقوم شخص ما بالعزف

على البيانو بينما يغني الآخرون فيما تقوم دلوعة العائلة، هيلين الصغيرة، بالرقص وفي كثير من الأحيان، على أنغام أوبرا هيلين الجميلة للموسيقار جاك أوفنباخ، التي كانت تحظى بشعبية كبيرة في باريس في ذلك الوقت. سألتها «ماذا كانت تفعل سيمون أثناء الرقص؟» فتجيبني «أوه، ربما كانت عابسة الوجه لأنها كانت تريد أن تخرج لتجد لها مكاناً تقرأ فيه كتاباً بدلاً من مشاهدة الرقص». وتردد صدى ضحك هيلين عالياً وهي تتذكر تلك الأيام. كانت الاختلافات كبيرة بين ما سمعته من سيمون وما أخبرتني به هيلين عن كل شيء ابتداء من أيام صباهما في منزل العائلة، في بلدة ميرينياك، وانتهاءً بعلاقة سيمون مع جان بول سارتر.

خلقت هذه الاختلافات مشكلة بالنسبة إليّ خلال عملي في تأليف سيرة حياة سيمون، فكيف يمكنني تحديد أي من الأختين كانت ذاكرتها هي الأكثر صحة؟ كيف كان عليّ عرض «الحقيقة الواقعية»، وما هو الأسلوب الذي أستخدمه لأقنع القارئ أنها كانت الحقيقة الموضوعية وليس اعتماداً على أحد الشهود دون الآخر، وأن هذا ليس ما أردته أن يكون بل هو ما كان موجوداً في الواقع؟ كنت أتساءل لماذا كنت على استعداد لاعتبار هيلين صاحبة الحقيقة الموضوعية الموثوقة وأن أعطي لسيمون دور الراوية غير الموثوقة التي أرادت تضمين حقيقتها الشخصية في القصة التي أرادت أن يصدقها العالم. حدث ذلك في الأيام الأولى للمقابلات التي أجريتها مع سيمون دو بوفوار، لذا أصبحت مسألة السرد الموضوعي هذه شيئًا عالقاً في ذهني دائمًا، وهو شيء كنت قلقة عليه وكنت أكتب وأعيد الكتابة وهو في بالي حتى حان وقت إرسال المخطوطة إلى المطبعة حين لم يعد يمكن إجراء المزيد من التغييرات عليها.

إليكم أحد الأساليب التي اتبعتها في الكتابة عن بيكيت والتي انتقلت إلى كتابتي عن بوفوار. كلما كانت تتوفر عندي مصادر متعددة، وكانت تلك المصادر تقدم روايات عن نفس القضية، أو الحادثة، أو الموقف، كنت أدونها جميعًا في خلاصة غير رسمية. كانت تأخذ في بعض الأحيان شكل قائمة، وأحيانًا أخرى شكل مخطط، وأحيانًا أخرى شكل مثال على «السرد المنمق العاطفي» حيث كنت أكتب كل شيء في نوع من السرد الذي

كنت بحاجة إلى دراسته من أجل انتقاء ما يبدو مهمًا، ومتميزاً، وصادقاً، وموضوعياً - ويمكن ذكرالعديد من الصفات في هذا المجال - للوصول إلى الواقع «الحقيقي». وحتى عندما كنت أفعل كل هذا، كنت أدرك أنني قد أسمح لنفسي بعرض تصورات خاطئة عن سيرة حياة بوفوار من خلال منح أفضلية لمجموعة من الحقائق على حساب مجموعة أخرى. عندما كتبت عن بيكيت أحببت أن أبدو أنني أكتب بموضوعية شديدة وأن أشير في قصة حياته إلى شهادات الكثير من معارفه القريبين، لكن بعد هذا اللقاء الأول مع هيلين ولقاءاتي التي سبقته مع سيمون، كان عليّ أن أتساءل ما إذا كنت أخاطر بموضوعيتي من خلال إعطاء الأولوية، إن لم يكن التفضيل الفعلي، لرواية إحدى الأختين على حساب الأخرى. هل كنت أميل إلى قبول الرواية التي كنت أرغب في كتابتها بدلاً من تلك التي حدثت بالفعل؟

تحدثت عن هذا الأمر مع هيلين وهي تقودني بسيارتها إلى محطة قطار ستراسبورغ في تلك الليلة الباردة والممطرة. وحثتني على أن أمنح ذكريات أختها المصداقية والأولوية على كل ما يقوله الآخرون وكما كانت تقول مرارًا وتكرارًا فإن «أختي هي الشخص الأكثر صدقًا الذي أعرفه. إنها لا تخفي الحقيقة أبداً لتختلق أي شيء تخبرك به لأجل منفعتها». ثم قامت بتقييم ما تقوله: «سوف تخبرك الحقيقة كما عرفتها، أو كما صدقتها. لا،» وشددت حينها على كلماتها قائلة «كما كانت ترغب أن تكون». ولقد وجدت، في كل شيء تقريباً سألت عنه سيمون بشكل مباشر، أن هيلين كانت على حق.

زاد المؤتمر الذي انعقد في مدينة كاسل من قلقي بشأن ماهية «الحقيقة الواقعية». كنت أعرف كل النكات القديمة حول كيفية كتابة التاريخ من قبل آخر شخص يبقى على قيد الحياة، وأثبت أحد الأحداث كيف يمكن لهذا الشخص الأخير أن يخلد كذبة ما ينبغي للأجيال القادمة أن تدرسها بعناية. مع أن بيكيت أمضى فترات طويلة من الزمن في ولاية هيس الألمانية التي كانت مكان انعقاد المؤتمر، والتي عاش فيها أبناء عمه سنكلير، فقد بحث المشاركون في المؤتمر عن أي شخص قد يتذكر بيكيت أو أبناء عمه. لقد كانوا مهتمين بشكل خاص بأي معلومات حول بيغي، ابنة عمه التي ماتت وهي صغيرة بشكل مأساوي بسبب مرض السل، والتي يعتقد الكثير من

الباحثين أنها كانت مصدر إلهام بيكيت لشخصية المرأة في مسرحيته شريط كراب الأخير.

عندما ماتت بيغي، كان لديها شقيق أصغر منها سناً وكان يبلغ من العمر ثماني سنوات وكانت صديقته الطيبة للغاية فتاة ألمانية صغيرة، تبلغ من العمر ثماني سنوات أيضاً. لقد كان المشاركون في المؤتمر متحمسين للعثور عليها، وكانت حينها امرأة مسنة، وقاموا بدعوتها لمشاركتهم ذكرياتها عن الأوقات التي قضتها في منزل سنكلير أثناء زيارات بيكيت له. كانت تتباهى في كثير من الأحيان في جميع أنحاء المدينة بأنها تحتفظ بذكريات كثيرة عنه. تم الترويج لظهورها على أنه حدث مميز، وقد أصغى جميع الحاضرين لها بكل اهتمام عندما بدأت تتحدث.

كانت امرأة ذات أصول متواضعة وتعليم بسيط، وكما كشفت ذكرياتها عن عائلة سنكلير، أصبح من الواضح أن طفلة صغيرة مثلها لم يكن بإمكانها ملاحظة سلوك أشخاص بالغين مثلما وصفته. عندما ضغط عليها الجمهور بأسئلة لا يمكن إلا لشخص أكبر سناً الإجابة عليها، أصبحت حمراء الوجه، ومحرجة، وعلا صوتها. ثم بدأت في اختلاق القصص. كانت تحاول التأثير في جمهور الحاضرين، لتقدم لهم أية رواية من الواقع الذي كانوا يرغبون في سماعه وتختلقها في تلك اللحظة، لأنه من الواضح أنها لم تكن تتذكر الشاب صامويل بيكيت إلا قليلاً أو لم تكن تتذكره على الإطلاق. كان من المحزن أن يرى المرء كم كانت مصممة على نيل الرضا.

في نهاية المطاف قاطع أحد المشاركين في الاجتماع ما أصبح عبارة عن مناجاة صاخبة، وشكرها على قدومها، وقادها إلى خارج المسرح. أثناء اختراقها جموع الحاضرين، حاولت أن تتبادل النظرات معهم، لكن معظم الأشخاص رفضوا النظر إليها. لقد كانت محرجة ومهانة بشكل واضح، وشعرت بالحزن عليها. ومع ذلك، فقد أثبت ذلك الحدث لي مرة أخرى كيف يجب على كاتب السيرة أن يزن ويقيس ذكريات كل شخص يسمعها قبل أن يذكر أي شيء منها للأجيال القادمة. إذا كنت لا تثق بالراوي، لا يمكنك الوثوق بالحكاية.

الفصل الثالث والثلاثون

في اللحظة التي انتهى فيها المؤتمر، استقللت القطار إلى فرانكفورت القريبة ثم عدت إلى باريس، ولم أرغب في إضاعة لحظة واحدة في الأسابيع الأخيرة من عملي. كنت قد أمضيت أربع عشرة ساعة مفيدة مع سيمون دي بوفوار قمت بتسجيلها على شريط كاسيت، وست ساعات مع هيلين، ولم أكن قد حسبت بعد عدد الساعات التي قضيتها مع أشخاص آخرين. كان أمامي حضور عدة جلسات أخرى مع بوفوار وجولة أخرى من المقابلات مع أولغا وبوست، من شأنها أن تكفيني بل وتزيد لتمضية رحلة عودتي في الاستماع إليها.

أثناء تناول القهوة في أول صباح لي في باريس، أدهشتني إيلين رايت حين أخبرتني أن الناشرين أصبحوا فجأة يتلهفون على مقابلتي للحديث عن توقيع عقد للكتاب. ولقد اعتقدت أن الاهتمام بكتاب عن حياة بوفوار سببه صدور كتاب بيني ليفي الجديد عن سارتر: «*تمتلئ الصحف والمجلات بقصص عن قيام ليفي بكسر «صمته الذي دام عامين». إنهم جميعًا إلى جانبه وضد «عشيرة المرأة العجوز» [وتعني مجموعة الأشخاص الذين كانت بوفوار تعتبرهم عائلتها]، ولكنهم بشكل خاص ضد سيمون دو بوفوار. لا أعرف لماذا كنت مندهشة للغاية من هذا الأمر. يجب أن أعرف الآن أن الناس لا يحبونها*». ومع ذلك، إذا كان هذا ما جعل الناشرين الفرنسيين يريدون كتابي، فإن ذلك لن يدعوني للتذمر. وعندما رأيت بوفوار لغرض البدء بإجراء مقابلاتنا، اعتقدت أن الوقت قد حان للبدء بطرح الأسئلة الصعبة التي كنت قد أجّلتها حتى الآن. لقد كان أسبوعًا مثيرًا للاهتمام، ولم يكن هناك شك في ذلك.

كانت سيمون حريصة على سماع تفاصيل زيارتي إلى هيلين، لذلك بدأنا حديثنا مع سردي لذكريات هيلين. كانت سيمون مفعمة بالحيوية وبدأت تضحك وهي تتذكر مغامرات صباها، خاصة تلك المتعلقة بمجيء سارتر إلى بلدة ميرينياك في صيف أحد الأعوام التي كانت لا تزال فيها طالبة وكيف خبأته في برج الحمام الكائن في البيت المجاور الذي تسكنه عائلة لاغيير خوفاً من أبيها الذي كان يمنعها من مقابلته. أصبحت بوفوار مفعمة بالحيوية وهي تقلد ابنة عمها ماجدولين وكيف كانت تقوم بتهريب الطعام له الذي كانت تخبئه في مريلتها. كانت في حالة مزاجية مرحة وهي تخبرني كيف كانت تتسلل ليلاً لتكون معه، واعتقدت أن هذه ستكون فرصة مناسبة لطرح بعض الموضوعات الحساسة التي كانت مترددة حتى الآن في الحديث عنها.

لتبديل الحديث في هذا الاتجاه، أخبرتها بالخبر السار أن الناشر كلود دوراند من دار نشر إيديسيون فيار الذي أصدر كتابي عن سيرة بيكيت، عرض عليّ عقدًا لطبع كتابي عنها. وأعربت عن سرورها لأن سيرتها ستصدر أيضًا عن طريق هذا الناشر المحترم. جعل ذلك من السهل عليّ أن أخبرها أنني قد قرأت للتو الكتاب الذي هيمن على الأخبار الأدبية، وهو كتاب بيني ليفي عن سارتر. وسألتها هل يمكننا مناقشة ما جاء في ذلك الكتاب؟ تغير مزاجها فوراً. احتقن وجهها بالدم وصار صوتها غليظاً عندما بدأت تتحدث عن سنوات سارتر الأخيرة. عندما سألتها عن ليفي قبل ذلك الوقت، هاجمته لأنها كانت تعتبره كاذبًا ويتلاعب بالحقائق لكنها كانت مترددة في الخوض في التفاصيل إلى أبعد من القول إن «قصة تحول سارتر إلى اليهودية كانت من اختراع بيني». أما في تلك اللحظة فقد قالت: «نعم، كان سارتر في جزء من شخصيته يهودياً، وكان هذا بالطبع جانبًا من جوانب وجوده. لكنه كان فرنسيًا أيضًا، وكانت هويته الفرنسية هي الأهم بالنسبة إليه. لقد كان كاتبًا وشخصية سياسية وابنًا صالحًا لوالدته وعاشقًا لكثير من النساء. كان كل هؤلاء، وكانوا جميعًا جزءًا منه. لم يعتنق الدين اليهودي: الهوية اليهودية لم تصبح الجزء المحدَّد له، كانت جزءاً واحداً فقط من أجزاء كثيرة من شخصيته. لقد كانت كذبة فظيعة أن يجعل سارتر يتخلى عن كل تلك المبادئ التي دافع عنها طوال حياته».

كانت مترددة في الخوض في تفاصيل شرح كيف أصبح ليفي إحدى شخصيتين هيمنتا على سارتر في سنواته الأخيرة، فقد تمكن من تهميش أو استبعاد أي شخص آخر، وخاصة بوفوار. كلما ضغطت عليها للحصول على مزيد من التفاصيل في المقابلات السابقة، شعرت أن ترددها مرتبط بما تعتبره فشلًا شخصيًا: وشعورها بالخجل لأنها تخلت عن الرجل الذي أحبته عندما أصبح عاجزًا. وسألتها حينها عما إذا كانت قد منحت رعايته للآخرين عن طيب خاطر بسبب هذا الحب، لأنها لم تستطع تحمل أن تشاهده عاجزاً. وقد أثبتت ذلك عندما أشارت إلى أن الكثير من تفاصيل حياة سارتر اليومية أصبحت قاسية وحزينة، وكان من الأسهل السماح لذينك الشابين اللذين لم يمانعا في أن يكونا بجانبه ويقوما بأداء المهام الشاقة التي كانت لازمة لاستمراره في البقاء. تسببت سنوات من التدخين والشرب في تصلب شرايين سارتر وإضعاف دماغه. كان في كثير من الأحيان مصاباً بالسلس وكثيراً ما كان يتبرز على نفسه؛ لم يعد يهتم بنظافته الشخصية؛ وغالبًا ما كانت ثيابه متسخة وأنفاسه عفنة ورائحته كريهة. لكنه ظل يرغب بإحضار شابات جذابات يشاركنه الفراش، وجاءت كثيرات، كن يردن التفاخر بأنهن يعشن مع الفيلسوف العظيم. ووفقًا لما قالته بوفوار، فقد كانت من أكثرهن تميزاً، فتاة أجنبية كانت تعاني من مشاكل في التأشيرة، وكانت سعيدة بالامتثال لرغباته مرارًا وتكرارًا.

بمجرد دخول أرليت إلكايم إلى حياة سارتر، سمحت لها بوفوار بالحصول على مركز الصدارة فيها، واستمرت فقط في مواصلة مهمة استرضاء عشيقتيه القديمتين، ميشيل فيان (أرملة بوريس فيان) وفاندا كوساكيفيتش (شقيقة أولغا بوست). لم تكن بوفوار قط حنونة، ولكن عندما منعت أرليت المرأتين من رؤية سارتر (الذي كان أكثر شخص يدعمهما بالمال) وباتتا تشعران بالضيق، شعرت أنه ليس لديها خيار يذكر. كانت ميشيل في المراحل المبكرة من الخرف، وتفاقمت حالة عدم الاستقرار العقلي الطويلة الأجل لدى فاندا، الأمر الذي أثار قلق أصدقائها الذين كانوا يخشون أن تتسبب في أضرار جسيمة لنفسها. كانت بوفوار هي من رأت أن الأموال التي كان يدفعها سارتر كل شهر لإعالتهما يجب أن تستمر

في التدفق، وكانت هي التي سارعت إلى تهدئتهما عندما تصرفتا بطريقة غير عقلانية.

كما قالت شقيقتها، وكما كان واضحًا في كتاب بوفوار وداعاً سارتر الذي تحدثت فيه عن السنوات الأخيرة لسارتر، فإنها لم تحاول إخفاء الحقائق غير السارة، كما أنها لم تحاول تخفيف أو تجميل أي مظهر من مظاهر البشاعة التي ميزت سنوات سارتر الأخيرة. كما أنها لم تحاول أن تلطف من حقيقة كيف أن تخليها عن المسؤولية عنه أسهم في التأثير في حياته. حينما حان الوقت لتتحدث فيه معي عن الموضوع، لم تقل شيئاً طيباً عن أرليت إلكايم سارتر، المرأة اليهودية الجزائرية الشابة التي كانت عشيقته أولاً ثم أصبحت ابنته بالتبني. كانت تستشيط غضباً مرارًا وتكرارًا وهي تروي كيف تمكنت أرليت من خداع جميع أفراد (عائلة) سارتر لقبول وجودها باعتبارها «صديقته». ما إن سمحوا لها بتولي الإدارة اليومية لوجبات طعامه ونظافته الشخصية، حتى أصبح من السهل السماح لها بالاعتناء بشقته والاطلاع على أموره الأدبية. ولم يدركوا أنهم قد تعرضوا «للخداع». إلا عندما أعلن سارتر أنه قرر أن يتبنى أرليت ويجعلها وريثته الوحيدة.

لكن حينها كان قد فات الأوان. أنقذت بوفوار ماء وجهها من خلال تصوير نفسها للرأي العام كمدافعة غيورة عن أرليت، متظاهرة بأنها موافقة على قرار سارتر إلى حد أنها قبلت أن تكون وصية على أرليت خلال مرحلة الإجراءات القانونية التي يتطلبها القانون الفرنسي، لأنه كان لا يحق لشخص من غير أفراد الأسرة أن يرث ممتلكات عائدة له (وكان سارتر يمتلك الكثير)، ولا يمكن لشخص لا تربطه به صلة دم أن يرثه إلا إذا تم تبنيه قانونًا. كانت بوفوار مصدومة بينها وبين نفسها ولكنها كانت تقول للعالم بأسره إنها كانت تؤيد قضية التبني منذ بداية «علاقة الصداقة التي جمعت [سارتر وأرليت]». لم تكشف إلا لي أنا ولهيلين ولانزمان، غضبها من الخيانة التي حدثت من وراء ظهرها.

بعد أن نجحت في حث بوفوار على إخباري عن سبب احتقارها بيني وأرليت، اعتقدت أن الوقت قد حان للضغط عليها لتناول الموضوع الرئيسي الذي كان منذ فترة طويلة مصدر خلاف بيننا، وهو حياتها الجنسية. أردت أن

أتجاوز علاقاتها مع الرجال إلى تلك التي كانت لديها مع النساء، لكنني كنت أعلم أنني يجب أن أتحرك بحذر.

كنت كلما تناولت هذا الموضوع في ذهني، كانت ترد على بالي تعابير كرة المضرب. كنت أبدأ دائمًا بالرمية السهلة، وكنت احتفظ بالرميات الصعبة أسفل الخط إلى وقت لاحق، وكان هناك دائمًا أمل في أن أتمكن من التسلل من خلال إحدى السقطات (حين تقع الكرة بالقرب من الشبكة) التي قلما كانت بوفوار تتوقعها. كانت أسهل طريقة أستخدمها هي أن أطلب منها التحدث عن «العقد» الذي أبرمته مع سارتر عندما كانا طالبين بأن يكملا مشوار حياتهما معاً. كان الاتفاق ينص على أن يحملا على الدوام عواطف أصيلة بعضهما تجاه بعض، ولكنهما سيكونان أيضًا حرَّين في الدخول في علاقات «متعددة». وبينما كانت تشعر بالقلق (على الأقل في بداية محادثاتنا)، كان كل شيء مرتبطاً بسارتر طوال علاقتهما قد أصبح كما أرادت تمامًا، يتسم بالكمال المطلق. ومع ذلك فإن كل شخص آخر في «عائلتيهما» أخبرني ما الذي جعلهم يعتقدون أن بوفوار تأقلمت مع شهوات سارتر الجنسية النهمة، وكانت قصصهم بالكاد تصورها كشريك يقبل طواعية خيانة شريكه الآخر المستمرة. بل كانت تصورها بدلاً من ذلك، كامرأة مدمرة للغاية وقد تراكمت في داخلها مشاعر الألم العاطفية لدرجة أنها كانت غالباً ما تعزي نفسها بالإفراط في تناول الكحول وتغرق في البكاء حد الاحتراق.

تحدثنا عن كل هذا بينما كنا نجلس في أماكننا المعتادة، بوفوار على أريكتها التي تقضي فيها ساعات النهار، وأنا في أقرب كرسي من تلك الكراسي الجميلة الصغيرة، وكانت تفصل بيننا طاولة القهوة. كانت بوفوار قد توقفت عن استخدام جهاز التسجيل الخاص بها بعد فترة وجيزة من انتهاء جلساتنا الأولى ولم تعد تقوم باستخدام عدة «العمل» الخاصة بها. ظلت أقلامها الحبر مغطاة بطبق صغير، ولم تستخدم قط المفكرة الصغيرة الموجودة بجانبها. ومع ذلك، واصلت أنا تهيئة أسئلتي على بطاقات الملفات الصغيرة وكنت أضعها بجوار جهاز التسجيل الخاص بي. كنت أحمل معي دفتراً للكتابة بطريقة الاختزال وأدون فيه جميع أنواع الأشياء

أثناء تحدثنا، بما في ذلك الكلمات والعبارات الفرنسية التي تصدر بشكل عرضي والتي أحتاج إلى البحث عنها لاحقًا، كانت مفرداتها غنية ومتنوعة لدرجة أنه كانت هناك أوقات لم أكن متأكدة من أنني أفهمها بشكل صحيح وكنت بحاجة إلى التحقق من كلماتها. في بعض الأحيان كنت أطلب من صديقاتها الاستماع إلى أجزاء من أشرطة التسجيل وتزويدي بتفسيرات دقيقة لما تقول إلى جانب ترجمتها.

اعتبرت اتخاذها موقفاً أكثر استرخاء دليلاً على تنامي الثقة بيننا، لكنها مازالت بحاجة إلى رؤيتي أعمل بشكل محترف، وقد خلقت بطاقات ملفاتي الصغيرة مواقف حساسة أحيانًا. في معظم الجلسات، كانت كومة أوراقي الواحدة تنقسم سريعًا إلى قسمين أثناء حديثنا، قسم يضم الأسئلة التي تم طرحها والإجابة عليها والقسم الآخر يضم الأسئلة التي لم يتم طرحها بعد. في بعض الأحيان، عندما كنت أرى أن هناك سؤالًا يؤدي إلى منطقة حساسة قد لا ترغب في الذهاب إليها، كنت أحاول دفع البطاقة التي تحتويه إلى أسفل الكومة التي تضم الأسئلة التي لم يتم طرحها بعد لأعود إليها لاحقًا، عندما يكون الوقت أكثر ملاءمة. كانت دقيقة الملاحظة بشكل لا يصدق. فتسألني «ما هذا؟». فأستجمع قواي وأجيبها «ليس بالشيء المهم» وأنا أحاول أن أظهر عدم اكتراثي. «يمكننا دائمًا العودة إليه لاحقًا». لم يكن يثنيها شيء فتقول. «اسأليه الآن»، كانت تصرّ في حين كنت أجرب كل أنواع الخدع التي لن تتسبب في غضبها. غالبًا ما كانت الخدعة التي أفكر فيها شيئاً عادياً للغاية لدرجة أنني كنت أعرف أنها تعلم أنني اخترعتها أثناء حديثي معها!

ولكن كان يشتعل وميض من الغضب الحقيقي من حين إلى آخر، كما حدث، على سبيل المثال، عندما ضغطت عليها للحديث عما فعلته هي وسارتر (أو لم يفعلاه) خلال فترة الحرب. في إحدى الجلسات، قفزت تماماً من مكان جلوسها المعتاد ووقفت وعلى وجهها تعبير غاية في الصرامة لم يسبق لي أن رأيته في أي وقت مضى وصرخت قائلة: «انتهت هذه المقابلة! يجب أن تخرجي حالاً!» لقد صدمت من غضبها ولم أكن أعرف ماذا أفعل، لكن بما أنها كانت واقفة، فقد وقفت أنا أيضًا. بقيت مترددة لفترة طويلة، في حين كانت هي تصرخ قائلة «اخرجي! اخرجي!» جمعت كل ما عندي

من الأشياء بأسرع ما يمكن، وارتديت معطفي إلى النصف وتدلى وشاحي وعثرت به، ثم توجهت إلى الباب. من الواضح أنني لم أكن أتحرك بسرعة كافية، لأنها أعطتني فعلياً دفعة صغيرة في ظهري وأغلقت الباب ورائي.

«والآن ماذا أفعل!؟» كان هذا ما فكرت به باستمرار خلال الأيام القليلة التالية، حتى إني لم أفعل شيئًا للتواصل معها، وذلك لأنني لم أكن أفكر في أي شيء يبدو مناسبًا. وبدلاً من ذلك، ذهبت ببساطة في الوقت المحدد لمقابلتنا التالية بعد ثلاثة أيام. استأنفنا المحادثة كما لو أن شيئاً لم يحدث. حينها تعلمت أنه لا يمكنني الضغط عليها كثيراً إلا بعد أن ترفع ما أسميته «حاجز الكلفة الزجاجي الرسمي بيننا».

كنت أطرح السؤال «أ»، فتجيب عليه، وهي تعلم أنني على الأرجح سأنتقل بعد ذلك إلى السؤال «ب». كان هذا جيدًا أيضًا، على الرغم من أنها يمكن أن تشعر أن السؤال «ج» هو التالي في قائمتي. لم تكن تجيب عن السؤال ج، لأن هذا السؤال هو الذي سيأخذني إلى المكان الذي أردت الذهاب إليه، وهو السؤال د، ولم تكن تريد بالتأكيد أن تجيب على هذا السؤال. فتضع حينها ذلك الحاجز الزجاجي بيننا. كان بإمكاني رؤيتها بوضوح من خلاله وكانت تراني كذلك، لكننا لم نكن نتمكن من سماع بعضنا بعضاً، ولا يمكننا إجراء أي نوع آخر من الاتصال، وكان هذا هو بالضبط ما تريده.

ومع ذلك، لم أكن لأرتدع: في بعض الأحيان كنت أعرف أنني إذا أردت الإجابة على السؤال «د»، فسيتعين عليَّ أن أقودها إليه. سأرسم ابتسامة على وجهي، ولكن مع نبرة جدية حادة في صوتي وأن أخبرها أن الوقت الذي أحتاج فيه فعلاً إلى الإجابة على السؤال «د» قد حان قبل أن أتمكن من كتابة أي شيء آخر حول هذا الموضوع بالذات. وكان يحدث ذلك عندما كانت تجلس في مقعدها متكورة على نفسها، بجسمها البدين والقصير، وبملابسها الرثة، ومزاجها النكدي لفترة طويلة إلى حد ما قبل أن تطلق أخيرًا تنهيدةً طويلة وتخبرني بما أحتاج إلى معرفته للتأكد من أن ما كتبته كان رواية دقيقة للموضوع قيد البحث. كانت علاقة بوفوار بالنساء أحد تلك المواضيع تحديداً، لكن في حالة سيلفي لو بون، لم أكن بحاجة حتى للوصول إلى السؤال د. فقد أجابتني بوفوار عنه من تلقاء نفسها.

عندما قابلت سيلفي لأول مرة، سألت بوفوار بعض الأسئلة العامة حول سبب تبنيها لها. أصرت بوفوار على أنه كان «الشيء الوحيد المعقول الذي يجب القيام به لأن بوبيت (لقب هيلين وهي طفلة) وأنا كبيرتان في السن وليونيل مريض». وقالت إنها «كانت على يقين من أن سيلفي ستحقق رغباتها تجاه الاثنين إذا ما ماتت أولاً. كنت على استعداد تام لقبول تفسيرها، على الرغم من أنني عرفت من هيلين كم هي متألمة للغاية بسبب أفعال شقيقتها. للأسف، كانت محقة في خوفها من سلوك سيلفي، لأنه بعد وفاة بوفوار، ارتكبت سيلفي أفعالاً دنيئة. ولكن كل ذلك حدث بعد صدور كتابي عن سيرة حياة بوفوار.

أعطتني مسألة التبني الإجابة التي أقولها دائمًا عندما يسألني الناس عما كان يجري بين سيمون وسيلفي: «كانت صديقة مدام دي بوفوار الموثوق بها والتي ستحمي أسرتها وأصدقاءها وتدير أملاكها بشكل صحيح». لكن الإشارة إلى أنهما كانتا عشيقتين كانت تُثار مرارًا وتكرارًا.

باريس مدينة صغيرة جدًا، وغالباً ما كانت هناك ممارسات بذيئة داخل إقطاعية العالم الأدبي الصغيرة عادة ما كانت الشائعات المعتادة التي يتناقلها البعض عني والتي تنقل أحيانًا إلى بوفوار تتعلق بشيء مرتبط بما سأكتبه عنها، وعلى الرغم من اختلافها تمامًا عن تلك التي شاعت عن علاقتي مع بيكيت (من قبيل أنني استخدمت الجنس للحصول على إذن منه لتأليف الكتاب) فإني وجدت الشائعات المتعلقة بكتاب بوفوار كانت مزعجة بشكل أكبر بكثير. في كثير من الأحيان كان ما قالوه لها أكثر من مجرد سوء تفسير بسيط؛ كان كذبًا صريحًا. في عدة مرات كان عليّ أن أوضح أن القصص التي سمعتها عني كانت أكاذيب، وكانت تصدقني في كل حالة وتتعمق ثقتها بي. كنت أتصرف بحذر شديد في كل تلك السنوات، لكن رغم ذلك، لم يكن الأمر يسير على ما يرام في كثير من الأحيان ليمنع تلك الأقاويل، التي أدت إلى حدوث اضطرابات مؤقتة بيننا.

اعتقدت أنني نجحت في إبقاء الأمور تحت السيطرة حتى قررت امرأتان فرنسيتان كانتا قد عاشتا وعملتا في الولايات المتحدة أنهما أيضاً تريدان أن تكتبا سيرة حياة بوفوار وشرعتا في عرقلة عملية تأليف كتابي.

وصلت الأستاذتان كلود فرانسيس وفرناندي جونتييه إلى باريس في عطلة يوم السبت لمقابلة بوفوار وإجراء مقابلة معها. سألتني عما يجب أن تفعله، وقلت إن قرار التعاون من عدمه هو قرارها، كما يعتمد على مدى ثقتها بهما. في لقائنا التالي أخبرتني أنها قد رأتهما وقالت بسخرية إنهما لن تكونا منافستين لي لأن كل ما طلبتاه هو الحديث عن نشاطها في الحركة النسوية. قالت إنها ستراهما عدة مرات لكنني لم أكن أشعر بالقلق. ومع ذلك، فقد أرادتا مقابلتي وقد أعطتهما رقم هاتفي.

اتصلتا بي وقدمتا لي دعوة لتناول العشاء معاً، وذهبت مجاملة لهما. منذ اللحظة التي قابلتهما فيها، لم أثق بهما. الشيء الوحيد الذي تحدثتا عنه أثناء تناول وجبة طعام رديئة في مقهى كئيب كان «العلاقة الجنسية المثلية التي جمعت بوفوار مع سيلفي والتي تم الكشف عنها مؤخراً». بحثت عن باب الخروج بأسرع ما تمكنت وقررت منذ ذلك الحين أنه لن يكون لدي أي اتصال آخر بهاتين المرأتين.

عندما وصلت لحضور جلستنا التالية، استطعت أن أرى أن بوفوار كانت في حالة مزاجية سيئة. لقد وجدت امرأة غاضبة ومستاءة وهي تجلس في حُقّها الصغير على الأريكة، ووجهها ساخن ومتوهج باللون الأحمر، ولهجة حديثها، خشنة وفظة، بل وقحة. مرّت علينا أوقات كانت فيها سريعة الغضب، حين أبدأ بطرح أسئلتي، لكنها عادةً ما كانت تدرك أن كل ما كان يزعجها ليس له علاقة بي – فقد كانت لصديقاتها في الحركة النسوية الكثير من الطلبات، لم تكن ترغب في رؤية أمراة بورجوازية عجوز، كانت صديقتها من أيام المدرسة وظهرت فجأة بعد غياب سنوات عديدة، كانت سيلفي تريدها أن تفعل شيئًا لا ترغب في القيام به، وتستأنف سلوكها التعاوني. في هذه المرة لم يستمر ذلك المزاج فحسب، بل تعمق. نادراً ما كان وجه بوفوار يتوهج باللون الوردي الذي يدل على السرور، لكن وجهها كان يكفهر دائمًا عندما تكون غاضبة أو منزعجة. لكن لم يسبق لي قط أن رأيت وجهها بذلك التوهج حين انفجرت فجأة لتقول، «هل تريدين أن تكتبي أنني أنا وسيلفي سحاقيتان! وسوف تخبرين العالم بذلك!» عندما قالت كلمة «سحاقية»، صرخت بكل قوتها.

لم أعاود السؤال عن الطبيعة الدقيقة لعلاقتهما، لأنني اعتقدت أنه كان من الأفضل ترك الموضوع حتى نهاية بحثي ومقابلاتي. لماذا أثير المتاعب قبل الحاجة إليها، وتوصلت إلى استنتاج حينها: لماذا لا أهدأ حتى تحين اللحظة المثالية لكي أتطرق إلى الموضوع؟ من الواضح أن موجة الغضب هذه أثارها شخص آخر، وكان استنتاجي المنطقي أن من كان وراءها هما فرانسيس وجونتييه. عندما سألت بوفوار أكدت لي ذلك، قائلة إن تينك المرأتين «حذرتاها» من أن كل ما تحدثت عنه أنا كان «علاقتها الجنسية المثلية»، وهذا ما كنت أنوي كتابته. أخبرتها أنني أعتقد أنها تعرفني جيدًا بما فيه الكفاية الآن لتعلم أن هذا الكلام غير صحيح، وتأكدت حينها أن وجهها قد تورد عندما قالت نعم، بالطبع، فهي لم تصدقهما قط ولا لدقيقة واحدة. أعتقد أنها توقعت مني أن أترك الموضوع، لكن بدلاً من ذلك قمت بمتابعته. لقد تحدثت بهدوء وأنا أخبرها أنني سعيدة لأن الموضوع قد طرح من جديد، وأنني أعتقد أن الوقت حينها هو الوقت المناسب لها للحديث عن العلاقة حتى أعرف كيف أكتب عنها.

«نحن لسنا سحاقيات!»ومجدداً قالت تلك العبارة بسرعة وغضب. «نحن لا نفعل ذلك»، وهنا لم تستخدم الكلمات بل مدت يدها، وأومأت بها بحركة معينة، ثم نقلتها بسرعة نحو الأسفل نحو فرجها بحركة ثابتة وواثقة.

قلت: «أنا آسفة، لكن يجب عليك أن تخبريني ماذا» – وهنا نقلت يدي إلى الأسفل – «تعني هذه الحركة».

«طبعاً، نحن نقبل بعضنا بعضاً من الشفاه، نتعانق، تلمس الواحدة منا ثدي الأخرى، لكننا لا نفعل شيئًا» – وهنا نقلت يدها نحو الأسفل – «هناك! لذلك لا يمكنك تسميتنا بالسحاقيات!».

حسنًا، فكرت مع نفسي، اذاً ما هي التسمية المناسبة؟ كانت بوفوار مصممة تمامًا على إنكار أية علاقة لها مع النساء من ذلك القبيل على الرغم من وجود أدلة كثيرة تشير إلى عكس ذلك، وبصفتي كاتبة سيرة حياتها، لم أستطع تجاهل هذا الجزء من حياتها. لقد قمت بحل المشكلة بعد بضعة أشهر عندما عدت إلى نيويورك والتقيت بمجموعة من الباحثات من

الناشطات النسويات في مجالات مختلفة ومن مختلف المعتقدات الجنسية لمساعدتي في العثور على أفضل طريقة للكتابة عن هوية بوفوار الجنسية. لقد تبنّيت وجهة النظر التوافقية التي كانت تتبناها بلانش ويسن كوك، التي كانت تكتب حينها سيرة حياة إليانور روزفلت، والتي عبرت عنها أفضل تعبير بقولها: «إذا كانت لا تعرّف عن نفسها كسحاقية، لا يمكنك إطلاق هذه التسمية عليها». وهكذا أضفت ملاحظة ختامية كتبتها بعناية، بأسلوب علمي إلى أقصى الحدود، قلت فيها ما يمكن أن يكون أقرب تعبير لما يمكن أن أقوله في تعريف هويتها حيث خلصت إلى القول إن لها هوية جنسية معقدة، وتركت الموضوع عند هذا الحد.

كان يحدث في بعض الأوقات، وغالبًا ما تكون بعد النهاية الرسمية للمقابلة، أن يؤدي سؤال عابر إلى اكتشاف مذهل. المرة التي أتذكرها دائمًا بشكل واضح حدثت في نهاية جلسة طويلة ومكثفة نجحت خلالها في إقناع بوفوار برفع حاجز الكلفة بيننا وسماحها لي باختراق مكنوناتها. كنا كلتانا منهكتين من الجهد الذي بذلناه وشرعنا في طقسنا اليومي في تناول الويسكي. وبينما كنا نجلس هناك، كانت تفرغ كأسها في جوفها وتعيد تعبئتها من جديد بينما كنت أنا أحاول أن أرتشف كأسي بأبطأ ما يمكن، حين لمحت الخاتم الفضي القديم الذي كانت تلبسه في الإصبع الوسطى من يدها اليسرى. لقد رأيته مرات عديدة من قبل، لكن لم أفكر مطلقًا في السؤال عنه، وحينها كنت أتبادل معها محادثة مهذبة ليس إلا حتى ظننت أنني أستطيع أن أجد عذراً مناسباً لتطفلي. قلت لها: «يا له من خاتم رائع»، وأخبرتها أنني كثيراً ما أعجبت به.

«لقد قدمه ألغرين لي. وأنا ألبسه في هذه الإصبع لأنه كان من المفترض أن يكون خاتم الزواج الخاص بي وسأدفن معه».

لم يكن لدي وقت لاستيعاب هذا الاعتراف المذهل منها لأنها انطلقت في سرد القصة الكاملة لعلاقتها مع ألغرين، ومدى حبها له، وكيف اقترح عليها بشكل رومانسي أن يقظيا عطلتهما في المكسيك، وكيف فكرت بجدية للمرة الأولى منذ أن تركت العيش في فرنسا – أو الأكثر صحة منذ أن تركت سارتر – بالانتقال إلى شيكاغو لتصبح ربة منزل أمريكية. بينما كانت تتحدث، كنت

أنا في مأزق. كانت هذه معلومات حيوية لسيرة حياتها، لكن جلسة العمل، التي يتم فيها تسجيل كل شيء في جهاز التسجيل، كانت قد انتهت، ولم أكن أجرؤ على تناول جهاز التسجيل الخاص بي أو دفتر ملاحظاتي خوفًا من أنني سأقطع عليها سلسلة ذكرياتها وأتسبب في توقفها عن الحديث. من المؤكد أنني لم أستطع أن أقطع حديثها وأسألها عما إذا كان ما تخبرني به معداً للنشر، ويمكنني استخدامه في كتاب السيرة، لذلك تركتها تواصل حديثها. لا أتذكر أي موضوع آخر أثار اهتمامها بعمق وزاد من حماسها مثل حديثها عن ألغرين. ظننت أنني رأيت امرأة شابة غارقة في الرومانسية، ومنتشية بالحب. لم تتحدث قط ولا مرة عن سارتر، أو لانزمان، أو أي ممن وصفتهم «بالعشاق العابرين» (الرجال الذين كانت لها معهم موقف لليلة واحدة أو علاقة خاطفة أو عارضة)، بمثل هذه المشاعر. وبدلاً من ذلك تحدثت عنهم بتجرد شديد لدرجة أنني كنت أتصورها غالبًا في معطف أبيض لموظفة في مختبر، تقوم بفحصهم مثل عينات تحت المجهر من خلال أفعالهم الجنسية. فقط عندما كانت تتحدث عن ألغرين، تتصرف كأنثى مدللة مليئة بالسعادة وحزينة للغاية – كان يحدث كل ذلك في رواية واحدة.

كانت منتشية بعد هذه الجلسة، وقد تأثرت أنا أيضًا، عاطفيًا، لكن ما هو أكثر من ذلك، كنت أشعر بقلق شديد حول كيفية كتابة القصة التي كانت قد كشفتها للتو. كان جهاز التسجيل مغلقاً عندما تحدثت عن هذه اللحظة المهمة في حياتها. هل سأكسر الحدود الأخلاقية إذا قمت باستخدامه؟ قررت التفكير في الأمر وأن أسألها لاحقًا. اضطررت إلى التخلص من كل شيء بينما كان الأمر يدور بشدة في ذهني، لذا هرعت لأنزل إلى الشارع الذي كانت تقيم فيه لأصل إلى شارع مونبارناس ومقهى دوم، حيث جلست على مقعدي المفضل في الصف الأمامي أمام النافذة. طلبت النبيذ الأبيض المعتاد، وأخرجت دفتر ملاحظاتي، وبدأت في كتابة كل ما قالته.

في مرحلة ما توقفت للتنفس ورفعت رأسي لأنظر من النافذة. عندها رأيت صامويل بيكيت، وهو يتمايل ببطء وهو يعبر الشارع، وربما كان على وشك أن ينظر إلى النافذة ويراني جالسة هناك. حينها فكرت ماذا عساي أن أفعل؟ في الواقع، لقد كان يومًا حافلاً بالأحداث ولم ينته بعد.

الفصل الرابع والثلاثون

في تلك الليلة التي أخبرتني فيها بوفوار عن خاتم ألغرين رأيت صامويل بيكيت لأول مرة منذ أن أنهيت كتاب سيرة حياته. ومن أجل توثيق هذا الحدث، كان يجب أن أدونه في مذكراتي اليومية: «*لقد حدث شيء مدهش للغاية اليوم. كنت جالسة في مقهى دوم بعد أن روت لي سيمون دو بوفوار حكايتها مع ألغرين، وكنت أحاول استيعابها، ولكن من دون أن أعرف السبب بدأت أفكر، ماذا لو أن صامويل بيكيت يسير في الجوار؟ ماذا عساي أن أفعل؟ وفجأة وجدته أمامي!!! كاد يصيبني الإغماء وبت لا أعرف ما أفعل. بقيت جالسة هناك، غير قادرة على الحركة ومتأكدة أنني على وشك أن أفقد الوعي وأتسبب في إحداث ضجة كبيرة. كانت دقات قلبي تتسارع وأنا أراقبه وهو يتوقف عند الباب وأمسكت أنفاسي لكنه لم يأتِ ولم يرني. ثم نزل ليمشي في الشارع. لقد تحولت إلى حجر. ولم أستطع التحرك*».

كنت أعتقد أنني في داخلي كنت شديدة الحساسية أيضاً تجاه الحديث معه. وخشية من أن يستدير ويعود، تمكنت من النهوض من مقعدي وخرجت من المقهى، وبينما كنت أنظر في الاتجاه الذي ذهب إليه لمعرفة ما إذا كان المكان آمناً بالنسبة إليّ للمغادرة، رأيته بطوله الفارع وهو يتمايل في مشيته ليدخل أحد المطاعم الراقية. خطرت في بالي لفترة وجيزة فكرة اللحاق به والتظاهر بأن الأمر مجرد مصادفة. لكن كلا، سيكون ذلك مضيعة للمال، لأنني سأكون متوترة للغاية وسأتناول طعاماً باهظ الثمن إما معه أو وحدي على طاولة منفصلة.

بقيت مشغولة التفكير بما كشفت عنه بوفوار ومن ثم رؤيتي غير المتوقعة

لبيكيت، مشيت طوال الطريق المؤدي إلى محطة مترو سان سولبيس قبل أن أستقل المترو إلى محطة توقفي المعتادة. كنت منهارة حين دخلت شقتي، لكنني أمضيت معظم الليل في النوم بشكل مناسب، وكنت أستيقظ عدة مرات لأنحني على دفتر ملاحظاتي وأدون بسرعة شيئًا كنت قد تذكرته للتو أو فكرة جديدة تجعلني أتحرّى السبب الذي جعلني أتصرف على هذا النحو. حينما أسترجع تلك الأحداث، يبدو لي أن الاختباء من بيكيت كانت فكرة سخيفة، وأنا محرجة منها. ورغم مرور سنوات عديدة، ما زلت أشعر بالخجل عندما أفكر فيها.

لم يكن لدي موعد حتى مساء اليوم التالي، وكنت بحاجة إلى أن أبقى وحدي طوال ذلك الوقت لأسترخي وأفكر في السبب الذي لم يجعلني أرغب في التحدث إلى صامويل بيكيت. هل كان ذلك لأنني كنت غارقة في الكتابة والتفكير في كتابي عن بوفوار، وهو الأمر الذي كان مختلفاً تمامًا عن الطريقة التي كتبت بها عن بيكيت؟ ربما كان ذلك جزءًا من السبب، لأني بمجرد أن بدأت الكتابة عن بوفوار، اخترت ألا أقرأ أي كتاب سيرة أثناء الشروع بالكتابة فعليًا. لقد تنامى عندي خوف غير منطقي من احتمال أنني قد أتبنى عن غير قصد بعض أساليب الكتابة أو حتى أنتحل عمل شخص آخر. وهي عادة ظلت تلازمني حتى يومنا هذا. ربما كان السبب في أنني لم أرغب في التحدث إلى بيكيت نابعاً من قلق راودني له صلة بهذا الأمر، وهو أن الحديث معه قد يؤثر على الطريقة التي أتحدث فيها مع بوفوار، والتي بدورها ستسمح للكتاب الذي كتبته عنه بالتأثير على الكتاب الذي كنت أكتبه عنها. كان هذا احتمالًا حقيقيًا، لكنني أعتقد أن السبب الأكثر ترجيحًا لتفاديه هو «قلقي من خضوعي لتأثيره»، وهو سبب قائم على الضجة العامة التي أحدثها نشر كتاب سيرة بيكيت في فرنسا، حيث أصبحت مناقشته هواية مفضلة لدى النخبة الفكرية.

كنت وأنا أحاول استغلال كل لحظة متوفرة لا تكون عندي فيها مقابلة مع بوفوار، كنت أعتمد على الرسائل لإعداد أكبر عدد ممكن من أسئلة المقابلات مسبقًا. ما إن ينتشر خبر وصولي بين صفوف محبي الثرثرة، حتى يندفع أشخاص من جميع الأنواع إلى طلب مقابلتي. وكان غرضهم إما أن

أقابلهم من أجل كتاب بوفوار، وإما أنهم، كما في حالة الصحفي والكاتب بيير أسولين، أرادوا مقابلتي، ليس حول كتاب بوفوار، ولكن عن بيكيت والكتاب الذي تم نشره قبل أربع سنوات.

دعاني أسولين لتناول طعام الغداء، ووصلت متأخرة ومتقطعة الأنفاس لأنني أخطأت في اسم الشارع واضطررت إلى أن أسرع في خطواتي عبر الدائرة السادسة عندما أدركت خطأي. ما إن جلست حتى انطلق في الحديث *«بالتفصيل عن صامويل بيكيت. فجأة، أخبرني أن كل جمهور بيكيت في أمريكا يكرهونني وأقنعوا الفرنسيين أن يفعلوا الشيء نفسه. وقال إنهم يكرهونني بدرجة شديدة لم يسبق له أن رآها من قبل. وأن الفرنسيين باتوا يصدقونهم الآن ويحملون لي نفس الكراهية. وقد سمع أن [أفيغدور] أريخا قال إنه إذا تحدث أسلين معي، فلن يتحدث أريخا معه مرة أخرى. وحدث الشيء نفسه مع [جيروم] ليندون الذي كان ينكر أنه قابلني على الإطلاق ويقول إن كل ما كتبته كان كذباً. قاطعته هنا وأخبرته أن يقابل ماري كلينغ، التي عرفتنا على بعض، وأن يسأل ليندون كيف يمكنني الوصول إلى جميع هذه الملفات والصور إذا لم يسمح بذلك. بدا أسولين يتكلم وهناك غبطة في صوته، واصفًا هذه الثرثرة بالمجنونة وغير المنطقية، وكان كل ذلك يثير شعوري بالاشمئزاز التام»*.

كان ينبغي عليّ الاستعداد جيدًا لهذا الأمر. فقد كنت في ذلك الصباح قد تلقيت مكالمة هاتفية من ماري كلينغ تخبرني فيها أن الناشر السويسري ديوجين فيرلاغ ألغى عقده معي لنشر الترجمة الألمانية لكتابي عن بيكيت لأن (الناشر يخشى من أن رد الفعل الفرنسي السلبي على الكتاب سيؤثر على مبيعاته في ألمانيا، لا سيما ما يتعلق بكل تلك التلميحات عن وجود علاقة جنسية بينك وبين بيكيت) وقد حذرتني ماري من أنه يبدو أن لدي أعداء أقوياء يسعون لتخريب عملية نشر الكتاب.

استمر أسولين في إخباري عن كل أولئك الذين كرهوني أثناء محاولتي شرح سبب غيرة بعض أولئك المقربين من بيكيت مني ومهاجمتهم كتابي: «لقد كتبت الكتاب الذي لم يجرؤ أي منهم على كتابته، والآن لا يمكنهم تحمل عجزهم المستمر عن وقف نجاحه ونجاحي في حياتي المهنية.

وانطلقت أحدثه بقسوة عن وضع المرأة في سوق العمل بشكل عام، وفي الأوساط الأكاديمية بشكل خاص. فقال إن كل ذلك متوقع حدوثه في أميركا – فالناشطات النسويات خرجن عن السيطرة والرجال غاضبون من هذا الأمر– وبالطبع فإن الأمور أكثر تطوراً في فرنسا. أعتقد أننا في نهاية المطاف أصبحنا صديقين عندما غادرنا المكان، لأنه أعطاني أحد كتبه، موقعاً بعبارات مؤثرة، ودعاني إلى المساهمة بكتابة مقال عن بيكيت في مجلة لير الأدبية الفرنسية».

كتبت مقالًا للمجلة التي كان يرأس تحريرها، وتم نشره جنبًا إلى جنب مع مقابلة أسولين معي. أعتقد أنه كان عليه أن يرضي جمهور قرائه، وبالتأكيد، لم يكن قادرًا على مقاومة الهجمات غير المبررة التي شنت على كتابي وطالتني شخصياً. لم أقل له شيئًا ولكني نقلت غضبي إلى مذكراتي اليومية (أرسل بيير مقالته متضمنة «تحية التكريم المعتادة إلى القديس سام». وقد بعثت بشكري الجزيل على الرغم من الضجة التي تعرضت لها أنا وعملي. يبدو أنه لا أحد منهم قد سأل، ربما لأنهم كانوا أغبياء للغاية، ومعجبين للغاية بصامويل بيكيت، أو ربما خائفين من الإساءة إليه، عن السبب وراء حجاب السرية الذي يحيط به، وهذا الأمر لا يشمل فقط خصوصياته بل خصوصيات جميع الأشخاص الذين هم جزء من عالمه. لماذا هذا التصرف المنافق والطعن والضرب من الخلف؟ لماذا لا يصبح مكشوفاً وعلنياً؟ لقد كنت الهدف المفضل للجميع ليشنوا هجوماً هستيرياً عليّ لأنني كتبت تلك السيرة ورفضت بعد ذلك الحديث عنه وأن أكون واحدة منهم. يجب على المرء أن يتساءل عن سبب حاجة هؤلاء الرجال الذين يدّعون أنهم ناضجون وناجحون إلى أن يمنحوني دور الفتاة المتشبهة بالرجال. وينبغي للمرء أن يتساءل لماذا – من بين جميع الكتب التي كتبت عن صامويل بيكيت – كانوا دائماً ما يذكرون كتابي ويستشهدون به (وبالتأكيد، بشكل سلبي في الغالب)، رغم أنه كان يحوي معلومات مفيدة، على ما أعتقد. المهم بالنسبة إليّ هو أنني قمت بعمل جيد وصادق، وأن الأمر سيستمر لفترة طويلة حتى بعد أن تختفي جميع ثرثرات هؤلاء البيكيتيين ويعودوا إلى «جحورهم».

كانت المشكلة الحقيقية تكمن في أن أسولين، الذي كان شخصاً غريباً

عني تماماً قبل هذا اللقاء، قد عرف كل هذه الأقاويل عني، فما بالك مع بيكيت الذي ربما سمع أكثر منه. كنت سعيدة جدًا لوجودي في مجتمع سيمون دي بوفوار الواضح والصريح إلى الحد الذي لم يكن لدي أي رغبة في العودة إلى مجتمع بيكيت، حيث كان أفراده يحسبون خطواتهم فيه بحذر شديد خوفًا من أن يطردهم منه. وقد عبرت عن ذلك قائلة «كم كان مجتمع سيمون دو بوفوار رائعاً فقد كان إيجابياً أكثر وأجواؤه قديمة أكثر وفيه تشويق أكثر، إنه لمن دواعي سروري أن أكون مع أشخاص لا يشعرون بالرعب من «وحشهم المقدس». الأشخاص الذين يحترمونها ويحبونها ولكنهم لا يترددون في معارضتها. الأشخاص الذين يخبرونها (ويخبرونني) كل شيء بشكل مباشر، بغض النظر عن العواقب».

خلال السنوات التي عملت فيها مع سيمون دو بوفوار، لم أستطع تجنب عالم بيكيت. لم تتوقف الدعوات التي تطلب مني كتابة المقالات وحضور المؤتمرات والندوات (خاصة من ألمانيا، المكان الوحيد الذي كان يتم التركيز فيه دائمًا على إجراء تقييم نزيه لمكانته ولما كتبته عنه). لقد كرهت حقيقة أن هذه الانشغالات قد منعتني من الكتابة المتواصلة والمستمرة عن بوفوار، لكنني شعرت أن عدم قبولها سيكون بمنزلة تعبير عن شعوري بالجبن. ومثلما فعلت النحاتة لويز بورجوا، كظمت غيضي وتهيأت للقتال وواصلت شحذ همتي. كان مثال سيمون دي بوفوار يؤثر فيّ، وكذلك صداقاتي التي كانت تتوسع باستمرار مع الناشطات النسويات الفرنسيات. حتى لو لم أكن مستعدة لرؤية بيكيت، كنت على استعداد لإجراء بعض التغييرات الرئيسية. وكان أول تغيير قمت به هو طرد وكيل أعمالي.

كان كارل براندت يعاملني دائمًا مثل شخص جديد على عالم النشر وكان ذلك صحيحاً بالتأكيد عندما طلب تمثيلي، لكنني تعلمت الكثير في السنوات التي تلت توقيعي عقدًا للكتابة عن صامويل بيكيت. في كثير من الأحيان، كنت أقترح أفكارًا لأشياء كنت أرغب في كتابتها، بدءًا من مقالات المجلات إلى كتب المستقبل، وفي كل مرة كان يخبرني لماذا لا يتمتع أي منهم بأي ميزة. غالبًا ما قابلت أشخاصًا في عالم النشر وفي حفلات إطلاق الكتب أو حفلات الاستقبال الأخرى، وقد أعرب الكثير من المحررين عن

أسفهم لأنني لم أقبل دعواتهم لكتابة شيء كنت أرغب فيه، في حين لم يتم إخباري عنهم. عندما كنت أسأل كارل عن سبب عدم إعطائي الفرصة للقبول أو الرفض، كان يقول إنه لا داعي لقلقي لأنه اتخذ القرار المناسب نيابة عني.

تسبب ما قاله في إثارة غضبي، في وقت كنت أحاول باستمرار جمع الأموال لدفع تكاليف بحوثي ورحلاتي. كنت لا أزال أنفق وقتًا طويلاً في تقديم الطلبات للحصول على المنح والزمالات عندما ضيّع عليّ أحد قراراته المزعومة فرصة الحصول على مبلغ كبير، وكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد دعاني ناشر بريطاني لكتابة كتاب قصير عن الشاعر تي. إس. إليوت، وهو شخصية لطالما أردت الكتابة عنها، كجزء من سلسلة كتب تخاطب عامة الناس. كان المبلغ المقدم لي (لشخص فقير مثلي) مبلغًا مذهلاً، ومعظمه مستحق الدفع مقدمًا، والأفضل من ذلك كله، أنني لن أضطر إلى البدء إلا بعد أن أنهي كتابي عن سيرة حياة بوفوار. لكن كارل لم يخبرني قط بهذا العرض، ولم أعلم به إلى أن تم قبول العقد من قِبل شخص آخر. وقد قال المسؤول عن السلسلة عندما قابلته في إحدى الحفلات: «كم كان مؤسفاً أنك رفضت العرض». «لقد كنت خيارنا الأول».

أخبرت بهذا الأمر اثنين من صديقاتي المقربات، الكاتبة جوديث روسنر وباربرا سيمان، اللتين صُدمتا كما هو حالي. وكان رد جودي، التي كانت دائمًا صريحة ومباشرة: «ما تحتاجينه هو امرأة طيبة تعمل من أجلك! اطردي هذا الرجل! تخلصي من هذا العقد [تقصد عقد كتابي عن بوفوار] المهين!» وقد فعلت ذلك. اتصلت هاتفياً بكارل، وعلى غير العادة أجاب على مكالمتي. وبينما كنت أريد أن أشرح له لماذا أردت منه أن يترك عمله معي، قال «حسناً» وأنهى المكالمة. ولم نتحدث قط مرة أخرى.

أعطتني جودي أسماء أربعة وكيلات أدبيات، وطلبت مني إجراء مقابلة معهن واختيار التي تعجبني أكثر. حتى بعد كل ما مررت به، شعرت بالقلق من فكرة إجراء مقابلات مع أولئك النساء اللائي كن يحملن سمعة مرموقة بشكل مذهل في العالم الأدبي. ومع ذلك، لم تكن هناك حاجة للقاء الأخريات بعد لقاء أول واحدة، وهي إلين ماركسون. حصل تقارب فوري بيننا، وقد رافقتني صداقتها ونصائحها الحكيمة طوال الثمانية والعشرين عامًا التالية.

جعلني وجودي في باريس بعيدًا عن جامعة بنسلفانيا أشعر بالراحة لابتعادي عن مصادر الإزعاج الأخرى المتمثلة بالزملاء المتهكمين، ومعارك التثبيت في الوظيفة، إلخ.... كان الهاتف في شقتي يرن في كثير من الأحيان حيث تردني مكالمات من الجامعة، ولم تكن جميعها تحمل أخباراً إيجابية فقط بل ومثيرة للاهتمام للغاية. يبدو أن ماري بيروت نيكولز المرأة الاستثنائية التي أصبحت مؤخراً مديرة الاتصالات في الحكومة الفرنسية، كانت تفكر في عقد مؤتمر دولي رائد للحركة النسوية. كان يتعين على الحكومة الفرنسية أن تتحمل معظم تكاليفه، وستدفع أيضًا مصاريف استضافة ما بين اثنتي عشرة إلى خمس عشرة شخصية مهمة من باحثات وكاتبات وسياسيات وفنانات. سيكون الجزء المهم جداً فيه، كما كتبت أنا حينها، «أنهم يريدون أن تحضره: سيمون دي بوفوار!! شخصياً أوه، إنه أمر مستحيل بالتأكيد». بدا المشروع طموحًا للغاية لدرجة أنني تحفظت عليه منذ البداية. ومع ذلك، إذا انعقد هذا المؤتمر، سيكون حدثاً مذهلاً حقًا. ولكون ماري كانت تعرف أنني كنت أعمل على كتابة سيرة حياة بوفوار، فقد كانت تأمل مني أن أكون خير عون لها في ضمان مشاركة بوفوار في المؤتمر.

منذ وفاة سارتر، سعت النساء الفرنسيات إلى جعل بوفوار المتحدثة باسمهن في عدة جبهات مختلفة. في عام 1982، تم إنشاء مركز نسائي وتمت تسميته تكريماً لها: مركز سيمون دي بوفوار للسمعيات والبصريات. قامت ثلاث نساء (حسب قولهن) «من الناشطات النسويات بتأسيسه» – المخرجة السينمائية كارول روسوبولوس، والممثلة دلفين سيريج، والمخرجة إيوانا فيدر – كان المركز يهدف إلى جمع والحفاظ على كل الأشياء المرتبطة بتاريخ المرأة. كانت بوفوار فخورة للغاية بأنه كان يحمل اسمها.

كانت هذه هي السنوات التي كرست فيها بوفوار معظم نشاطها لدعم النساء. فقد وقعت على بيان الـ 121 (هو بيان وقعه 121 مثقفًا ونشر في 6 أيلول 1960 في الصحافة الفرنسية – م)، وانضمت إلى نساء أخريات اعترفن بأنهن خضعن للإجهاض للمطالبة بجعل عمليات الإجهاض عمليات قانونية؛ وافقت على المشاركة في جميع البرامج التي كانت تنظمها وزيرة حقوق المرأة إيفيت رودي، والتي كانت تمولها وزارتها. وعندما كانت

تطلب منها مجموعة من الناشطات النسويات الشابات حضور اجتماعاتهن، لم تكن تتردد. عملت عن كثب مع مستشارة الناشطة رودي الخاصة، ميشيل كوكيا، التي أثرت رؤيتها الرائعة في حالة النساء في ثقافتي الخاصة بحقوق المرأة. وافقت بوفوار على السماح للمجموعات الصغيرة من الناشطات في الالتقاء في شقتها لرسم استراتيجية للاحتجاجات التي كانت تقوم بها حركة تحرير المرأة (MLF)، وقدمت لهن المشورة بشأن كيفية كتابة البيانات والتصريحات. عندما تم التطرق إلى بعض أسمائهن في وسط أحاديثنا، تكلمت عنهن بحماس، ومن بين من ذكرتهن كانت آن زيلينسكي، التي شاركت في تأسيس حركة تحرير المرأة MLF، والكاتبة كلودين مونتيل. لقد أعجبها ما كتبته عنها الصحفية جوزيان سافينيو وأن الأستاذة جينيفيف فريز ألقت محاضرات بناءً على كتاباتها. ومع ذلك لم تفكر بوفوار في الاتصال هاتفياً بالناشطة النسوية والناشرة فرانسواز باسكييه لتقترح عليها أن تنشر كتابًا جديدًا لأحد الأشخاص. بقيت على اتصال مع كوليت أودري الروائية التي عاصرتها، والتي أخبرتني بفخر حينها أنها أصبحت طاعنة في السن، كانت تحب أن تطلق على نفسها لقب «أول ناشطة نسوية في فرنسا وملهمة بوفوار». وعلى الرغم من أن الكاتبة كلير إيتشريلي نادراً ما كانت مشاركة نشطةً في الفعاليات النسوية، فإن بوفوار أصبحت تعتمد عليها لأنها كانت مولعة بها من خلال عملها في مجلة الأزمنة الحديثة.

لم أطلب قط أن أُدرج ضمن قائمة من يحضرن الاجتماعات وجلسات التخطيط الصغيرة للاحتجاجات التي كانت تعقدها بوفوار في شقتها ولم تدعني إليها قط، لكنني كنت دائمًا أحضر المناسبات العامة - ليس مع بوفوار، كمرافقة لها، ولكن لأكون قريبة منها بما يكفي لمراقبة سلوكها. استطعت أن أكتشف أنها كانت تعتز بكونها جزءًا من هذا النشاط وكانت فخورة جدًا على وجه الخصوص بكونها تحظى باهتمام خاص من قبل الوزيرة إيفيت رودي.

أحدثت كل هذه الأنشطة تغييراً جذرياً في نمط حياتها اليومية الذي كانت تمارسه عندما كان سارتر على قيد الحياة. فإلى أن جاءت آرليت واستبعدتها تمامًا عن سارتر، كان كل شيء في حياتها تقريبًا يتركز على تلبية متطلباته

اليومية. وحين تركته، بدا الأمر كما لو أنها أعادت ابتكار نفسها واستطاعت قضاء أيامها كما تحب. استمرت في الاستيقاظ مبكراً، رغم أنها كانت نادراً ما ترغب في العمل أثناء النهار. كانت قادرة على إشغال نفسها حتى منتصف النهار عن طريق شرب الشاي وقراءة الصحف والرسائل. وكانت عادةً تجيب على الرسائل، وتجري مكالمات هاتفية، وتكتب قليلاً إذا كان هناك وقت. لم تعد مضطرة إلى الذهاب إلى شقة سارتر لتناول الغداء في الساعة الواحدة، لذلك كانت تتناول عادةً شيئًا معيناً في المنزل، تكون سيلفي قد أحضرته، ما لم يكن لديها موعد. كانت تحاول جدولة ارتباطاتها الاجتماعية في بداية فترة ما بعد الظهر لأنها كانت ترغب في العودة إلى العمل بحلول الساعة الرابعة أو الخامسة، لكنها لم تكن تستطيع العمل في كثير من الأحيان حتى التاسعة مساء أو إلى ما بعدها، كما كانت تفعل عندما كان سارتر على قيد الحياة، لأن حياتها لم تعد تملك تلك الخصوصية كما في السابق. لم تكن هذه الحرية بلا ثمن، لأن نشاطها النسوي وضعها مباشرة تحت أنظار الرأي العام. لقد كانت حقًا عملاقة فرنسا المقدسة «المحبوبة والمحترمة».

كانت ماري نيكولز تحمل العديد من الأفكار المدهشة لجعل جامعة بنسلفانيا تعترف بشرعية الحركة النسوية وترسل عدداً من منتسبيها إلى المؤتمر، لدرجة أن رأسي يبدأ يدور بعد أن ننتهي من الحديث بالهاتف حيث كنا نتبادل المكالمات الهاتفية باستمرار. بعد أن صرّحت لي بإحدى أفكارها الإبداعية، سألتها عما كانت تأمل في كسبه عن طريق طرح كل تلك الأفكار، وكانت لديها إجابة جاهزة: «من الجيد إرسال ثلاثمئة شخصية لأنه إذا تمكنتِ من إقناع عشر منهن بالبقاء، تكونين قد حققت نجاحاً باهراً». لكن فيما يتعلق بـ «مؤتمر بوفوار»، وهو التعبير المختصر لذلك الحدث، الذي بدأنا نتداوله سريعًا، كان أمراً جيداً بقاء مئة شخصية على الأقل أو نحو ذلك.

بحلول الوقت الذي كنت فيه في المنزل في نهاية شباط 1982، كانت ماري قد حصلت على تعاون كل من يهمه الأمر في القنصلية الفرنسية في نيويورك، وبمساعدتها تلقت نفس الدعم المتحمس من مسؤولي السفارة الفرنسية في واشنطن. لقد ساعدوها في التخطيط للرحلة إلى فرنسا التي سأكون أنا وهي ضيوف الحكومة وسيحرص المسؤولون على ألا ينقصنا

شيء وأن يسهلوا لنا أمر الاتصال بأي مشارِكة في المؤتمر نرغب في لقائها. لكن ماري طلبت مني أولاً العودة إلى باريس بمفردي وإقناع بوفوار بأنه على الرغم من أنها رفضت الحضور إلى فيلادلفيا للحصول على الشهادة الفخرية، فإن عليها أن تأتي إلى المؤتمر.

بفضل الميزانية التي خصصتها لي ماري، عدت إلى باريس بعد عدة أسابيع في شهر آذار لقضاء عشرة أيام على عجل، فقد كانت مزدحمة بالأنشطة بالنسبة إليّ أنا وبوفوار. كانت هيلين منشغلة بحفل افتتاح معرض فني تعرض فيه أحدث أعمالها، وكانت سيمون تخطط لحضوره. وكانت وسائل الإعلام منشغلة به أيضًا، حيث كان الصحفيون والمذيعون يرغبون بإجراء المقابلات التلفزيونية واللقاءات الصحفية مع الشقيقتين. كانت تشكو قليلاً لأن الأمر أخذ الكثير من وقتها، لكنها لم تكن تعني ذلك حقًا. أخبرتني شيئًا ما كان «*غير صالح للنشر، فقط بيننا*»: إنها تخشى أن يكون الاهتمام الذي تلقته هيلين بسبب رسوماتها مؤخراً، لم يكن سببه سوى الاهتمام الذي حصلت عليه سيمون مؤخراً بسبب تعاونها الواضح مع الناشطات النسويات الفرنسيات. ولكن الحقيقة المحزنة هي أن هيلين كانت قد شاركت في عدة أنشطة نسوية لسنوات عديدة قبل شقيقتها. ففي بداية عام 1975، ساهمت هيلين بدور فعال في إنشاء منزل لإيواء النساء اللائي يتعرضن للضرب في منطقة الألزاس، ومنذ ذلك الحين بدأت تشارك في المسيرات، وساهمت في كتابة بيانات الحركة النسوية، وفعلت ما بوسعها لمساعدة النساء. لكن اسمها لم يستحوذ على الاهتمام الذي نالته أختها، وعندما كانت النساء في باريس يقمن التجمعات بعدة طرق، اخترن سيمون لقيادتهن. وحينها قررت هيلين، التي كانت دائمًا لا تريد سوى ما هو الأفضل للنساء، أن تتنحى جانباً عن طيب خاطر وتركت القيادة لسيمون.

كانت سيمون تحب أختها، على الرغم من أنها اشتكت في بعض الأحيان من أنها لا تستطيع أن تفهم لوحات هيلين وتساءلت عن سبب الاحتفاظ بها رغم أنها لم تبع إلا عدداً قليلاً منها وكانت تفصل بين تنظيم معرض وآخر فترة زمنية طويلة. لسوء الحظ، ارتكبت سيمون خطأ في التعبير عن هذه الأفكار بعبارات غير مناسبة إلى حد ما في العديد من الرسائل التي جمعتها

سيلفي ونشرتها بعد وفاة سيمون بعدة سنوات، وعندما كانت هيلين لا تزال على قيد الحياة. التقيت مع هيلين في مناسبات عديدة ورأيت مدى تأثرها الشديد بملاحظات أختها غير اللائقة. لم يستطع أحد في «العائلة» فهم كيف يمكن لسيلفي أن تكون شديدة القسوة هكذا وتقوم بنشرها، وحتى يومنا هذا لا أعرف أي تفسير مناسب لذلك.

كانت سيمون دي بوفوار تقول الكثير من الأشياء التي لم تكن تعنيها حقًا، وتندرج بعض تعليقاتها العامة حول بعض الناشطات النسويات في هذه الخانة. وتماماً مثلما عبرت عن ازدرائها الشديد لرسومات أختها، فإنها أخبرتني أنها غاضبة لأننا سنضطر إلى تقليص لقاءاتنا خلال عشرة أيام حينها بسبب «المطالب التي كانت تطلبها منها تلك الناشطات». ولكنها ظلت قادرة على مقابلتي في كل مرة أخبرها فيها أنني أريد التحدث معها، وفي كل مرة كان لديها شيء جيد لتقوله عن سير «تلك اللقاءات الإستراتيجية» سيراً حسناً. كان من الواضح كم كانت تبعث الحيوية فيها، وعلى الرغم من أنها كانت تتذمر من طول الوقت الذي كانت تستغرقه، لكنها كانت تستمتع بها.

كانت تخاطبني قائلة «آه يا داريد»، وهي تتصنّع تذمرها من الاضطرار إلى الذهاب إلى اجتماع آخر وتقترح أن أرافقها. ربما كنت أبالغ في رد فعلي عندما بحثت بسرعة عن مبرر لعدم تمكني من فعل ذلك، ولكنني قلت إنني سأرافقها لاحقًا. أعتقد أن هذا الموقف عاد إلى الأيام التي كنت أعمل فيها ضمن مجتمع بيكيت وكنت مصرة على أن أكون موضوعية تماماً من خلال عدم التقرب من أفراده. أصبح الكثير من أولئك الناشطات النسويات من صديقاتي المقربات. في الواقع، كنت استضيفهن في بيتي عندما يزرن الولايات المتحدة. عندما كنت في فرنسا، كنت أطبخ «وجبة عشاء أمريكية» من أجلهن. كان «الدوب» الأمريكي (يخنة اللحم البقري) ولحم الخنزير والبطاطا المخبوزة من الأكلات التي كنّ يطلبنها في كثير من الأحيان. أعتقد أنني وجدت دائمًا سببًا لعدم مرافقة بوفوار لأنني لم أكن أريد أن يظن أحد أن الكتاب الذي كتبته عنها سيكون الكتاب الذي تمليه عليّ.

وهكذا، توجب عليّ التأكيد على أهمية وجودها في المؤتمر في فيلادلفيا، ولا شك في أني سأستضيفها في بيتي إذا اختارت عدم الإقامة في

الفندق. تحدثت بشكل مقنع معها بطريقتي الخاصة وأخبرتها كيف يعتمد كل شيء على وجودها. أصغت لما قلته باهتمام، وبعد صمت طويل منحني الأمل في أنها تفكر بجدية في الأمر، قالت: «لا *يمكنني الحضور. أنا كبيرة في السن ومتعبة للغاية*».

عندما كتبت عن هذا في مذكراتي اليومية، كتبت أيضًا كم كان مزعجًا أن أسمعها تقول ذلك، بعد كل حديثها السابق عن «العطلة الخاصة» التي أرادت أن تقضيها في نيويورك في تموز 1982. وقد شعرت بالغضب من حقيقة أنها فيما كانت تخبرني أنها طاعنة في السن ومتعبة للغاية، كان وجهها مشرقاً في نفس اللحظة وهي تقول لي إنها بمجرد أن تنتهي من لقاءاتي معها، ستغادر لقضاء العطلة. كانت قد أخبرتني في العديد من المناسبات السابقة أنها كانت تنوي زيارة لندن مرة أخرى (وهي رحلة لم تقم بها قط)، لذلك سألتها عما إذا كانت ستذهب إلى هناك في العطلة: «أنا لن أذهب إلى لندن، لكنني لن أخبرك كذلك أين سأذهب». (أخبرتني لاحقًا أنها ستذهب إلى منتجع صحي في بلدة بياريتز).

قلت لنفسي ما الذي قلته وفعلته ليحدث كل ذلك؟ أصبحت في أغلب الأحيان عدائية وتخفي عني الأشياء، لكن هذا كان شيئًا جديدًا. وقبل أن أتمكن من استيعاب هذا الأمر، أضافت بلا مبالاة أنها ستعطيني قائمة بالنساء الفرنسيات اللواتي ترغب في أن تتكفل الحكومة بمصاريف حضورهن المؤتمر، ثم قالت لكن «هناك أميركية واحدة فقط أريد منك دعوتها وهي، كيت ميليت». وأضافت في الختام، «سأفعل كل ما تريدينه مني فعله، لكنني لن أحضره شخصيًا». حاولت للمرة الأخيرة أن أؤكد لها مدى أهمية وجودها وكيف أن الحكومة الفرنسية لن تتحمل مصاريف هذا العدد الكبير من النساء إذا لم تكن من ضمنهن فأجابتني. «من المؤكد أن المسؤولين في الحكومة سيقومون بإرسال هؤلاء النساء، لأنني سأخبرهم أنه يتعين عليهم فعل ذلك».

من الواضح أن شعبيتها في أوساط الحركة النسوية التي ازدادت مؤخراً جعلتها تصاب بالغرور، لكن كيف يمكنني أن أخبرها أن الحكومة الفرنسية لن تتحمس لتخصيص عدة آلاف من الدولارات فقط لتمجيد سمعتها؟ وكيف سأقوم بإبلاغ قرارها إلى منظمي المؤتمر، الذين أنفقوا الكثير من

الوقت والطاقة والمال لضمان نجاحه؟ كان لديها إجابة لذلك أيضاً. (سأكتب لك خطابًا رسميًا غدًا. سوف يقبلون قراري). شعرت بالذهول بعد أن قالت هذا. كتبت في مذكراتي في تلك الليلة: «إنها لا تتوقف عن إبهاري. يا لها من رائعة!»

كان من الجيد أنه لم تكن لدي ارتباطات في ذلك المساء بعد أن تركتها، لأنني كنت بحاجة لأن أعرف كيف سأخبر ماري نيكولز بالموضوع. كانت تلك الليلة تسبق آخر يوم لي في باريس كان مليئاً بالمواعيد التي تبدأ من الصباح الباكر ولا تنتهي إلا في وقت متأخر من الليل، لذلك ذهبت إلى مطعم لاكوبيل وطلبت نصف كوب من النبيذ ووجبة عشاء باهظة الثمن. لم يتبق لي الكثير من الوقت في هذه الرحلة لكي أقوم بلقاء أشخاص آخرين، لذلك قررت أن استفرد بنفسي (وأنفق من بطاقتي الائتمانية الخاصة) وأن أستمتع بتناول المحار والسمك الفرنسي. وقررت ألّا أنشغل بالتفكير في كيفية الإبلاغ عن موقف بوفوار غير الواقعي بشكل مدهش إلا إذا اضطررت إلى ذلك. وقلت لنفسي مجدداً، لا داعي للقلق إلا حين يحين الوقت لذلك الأمر.



الفصل الخامس والثلاثون

كنت قلقة طوال رحلة العودة إلى المنزل حول كيفية إخبار ماري نيكولز بأن سيمون دي بوفوار لن تحضر المؤتمر. لا أستطيع أن أقول إنني كنت غاضبة منها، لكنني كنت منزعجة بالتأكيد. وخشيت أن تسحب الحكومة الفرنسية التزاماتها وأن ماري لن يكون لديها ما يكفي من الأفكار لإنجاح المؤتمر.

ما كان ينبغي أن أقلق، لأن ماري التي كانت تمتلك دائمًا أفكاراً خلاقة كانت تعرف تماماً كيف تتغلب على رفض بوفوار. فقد قامت باتصالاتها مع محطة الشبكة التلفزيونية الأمريكية بي بي إس في واشنطن، وخلال أسبوع أو نحو ذلك كان لديهم الحل: بث تلفزيوني عبر الأقمار الصناعية سيمكّن بوفوار من مخاطبة المؤتمر ببث مباشر من شقتها المريحة. سوف يجعلنا نحن الموجودين في فيلادلفيا قادرين على التفاعل معها، وسيكون باستطاعة جمهور الحاضرين الترحيب بها وطرح الأسئلة عليها. كان البث التلفزيوني المباشر عبر الأقمار الصناعية أمرًا جديدًا إلى حد ما في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وأصدرت ماري بيانًا صحفيًا أعلنت فيه عن الموضوع بشكل واضح، مما أثار اهتماماً واسعاً لدى أشخاص من جميع أنحاء العالم تطوعوا للمشاركة فيه. أصبح بإمكاننا إنشاء برنامج كان من الممكن أن يستمر لمدة شهر إذا قبلنا مشاركة الجميع فيه.

كل هذا كان يحدث مع انتهاء زمالتي المقدمة من معهد بانتينغ واستئناف عملي التدريسي في جامعة بنسلفانيا. اهتمت ماري وموظفوها بكل شيء مرتبط بالتخطيط والدعاية للمؤتمر، لكن كان من المتوقع أن أقوم بصياغة

برنامجه. طلبت تقليص جدول محاضراتي ولكن لم تحصل الموافقة على ذلك. إضافة إلى ذلك كان لدي عمل إداري، وخاصة عضويتي في المجلس الاستشاري لدار النشر الخاصة بالجامعة، وهذا العمل كان يأخذ الكثير من الوقت. كان أحد الطلبة يعمل أثناء الدراسة فطلبت منه أن يعمل مساعداً لي في شؤون المؤتمر لمدة أربع ساعات في اليوم ولثلاث مرات في الأسبوع. كان يتقن اللغة الفرنسية جيداً وكان يقدم لي مساعدة رائعة برده على الهاتف. أتذكره كيف كان في نهاية كل يوم عمل، جالساً في كرسيه، وعيناه متعبتان وقد بُحّ صوته من تعامله مع أشخاص كانوا مصممين على أنهم يستحقون مكانًا - إن لم يكن دورًا رئيسيًا - في جلسات المؤتمر. تخيل، إذن، إذا كان هذا هو حاله، كيف سيكون حالي في نهاية اليوم الذي كانت ساعات عمله تستغرق عادةً ما بين ست عشرة إلى عشرين ساعة. وهكذا لم أتمكن في أغلب أشهر تلك السنة، من كتابة أي شيء من سيرة بوفوار.

بعد تسعة أشهر صارمة من التخطيط المستمر، توصلنا أنا وماري إلى قناعة بأن برنامج المؤتمر أصبح جاهزاً وأننا مستعدتان للذهاب إلى فرنسا للتحدث إلى النساء الخمس عشرة اللائي ترغب الحكومة في تمويل رحلتهن. في نيسان عام 1983، سافرت أنا وماري وامرأة استأجرتها للمساعدة في العلاقات العامة على متن طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية الفرنسية إلى باريس، برعاية الحكومة الفرنسية. استقبلنا سائق سيارة رسمية وتم نقلنا إلى المدينة بطريقة فخمة ومريحة، لم يسبق لي قط أنا الكاتبة المسكينة التي كانت ميزانيتها محدودة، أن تمتعت بها في أي وقت مضى. أخذنا السائق إلى الفندق الذي كانت تدفع الحكومة الفرنسية مصاريف الإقامة فيه وهو فندق بي إل إم سانت جاك، PLM Saint Jacques، الذي كان يقع في الشارع المقابل مباشرة للمبنى الذي كان يضم شقة صاموئيل بيكيت.

لم أكن أعرف المكان الذي سننزل فيه عندما كتبت إليه قبل مغادرتي. ووصلني رده قبل مغادرتي، أخبرني فيه أنه سيتنقل ما بين باريس وبلدة أوسي، لكنه كان مشغولاً للغاية بالكتابات الجديدة والتعامل مع الممثلين والمخرجين العصبيين في ألمانيا ولم يكن متأكدًا من أنه سيتمكن من أن يراني. وهكذا شعرت بالارتياح لأني فكرت أنه لا داعي للقلق بشأن إزعاجه

إذا ما صادفني بشكل غير متوقع في مقهى الفندق، حيث علمت أنه كثيراً ما كان يعقد فيه اجتماعات وحيث طلبت من العديد من الأصدقاء مقابلتي فيه خلال فترات الراحة القصيرة التي كانت تتخلل جدول أعمالي الرسمي.

بمجرد وصولي، بعثت إليه برسالة أخرى لشرح سبب نزولنا على الجانب الآخر من الشارع من منزله، لأنني لم أكن أرغب في حدوث أي مفاجآت في حالة إذا قابل أحدنا الآخر. أعتقد أنه كان مهتمًا بما كنت أفعله هناك، لأنه ترك لي رسالة هاتفية يطلب مني مقابلته في الساعة الثانية بعد بضعة أيام. كان عليّ مقابلة بوفوار في الساعة الرابعة من ذلك اليوم، لذا كان التوقيت مثاليًا. تحدثت أغلب وقت اللقاء، وأخبرته عن الخطط التحضيرية للمؤتمر. لم يتحدث بيكيت إلا قليلاً، وعاد ليقول مجدداً إنه غارق في الكتابة وسينتقل ما بين باريس وبلدة أوسي بحثًا عن الخصوصية التي يحتاجها لإنهاء العديد من الأعمال التي بين يديه. ودعنا بعضنا وداعًا حارًا، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأنه كان منزعجًا بعض الشيء. ستقوم جامعتي بفعل كل هذه الأشياء تكريماً لسيمون دو بوفوار، ولكن لم يتم اقتراح أي شيء لا من قبلي ولا من قبل الآخرين لتكريمه.

بقينا في باريس لمدة أسبوعين، وعرفت منذ البداية أنني سوف أواجه مشكلة مع ماري وامرأة العلاقات العامة التي ترافقها كلما كان علينا التعامل مع الفرنسيين. كانت ماري متحمسة وصريحة، ولم تكن تتردد قط في التعبير عن آراء كانت غالبًا ما تفتقر إلى اللياقة ويمكن أن تصدم الناس الذين لا يعرفونها جيدًا. لابد أن تكون مساعدتها قد قامت بنمذجة سلوكها المهني على أساس المبادئ الأولية للعلاقات العامة التي درستها والتي لا أحد يعرف قبل كم من الوقت، لأنها لم تكن قادرة قط على تمييز ما يتطلبه أي شخص أو موقف وكانت تلتزم بثبات بالنص المكتوب مسبقاً. لم تكن تعرف شيئًا عن التاريخ أو الثقافة أو اللغة الفرنسية، لكنها لم تتردد في التمهيد لاتصالاتنا الوزارية الأولية بقائمة من الأفعال الفظيعة وغير المناسبة تمامًا التي توقعت أن تقوم بها. لقد سامحتها عندما كنا في فيلادلفيا لأن ماري أصرت على أنها كانت مفيدة، لكنها في باريس أصبحت امرأة فضولية وقد أوقفتها عند حدها بعد اجتماعنا الرسمي الأول، على مأدبة غداء مع الوزيرة إيفيت رودي. بعد

ذلك، قررت ألّا أسمح لها عادة بمرافقتنا ما لم نكن نحضر حفل استقبال أو محاضرة كبيرة. أخبرتهما مرارًا وتكرارًا أننا لن نناقش مطلقًا أفكارنا الحقيقية بشأن أي من اجتماعاتنا إلا إذا كنا وحدنا. لقد حذرت ماري وزميلتها من أنه لا ينبغي أبدًا - مع التأكيد على ذلك بشدة - أن تقول أي شيء سلبي أو مهين في السيارة، حيث يمكن للسائق سماعنا. لكن تحذيري، كما كان يقول أحد أصدقائي الأعزاء دائماً، كان يدخل إلى أذن ويخرج من الثانية.

وعندما رتبت لهما لقاء مع سيمون دي بوفوار، بدأت أعتقد أنهما ستتسببان بإصابتي بأزمة قلبية. بعد تبادل قصير لعبارات المجاملة في شقة بوفوار، التي كانت تجلس في مكانها المعتاد فيما جلسنا نحن الثلاثة في صف واحد على الكراسي الصغيرة مثل طلاب في أحد الفصول الدراسية، انطلقت ماري في التعليق حول رفض بوفوار للسفر وقد لاحظت أن الأمر أثار غضبها. قاطعتها مساعدتها البليدة، التي اعتقدت أنها كانت تنزع فتيل الموقف، ولكنها لم تفعل سوى زيادة الوضع توتراً. أظهر لي التعبير الذي كان على وجه بوفوار أنها كانت تتأجج غضباً، وأدركت أنه عليّ إخراجهما من هناك. نهضت من مقعدي ونكزت ماري لكي تقف وتغادر كرسيها ولوحت لمساعدتها لأعلمها أننا ذاهبات. أخبرت بوفوار بأننا تأخرنا عن موعدنا القادم وأن علينا المغادرة حالاً، وشكرتها على لطفها، ودفعت صاحبتيّ قليلاً لتشجيعهما على الخروج قبل أن تتصرفا تصرفاً يؤدي إلى إلحاق المزيد من الضرر. أجلت توبيخي لهما إلى أن عبرنا على الرصيف حينما كنا ننتظر السائق ليحضر السيارة.

كنت أجلس دائمًا على مقعد الراكب الأمامي، لأنني كنت أتكلم بالفرنسية مع السائقة الشابة الودودة، التي ادعت أنها لا تتحدث الإنجليزية ولا تفهمها. كان من الجيد أن أفعل ذلك، لأنه سمح لي بأن ألتفت إلى صاحبتيّ وأرمقهما بنظرات غضب كلما أساءتا التصرف. وقد أطلقتا عليها تسمية نظرة «التصويب والتأنيب». في اليوم الأخير من إقامتنا، ودعتنا سائقتنا بلغة إنجليزية سليمة تماماً وأخبرتنا أنها الأخت الصغرى للملحق الثقافي الرفيع المستوى التي رتبت خط سير الرحلة. ثم أوضحت وهي تضحك أنها حصلت على الوظيفة لأنها تتحدث الإنجليزية ويمكنها أن تقدم تقارير يومية

إلى أختها. ولأننا كنا إيجابيات للغاية مع كل شخص قابلناه وكل شيء رأيناه أو فعلناه، فإنها أخبرت أختها أن مؤتمرنا يستحق الدعم. كانت صاحبتاي تتمتعان بنعمة الخجل وقد تفادتا نظراتي لهما عندما سمعتا بذلك.

وبجهد مني تمكنت من رؤية بوفوار كل يوم تقريبًا خلال إقامتنا التي استمرت أسبوعين. لقد كانت تصغي باهتمام وأنا أحدثها عن جميع الوزراء الذين أبدوا تعاونهم والناشطات النسويات اللائي كن سيشاركن في المؤتمر. كما أخبرتها كيف دعانا الملحق الثقافي في السفارة الأمريكية لتناول الشاي معه وأبدى استعداده لتقديم أي تعاون يمكن أن يأتي إلينا مباشرة من فرنسا. أعتقد أنها كانت معجبة بكل ذلك. ثم سألتني عن مدى التقدم الذي أحرزته في كتابي، وكان عليّ أن أخبرها بالأخبار المخيبة للأمل بأني لم أكتب فيه كثيرًا منذ أن انتهيت من جلسات العمل الأخيرة.

لقد كتبت الكثير في فترة الأشهر التسعة تلك، لكنها كانت في الغالب مواد تفيدني في ضمان ترقيتي إلى منصب الأستاذية: مثل مراجعات الكتب والمقالات الافتتاحية للصحف، ومقدمة لكتاب يتناول أعمال بيكيت، وحتى نبذة عن سيمون دي بوفوار في الموسوعة البريطانية، أرفقت معها صورة تجمعنا نحن الاثنتين التقطها لنا زوجي، الذي كان المصور الوحيد الذي تثق به للقيام بهذه المهمة. بعد أن التقط بعض الصور على عجل وغادر الشقة، قالت لي: «إنه لطيف للغاية لكنه هادئ للغاية». لم أخبرها أنني أمرته بعدم التحدث إلا إذا تحدثت هي إليه، عدا بعض الملاحظات اللطيفة، وأن يتراجع بأسرع ما يمكنه!

كان كل شيء يتعلق بزيارة فرنسا أكثر إيجابية مما كنت أتمنى. وقد نمت طوال طريق العودة إلى فيلادلفيا، واثقة من أنه بمجرد إعداد برنامج المؤتمر رسميًا، سيكون كل ما يتعين علينا القيام به (إلى جانب التعامل مع العديد من الشخصيات المغرورة المشاركة) هو انتظار افتتاحه. تمكنت من العثور على وقت فراغ كافٍ في عطلة نهاية الأسبوع للعودة إلى الكتاب، رغم أنه كان من الصعب العثور على المكان الذي توقفت فيه. كان الفصل الدراسي على وشك أن ينتهي، وكنت أتطلع إلى قضاء الصيف في مكتبي في المنزل. من المؤكد أنني لم أكن مستعدة في أحد أيام الربيع الصافية لرؤية ماري،

التي كانت نادراً ما تترك مكتبها، لتظهر في مدخل مكتبي. لقد كانت هادئة على غير المعتاد وهي تتناول الموضوع بشكل مباشر: لقد تم الاستغناء عن خدماتها. كان عليّ أن أطلب منها أن تكرر ما قالته عدة مرات. فعندما استدعاها رئيس الجامعة للحضور إلى مكتبه في ذلك الصباح، اعتقدت أن كل ما يريده هو الاطلاع على التقدم المحرز بخصوص التحضير للمؤتمر. لكنه بدلاً من ذلك، أخبرها أن تغادر في أسرع وقت ممكن.

شعرنا كلتانا بالذهول وبدأنا نفكر في الأمر مرات ومرات حتى استنفدنا كل طاقتنا دون أن نتوصل إلى تفسير لمثل هذه الأخبار المدمرة. في النهاية انتقلنا إلى الحديث عن الذي سيحصل للمؤتمر. قالت ماري إن جميع برامجها وحملات الدعاية التي كانت تجريها في ذلك الوقت ستستمر حتى النهاية، سوى أنها سترحل بسرعة. فانتحبت قائلة «لكن من سيكون المسؤول عن المؤتمر؟».

فقالت «أنت».

بعد عدة أسابيع، في حفل استقبال لأمناء الجامعة، ظننت أنني اكتشفت سبب طرد ماري من منصبها. قال أحد الأمناء الذين لا أحبهم بشكل خاص، كم كان جميلًا أن ترحل ماري نيكولز، أن يستيقظ في الصباح ولا ينتابه القلق بشأن رؤية قصة على الصفحة الأولى لصحيفة نيويورك تايمز التي تبرز بعض الإنجازات المرتبطة بجامعة بنسلفانيا. كانت فيلادلفيا إقطاعية نائية صغيرة بالنسبة إلى هؤلاء الناس، وأرادوا الاحتفاظ بها على هذا النحو.

كان من المستحيل أن أدير المؤتمر الذي كان فكرة ماري. لم أكن أعرف أياً من جهات الاتصال الخاصة بها ولا أمتلك أياً من قدراتها الإدارية. على الفور، سحب أصدقاؤها في القناة التلفزيونية تعاونهم في تأمين بث عبر الأقمار الصناعية. كان ولاؤهم لماري وليس للجامعة التي أضرت بها بالتأكيد. عندما سمعت الحكومة الفرنسية أن ماري قد رحلت وأن القناة التلفزيونية قد انسحبت، قالت عدد من الوزارات إنه ربما يمكنها أن تستلف مبالغ مصاريف أربع أو خمس نساء ولكن ليس أكثر. في جامعة بنسلفانيا، لم تقرر المدرسات مساعدة زميلتهن التي تراكمت عليها المشكلات (أنا)،

لكنهن شكّلن العديد من التكتلات وبدأن يقاتلن من أجل السيطرة على المؤتمر. كنت قد سئمت من القتال من أجل شيء لم أعد أؤمن به. لقد تخليت لهن عنه عن طيب خاطر واستقلت من كل مشاركة فيه.

تم عقد المؤتمر، لكن لم تحضره أي من الناشطات النسويات الفرنسيات، كما لم تحضره أي من النساء من الدول الأخرى اللواتي تطوعن بدفع تكاليف سفرهن من أموالهن الخاصة فقط لغرض تكريم سيمون دي بوفوار. أصبح الحضور في المؤتمر أمريكيًا خالصاً وركزت جلساته على القضايا ذات العلاقة المحدودة بشؤون المرأة أو التي لا تجمعها مع قضايا المرأة أية علاقة أبداً. ومع تقلص أعداد المشاركين في المؤتمر، قرر القائمون عليه تغيير موعده ليتزامن مع العطلة الربيعية، ولم تحضره أية شخصية تقريباً. أما أنا فلم أترك المدينة فقط بل البلد أيضًا. ذهبت إلى مدينة أواكساكا في المكسيك وقضيت العطلة الربيعية في زيارة مشاغل الحرفيين في القرى المكسيكية بحثاً عن منحوتات أشجار الحياة الخزفية (Árboles de la vida) التي كنت أقوم بجمعها.

بمجرد تقديم استقالتي من العمل في هيئة الإشراف على المؤتمر، حملت بطاقتي الائتمانية معي وطرت إلى باريس لإخبار بوفوار شخصياً بما حدث. في تلك الظهيرة الممطرة، عندما كان الظلام يخيم في شقتها، عبرت بوفوار عن مجموعة من المشاعر – كانت في البداية مشاعر حيرة، تلتها مشاعر حزن، وعبرت أخيراً كما أعتقد عن مشاعر قبول بالأمر الواقع. عندما أمالت جسمها لتشغيل مصباح الطاولة الذي كان بجانبها والذي كان من تصميم النحات ألبرتو جياكوميتي، رأيت أن ما استقرت عليه مشاعرها أخيراً هو التعبير عن التعاطف معي لقد كانت تلك من المرات النادرة التي رأيتها فيها تعبر عن اهتمام حقيقي بي كإنسانة وكامرأة، وليس فقط ككاتبة كانت تقيم معها علاقة مهنية وكانت تتعاون معها في تأليف كتاب كانت تتوق لأن تراه يصدر وهي على قيد الحياة.

لطالما وجدتها محرجة كلما رأيتها تحاول أن تريح أصدقاءها، وأثار بعض هذا الإحراج تغييراً في نبرة خطابها لأنها حاولت أن تكون لطيفة معي. تطوعت برواية قصص عن حالات خيبة الأمل التي عانت منها في حياتها

المهنية وأصرت على أن أياً منها لم يكن بجسامة تلك التي عانيت منها، على الرغم من أنها لم تكن ذات أهمية بالنسبة إلي.

أصرت بوفوار على أن أبقى متماسكة، وبينما كانت تتحدث، كنت أفكر في العبارات التي غالباً ما كانت تستخدمها في مثل هذه المواقف: «إن ما حدث قد حدث،» و«الأشياء التي لا يمكن إصلاحها لا تستحق أن نلوم أنفسنا عليها». قلت لها إنني سأعبر عن طريقتي الخاصة في التعامل مع الشدائد بعبارات من اللغة الإنجليزية لأنني لا أستطيع التعبير عنها بما يقابلها في اللغة الفرنسية: قلت لها إنني أستخدم مع من ينبذني أو مع الفشل أو خيبة الأمل العبارة التي تقول، «انفض غبار الفشل عن نفسك وانطلق» وأعني بذلك أنه ما دام لا شيء هناك يمكن أن يغير الماضي ولا يمكننا التأكد من المستقبل، فليس لدينا سوى الحاضر فقط ويجب أن نستفيد منه إلى أقصى حد. قالت لي نعم، فقد كانت دائمًا تعيش حياتها هكذا أيضًا. أسرعت إلى المنزل وانا أشعر بتحسن كبير.

بقيت فترة طويلة أشعر براحة البال، فقد تمكنت أخيراً من تكريس جهودي للانتهاء من الكتاب. كان ذلك في عام 1984، وكنت قد حصلت على زمالتين، واحدة من جامعة روكفلر والأخرى زمالة غوغنهايم التي تمنحها مؤسسة جون سايمون غوغنهايم. في البداية قال رئيس قسم اللغة الإنجليزية إنه يمكن إعفائي من التدريس لمدة عام واحد فقط وسيتعين عليّ أن أقرر ما أريد قبوله، ولكن عندما قلت إنني لن أسمح للجامعة أن تنسب الفضل لها في حصولي على هذه المكافآت المرموقة إلا إذا كان يمكنني قبولهما كليهما، جاء القرار من السلطات بالسماح لي بالحصول عليهما. لم أستطع أن أصدق ما أنعم عليّ به حظي الحسن: التفرغ لسنتين والجلوس في مكتبي وإنهاء كتابي، أو هكذا اعتقدت. كانت وكيلة أعمالي الجديدة، إيلين ماركسون، قد عرضت الكتاب على جيم سيلبرمان وهو ناشر ذو رؤية مستقبلية صاحب دار نشر سوميت بوكس، فبدأ بالضغط للحصول على مخطوطته التي تأخرت كثيرًا. كان الوقت قد حان لأن أعمل بجد في إنهاء الكتاب، لأن إيلين لم يتبقّ لها شيء من الأعذار لتقنع بها جيم ليصبر فترة أطول.

لقد عملت بلا كلل خلال شتاء 1984–1985، حتى وصلت إلى نقطة

كنت بحاجة فيها إلى إجراء المزيد من الأحاديث مع بوفوار والحصول على استراحة من روتين العمل اليومي. عرضت صديقة أمريكية السماح لي باستخدام شقتها في باريس لمدة ثلاثة أسابيع بدءًا من نهاية كانون الثاني، وكانت تلك ضربة حظ موفقة سمحت لي بالبحث في موضوعين مهمين في حياة بوفوار كانت قد حرصت حتى ذلك الحين على إخفائهما وعدم التطرق إليهما. لم أستطع المضي قدماً في الكتاب: ولأجل أن أكتب عنهما، كان عليّ أن أجعلها تشرحهما لي.

عندما كتبت لأخبر بوفوار أنني قادمة إلى باريس، قلت إن لدي مواضيع محددة سنحتاج إلى تغطيتها بتفاصيل أكبر مما كانت لدينا من قبل، لكنني لم أذكر ما هي. كنت قد اكتشفت أنه في بعض الأحيان إذا قمت بتقديم معلومات وجيزة عنها لإثارة فضولها، فسأحصل منها على إجابات كاملة، لأنه لا يكون لديها الوقت حينها لإعداد إجاباتها مسبقًا. كان الموضوع الأول عن أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه التي كانت عن الفيلسوف الألماني ليبنيتز، والتي اعتقدت أنها قد تقدم لمحة مهمة عن تطورها كفيلسوفة. ادعت بوفوار أن الأطروحة قد ضاعت قبل سنوات. وأصرت على أنها لا تملك نسخة، ولا يمكنني العثور على نسخة منها في أية مكتبة أو أرشيف أو حتى في مدرسة الأساتذة العليا في باريس. لقد بحثت في كل أرشيف أكاديمي محتمل، وكذلك فعل عدد كبير من الأصدقاء الفرنسيين الذين تطوعوا لمساعدتي. لم أستطع أن أفهم لماذا كانت بوفوار ترفض الحديث عن شيء بهذه البساطة والوضوح. كنت عادةً عندما أريد أن أرى شيئًا محددًا – مخطوطة أو صورة أو رسالة – كان من الأفضل أن أكون صريحة معها مسبقًا، ولكن في هذه الحالة كنت أعرف أنها ستختلق نفس الأعذار كما كان يحدث من قبل، لذلك كان من الأفضل اتباع نهج غير مباشر.

عندما دار الحديث بيننا في لقائنا الأول، أخبرتها أنني قرأت فلسفة ليبنيتز وأنا أستعد لهذا اللقاء، وأذهلتني الفكرة السائدة في ذلك الوقت بين الفلاسفة والمختصين بفلسفة ليبنيتز (قبل التنصل منها ثم قبولها مرة أخرى) أنه تأثر بالقبلانية (فلسفة سرية يؤمن بها بعض أحبار اليهود والمسيحيين). في الوقت الذي كانت فيه بوفوار تكتب أطروحتها، افترض بعض الباحثين

أن الصوفية وبعض الكتابات الغامضة ساهمت في تطوير النظرية العلمية العامة، وجادلوا في أن ليبنيتز غطى بعض هذه الدراسات في نظريته عن المونادلوجيا أو الجوهر البسيط للوجود. سألت بوفوار عما إذا كانت قد أدرجت أيًا من هذه الافكار في أطروحتها أو إذا كانت قد تأثرت بما كان يُطلق عليه بعد ذلك بالفلسفة القبلانية التي تتحدث عن الكمال والتفاؤل والخلاص الشامل، وإذا كانت ربما قد قبلتها واعتبرتها خاصة بها. كانت إحدى الحجج السائدة عندما كانت تكتب أطروحتها أن ليبنيتز أخذ هذه النظريات المتنوعة وأدرجها في مفهومه للواقع. وأنه دمج هذه المجموعة من الكيانات المنفصلة والفردية في فكرة اللانهاية الموحدة.

تذكرت أنها كانت تكتب هذه الأطروحة قبل أن تنضم إلى حلقة سارتر وأصدقائه من دارسي الفلسفة. وتزامنت مع السنوات الأخيرة من قصة افتتانها بابن عمها جاك قبل أن تقع تحت تأثير التنظير الوجودي وعندما كانت قد سحرتها الأفكار الرومانسية في رواية ـ مولين الرائعة للكاتب آلان فورنييه. كانت لوعة فتاة المدرسة تشعر بالألم الناجم عن حبها غير المتبادل لابن عمها إلى جانب الشخصية الروائية الرومانسية التي كانت معجبة بها للغاية، يتناقضان تماماً مع نظرية سارتر ومنسجمة تمامًا مع تفسيرات معينة لأفكار ليبنيتز التي ربما تكون قد تبنتها.

ولكوني غير متخصصة في الفلسفة فلا شك في أن كل ما قلته وأنا أحاول أن أشرح لماذا كنت أسأل عن الأطروحة كان مشوشاً وغير علمي، ولكن عندما استطعت أن أستوعب ما أردت أن أعرفه حقًا، كانت لغتي واضحة تمامًا: هل كان السبب في أنها لم تكن تريد قط من أي شخص قراءة رسالتها لأنها كانت محرجة أو خجولة، لأنه ليس لها أي أساس أو صلة مع نظرية الوجودية التي صاغها سارتر؟ أو ربما لأنها قد طرحت وجهة نظر معاكسة تمامًا لوجهة نظره، التي تبنتها بكل إخلاص في ذلك الوقت؟

بدت مندهشة لدرجة أنني لم أستطع أن أطرح عليها مثل هذا السؤال، أو هكذا اعتقدت عندما رأيت التعبير المرسوم على وجهها. وبدلاً من ترك غضبها يتفاقم، واصلت ابداء تعليقاتي المتتالية عن الاختلافات المحتملة بين ما اعتقدت أنها ربما تكون قد كتبته ونظرية سارتر التي كانت في أوج

عظمتها. عندما انتهيت من ثرثرتي المتوترة، خلصت إلى القول إنها ربما لا تريد أن يكتب أي شخص عن أطروحتها لأنها، لأي سبب من الأسباب، أرادت أن تتبرأ منها.

كانت تجلس في تلك الأثناء في مكانها وتحدّق فيما حولها دون أن تتكلم. في رأيي، تخيلت مع نفسي الستار الزجاجي الذي يحجبنا وهو ينزل إلى الأسفل، ولم أفعل سوى الجلوس بصمت إلى أن تكسره هي. يعتبر الصمت أسلوباً معروفاً في الصحافة ونتائجه أقل من المتوقع، لكن في تلك المناسبة كنت أستخدمه فقط لأنه كان ملاذي الأخير، وربما كانت هذه هي فرصتي الأخيرة لجعلها تتحدث عن ليبنيتز. إذا قامت بطردي من شقتها مرة أخرى، فليكن ذلك، لكنني كنت مصممة على أنها هي من سيكسر الصمت، وقد فعلت ذلك في النهاية.

لم تطلب مني المغادرة، لكني كنت متأكدة أن طقس تناول الويسكي بعد الظهر لن يحدث في ذلك اليوم. عندما تحدثت، كان كل ما قالته هو، «كلا». وبينما بقيت أنا صامتة، تابعت هي حديثها، مدعية أنها لا تستطيع أن تتذكر «أفكارها وهي تلميذة»، وهذا أمر مثير للاهتمام، لأنها كانت تستطيع أن تتذكر بالتفصيل الكامل الكثير من الأشياء الأخرى التي كتبتها خلال تلك الفترة، أو الكتب التي قرأتها والأفلام التي شاهدتها. كل الذي استطاعت أن تقوله هو أن الرسالة قد ضاعت وأنها سئمت من الحديث عنها، وحذرتني من أن أتطرق إليها مجددًا. كنت أعرف أنني قد هُزمت، وفي هذا الموضوع كان عليّ أن أرضى بما أخبرتني به. كان لا يمكن أن أقحم تكهناتي في كتاب السيرة حين لا تكون هناك شواهد تدعمها. ولذلك كتبت هوامش أخرى بحذر شديد أشرح فيها البداية الحقيقية لكتاباتها الفلسفية وربما عقيدتها الأولى.

كان فهم إحجام بوفوار عن مناقشة الموضوع الرئيسي الثاني في رحلتي – حول كيف تواطأت مع سارتر في إغواء إحدى تلميذاتها وهي، بيانكا بيانفيلد لامبلين – أسهل بكثير.

عندما سألت بوفوار عن علاقات سارتر الجنسية في الجلسات السابقة، كانت واضحة وصريحة، بصرف النظر عن مدى ما تجلبه مشاركتها في

مساعدته على إغواء النساء من سمعة سيئة لها. أصرت على أن علاقتهما الجنسية قد استمرت لسنوات عديدة وأن كلاً منهما وجدها (من بين التعبيرات العديدة التي استخدمتها مع مرور الوقت) «مليئة بالحب» أو «الحنان» أو كانت في أغلب الأحيان تشبع رغباتهما و«ضرورية». ثم قالت نعم، لقد أحب النساء الجميلات، ولأنها كانت تعرف مقدار ما كانت تعنيه بالنسبة إليه، أكثر من جميع النساء الأخريات، فلم يكن يهمها عدد النساء الأخريات اللائي يصحبهن إلى سرير النوم، لأنهن لم يعنين له سوى وسيلة لإشباع رغباته. وإذا كان عليها أن تساعده في إقناع النساء المترددات بأن يصاحبن هذا الرجل القبيح الذي كانت له رائحة فم وجسد كريهة، فإنها قد فعلت ما يجب القيام به.

أوضحت أختها هيلين تواطؤ سيمون بنفس الطريقة، حيث حثتني على فهم الدور الذي لعبه قبح سارتر الجسدي في خلق حاجته إلى النساء بشكل مستمر. على الرغم من أن هيلين لم تساعده قط في عمليات الاستحواذ على النساء هذه، إلا أنها أرادت أن تقنعني بقبول فكرة أن حب أختها غير المشروط لسارتر كان هو السبب في أنها ساعدته في تحقيقه. قبلت هذا التفسير لمعظم الحالات الأخرى، لكنه لم يفسر لي موقف بوفوار من بيانكا. عندما كنت أسألها عن العلاقة التي جمعتهما كلتيهما مع إحدى طالباتها في المدرسة الثانوية، كانت تقول دائماً إننا يجب ألا نتحدث عن ذلك وكانت تحاول تغيير الموضوع. بعد فترة من الوقت توقفت عن الإصرار على الحديث في الموضوع حتى لا تحرمني من طقس تناول الويسكي، الذي كان طريقتها لإخباري بأنني تجاوزت حدودي كثيراً.

قررت تأجيل تناول موضوع نساء سارتر إلى جلستنا القادمة، التي كانت بعد يومين. بدأت بحذر إلى حد ما، لأنني كنت أرى أنها كانت لا تزال متحفظة بعد الأحاديث المكثفة التي تبادلناها حول ليبنيتز. ونظرًا لأنني لم أستطع التفكير في بدء أي محادثة غير رسمية أخرى بعد أن قمنا بتبادل الأحاديث حول الطقس الشتوي المروع والزكام الذي أصابها والرشح الذي كنت أعانيه، فقد تطرقتُ إلى الموضوع مباشرةً. لقد سألتها السؤال الوحيد الذي كنت أعرف أنه سيغضبها أكثر من أي سؤال آخر: هل كانت

علاقتها «الضرورية» مع سارتر نتيجة إصرار مسبق منها؟ هذه المرة أشرت إلى الموضوع في سياق سؤالها لماذا اختارت أن تنشر رسائل سارتر وليس رسائلها: فهي عن طريق إخفائها نصف مراسلاتها، لم تمنح مصداقية لأرليت ولكل من ادعى أن علاقتهما «الضرورية» كانت حكاية من بنات خيالها؟ ومن جديد كان وجهها قد اسودّ من الغضب.

لقد خالفت بوفوار رغبات الجميع تقريبًا بعد وفاة سارتر عندما قامت في عام 1983 بنشر رسائله لها. أخبرتني أنها فعلت ذلك لكي تستبق ادعاء أرليت بأنها صاحبة حقوق نشرها، لأنها تخشى ليس ألا تقوم أرليت بنشرها فحسب، بل والأسوأ من ذلك أيضاً، أن تتلفها (لقد أتلفت فعلاً نسخها الأصلية). اعتقدت بوفوار أن أرليت كانت عازمة على تقويض، إن لم يكن القضاء التام على المكانة الرفيعة التي احتلتها في حياة سارتر، ومن خلال قيامها بنشر رسائله، يمكنها أن تضمن أن هذه هي حقًا مكانتها الحقيقية. لقد اتخذت هذا الإجراء على الرغم من حقيقة أن كل فرد في «العائلة» عارضها.

كانت هناك بعض من أقذر الأمثلة حول تواطؤ بوفوار مع سارتر في إغواء الفتيات، كما في حالة بيانكا الفتاة البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا (التي تسمى لويز فيدرين في الرسائل)، كانت سيمون قد أغرت الفتاة أولاً ثم بدأت تتبادل الآراء هي وسارتر التي ستكون مفيدة له ليتمكن من إغوائها. لا يستمتع المرء بقراءة هذه الرسائل. شعرت أن بوفوار لم تكن ترغب في اصطحاب تلك الفتاة إلى فراش النوم، ولم يكن هناك شك في أن بوفوار كانت تخجل من علاقتها الحميمة مع بيانكا. لماذا إذن، نشرت دورها في هذه الأحداث القذرة عندما كان من السهل عليها أن تتجاهل تلك الرسائل ولم يكن أحد يعلم بوجودها؟ تُعد حادثة بيانكا من إحدى النواحي بمنزلة انعكاس دقيق لفكرة كيف أنها لم تتجنب قط سلوكها البذيء. كما أنها توضح كيف كانت تتصرف عادة عندما يتعلق الأمر بسارتر: فقد كانت رغباته، سواء كانت صالحة أم لا، لها الأولوية دائماً على رغباتها. فقد اختارت إلى جانب إخلاصها الذي لم يتزعزع، ألا تخفي ما فعلت.

لكن يبدو أن تلك الإجابة لم تكن سوى تفسير جزئي لغضبها (أو شعورها

بالإحراج) كلما سألتها عن بيانكا. أخيرًا، بعد عدة سنوات من تجنب الحديث عن الموضوع، كنت على استعداد لسؤالها عما إذا كان يمكنها أن تفيدني بشيء فيما يتعلق بكيفية تعريفها لحياتها الجنسية وإصرارها على أنها لم تكن مثلية. هل كانت خائفة من أنها إذا اعترفت بعلاقتها مع بيانكا (التي أكدتها هي) وعدة «علاقات مثلية» أخرى (لم أستطع التحقق منها على الإطلاق)، وكذلك القصة التي ذكرتها حينها عن تبنيها لصاحبتها النبيلة، سيلفي، سيؤدي إلى تشويه دورها القيادي كأيقونة للحركة النسوية وكشخصية لامعة؟ حين كنا في الجلسات السابقة، نتحدث عن أنشطتها النسوية، كانت تتحدث باستخفاف أو ازدراء عن «تلك السحاقيات»، فهل كان من الممكن أنها كانت تحتفظ ببعض التحيزات النابعة من تربيتها الكاثوليكية المحافظة؟ لقد كانت على عادتها فظة في إجاباتها: لا، لم يكن لديها تحيز مسبق لجسدها. نعم، لقد فعلت أشياء كانت حريصة على أن تقول عنها إنها «ليست فخورة» بها بدلاً من الاعتراف بأي شيء آخر، مثل (كما قلت أنا) الإحراج أو العار. بالنسبة إلى الدور الذي سيسنده إليها تاريخها، كانت تتمنى فقط أن تبقى مساهماتها في الكتابة عن قضايا عصرها خالدة.

كانت بيانكا بيانفيلد لامبلين هي المرأة الوحيدة التي كانت لا تزال على قيد الحياة من بين النساء اللواتي ربطتهن علاقة قوية مع سارتر وكانت مؤهلة ذهنياً للحديث عندما كنت أجري أبحاثي. فقد ماتت سيمون جوليفيت، وكانت ميشيل فيان تعاني من فقدان الذاكرة بسبب إدمانها الكحول. كانت دولوريس فانيتي، التي تحدثت إليها في نيويورك، مصدراً غير موثوق به. كانت أولغا بوست غاضبة، وبعد أن قالت جملة أو اثنتين عن علاقتها الجنسية هي وشقيقتها فاندا مع سارتر وبوفوار، أخبرتني أننا يجب أن نغلق الموضوع. لقد بحثت عن بيانكا لأنها كانت آخر مصدر متاح. في تلك الأيام التي لم يكن قد ظهر فيها بعد محرك البحث غوغل، استخدمت كل حيل الصحفيين والباحثين لكي أتمكن من العثور عليها، لكن لم يكن أحد يعرف عنها شيئًا، أو أين تعيش، أو حتى إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. ادعت بوفوار أنها لم ترها منذ أربعين عامًا ولم يكن لديها أية فكرة عن حالها، أو حتى إذا كانت قد نجت من الحرب. تمكنت من الوصول إلى دفتر عناوين

بوفوار ومفكرة مواعيدها اليومية. لم أر اسم بيانكا لامبلين في أي منهما. بعد عدة سنوات، تخليت عن محاولة العثور عليها.

تخيل، إذن، مقدار دهشتي عندما نشرت كتابها، ذكريات فتاة صغيرة مضطربة «Mémoires d'une jeune fille dérangée»، في عام 1993، الذي زعمت فيه أنها كانت تلتقي مع بوفوار بانتظام مرة واحدة على الأقل كل شهر منذ انتهاء الحرب وأنها كانت تعيش كل ذلك الوقت في باريس، على مسافة قريبة تكفيها للذهاب سيراً على الأقدام إلى شقة بوفوار كلما أرادت ذلك. كانت متزوجة من برنارد لامبلين (الذي توفي عام 1978)، وهو أستاذ فلسفة بارز وكان أحد طلبة سارتر في المدرسة الثانوية وكانت تعرفه بوفوار منذ أيام دراسته. كما أنها كانت أيضًا ابنة عم الكاتب جورج بيريك، الذي كان يعرفه جيداً سارتر وبوفوار أيضًا. لا يمكن وصف الكثير مما كتبته إلا بأنه روايتها الخاصة عن الواقع، أو بشكل أكثر دقة، من بنات خيالها. لكن من المفهوم تمامًا أنها كانت تريد التبرير، إن لم يكن الثأر، لعملية إغوائها حين كانت تلميذة في المدرسة وتخلي سارتر وبوفوار القاسي عنها أثناء الحرب، عندما ناشدتهما، بصفتها يهودية، أن يمدا لها يد العون ولم تتلق أي شيء منهما. كانت لا بد أن تكون تصرفاتهما تافهة قبل الإهانة العلنية التي تعرضا لها عندما نشرت رسائل سارتر في عام 1983 ورسائل بوفوار في عام 1990. كان كتابي عن سيرة حياة بوفوار قد صدر قبل صدور مذكرات بيانكا لامبلين بثلاث سنوات، وليس من المستغرب أن تكون لديها مشاكل معه. كانت تعطي الأفضلية لذكرياتها الخاصة، ومن جهتي لم أفعل شيئًا حينها (ولن أفعل شيئاً الآن) لإثارة خلاف معها.

والآن، وبعد سنوات عديدة من تلك الحوارات مع بوفوار، أدركت كم كان صعباً، إن لم يكن مؤلماً، ذلك الأمر عليها. تخطر على بالي بعض المصطلحات المعاصرة التي تستخدمها الكاتبات المنتميات للحركة النسوية مثل: «نظرية التأليف الذاتي»، و«نظرية الوكالة»، و«السيطرة». يشير مفهوم التأليف الذاتي إلى النساء اللاتي لم يكن بمقدورهن أصلاً سرد قصصهن بصدق أو بإخلاص أو بموضوعية بغض النظر عن السبب. ربما تكون القصة الأولى التي يروينها تتعلق بمبدأ «سوء النية»، الذي كان يمثل

أسلوبهن للتهرب من «واقعهن الحقيقي»، الذي يحدده مصطلح «الوكالة»، أو افتراض تحمل المسؤولية عن تعريف الذات الصادق. من خلال مبدأ «السيطرة» على السرد الشخصي الذي لا يمكن أن يتجسد إلا من خلال الوكالة. كنت أتساءل، وأنا أقوم بتطبيق هذه الأفكار بأثر رجعي على بوفوار، هل كانت تستخدم أسلوبها الخاص من التأليف الذاتي عندما تحدثنا عن بيانكا حتى تتمكن من صياغة قصة حياتها لتناسب القصة التي تروى حسب أسلوب الوكالة، وهي التي أرادت أن يتذكرها العالم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل كانت تفعل ذلك طوال تلك السنوات من المقابلات والحوارات؟

لقد جعلني ذلك أفكر وأنا أسترجع أحداث لقائنا الأول وأسأل نفسي عما إذا كانت، بوفوار تريد من خلال سرد قصة بيانكا، أن تعرض ببساطة نسخة أخرى تختلف عما أخبرتني به عن الطريقة التي سنكتب بها هذا الكتاب – أي أنها ستتحدث وأنا أكتب ما تقوله، وبعد ذلك (حين تصفق كلتا يديها معاً بابتهاج)، سنكون قد حصلنا على سيرة حياتها؟

هذا هو كابوس آخر من تلك التي تجلب القلق في الساعة الرابعة صباحًا لكتاب السيرة. في حالتي ليبنيتز وبيانكا، خرجت من عندها دون أن أحصل على أي تأكيد مطلق؛ كم كانت لدي آمال كبيرة في أن أنتزع منها الحقيقة حول هذه المواضيع، لكن في النهاية لم أستطع أن أخترق الحجاب الذي كان يفصلنا. مثل ظروف كهذه تخلق حالة من انتشار عدم الأمان تجعل من كتاب السيرة يخشون من أنهم قد ينسبون عن غير قصد – ومن دون وعي – حقائقهم الخاصة للأشخاص الذين يكتبون عنهم.

وعندما كان دماغي المنهك مليئاً بالأفكار عن بوفوار وكيف سأكتب عن تعقيدات حياتها، كانت تلك هي اللحظة التي عاد فيها صامويل بيكيت وبشكل طبيعي إلى حياتي.

الفصل السادس والثلاثون

كانت فترة ما بعد الظهيرة مع بوفوار مليئة بالمواقف العاطفية لدرجة أنني أردت أن أتعافى منها فذهبت كعادتي إلى مطعم دوم لاتناول كأسي المعتاد من النبيذ الأبيض وأجلس في مقعدي بجانب النافذة، وبدأت أكتب بعصبية في دفتر ملاحظاتي. تسبب كل سؤال أجابت عليه في إثارة عشرات الأسئلة الأخرى التي كان لا بد أن أقلق بشأنها، وهناك احتمال كبير أن كل واحد منها سيزعجها أكثر. وبينما كنت أفكر في هذا الموضوع، رفعت رأسي لألقي نظرة على الناس في الشارع وإذا بي أرى رجلاً ذا وجه مجعد مألوف يرتدي سترة من جلد الغنم وبلوزة أيرلندية تغطي عنقه. لكن كان عليّ أن أقوم بمهمة مزدوجة، لأنه كان يسير ببطء وبحذر، وبدا طاعناً في السن وجسمه منحنياً لدرجة أنني اعتقدت أنني ربما اشتبهت في رؤية شخص آخر يشبه بيكيت. بعد لحظات قليلة، لم يكن لدي أي شك في أن ذلك الرجل هو صامويل بيكيت فعلاً.

لم أكن قد كتبت إلى بيكيت قبل أن أقوم بهذه الرحلة لأنني لم أرغب في إجراء أي اتصال معه. كان رأسي ممتلئًا بالأشياء التي كنت بحاجة إلى القيام بها فيما يتعلق بسيرة بوفوار، لدرجة أنني لم أكن أريد لأي شيء آخر أن يفسدها. لم أكن أرغب في أن أجرب القلق الذي لطالما أنهكني قبل كل لقاء فعلي مع بيكيت، حيث كنت أشعر بالأرق في الليلة السابقة له، وحرقة في المعدة في النهار، وإرهاق ذهني يلازمني بمجرد انتهاء المقابلة. ولم يكن باستطاعتي أن أوفر الوقت له أو لمعظم الأصدقاء الطيبين الذين تعرفت عليهم في باريس بينما كنت أكتب سيرته الذاتية. ما لم يكن لدى أحدهم بعض الصلة مع ببوفوار، فقد توجب عليّ أن أعتذر عن تلبية دعواتهم

لاستضافتي وأتحدث معهم عبر الهاتف فقط. وإذا كنت لم أستطع رؤية الأشخاص الذين يمكنني الشعور بالراحة والمتعة معهم، فلا يمكنني مقاومة رغبتي في اللقاء مع بيكيت.

كان بإمكاني تجنبه في ذلك المساء بالذات بنفس السهولة التي تجنبته بها قبل عام. لم أكن أعلم حينها أنها ستكون آخر مرة أكون فيها في صحبة صامويل بيكيت، لذلك لا يمكنني الادعاء بأنني كنت أطمح إلى أن ألتقي به مرة ثانية. جعلتني جلستي مع بوفوار أشعر بحالة من الإحباط ولكنني لم أكن في حالة من المواجهة أو الدفاع، لذا لا يمكنني وصف الموقف الخاص الذي جعلني ألوّح له ليراني. ربما أثار مشهد رؤيته غير المتوقع ردود فعل مفاجئة وعفوية في داخلي لم تمنحني الوقت للتفكير فيما كنت أفعله عندما وقفت ولوّحت. رآني، وبدا غير متأكد من الذي كان يلوّح له.

وقف بالقرب من مدخل المطعم، لذا خرجت إلى الرصيف لمقابلته وتقديم الاعتذار له لعدم إخباره بأنني في باريس. أعتقد أنه قال شيئًا مثل، «لا شك أنك هنا للعمل معها». (أتذكر بوضوح أنه لم يقل اسم سيمون دي بوفوار: بسبب ظلال عدائه القديم لها.) أخبرني أنه كان يريد أن يتمشى لفترة قصيرة قبل أن يتناول الطعام في مطعم أوزيل ماكزيس، وهو مطعم سمك كان يحبه لأن العاملين كانوا يضمنون له دائمًا أن يتمتع بخصوصيته، وسألني عما إذا كنت أرغب في الانضمام إليه. كانت الدعوة غير متوقعة، ولم يكن لدي أي عذر جاهز لإبداء عدم رغبتي في ذلك، لأنني لم أرتبط مطلقًا بمشاركة العشاء مع أي شخص بعد جلستي مع بوفوار، حتى أتمكن من قضاء بقية المساء بمفردي، لكي أتذكر وأدون ما تحدثنا به في جلستنا.

أدهشتني دعوته، لأنه في خلال جميع السنوات التي كنا نعمل فيها معًا، لم أتناول الطعام مطلقًا مع صامويل بيكيت. كنا نتناول دائماً المشروبات والقهوة عادة، والنبيذ في بعض الأحيان، وربما بعض الوجبات الخفيفة في الحانات. كنت دائماً أرتب الأمور بهذه الطريقة لأنني كنت أعلم أنني سأكون متوترة للغاية لو تناولت الطعام معه كما كان حالي في ذلك المساء. لقد كذبت وأحمرّ وجهي كما هي عادتي، قائلةً إنني سأقابل مجموعة من الأصدقاء في وقت لاحق لتناول عشاء غير رسمي. اقترح أن نتناول معاً

مشروباً كحولياً في حانة روزبيد (كانت أحد الأمكنة التي اعتاد على ارتيادها، وكانت تقع في مكان قريب منا).

كان المسير إلى الحانة طويلاً وبطيئاً، حيث كان لسنوات من التدخين بشراهة أثرها على بيكيت فقد كان يتنفس بصعوبة. بمجرد جلوسنا، لاحظت أنه، للمرة الأولى، لم يكن يحمل سجائر أو علبة ثقاب يلعب بها. سألني إلى أين وصلت في «كتابها»، لكن سرعان ما أجبته على الرغم من أنني لم أكن أرغب في الحديث عنه - قلت له إن كل شيء يسير على ما يرام والعمل جارٍ فيه على قدم وساق وسيصدر في وقت قريب جداً، كان كل شيء على ما يرام بالفعل - قام بتحويل مسار حديثنا إلى أموري الشخصية. فسألني هل ما زلت أقوم بالتدريس؟ لا بد أن أطفالي قد كبروا الآن؛ هل أنهوا دراستهم الجامعية؟ هل مازلت أعيش في فيلادلفيا؟ كان يعلم من العديد من الباحثين الألمان أنني أمضيت وقتًا طويلاً في ذلك البلد أتحدث عن أعماله في مؤتمرات وندوات مختلفة، وكان يعلم أنه كان من المقرر أن أعود قريبًا للمشاركة في مؤتمر آخر. سألني كيف وجدت العمل هناك.

وفجأة، وجدت نفسي وبلا وعي مني أكشف وبعصبية عن كل الإهانات ـ التي جعلتني أرى النجوم في عز الظهر فعلاً ـ التي تعرضت لها منذ صدور كتابي عن سيرة حياته. لقد قدمت له صورة ملطفة ومخففة للغاية، لكن في لحظة ما صدرت مني زلة لسان وذكرت كلمة «البيكيتيين». لا يزال بإمكاني تذكر التعبير الذي ارتسم على وجهه: أعتقد أن الأمر أذهله. لكنه لم يكررها ولم أقم أنا بذلك أيضاً، لكنني عرفت أنه قد استوعبه تماماً. أعتقد أنه قال شيئًا من قبيل «إنه أمر مؤسف»، لكن لا يمكنني تذكر السياق الدقيق لكلامه، سواء كان يعني سلوكهم أم سكرات الموت كما وصفتها مازحة التي جعلوني أعاني منها. ومع ذلك، أتذكر أنه أخبرني كيف قرر في وقت مبكر أنه لن يرد أبدًا على منتقديه. لم ينصحني باتباع قاعدته تلك، لكنني متأكدة من أن ذلك ما كان يقصده. ثم قام بتغيير الموضوع بالكامل ليخبرني أنه «يعمل مع جيم الآن».

استغرق الأمر مني بعض الوقت لفهم أنه كان يتحدث عن جيمس نولسون، الذي كان يكتب سيرة لن تنشر إلا بعد وفاة بيكيت. مثلما كان لدي

الكثير لأقوله عن البيكيتيين، وجدت أنه كان عليّ أن أقول الكثير عن مؤلفي الكتب الأخرى التي تتناول سيرة حياته إلى جانب كتابي، وقد توسعت في الحديث عن ذلك الموضوع. قلت إنني أرحب بأي كتب سيتم كتابتها عنه في المستقبل لأنه من الواضح أن هناك الكثير من الأحداث والمواقف والعلاقات التي تمكنت فقط من التطرق إليها والتي كانت بحاجة إلى معالجة أوسع. ثم أضفت قائلة بمكر ولأجل إضفاء جو من البهجة أنني أعتقد أنه سيكون من الجيد للقراء أن يقرأوا سيرة حياته التي كتبها نولسون بمساعدته أي أنها كانت «مرخصة» منه بدلاً من تلك «التي تم تكليفي بكتابتها». لم أستطع مقاومة رغبتي بإخباره أن السير المرخصة تحمل في بعض الأحيان شبهة «سرد الأحداث وفقًا لرغبة صاحب السيرة»، التي يكتبها أقرب مريديه ولكن نظرًا لأن كتابي كان مكتوبًا بشكل مستقل وكان صادراً بالفعل، فلا شك أن نولسون كان يجب أن يطلع عليه، حتى لو كان من أجل أن يدحض أو يرفض ما توصلت إليه من نتائج. والأمر السيئ للغاية أنه كان يشعر بالقلق مني إذا جاز التعبير من كتابي طوال الوقت الذي كان يؤلف فيه كتابه. كم كنت متعجرفة حين قلت مثل هذا الكلام، وكم كنت أستمتع بقوله! أما صامويل بيكيت، وكما هو متوقع منه، فلم يقل شيئاً.

لقد تحدثت كثيرًا لدرجة أنني تركت كأس النبيذ الخاصة بي دون أن أمسها، لكن الوقت أصبح متأخراً، لذلك بدأت في جمع أغراضي. لم يقل بيكيت حتى ذلك الحين شيئًا محددًا عن سلوك من أسميتهم بالبيكيتيين، لكنني أعتقد أنه كان يلمّح إليه عندما تبرع ليذكر لي أحد آخر الأشياء التي قالها لي: «يجب ألا تجبري نفسك على تفسير شيء أبدًا ولا تشتكي من شيء إطلاقاً». في الواقع، كنت قد تعرضت إلى عدة مواقف منذ ذلك الحين كنت فيها على استعداد لمهاجمة عدد من الاشخاص رداً على كتابتهم مراجعة سيئة للكتاب أو إدلائهم بتعليق غير لطيف، ولكني كنت في كل مرة أتذكر هذه الكلمات فلم أحاول أن أشرح أبداً ولا أشكو إطلاقاً.

لم أكن أعلم حينها أنها ستكون المرة الأخيرة التي سأكون فيها بصحبة صامويل بيكيت. كان اللقاء غير المتوقع مشحونًا بالمشاعر وعاطفيًا للغاية لدرجة أنني اضطررت إلى استعادته في ذهني وتدوين ملاحظات حوله في

مذكراتي اليومية لعدة أيام أعقبته. في ذلك الوقت، فكرت في كيفية تفجّر كل مشاعري المكبوتة، وتعجبت كيف استقبلها بيكيت بهدوء ورقة وعناية. وفيما بعد، عندما أصبحت كاتبة سيرة متمرسة، تمنيت لو كان لدي الوقت لأبعث إليه رسالة تشرح له مدى ما يعنيه أن أكون قادرة على إخباره بكل ما حدث لي منذ اللحظة التي سألني فيها فيما إذا كنت أنا الشخص الذي سيكشف للناس كم كان محتالاً. تمنيت لو أخبرته بمدى امتناني لسماحه لي بأن أُظْهِرَ للناس ذلك الرجل الاستثنائي الذي كنت أؤمن به، وكم هو أمر مشرف وامتياز للمرء أن يعرفه.

تركت سيمون دي بوفوار وهي في مزاج لطيف للغاية عندما انتهت إقامتي في باريس. أما بقية عام 1985، فقد شهدت فترات انقطاع معتادة، وإن كان مرحباً بها، قضيتها في إلقاء المحاضرات وكتابة المقالات عن بيكيت. في الغالب، كنت أذهب إلى مكتبي كل صباح وأبقى هناك حتى وقت مبكر من المساء، ووضع ما كنت أعتقد أنها اللمسات الأخيرة على كتاب انتهى تقريباً. بحلول نهاية العام، كنت أعلم أنني أصبحت مستعدة لنشره، لأنه لم يكن هناك أحد قد أخبرني بأي شيء جديد. كانت تلك، ولا تزال، اللحظة التي أعرف فيها انتهاء البحث. وهي أيضًا اللحظة التي ينشأ فيها خوف الكاتب – حيث ستظهر بعض المعلومات الجديدة وغير المتوقعة التي ربما تدمر محتوى أو جوهر الكتاب بأكمله. ومع ذلك، شعرت بالأمان لأنني فعلت كل الأشياء الضرورية، واعتقدت أنني أصبحت مستعدة للذهاب إلى باريس في رحلتي الأخيرة التي سأتحقق فيها من الحقائق قبل نشر الكتاب.

كنت قد قررت أن تستغرق رحلتي شهراً واحداً، الأسبوعين الأخيرين من شهر شباط وأول أسبوعين من آذار 1986، لتتزامن مع مناسبة جديدة لهيلين، حيث سيتم افتتاح معرض كبير يضم لوحاتها ترعاه إيفيت رودي وزيرة حقوق المرأة. كانت أمسية حزينة وسعيدة في نفس الوقت بالنسبة إلي، حيث إن ما أفسد استمتاعي باللوحات أنني أمضيت جزءاً من وقتي في الاعتذار للعديد من النساء الرائعات عن سبب فشل مؤتمر جامعة بنسلفانيا.

كانت هيلين مسرورة وسعيدة بأمسيتها، خاصة أن من كان يحضرها هي الأخت التي كانت تعبدها. وحتى لو كانت سيمون تبادلها نفس هذه المشاعر

الدافئة، فإنها لم تظهر ذلك. بقيت أقارن تصرفها بموقفي تجاه أختي الصغرى عندما كنا طفلتين، ذلك الكائن الصغير الذي لا ينفك يحلق من حولي لهيامه بي بينما كنت أقوم بإبعادها عني، وكأنها حشرة ضارة صغيرة. لكني سوف أقوم بمراجعة رأيي بسلوك سيمون بعد ذلك بعدة أيام، عندما علمت أنها كانت مريضة وقد استنفدت قواها بسبب النشاط المرتبط بإقامة هيلين ضيفة عندها لمدة ثمانية أيام، والمجيء والذهاب المستمر للعديد من صديقاتها من الناشطات النسويات، وتوسلات كل صحفي في باريس لالتقاط الصور والكتابة عن الأختين المشهورتين.

كانت هيلين سعيدة للغاية لرؤيتي لأنها عرفت أنني مثلها دُعيت للمشاركة في مؤتمر في جامعة ستانفورد سيعقد في نيسان قام بتنظيمه مركز أبحاث المرأة وجمعية سيمون دي بوفوار في أمريكا، حيث ستعرض لوحاتها فيه بمجرد انتهاء معرضها في باريس. توجهت سيمون نحونا بينما كنا نتناقش في الموضوع مما جعلني أشعر بالرعب إلى حد كبير: يبدو أنها واجهت صعوبة في التعرف علي، وتوجب عليّ أن أقول اسمي مرتين. تساءلت عما إذا كان هناك سوء فهم حقيقي للغاية.

بعد كل تلك السنوات من حواراتنا الحميمة، فإن حقيقة أنه توجب عليّ أن أخبرها من أكون وأن أذكّرها بأن موعدنا بعد ظهر اليوم التالي كان شيئاً أقل ما يقال عنه إنه يبعث على القلق والإزعاج. وبات الأمر أكثر إرباكًا عندما قالت لا، لا، إنها لا تستطيع رؤيتي على الأقل في الأيام الثمانية التالية، لأنها ستكون مشغولة تمامًا مع أختها. لقد تبادلنا الرسائل قبل مغادرتي ووضعنا جدولًا لعقد لقاءات أكثر من المعتاد، واتفقنا على أن أول عمل سنقوم به هو تحديد الشكل النهائي لمخطوطة الكتاب. كانت تسود في القاعة أجواء النقاشات الساخنة وكانت مكتظة بالناس وحارة وصاخبة، وكنت قد وقعت في اليوم السابق ضحية نزلة برد مروعة تسببت في شعوري بصداع شديد. غادرت القاعة بشكل مبكر إلى حد ما، وأنا أشعر بالحزن بسبب سلوك بوفوار، لكنني كنت مريضة جدًا فلم أستطع أن أفعل شيئاً أكثر من الزحف إلى السرير ومحاولة النوم.

في صباح اليوم التالي استيقظت في وقت مبكر على رنين جرس الهاتف.

كانت بوفوار على الخط، اعتذرت مني عن سلوكها في الليلة السابقة. قالت إن القاعة كانت حارة جداً وكان هناك الكثير من أضواء كاميرات المصورين وكان الناس يضغطون عليها للقيام بأشياء يريدونها أن تفعلها. لم تكن هي نفسها الليلة الماضية، وبالطبع كان يجب علينا الالتزام بجدولنا الزمني. أعربت عن رغبتها في أن تراني في الوقت المعتاد عصر ذلك اليوم، عند الساعة الرابعة، وكان ذلك يعني أن بإمكاني الحصول على كل ما أحتاجه من وقت لأني سابقى عندها فترة طويلة. لقد شعرت بارتياح كبير.

لم تكن هناك جدالات أو خلافات في ذلك الشهر. كنت أراها عدة مرات في كل أسبوع، وكنا نتحدث بالهاتف في أيام أخرى، وعندما اعتقدت أنني بحاجة إلى مزيد من المعلومات حول آخر نشاطاتها في الحركة النسوية، قامت بالاتصال ببعض النساء اللاتي كانت تعمل معهن ورتبت لي أمر مقابلتهن. لقد كانت في حالة معنوية جيدة ووضع جيد، حتى إنها فعلت شيئًا لم تفعله قط: إلقاء النكات. كانت دائماً جادة وتتعامل بمهنية معي، على أهبة الاستعداد للتأكد من أن جميع أسئلتي المكتوبة على البطاقات الصغيرة قد تم طرحها وتمت الإجابة عليها. كانت عبارتي المكونة من كلمتين التي تصف علاقتي المتينة بها أنها كانت علاقة «عمل بحتة». كان من غير المعتاد رؤيتها مسترخية، ومبتسمة، وتعيد ملء كأسي خلال طقسنا المعتاد في تناول الويسكي بعد الانتهاء من جلسة العمل. وعندما هممت بالمغادرة في اليوم الأخير الذي رأيتها فيه، قامت بلفتة غير عادية على الإطلاق. وحيث كنت أنا امرأة طويلة القامة، وكانت هي امرأة قصيرة، فقد أمسكت بذراعي عند أعلى المرفقين قليلاً وهزتني بشكل خفيف. سرّني أن أعتقد أنها كانت تريد أن تعانقني، وقد أفرحني أن ذلك قد حصل.

سافرت عائدة إلى المنزل، وكنت على استعداد لوضع اللمسات الأخيرة على الكتاب قبل مؤتمر ستانفورد، وأخبرت جيم سيلبرمان وإيلين سميث، الشابة التي تم تكليفها بتحرير الكتاب، بأنهما سيحصلان على المخطوطة بمجرد عودتي من ستانفورد، ربما بحلول الأول من أيار.

لكني بدلاً من ذلك ذهبت إلى جنازة سيمون دي بوفوار في باريس في نيسان.

الفصل السابع والثلاثون

عرفت أن هناك شيئًا ما خطأ في اللحظة التي وطئت فيها قدماي حرم جامعة ستانفورد، عندما لم أتمكن من العثور على هيلين في اليوم الذي بدأ فيه المؤتمر. قبل ذلك بيومين كانت سعيدة ومتألقة في حفل افتتاح معرضها، بعد أن تركتها لأقوم برحلة سريعة إلى لوس أنجلوس لإجراء مقابلة مع كاتب السيناريو إيفان موفات (أخبرني أن بوفوار وسارتر قد «احتالا عليه» وجعلاه يتزوج من ناتالي سوروكين، وكان يدعوها «ناتاشا» التي كان لهما هما علاقة معها – ملاحظة المؤلفة). بعد البحث عنها في كل مكان، أجريت اتصالاً هاتفياً معها حيث استطعت أن أجدها أخيرًا وهي في منزل مضيفتها، يولاندا باترسون، التي كانت تشغل آنذاك منصب رئيسة جمعية سيمون دي بوفوار الدولية. قالت هيلين إنها كانت تأمل أن أتصل بها لأن لديها شيئًا مهمًا لتخبرني به: «سيمون في المستشفى مصابة بالتهاب رئوي، ونعتقد أن الأمر خطير للغاية».

لقد واجهت صعوبة في تقبل ذلك الخبر، مع الأخذ في الاعتبار مدى الإيجابية والسعادة التي كانت عليها في اجتماعنا الأخير. كان عليّ أن أطلب من هيلين أن تكرر ما قالته عدة مرات، وأتذكر كيف كنت أتعثر بكلامي مرارًا وتكرارًا وأنا أقول لها، «لكنها كانت على ما يرام عندما تركتها!» حينها قالت هيلين إنها مضطربة جدًا ولا تستطيع مواصلة الحديث بالهاتف وطلبت مني (رجاءً أن آتي حالاً إلى منزل باترسون). طلبت مني ألا أخبر أحداً في ستانفورد بالأمر، لأنها لا تريد أن تزعج المشاركين في المؤتمر بهذه الأخبار.

لقد صدمت عندما وصلت. كانت هيلين سعيدة للغاية ومفعمة بالحيوية

قبل أسبوعين في باريس وتشعر بفرح شديد منذ ليلتين، بسبب افتتاح معرضها. أما الآن فهي تتكئ بشدة على ذراع مضيفتها وهي قادمة لتحيتي، وجهها شاحب ومشيتها متثاقلة. تعانقنا، وتشبثت بي أطول من المعتاد لأنها كانت تهمس في أذني أن الأمر خطير جدًا وأنها كانت غاضبة للغاية لأن سيلفي كانت تبعدها عمداً عن أختها.

أخبرتني هيلين أنه بعد يوم أو يومين فقط من رحيلي عن بوفوار، بدأت تشتكي من آلام شديدة في المعدة وتم نقلها على وجه السرعة إلى مستشفى كوشان القريب، حيث قام بفحصها الأطباء ولم يجدوا شيئًا فيها. بعدها أرسلوها إلى منزلها عندما بدا أنها تتماثل للشفاء بشكل جيد، لكن خلال يوم أو نحو ذلك أصيبت «بمضاعفات رئوية» وأعيدت إلى المستشفى.

على الرغم من أن سيمون كانت قد أُدخلت إلى المستشفى من جديد بعد ساعات فقط من بدء هيلين لرحلتها، فإن سيلفي انتظرت أربعة أيام كاملة لإخبارها، وليس بمكالمة هاتفية ولكن ببرقية قصيرة. ونظرًا لأن رد فعل هيلين الأول كان رغبتها العارمة في العودة إلى المنزل على الفور، فقد اتصلت هاتفياً بسيلفي، التي أصرت على أن السبب الوحيد الذي جعلها تنتظر فترة من الزمن إلى أن نقلت أخبار دخولها المستشفى هو التأكد من أن الأمور كانت تحت السيطرة. لم ترجع هيلين، لأن سيمون كانت تستجيب للعلاج وكانت كل المؤشرات تشير إلى أنها ستتعافى. كانت هيلين لا تزال قلقة لدرجة أنها قررت عدم قدرتها على حضور جلسات المؤتمر في ذلك اليوم، على الرغم من أنها كانت ستكون ضيفة الشرف وأن معظم الجلسات كانت مكرسة للعلاقة والرابطة المتينة التي تجمع ما بين الشقيقتين.

بقيت إلى جانبها لبقية اليوم، وجلست في المطبخ لأشرب القهوة، وكنت أصغي بمتعة شديدة لها وهي تحاول التخفيف من قلقها عن طريق تسليتنا بسرد المزيد من ذكريات طفولتها مع شقيقتها. كان من المقرر أن أتحدث في تلك الليلة قبل مأدبة العشاء التي كانت ستقام بمناسبة اختتام المؤتمر، وقررت هيلين الحضور لأنها أرادت أن تسمعني وتودع العديد من الأصدقاء الجدد الذين تعرفت عليهم خلال إقامتها القصيرة. وبما أنها ستكون حتماً عند منتصف الليل في باريس، فقد أدركت أنه لن تكون هناك أخبار جديدة

من سيلفي. عندما غادرنا منزل تلك السيدة اللطيفة، أخذت هيلين على عاتقها مهمة التخفيف من قلقي، فقد ظهرت تعابير الحزن والقلق على وجهينا أنا ومضيفتها على حد سواء. كنت أقود سيارة مستأجرة، من طراز رينو، وقد امتدحتني هيلين لاختياري (سيارة فرنسية جيدة). أما في الحرم الجامعي، فسرعان ما أحاطنا الجميع نحن الثلاثة بالتمنيات الطيبة، وعلى الرغم من أننا كنا نعتقد أن علامات الفرح كانت تظهر علينا فإن الأشخاص الذين يعرفوننا جيدًا سألونا عما إذا كانت هناك مشكلة ما منعت هيلين من حضور جلسات ذلك اليوم. قدمنا لهم جميعًا، عذرًا واحداً تمثل في أن رحلتها الطويلة وتوقفاتها المؤقتة، ثم الجهد الذي بذلته في افتتاح معرضها قد استنفدت كل طاقتها.

كانت تلك هي ليلة الثاني عشر من نيسان، وكان من المقرر أن تسافر كل واحدة منا على حدة عائدة إلى بلدها بتاريخ الثالث عشر من الشهر. عندما ودعنا بعضنا، تعانقنا بشدة، وبكينا نحن الاثنتين. لقد كتبت في مذكراتي اليومية ما قالت لي حينها، من أننا يجب أن «*نتحلى بالشجاعة. فقلت لها نعم، يجب أن نكون قويات. لقد قلنا هذا ولكني أعتقد أن كلتينا كانت تعرف أن النهاية لن تكون بعيدة*».

قضيت آخر صباح لي في سان فرانسيسكو مع ابني، الذي كان يدرس حينها في قسم الدراسات العليا في جامعة ولاية سان فرانسيسكو. ذهبت هيلين مباشرة إلى المطار في رحلة انطلقت في الصباح الباكر متوجهة إلى باريس، الأمر الذي تطلب توقفًا لمدة يوم تقريبًا في دالاس. وقد مررت أنا أيضًا بفترة توقف طويلة، في سينسيناتي، وبما أن حالة الزكام التي عانيت منها في باريس لم تتحسن قط، لذلك عندما وصلت إلى فيلادلفيا، كنت أشعر بألم رهيب في الجيوب الأنفية.

عند ظهر اليوم التالي، الرابع عشر من نيسان، رن جرس هاتفي. كانت هيلين على الخط، وكانت لا تزال في كاليفورنيا. لقد أخّرت رحلتها بعد أن اتصلت بها سيلفي في ليلة الثاني عشر من الشهر لتخبرها أن حالة سيمون قد اتخذت منعطفًا سيئًا وأشارت إلى أن على هيلين أن تبقى هناك وتنتظر المزيد من الأخبار. عندما لم تتصل سيلفي مرة أخرى، حاولت هيلين مرارًا وتكرارًا

الاتصال بها فلم تفلح. لم تستطع تأمين الاتصال بها إلا بعد وفاة سيمون. أصيبت هيلين بانهيار تام لأن سيلفي لم تتصل بها لإخبارها. عمل منظمو المؤتمر بشكل محموم لحجز مقعد لها وفي درجة رجال الأعمال تكريماً لها في طائرة كانت تقوم برحلة مباشرة إلى باريس، ولكن لم يكن هناك مقعد متاح، وحملت السيدة القصيرة المتعبة وهي تمشي متثاقلة حقيبتها وبدأت الرحلة الطويلة والحزينة لحضور جنازة شقيقتها المحبوبة وجلست في المقعد الأوسط في الجزء الخلفي من الطائرة.

والآن ها قد رحلت سيمون دي بوفوار. بعد أن تحدثتُ إلى هيلين، رسمت إطاراً أسود اللون أحاط بهذا الإعلان المقتضب الذي دوّنته في مذكراتي اليومية: *توفيت سيمون دو بوفوار هذا اليوم، في الساعة الرابعة بعد الظهر، في مستشفى كوشان في باريس. السبب الرسمي للوفاة إصابتها بتورم رئوي.* ثم جلست هناك، وأنا غير قادرة على الحركة.

ما إن سمع أصدقائي الأخبار حتى هرعوا على الفور ليعرضوا مساعدتهم. أرسلت البدلة السوداء التي أحتاجها في الجنازة مع إحدى صديقاتي إلى محل غسل وكوي، وكلفت أخرى أن تحجز لي بالهاتف مقعداً على متن أول طائرة متوجهة إلى باريس. جاءني صديق أمريكي يملك شقة في باريس وأعطاني مفاتيحها وطلب مني البقاء فيها قدر ما أحتاج. ثم بدأ الهاتف يرن. كان أوائل المتصلين صحفيين يعملون في صحف باريس الشهيرة مثل ليبراسيون، وفيغارو، ولوموند، يطلبون مني التعليق على الخبر، ثم توالت المكالمات من صحفيين من مختلف الصحف والدوريات الأمريكية. اتصل ابناي من نيويورك وسان فرانسيسكو لتقديم تعازيهما، وألغى زوجي ارتباطاته وغادر العمل في وقت مبكر. دخلت إلى غرفة مكتبي وأغلقت الباب بإحكام، وهو أمر لم أفعله من قبل قط، لأنني كنت دائمًا أريد أن أكون منتبهة لما يحدث في بقية أرجاء المنزل. كتبت فقرات جديدة في مذكراتي اليومية في تلك الليلة: «*عاد فون إلى المنزل في وقت مبكر مكسور القلب، يشعر كأنه فقد شخصًا عزيزًا. كان غير قادر على العمل طوال اليوم. كان كلا الطفلين حزينين. شعرت كأنني بالقلق لأنني كنت ما زلت مريضة لدرجة لا أستطيع السفر إلى باريس؛ خاطبني فون سكوت قائلاً «الكنك لم تخبرني*

أنها كانت مريضة عندما كنت هنا. ما الذي يمكنني فعله للمساعدة؟» كان أمراً مذهلاً كيف كنا نشعر جميعًا بهذه الخسارة. خسارة. خسارة. خسارة. لا أعتقد أنني أدركت مدى حبي لها إلا الآن عندما رحلت. لا - لم أكن أدرك حتى الآن أنني كنت أحبها أكثر من اللازم: كنت أحترمها بالتأكيد؛ ولكني أعتقد أنني أحببتها أيضًا».

لم يعد يفصلني كثير من الوقت على حضور تشييعها. في الخامس عشر من نيسان، قمت بالحجز في رحلة الطيران الوحيدة التي استطعت أن أجدها في اللحظة الأخيرة، على إحدى طائرات شركة الطيران الألمانية لوفتهانزا التي كانت متوجهة إلى باريس مروراً بفرانكفورت. كنت قد أعطيت هيلين رقم هاتف شقة صديقي، وقد اتصلت بي بعد وقت قصير من وصولي. سألت إذا كان بإمكانها القدوم لتناول الشاي معي عصر اليوم التالي، وقد وافقت بالطبع. أخبرتني أن سيلفي تنتظر مكالمتي حتى تتمكن من إعطائي معلومات حول مراسم إلقاء نظرة الوداع والجنازة وتوجيه الدعوات إلى العديد من الشخصيات التي ستحضر قبل وبعد المراسم. حذرتني هيلين، «يجب أن تحرصي على مخاطبتها الآن باسم مدام دي بوفوار عندما تتحدثين إليها لأول مرة، لأنها الآن ابنة سيمون بالتبني قانونًا ووريثة أملاكها. يمكنك مناداتها سيلفي بعد ذلك، ولكن في المرة الأولى يجب أن تعبري لها عن احترامها». اتبعت ما قالته لي عندما تحدثت مع سيلفي بالهاتف، وفعلت الشيء نفسه عندما رأيتها لأول مرة؛ عقب ذلك مباشرة، عدنا إلى استخدام أسمائنا العادية سيلفي وديردر.

تم تحديد يوم الجمعة التاسع عشر من نيسان موعداً لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان بوفوار. كان تابوتها مسجى في قاعة صغيرة قاتمة تقع بالقرب من صالة الاستراحة في مستشفى كوشان. أتذكر جيداً أرضية خرسانية بلا ديكور - ولم تكن هناك أزهار بجوار النعش، ولا كراسٍ سوى عدد قليل فقط أحضرت للمسنين والعجزة. جلس ليونيل دي روليه زوج هيلين، في واحد منها. كان يتعافى من الجراحة التي أجراها بسبب مشاكل كان يعاني منها في الأذن الداخلية كانت تسبب له شعوراً بالدوار، وكان لا يزال ضعيفًا جدًا ويخشى من السقوط. لم تجلس زوجته، المتعبة والضعيفة للغاية، لكنها

وقفت بجانبه لتكون مستعدة لتحية الأصدقاء الذين تمت دعوتهم لمشاركة هذه اللحظة الخاصة. قمت بإلقاء التحية على سيلفي، ثم ذهبت إلى بوست، (الذي كان يبدو كأنه نائم. كان الجميع هناك: أربعة وزراء (سابقون) أعرفهم: جاك لانغ، لوران فابيوس، وإيفيت رودي، وليونيل جوسبان. ورأيت إليزابيث دي فون - تيناي، وكلودين سير، وآخرين كثراً كنت أعرفهم كانوا في القاعة.

بدا جسد سيمون دي بوفوار منتفخاً وشاحباً. كانت قطعة القماش الحمراء [التي كنت أسميها التربان] موضوعة على رأسها وكانت لا تزال ترتدي (حتى تلك اللحظة) رداءها الأحمر المهلهل. جعلت وضعية رأسها في التابوت ذقنها تبدو شديدة السمنة على غير حقيقتها. كان يظهر على وجهها ما بدا كأنه نوع من الفطريات الدائرية التي ظهرت لتوها أو القروح المفتوحة. قالت هيلين إنها تبدو كأنها نائمة، لكنني وجدت هيئتها مروعة. جاءت أصعب لحظة بالنسبة إليّ عندما بدأنا نودعها لأنه في نفس الوقت الذي كنا نقول فيها كلمات وداعنا الأخيرة، صدرت ضجة مصدرها قيام عدد من الرجال الفرنسيين العاديين من تلقاء أنفسهم ممن لديهم خبرة بهذه المواقف بتثبيت مسامير ضخمة في التابوت حتى يتمكنوا من إغلاقه».

تم تنظيم الموكب الجنائزي بعد نظرة الوداع. ذهب ليونيل إلى منزل أحد أصدقائه لأنه كان ضعيفاً للغاية لا يقوى على القيام بالرحلة الأخيرة إلى مقبرة مونبارناس، حيث ستدفن سيمون مع سارتر وتشاركه شاهد قبره. ذهبت هيلين في سيارة مع ابنتي عمها جين ومجدولين، وصديقة الطفولة التي لا تعوض جيرالدين (جيجي) باردو، والناشطة النسوية الشابة التي ساعدتها سيمون كثيراً، كلودين مونتيل. أما نحن البقية فذهبنا سيراً على الأقدام. جاءت ماري كلير باسكوير لتقف إلى جانبي، وكذلك فعلت جينيفيف فريس ومارسيل ماريني، التي كانت لا تزال في حالة حزن على زوجها الذي كان قد توفي مؤخراً بسبب إصابته بمرض السرطان. أكمل كل من جود فريدلاندر، وهي امرأة أمريكية كانت صديقة لنا جميعًا، والناشر فرانسواز باسكييه تعداد مجموعتنا الصغيرة.

لمست شعورًا حقيقيًا بالحزن لدى الناس حينما كنا نسير في الجنازة

مع العديد من الأشخاص المختلفين. كانت هناك أمهات شابات يصطحبن أطفالهن في عرباتهم. أخبرنا أحد الآباء وهو يحمل طفلته الصغيرة على كتفيه أنها أصغر من أن تفهم هذه المناسبة، لكن عندما تكبر، سيخبرها أنها حضرت جنازة سيدة عظيمة. كان هناك رجال ونساء أفارقة يرتدون الأزياء المحلية الملونة، كانت من بينهم مجموعة من النساء اللواتي قلن إنهن قادمات من عدة بلدان أفريقية ويحملن لافتات كتبت عليها عبارة بنات سيمون دي بوفوار. كانت هناك نساء في منتصف العمر يرتدين ما كنت أسميه «ملابس الأكاديميين الرثة» مع الشعر الطويل والنظارات الدائرية الصغيرة، وكلهن يعلنّ بكل فخر أنهن كن يقفن في المتاريس مع سارتر وبوفوار خلال انتفاضات الطلاب عام 1968. من بين الشخصيات المشهورة آنذاك - كانت هناك الممثلة دلفين سيرينج، التي شاركت مع بوفوار في الاحتجاجات النسوية، وممثل آخر أخبرني أصدقائي الفرنسيون أنه «واحد من هؤلاء المشاهير الذين تراهم طوال الوقت ولكنك لا تتذكر اسمه أبدًا». تبادل كلود لانزمان وكلودين سيري النقاش مع المحامية والمصورة جيزيل حليمي فقد كانا يعتقدان أنها تلتقط الصور بطريقة مزعجة للغاية.

اخترقت مشاجرة صغيرة أجواء الصمت المخيم علينا تكريماً لذكرى الفقيدة وحولت وجوهنا الحزينة إلى وجوه علتها الابتسامات والضحكات عندما طُلب السائرون في الجنازة من سائق سيارة أجرة كان يزمّر ببوق سيارته بصوت مرتفع أن يصمت ويظهر الاحترام لأن هذه كانت جنازة امرأة مهمة للغاية. وعندما قيل له إنها سيمون دي بوفوار، أوقف سيارته وانضم إلى مجموعتي الصغيرة، وبدأ يسير معنا كتفاً لكتف وهو يقول إنه ربما يجب علينا في لحظة معينة أن ننشد أغاني وطنية.

مرّ الموكب الجنائزي ببطء في شارع سان جاك لأن حشد الناس، الذي كان يقدر ما بين ثلاثة إلى خمسة آلاف شخص، كان يتزاحم ليكون على مقربة من السيارة التي كانت تحمل النعش. أراد الناس لمسه، ونثر الورود عليه. استغرق الأمر من رجال الشرطة بعض الوقت لإفساح المجال الكافي لها لتتمكن من المرور. سارت السيارة ببطء عبر مونبارناس، وهي المنطقة الإدارية التي كانت تعيش فيها بوفوار طوال حياتها. أخيراً وصلت إلى شارع

مونبارناس، حيث وقف لها باحترام في الخارج نوادل المقاهي والمطاعم التي كانت ترتادها، دوم، وسيليك، ولا كوبول، تكريماً للمرأة التي قدموا لها وجبات طعام ومشروبات لا تعد ولا تحصى. شقت الجنازة طريقها إلى شارع إدغار كينيه، لتمر من أمام المبنى الذي كان يضم آخر شقة سكنها سارتر، ووصلت أخيراً إلى مدخل المقبرة. أصبح الحشد كثيفًا للغاية لدرجة أن رجال الشرطة المرافقين للجنازة استخدموا مكبرات الصوت ليصرخوا على الأفراد المتزاحمين «واصل المسير ولا تتوقف!» في محاولة لحثهم على السماح لدخول العديد من المركبات وإغلاق البوابات خلفها. صعد الصغار والأشخاص الجريئون أسوار المقبرة العالية حتى يستطيعوا رؤية ما يجري في الأسفل، لكن الآخرين وقفوا جميعاً في الخارج، رغم أنهم لم يتمكنوا من رؤية أو سماع ما كان يحدث.

«كان الازدحام شديداً للغاية. قرأ لانزمان خاتمة كتابيّ سيمون دو بوفوار قوة الأشياء «Force des Choses» ووداعاً سارتر «Adieux». بقينا جميعًا – من كان داخل المقبرة ومن هم خارج البوابات – واقفين وقد بدا الأمر كأننا سنبقى هناك إلى الأبد. وعلى الرغم من أن السماء بدأت تمطر، لكن لم يكن هناك أحد يرغب في المغادرة».

في نهاية المطاف غادرت مجموعة صغيرة من الأشخاص لتتجمع في شقة تقع في شارع غي – لوساك، حيث جعل منها أصدقاء هيلين ملاذاً لسكن سارتر وبوفوار خلال انتفاضة عام 1968. سمعنا قصصًا عن مشاهداتهم للطلبة الذين نزلوا إلى الشارع في أسفل الشقة وكيف كانوا يقومون بتكسير حجارة الشارع لصنع الحواجز واستخدامها كأسلحة بإلقائها على رجال الشرطة. وكيف كانت رائحة الغاز المسيل للدموع قوية جدًا لدرجة أنهم اضطروا إلى إبقاء النوافذ مغلقة. طلبت مني هيلين أن أجلس معها، إلى جانب صديقاتها جيان، وماجدولين، وجيجي، ووسط نوبات من التنهدات والدموع، روين لي قصصًا عن الأخت الكبرى التي أحبتها هيلين كثيراً والتي رحلت الآن وما مدى قلقهن بشأن الطريقة التي ستجعل أختها الصغرى تتأقلم مع هذا المصاب. أمسكت هيلين بذراعي وهمست قائلة: «كانت سيمون تعتني بي دائمًا. والآن أصبحت الطريقة التي أعتني بها بنفسي من

مسؤوليتي أنا وحدي». لم تسعفني الكلمات لأقول لها شيئاً يريحها، لكنني وضعت ذراعي حول كتفها. كانت تلك الحركة كافية. فقد استندت إلى ذراعي وبقينا على هذا النحو لفترة طويلة.

أصبح الوقت متأخراً وبت منهكة. استرجعت تلك اللحظات في وقت لاحق من ذلك اليوم وكتبت عنها في مذكراتي اليومية: «*لقد هاجت عواطفي عميقاً بشكل مفاجىء وبدأت أرتجف وغرقت في البكاء. أحسست أنني بحاجة إلى المغادرة. ودعت هيلين وليونيل وتعانقنا وسط الدموع، ووعدت جين وماجدولين بأنني سأقوم بزيارة أخرى إلى بلدة ميريناك في وقت لاحق من هذا العام. واتفقنا على أننا سنجلس معاً نضحك ونروي المزيد من القصص الطريفة حول «سيمون وسارتر»*».

تمشيت إلى حديقة لوكسمبورغ وجلست في أحد المقاهي، واحتسيت كوباً كبيراً من القهوة بالحليب وحاولت أن أسترخي: «الآن وقد أصبحت وحدي، يمكنني أن أفكر فيما حدث في هذا اليوم. أحاول قراءة الجريدة التي معي، توقف المطر وألقى عدد من أشعة الشمس نظرة خاطفة من خلال السحب». بعد أن شربت القهوة بالحليب الدافئة بدأت أشعر بالتحسن. باتت مشاعري تحت السيطرة الآن. استقللت الحافلة وعدت إلى فندق باك سانت جيرمان حيث شقتي.

عندما دخلت إلى الشقة تمكنت من تناول وجبة عشاء خفيفة مكونة من الفواكه والجبن تخللتها عدة مكالمات هاتفية مع الأصدقاء، وكان معظمهم من الذين رافقوني في تلك الرحلة الحزينة الأخيرة من المستشفى إلى المقبرة. «يبدو أننا جميعًا كنا بحاجة إلى التواصل في محنتنا العاطفية المشتركة». أخبرتني ماري كلير باسكوير أنها قامت وهي في طريقها إلى المنزل، «بشراء باقة زهور لشخص كان على قيد الحياة – لي أنا!» ذهبت إلى السرير وغرقت في نوم عميق. وأخيراً انتهى هذا اليوم.

خصصت الأيام القليلة التالية لمتابعة جميع ما تبقى لي من أنشطة قبل مغادرتي. فقد أضفت إلى انطباعاتي التي دونتها عن الجنازة انطباعات كل من سيلفي وبوست ولانزمان، وأجريت نقاشات مع العديد من الصحفيين

الذين تابعوا الحدث. قابلت كلود كورشاي، الذي كان مصدوماً للغاية من وفاة بوفوار المفاجئة إلى درجة أنه أصيب بمرض «القوباء» ولم يتمكن من حضور الجنازة. لم يستطع تقبّل فكرة أن صديقته الغالية قد رحلت، لذلك وجدت نفسي في موقف غريب يتمثل في الاضطرار إلى مواساته بينما كنت أنا في حاجة ماسة إلى من يواسيني. بعد كل هذه الأنشطة التي قمت بها، اتصلت هاتفياً بسيلفي وأجريت معها محادثة قصيرة، بما يكفي فقط للتأكيد على أنني ربما أحتاج إلى القيام بزيارة أخرى إلى باريس في المستقبل القريب للتشاور معها والقيام بآخر مراجعة للمعلومات التي تضمنها الكتاب. طلبت مني الانتظار عدة أشهر، وقلت لها إنني ربما أنتظر حتى الخريف. لم أخبرها آنذاك أنني سأقوم بآخر مسعى لي للحصول على مواد جديدة، وأي شيء قد تسلط الأحداث الأخيرة الضوء عليه، لكنني بالتأكيد سأسألها عنها عندما أعود.

في المنزل، كان الكتاب ينتظرني. وبقيت على مدار عدة شهور، أقول لأي شخص يسألني ما إذا كنت قد انتهيت من الكتاب، إنه على الرغم من التقدم الذي أحرزته في تأليفه فإنني ما زلت أجد أن هناك حاجة إلى مراجعة «موضوع واحد ليس إلا»، أو ربما «فصل واحد فقط». لكن في آخر يوم لي في باريس، عندما كنت أمشي في الشوارع وسط أمطار غزيرة ظلت تنهمر باستمرار، توقفت عن السير للحظات حين اكتشفت شيئاً مذهلاً: لم يكن كتاب السيرة على وشك الانتهاء. ما كان عبارة عن وثيقة حية، وتتنفس، ومليئة بالحركة عن كاتبة شاركت بنشاط في كتابته، يجب أن يصبح سجلًا نهائيًا وأخيرًا وخالدًا يروي أحداث حياتها. مع وفاة سيمون دي بوفوار، تحولت أعمالها إلى مؤلفات خالدة. باتت سيرة حياتها تتطلب تركيزًا مختلفًا ونهاية مناسبة.

وحينها خطرت لي فكرة جعلتني أحبس أنفاسي حرفياً: «يجب أن أعيد كتابة هذا الكتاب الملعون من جديد، بدءًا من أول صفحة وأنهيه بشكل مختلف تمامًا عن الكتاب الذي كنت قد بدأت بتأليفه».



الفصل الثامن والثلاثون

كان للحياة، كما هو حالها دائمًا، وسائلها لأن تخرّب كل خطة أو جدول مواعيد كنت قد أعددته مسبقاً. حالما عدت من جنازة بوفوار في باريس، وجدت طلبات للحصول على المزيد من المقالات عنها بحجم يفوق قدراتي. أخبرتني إيلين ماركسون أن أحاول أن أكتب أكبر عدد ممكن، لأن جميع الطلبات جاءتني من مطبوعات مرموقة وستكون دعاية ممتازة لكتاب السيرة القادم. كانت هناك أيضاً طلبات متعددة من المجلات العلمية التي تريد أن أكتب مقالات عن بوفوار، وما أثار غضبي، أنها كانت تطلب مقالات عن بيكيت أيضاً. لم أكن أرغب في التفكير فيه أو في كتاب سيرته إلى أن أنتهي من ترتيب كل أفكاري وآرائي عن بوفوار، وكذلك – وهذا ما أدهشني وأثار قلقي –، استجاباتي العاطفية للغاية لوفاتها. عملت للفترة من نهاية نيسان وحتى بداية أيلول 1986، في تأليف الكتاب بشكل ملائم وكنت أتحين الفرص لذلك في الفترات التي تفصل بين مهام الكتابة الأخرى. كان جدول أعمالي ممتلئًا للسنة القادمة بدعوات عديدة، مثل تلك التي تطلب مني أن أترأس أعمال ندوة عن بيكيت تستمر يوماً واحداً في جامعة ميريلاند والتحدث عن بوفوار في مركز الدراسات الأوروبية في جامعة هارفارد مع آني كوهين سولال مؤلفة أحدث سيرة لسارتر.. قبلتها جميعاً، ليس لإثارة الاهتمام بالكتاب قبيل نشره فقط ولكن لأغراض المراجعة النهائية لوثائق الاعتماد لترقيتي إلى منصب الأستاذ أيضاً.

لقد كتبت سيرة حياة بوفوار على أول جهاز كومبيوتر اقتنيته من طراز آي بي إم IBM، كان ضخماً وثقيلاً ومكلفاً وحجم ذاكرته 64 كيلوبايت فقط. عندما بدأت العمل فيه كنت أستخدم نظام التشغيل المسمى وورد ستار

Wordstar، وبحلول الوقت الذي انتهيت فيه من الكتاب بعد تسع سنوات، كنت أستخدم النظام المسمى وورد بيرفكت Wordperfect.في هذه الأيام، التي أستخدم فيها نظام التشغيل ويندوز الذي أدخل الفوضى إلى عملي في الكتابة بسبب قيام بإدخال تحديثات جديدة في كل يوم، مازلت أتحسر على نظام ووردبيرفكت Wordperfect، وهو بالضبط اسم على مسمى (معنى الاسم بالإنجليزية النظام المتكامل – م). كما أني أمتلك قرصاً صلباً خارجياً بسعة 10 ميغابايت لأن الكتاب، بمسوداته السبع أو الثماني الكاملة، استهلك ذاكرة الكومبيوتر بالكامل. ولأني لا أثق به، كنت في كل يوم أقوم بحفظ كل شيء على قرص مرن ثم أطبع ما كتبته. بات ولداي يتمازحان معي قائلين إنني مصابة بجنون الارتياب بسبب قلقي من أنني قد أحذف الكتاب عن غير قصد أو أجد طريقة أخرى لإتلاف ما كتبته. لم أذهب إلى أبعد مما كان يفعله بعض أصدقائي الكُتاب، الذين قاموا بتخزين مخطوطاتهم المطبوعة في الثلاجة أو المجمدة خوفاً من تلفها في حالة اشتعال النيران في منازلهم، ولكن في الوقت الذي أنهيت فيه الكتاب، كانت لدي خزانة ذات سبعة أرفف مليئة بأشكال مختلفة من الملفات الملونة التي تشير إلى حالة كل مراجعة. لقد استخدمت ألوان الطيف الشمسي، من البيج إلى الأصفر والبرتقالي والأحمر والأزرق والأخضر، وهو لوني المفضل الذي اعتقدت أنه سيكون الأخير. والآن بعد أن اضطررت إلى إعادة الكتابة مرة أخرى، كان اللون الوحيد المتبقي لاستخدامه للنص النهائي هو اللون الأرجواني، وهو لون حزين وكان يبدو مناسبًا.

أنا لا أستطيع حتى يومنا هذا، أن أتعامل مع جميع الإمكانات المعقدة التي توفرها أجهزة الكمبيوتر، لكنني أحببت العمل عليه منذ أول جهاز امتلكته. عندما كنت أستخدم الآلات الكاتبة، كنت حالما تتكون الجملة في ذهني، أكون قد فكرت مسبقاً في ثلاث طرق أخرى يمكنني أن أصوغها بها بشكل أفضل. لقد أتلفت العديد من رزم الورق قبل أن يخلصني الكمبيوتر من هذه العملية فبدأت أكتب كل جملة ترد في ذهني، الواحدة تلو الأخرى، ثم أحذف الكلمات غير المرغوب بها وأقوم بلصق المطلوبة وأعيد ترتيبها حتى أحصل على الجملة التي أريدها بالضبط. تكشف بعض ملاحظاتي التي كتبتها في تلك الفترة عن مقدار معاناتي أثناء الكتابة:

6/ 25: اليوم أعدت كتابة الصفحات الست الأولى من الفصل السابع ثلاث مرات مختلفة بثلاث طرق مختلفة. ربما أحاول عمل المزيد من التحري والتوثيق التاريخي. ربما يجب أن أستمر على هذا المنوال.

6/ 26: أنا غارقة في التفاصيل، لكن كان من الأفضل أن أكتب كل شيء، سواء كان نثراً عاطفياً منمقاً أم لا. يمكنني أن أقرر في النهاية ما يجب حذفه.

7/ 22: لدي 15 صفحة من ضمنها المراجعات، وأعتقد أنه يمكنني الاحتفاظ بها. يبدو أنني أدليت بالكثير من المعلومات حول سيمون دو بوفوار وعلاقاتها مع النساء. يجب دمجها عند الضرورة.

7/ 30: شعرت بنشوة قصيرة الأجل. تكومت لدي الكثير من الأوراق ولم أعد أعرف أين أضعها. يجب أن أجد طريقة لنسخها – أجعلها متداخلة فيما بينها – لكي تتوافق تمامًا. إنه أمر صعب جداً.

وهكذا سارت الأمور طوال أيام صيف فيلادلفيا الحار واللزج. ولأنني لم أحرز أي تقدم، حيث إن مكيف الهواء القديم والصاخب الذي كان في مكتبي والذي أطلقت عليه أسم (B29) (تشبيهاً له بالطائرة الحربية بي– 29 –م) قد توقف عن العمل، قررت أنني بحاجة إلى تغيير اتجاهي من خلال ترك الكتاب جانباً وتجربة شيء مختلف. بدأت حينها بطبع جميع رسائل بوفوار التي بعثتها إليّ لمعرفة ما إذا كان هناك أية شذرات معلومات فيها يمكن أن أدرسها بشكل مستقل. ربما إذا كتبت واقعة واحدة مستقلة بذاتها بناءً على شيء ما في الرسائل، فستبدأ الكلمات تتدفق بغزارة. كتبت في يوم 13 آب: «*انتهيت من طبع رسائل بوفوار التي بعثتها إلي. كانت مؤثرة للغاية. لو كنت أعرفها كما هو حالي الآن، لكنت أدركت تطور عاطفتها العميقة نحوي وثقتها بعملي. إدراكي لذلك الأمر جعل من الصعب العمل على الكتاب لأن شكله قد تغير كثيرًا منذ وفاتها. أعتقد أنني سأتركه على ذلك النحو، بالطريقة التي كتبته بها في الأصل، ثم أحاول أن أشرح لماذا فعلت ذلك في المقدمة. بعد ذلك، سيكون الأمر بمنزلة نوع من «الشرح الدقيق لمنهجية الكتاب». ولكن ذلك أيضًا لم يتقرر بعد*». وبحلول أيلول، تمكنت من توضيح المشكلة الرئيسية في إعادة صياغة النص: «*ما يجعل الأمر صعبًا*

للغاية هو أنه يجب علي الآن مواءمة العديد من المفاهيم والأفكار المختلفة في الجزء الأول من الكتاب لإظهار التطور الأساسي لشخصيتها، حتى يكون سلوكها اللاحق مفهوماً، خاصة عندما يتعلق الأمر بمواءمة عملها مع حياتها».

كان هذا استنتاجًا واضحًا إلى حد ما، لكنني احتجت فترة طويلة حتى أصل إليه. شعرت بتحسن كبير عندما نجحت في ذلك، لأنني قمت بعد ذلك مباشرة، «بكتابة نحو عشر صفحات تتحدث عن لقائها بسارتر، وقد حدث ذلك في منتصف الفصل، بشكل سلس، من خلال المسار العادي للأحداث، لأن هذا هو ما حدث بالفعل - طالب وطالبة انجذب أحدهما نحو الآخر وها قد التقيا أخيرًا».

سارت الأمور بسلاسة بعد ذلك، وبت أعتقد أنه صار بحوزتي مخطوطة ناضجة بما يكفي لكي أقوم برحلتي الأخيرة إلى فرنسا قبل نشرها في أوائل تشرين الأول. للمرة الأولى منذ فترة طويلة، تمكن فون من القدوم معي، وتطلعنا إلى تخصيص بعض الوقت لنا وسط جميع الأعمال التي كان عليّ القيام بها. خلال العام الماضي كان كل واحد منا مشغولاً للغاية في حياته المهنية لذلك شعرنا بالحاجة إلى أن نخفّف من إيقاع حياتنا السريع ونهتم بعلاقتنا. كنت مدركة تماماً لابتعادي عن الحياة الأسرية، ليس عن زوجي والولدين - على الرغم من أن الولدين قد كبرا الآن ويعيشان بشكل مستقل - ولكن أيضًا عن أخي وأختي، اللذين كنت دائمًا قريبة منهما. كانت والدتي قد تقاعدت من عملها كممرضة في قسم العناية المركزة وبدأت تخطط للانتقال إلى كاليفورنيا للعيش بالقرب من أخي. كانت هناك العديد من القرارات التي شملتنا جميعًا خلال هذه الخطوة، وشعرت أنني لم أشارك في كل ما يجب أن أقوم به.

ومع ذلك، عندما أطفأت جهاز الكمبيوتر وأغلقت باب غرفة مكتبي عشية المغادرة، فإن الشعور بالذنب الذي شعرت به جراء ذلك التخلي المتعلق بحياتي الشخصية كان لا يقاس بشعوري تجاه عملي. كنت لا أزال أواجه معضلة النساء من جيلي، الممزقات ما بين المنزل والعمل، وكنت أشعر دائمًا أن الاهتمام بأحدهما يعني إهمالًا خطيرًا للآخر. وبما أنني كنت

قد بدأت أعمل بعمق في تنقيحات الكتاب، فقد بدوت أكثر وعياً لأن أنظر إلى الشخصية التي أكتب عنها من خلال منظوري الخاص. كيف تمكنت بوفوار من تجنب مثل هذه الشكوك والصراعات طوال حياتها؟ كيف حافظت على تركيز كل جهودها على عملها؟ وهل يا ترى فعلت ذلك؟ كنت ما زلت أبحث عن الإجابة الشافية.

للمرة الأولى (والأخيرة)، شعرت بالخوف من الذهاب إلى باريس، المدينة التي أحببتها دائمًا، والتي باتت تثير عندي الآن «الكثير من مشاعر الوحدة والفقدان. يا له من أمر مروع».

تفاقم قلقي بسبب حدوث جولة من الهجمات الإرهابية في باريس دفعت الحكومة إلى طلب تأشيرات من جميع المسافرين. ورغم حدوث موجة حر شديدة جاءت في غير موسمها واجتاحت الساحل الشرقي بأكمله في نهاية أيلول، اضطررت أنا وفون إلى الذهاب إلى نيويورك والوقوف في طابور طويل خارج القنصلية العامة الفرنسية لمدة ثلاث ساعات. عندما سألني الضابط عن سبب رحلتي وهو يختم التأشيرة على جواز السفر، قدم «تعازيه لرحيل الفقيدة».

كانت الإجراءات الأمنية مشددة عندما غادرنا، وهو أمر مألوف الآن، لكنه لم يكن معتاداً في ذلك الوقت. عندما هبطنا في مطار أورلي، كان «هناك شباب فرنسيون صغار يرتدون زي الشرطة يبدون خائفين وهم يحملون أسلحة رشاشة من نوع عوزي الإسرائيلي الصنع. دوّى صوت مرتفع في جميع أنحاء المطار أثناء انتظارنا الأمتعة. قفز الجميع، معتقدين أنها قنبلة، ثم ضحكنا جميعًا وسط شعورنا بالإحراج. أما الآن فكل شيء قد تغير».

كانت الشقة التي استأجرناها في شهر تشرين الأول تقع في شارع ريل في منطقة مونبارناس المحببة إلينا، وكانت مضيئة ومشمسة وتطل على بحيرة كانت تزود المنطقة بالمياه، مما جعل الأمر يبدو كما لو كنا في الريف وشقتنا تطل على حقل أخضر. تمشينا في منتزه مونسوري متذكرين سفرتنا السابقة وكيف أن الرجال المسنين كانوا يومئون برؤوسهم تقديراً لزوجي لأنه كان يهرول وراء طفليه. عدنا إلى السوق الصغير في شارع إليزيا حيث

كان العاملون فيه يرحبون بعائلتنا وكأنها واحدة من عائلات الحي. ثم سرنا من أمام المخبز الذي كانت صاحبته تبقينا على اطلاع دائم على الزيادات في سعر الزبدة. لقد وجدنا أن كل شيء قد تغير: فالرجال المسنون لم يكونوا في الحديقة، وأصبح السوق الصغير عبارة عن سوبر ماركت، وكان هناك مبنى سكني كبير قيد الإنشاء في مكان المخبز. يبدو أن كل مَعلَم مرتبط بتلك الأوقات السعيدة لم يعد له وجود ولم نعد نملك سوى الذكريات.

كان عليّ القيام بالمزيد من البحوث الأرشيفية خلال هذه الرحلة. تم الإسراع بإكمال العديد من الأفلام والبرامج الوثائقية التلفزيونية بعد وفاة بوفوار، وكنت بحاجة إلى رؤيتها في مركز سيمون دي بوفوار، لأنها لم تكن متوفرة في مكان آخر. واجهتني حينها العوائق البيروقراطية حتى تمكنت من إقناع المسؤولين أن وقتي محدود في باريس وسمحوا لي بمشاهدتها جميعًا في يوم واحد واستغرق مني الأمر وقتاً طويلاً. لم أكن محظوظةً جدًا مع محفوظات المكتبة الوطنية في باريس، حيث وجدت صديقة فرنسية كانت مؤرخة مسرحية عدة مقابلات أجرتها بوفوار قبل سنوات حول كتاباتها المسرحية واهتمامها المحدود بالمسرح. كان رأي صديقتي أنني يجب أن أشاهد تلك المقابلات، لكنني لم أكن أعرف تمامًا كيف يمكن تضمين هذه المعلومات في كتاب السيرة وطلبت أخذ نسخ منها معي إلى المنزل حتى أطّلع عليها في وقت لاحق. ومع ذلك، لم يُسمح لي بنسخها، لذا اضطررت إلى قضاء عدة أيام طويلة تتصبب مني قطرات من العرق كل واحدة منها بحجم الرصاصة إذا جاز التعبير وأنا أقوم بنسخها من خلال الكتابة العادية باستخدام قلم رصاص. كان عليّ في كل ليلة أن أضع الثلج على معصمي المتورم قبل أن أفكر في حمل شوكة الأكل لأتناول بها طعام العشاء.

لكن الموعد الأكثر أهمية كان مع سيلفي، التي قالت لي إنه يجب أن نلتقي في شقة بوفوار. كنت أعلم أنني بحاجة إلى أن أتمالك نفسي وأنا أدخل إلى الشقة رقم 11 في شارع شوليشير. كانت الأرائك الذهبية وكراسي التاج لا تزال هناك، وبالإضافة إلى مصباح جياكوميتي والأشكال الصغيرة جداً التي تلتصق والموضوعة على الرف الذي يقع أعلى مكان جلوس بوفوار الدائم. كان تمثال الجبس الذي يمثل يدي سارتر لا يزال على الطاولة في

وسط الغرفة. كانت العلبة الصغيرة التي توضع فيها أقلام الحبر السائلة ولوح الكتابة الصغير لا يزالان في مكانيهما على طاولة القهوة، لكن المرأة التي كانت تجعل كل هذه الأشياء تنبض بالحياة كانت قد رحلت. كيف سيمكنني أن أتعامل مع هذا الموقف؟

طلبت مني سيلفي المجيء في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، عندما تنتهي من عملها في التدريس. كان الغسق قد هبط ولكنها لم تشعل الأنوار بعد. منذ البداية، اكتشفت أنها «جافة الطبع، بل ومتغطرسة». تفاقم هذا السلوك بعد أن سمحت لي بتشغيل جهاز التسجيل، وقامت لمدة ساعة تقريبًا بمهاجمة كل شخص له علاقة مع بوفوار، وخاصة هيلين. في نهاية تلك الثرثرة العقيمة، اقترحت أن نلتقي في شقتها في المرة القادمة، لأنها كانت تريد جمع كل الأشياء الخاصة ببوفوار حتى تتمكن من بيعها. كما أخبرتني أنها كانت تتهيأ لنشر رسائل بوفوار إلى سارتر، «ولن تعجب الكثير من الأشخاص» كما قالت. لكنها لم تجبني عندما سألتها مباشرة من هم هؤلاء التعساء الذين تتحدث عنهم، ولكن أصبحت لدي بعض الشكوك بعد أن قمت بقراءة الرسائل بنفسي. من المؤكد أن سيلفي ستحجب تلك الرسائل التي كانت تتضمن أشياء جارحة للغاية. وبالتأكيد فإنها لن تنشر مثل هذا القبح والقسوة ضد الأشخاص الذين كانت خطيئتهم الوحيدة هي حب سيمون دي بوفوار. لسوء الحظ، فقد ثبت أنني كنت مخطئة عندما ظهر الكتاب الذي يتضمن تلك الرسائل. لقد نشرت سيلفي آراء بوفوار القاسية والظالمة حول اختيارات أختها في الحياة كامرأة متزوجة وقدراتها الفنية كرسامة. لقد تحطمت هيلين تماماً عندما قرأتها، واستمرت تعاني من تلك الآلام العاطفية بقية حياتها.

على الرغم من سلبية سيلفي في بداية هذا اللقاء الأول، فإنه انتهى بنتائج جيدة للغاية. كنت أدركت أننا كنا نسير في المسار الصحيح عندما تناولت زجاجة ويسكي غير مفتوحة من الثلاجة وقالت إنه يجب علينا أن نحتسي الويسكي كما كان يحدث عادة مع بوفوار، (ولكن في هذه المرة خالصاً بلا ماء) أعتقد أنني لم أزعجها عن طريق طرح الأسئلة التي كانت في الغالب تتعلق بتوضيح تواريخ أو أحداث معينة، وكل ما يتعلق بالتحقق من الحقائق

الأساسية، ولأنني لم أضغط عليها بشأن خططها المتعلقة بتلك الرسائل اللعينة. لم يكن هناك شيء يثير غضبها أو يثير الجدل بيننا. بدت مندهشة من عمق معرفتي ومدى براعة بعض الآراء التي عبرت عنها، لأنها أدلت لأكثر من مرة بملاحظة تهكمية حول مدى غرابة أن يكون لدى امرأة أمريكية مثل هذه النظرة الثاقبة عن حياة الفرنسيين. وكنت أبتسم فقط وأتظاهر بأنني ممتنة لتلك المجاملة.

أخبرتني أنه ينبغي عليّ منحها فرصة يومين لجمع بعض الوثائق التي كانت تعلم أنني لم أطلع عليها لأنه قد عُثر عليها مؤخرًا فقط في قبو في شارع شوليشير: كانت تضم رسائل من المعجبين والمحبين والأشخاص الذين لم يكن لهم دور كبير في حياة بوفوار. كان بعضها مثيرًا للاهتمام، ولكن معظم المعلومات التي كانت تتضمنها كنت أعرفها بالفعل. كان هناك العديد من دفاتر الملاحظات التي لم أرها، والتي تعود إلى السنوات التي كانت بوفوار تقوم فيها بالتدريس، والتي تناولت المواد الخاصة بمحاضراتها التدريسية وليس لها علاقة بأعمالها التي كانت تؤلفها أو أفكارها. لم يكن أي من هذه الوثائق هو ما كنت أتمنى أن أجده: كنت أبحث عن أطروحتها عن ليبنيتز، على سبيل المثال، أو مخطوطات لرواياتها. ومع ذلك، كان من الجيد رؤية كل هذه الأشياء لأنها أكدت كل ما أخبرتني به بوفوار أثناء المقابلات التي أجريتها معها: أنها لم تندم على شيء، وأن كتابي لو صدر قبل وفاتها، فلن تكون هناك فيه مفاجآت أو تناقضات وليس هناك ما يثبت خطأ ما كنت قد كتبت. اعتقدت أنه من المفارقات أن موتها قد أتاح لي الفرصة، من نواح كثيرة، أن أشعر بالاسترخاء. ومن جديد أكد لي اطلاعي على هذه الوثائق أنه ليس هناك من سيخبرني بأي شيء جديد، مما يعني أن بحثي الأساسي كان مكتملاً بالفعل.

قابلت سيلفي عدة مرات، وسجلت ما أخبرتني به وأخذت منها ملاحظات وافية. بحلول الوقت الذي افترقنا فيه، كان لدي إذن غير محدود باقتباس أية وثيقة كانت تحتفظ بنسخة منها ونشر أي صورة أريدها. وقد وافقت على احترام الشروط التي عملت بموجبها مع بوفوار وأنها لن تضع عقبات في طريقي. كان كل شيء يعمل بشكل جيد للغاية بحيث توفر لي على الرغم

من كل شيء متسع من الوقت استمتعت به مع زوجي في الأيام التالية، كل ما أردت فعله هو العودة إلى المنزل والعودة إلى مكتبي وجهاز الكمبيوتر الخاص بي ومخطوطة كتابي. فإذا بسيلفي تصدمني بشيء غير متوقع.

عندما أخبرتها أنني آمل أن أكون قد انتهيت من التنقيحات وخاتمة الكتاب في الربيع التالي، أصرت على أن أعود في شباط، لأنها كانت متأكدة من أنها ستجد «أشياء أخرى» في ذلك القبو في شارع شوليشير بحلول ذلك الوقت. على الرغم من أن بوفوار أخبرتني مرارًا وتكرارًا أنه لا توجد مخطوطات لأي من كتاباتها (فقد كانت والدتها تستخدم أوراقها لتغطية زجاجات المربى والهلام أثناء الحرب)، كان هناك دائمًا أمل في أن يكون قد فاتها شيء ما. لقد ظل هذا الأمل يلازمني: يا له من تحول كبير سيحدث إذا ما تم العثور على مخطوطة روايتها المثقفون أو جاءت لتبقى...، قلت لسيلفي نعم، سأعود في شباط، على الرغم من أنني لم أكن متأكدة من أنه سيكون لديّ الوقت أو المال اللازمان.

كنت قد دفعت لتوي مبلغاً كبيراً لمركز سيمون دو بوفورار للحصول منه على إذن باستخدام صوره المحمية بحقوق الطبع والنشر، وكنت قد حررت منذ فترة قصيرة جداً شيكًا بمبلغ ضخم لطالب الدراسات العليا الفرنسي الذي ادعى أنه قضى ساعات ينبش صفحات عدد كبير من المطبوعات التي لم يطلع عليها أحد من قبل علّه يجد فيها شيئاً ولكنه لم يجد فيها على الإطلاق شيئًا ذا أهمية. وبالطبع كانت هناك تكاليف رحلتي الحالية، مع النفقات الإضافية لتأجير السيارات لتأخذنا جنوبًا إلى حيث تعيش بنات عم بوفوار. تخيلت أن ما تبقى من أموال الزمالة قد تطايرت في الهواء على شكل علامة الدولار، كما لو كانت مختبئة في صندوق فقاعات وبدأت تراقص فوق رأسي. ومع ذلك، كنت حينها في باريس، وقررت الاستفادة من وجودي فيها إلى أبعد حد.

بدأت أنا وفون مغامراتنا السياحية في باريس، حيث لم يتبق لدينا سوى القليل من الوقت سنخصصه للتسوق من المحلات الموجودة على الضفة اليمنى من نهر السين. لن أنسى أبداً مشهد أعضاء فريق مصارعة السومو الياباني وهم يخرجون بأكملهم من متجر هيرميس، أولئك الرجال ذوي

الأجسام الضخمة الذين تزينوا جميعاً بارتداء ملابس الكيمونو الزرقاء والبيضاء، وكانت تتخلل ملابسهم حقائب التسوق البرتقالية اللون الرائعة والمليئة بالسلع الفاخرة. بقينا نتحسر في ذلك اليوم على عدم جلبنا كاميرا نيكون الثقيلة وتركناها في المنزل وبقينا لا نحمل ذكرياتنا عن ذلك المشهد سوى في ذاكرتنا. أمضينا النهار في التجول في قلعة شاتو، وقمنا باستكشاف جديد لمنطقة النورماندي، وقمنا بجولة أخرى في جبل القديس ميشيل. كان من المفترض أن يأخذنا خط سير رحلتنا إلى بلدية غوكسويلير لرؤية هيلين، لكن زوجها ليونيل دي روليت عاد إلى المستشفى لإجراء عملية أخرى، وقد أجهدها القلق وأيام طويلة من الجلوس بجانب سريره، لذلك قمنا بتغيير وجهتنا للذهاب مباشرة إلى مدينة أوزيرش في جنوب غرب فرنسا لزيارة اثنين من بنات عمها، مجدلين وجيان، اللتين تسكنان في بلدتي لا غريلير وميرينياك على التوالي.

كانت تلك هي رحلتنا الثانية إلى بنات عم بوفوار الطاعنات في السن، لكنها كانت الأولى التي نحلّ فيها ضيوفاً عليهن. كانت محطتنا الأولى هي قرية سان جرمان ليبيل وممتلكات العائلة التي كانت تسكنها ماجدولين ابنة مانتيس دي بيسكوب. تم بيع القصر الريفي الكبير في قرية لا غريليير قبل سنوات وأصبح الآن «ملكًا لرجل ثري من مدينة نيس»، لكن عائلة مانتيس احتفظت ببعض أراضي تلك الممتلكات، وعندما تزوجت ماجدولين انتقلت للسكن في منزل يقع في هذه الممتلكات. وعندما ترملت، كان لديها منزل جديد أصغر بنته لنفسها حتى تتمكن ابنتها من العيش مع عائلتها في المنزل الأكبر حيث ترعرعت. بقينا مع ماجدولين في المنزل الأصغر وزرنا ابنتها أغنيس وزوجها وجيان، وإيزابيل وهي الوحيدة من بين أطفالها الثلاثة الذين كانوا لا يزالون يعيشون في المنزل. جرت الزيارة بكاملها في أجواء من المتعة الخالصة والبسيطة. رغم بلوغها الثمانين من العمر، كان لدى ماجدولين الكثير من الطاقة والحماس للحياة لدرجة أن حفيدتها المراهقة الشابة أخبرتني أنها عادة ما تكون مرهقة إذا ما أمضت يوماً في صحبتها وتضطر حينها إلى أن تذهب إلى الفراش مبكراً، بينما تبقى جدتها مستيقظة وتقرأ حتى تنتهي محطة التلفزيون المحلية من بث آخر برامجها لذلك اليوم.

يبدو أننا كنا نتناول الطعام طوال الوقت خلال تلك الأيام القليلة: فكنا نتناول وجبات إفطار كبيرة ونحتسي القهوة في منتصف الصباح مع ماجدولين تليها وجبات غداء رائعة من إعداد أغنس وإيزابيل، يلي ذلك تناول شاي بعد الظهر مع أغنيس وجيان ثم يجيء دور العشاء الذي يكون بسيطاً (لحسن الحظ) لنتناوله من جديد مع ماجدولين. أما في الأوقات التي كانت تفصل ما بين وجبات الطعام تلك، فكنا نقضيها في التجول مشياً على الأقدام وكانت ماجدولين تصف بالتفصيل كل ما كنا نراه. وتشير إليه وتقول: ذلك البرج كان مأوى للحمام وهو الذي أخفت ماجدولين فيه سارتر عندما ظهر دون سابق إنذار أو دعوة. أما ذلك المدخل الخلفي في القصر فقد كان يؤدي إلى المطبخ، الذي كانت تأخذ منه الخبز والجبن وتخفيه في مئزرها وتذهب به إلى سارتر ليتناوله. أما الطريق الذي يلوح هناك – فهو الذي كانت تسير عليه سيمون في طريقها إلى برج الحمام عندما كانت تتسلل من بلدة ميرينياك لتقضي الليل مع سارتر. كنت قد رأيت كل ذلك من قبل، خلال زيارتي الأولى، لكن ذلك كان سريعًا، وعلى الرغم من أنني كنت قد لاحظت أشياء عديدة، فإن الكثير منها لم يستقر في ذهني. أما الآن، وقد سمح لنا وقتنا برؤيته مرة أخرى، والاستماع إلى القصص التي أخبرتنا بها ماجدولين عن السنوات الأولى من علاقة بوفوار مع سارتر، وجدت نفسي أستعيد تلك اللحظات كأنني عشتها. أخبرت ماجدولين أنني أستطيع أن أتخيل بوضوح السنوات التي لم تكن فيها عاطفتهما بعضهما نحو بعض سوى محض شغف فكري جمعهما معاً، فقالت مقهقهة: «نعم، وجمعتهما كذلك شهوة جنسية خالصة».

في صباح يوم الأحد، بدأنا نستعد للمغادرة قاصدين بلدة ميرينياك، حيث منزل ابنة عمها الثانية جيان دي بوفوار دورياك التي كانت زميلة بوفوار في اللعب أيام كانت فتاة صغيرة. أعادت هيلين وماجدولين على أسماعنا مراراً وتكراراً أن السيدة دورياك كانت تعيش مثلهما ولكنها كانت أيضا تختلف كثيراً عنهما. كانت كل واحدة من بنات العم تعرف تمامًا كيف كانت تريد أن تعيش حياتها، وكذلك كان حال جيان. كانت تريد أن تتزوج مبكراً وتنجب أطفالاً (كان لديها تسعة) وأن تصبح القيّمة على أملاك عائلتها.

لقد نجحت في تحقيق رغباتها وعاشت حياتها راضية، بطريقتها الخاصة وبشروطها. كانت جين أكثر رسمية من بنات عمها إلى حد بعيد وكانت تقدم نفسها دائمًا على أنها مدام دورياك، وهذا، كما قلن لنا، هو اللقب الذي ينبغي لنا أن نخاطبها به. كانت بنتا عمها يحبانها كثيراً، لكنهما سخرتا بشكل لطيف من غطرستها البورجوازية حين كانتا تقدمان لنا النصيحة حول كيفية التصرف بشكل صحيح مع جيان عند غداء يوم الأحد. عندما كنا نغادر منزل ماجدولين، أخبرتنا ألا ننسى أن نتوقف عند بائعة الزهور في المدينة لشراء باقة زهور لطيفة لمضيفتنا، والوصول في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف بالتحديد. عندما اتصلنا هاتفياً بهيلين لتبليغها بآخر مستجدات رحلتنا وأننا بانتظار تعليماتها، ضحكت من كل قلبها وقالت إن مكالمتنا كانت الشيء الوحيد الذي أدخل البهجة على نفسها خلال يوم طويل مليء بالقلق قضّته بجانب سرير ليونيل زوجها.

وصلنا إلى بلدة ميرينياك في الوقت المحدد، يملأنا الخوف والقلق، ولكن على الرغم من الشكليات الرسمية التي أحاطت الزيارة والإعداد العالي التنظيم لطاولة الغداء، ساد المرح أجواء الزيارة. كانت مدام دورياك ذات شخصية ساحرة وكريمة، وقد انضم إلينا بعض من أبنائها البالغين التسعة (وأطفالهم) وتبادلنا أحاديث مفعمة بالحماس بلغتين، حيث أراد البعض تجربة مستوى لغته الإنجليزية الجيدة جدًا. أصغينا باهتمام شديد إلى قصص عن تصرفاتسيمون الغريبة، لدرجة أننا ربما لم نولِ اهتمامًا مناسبًا لوصف مدام دورياك لأصناف الطعام الممتازة، التي كانت كلها تقريبًا من نتاج أرضهم.

في وقت لاحق بدأت ترينا العديد من التغييرات التي شهدها قصرهم منذ طفولة سيمون. غرفة نومها، على سبيل المثال، تم تحويلها إلى حمام. لكن على الرغم من التغييرات الداخلية، فإن البناء الخارجي وبعض الغرف الرسمية بقيت على حالها وكما وصفتها بوفوار تماماً في مذكراتها. خلال استعدادنا للزيارة، قام فون بإعادة قراءة كتاب بوفوار مذكرات ابنة مطيعة، والتفت إليّ بابتسامة كبيرة ليقول إنه منذ دخولنا المنزل، كان بإمكانه أن يتخيلها هناك. في وقت لاحق شاهدنا المطبخ (لم تجر عليه سوى تحديثات

بسيطة فقط منذ أن كانت سيمون شابة)، حيث كانت تجتمع فيه جميع النساء للثرثرة والطهي. واصطحبتنا إلى موضع عند النافذة لنرى الشجرة التي كانت تتمدد سيمون تحتها، وهي ترفض الانخراط في أنشطة مهينة مثل تعليب الأغذية وحفظها: «كانت سيمون تفضل دائماً أن تمسك كتاباً وتقرأه، وكان والدها عادةً ما يوبخها بينما كانت والدتها ترمقها بنظرات غاضبة من نافذة المطبخ». كان كل شيء من حولي يضجّ بالحياة في عطلة نهاية ذلك الأسبوع، وأود أن أقول إنني كنت قادرة على نقل تلك الطاقة في فصول كتابي التي غطت تلك السنوات.

في طريق العودة بسيارتنا إلى باريس، كان رأسي مليئًا بالأفكار التي تتطلب إعادة كتابة لفقرات الكتاب ذات العلاقة. لقد ملأت العديد من دفاتر الملاحظات الصغيرة بينما كان فون يقود السيارة، كما ملأت عدداً آخر منها عندما كنا على متن الطائرة في رحلة العودة. عندما عدت إلى مكتبي مجدداً، نظرت إلى حافظات الأوراق المانيلا الملونة الموجودة في خزانة الكتب الخاصة بي، وكنت أبتسم وأنا أنظر بشكل خاص إلى تلك الحافظات الخضراء التي كانت مخصصة في الأصل للمسودة النهائية. عندما قرأت الملاحظات التي قمت بتجميعها منذ وفاة بوفوار، تلاشت نشوتي وتحولت إلى حالة من الذعر. مع كل صفحة قمت بتقليبها، كان أمرًا مرعباً أن أكتشف أن هذه الملاحظات كانت تتحدث عني بقدر ما كانت تتحدث عن بوفوار. كانت تلك هي أفكاري وردود أفعالي واستجاباتي ومشاعري. كيف سأقوم بنقل كل هذه الفوضى إلى كتاب سيرتها؟ بعد كل شيء، فإن الأمر كان يتعلق بحياتها، وكيف سأكتب نهاية سيرة حياتها؟

الفصل التاسع والثلاثون

كان من الواضح أنني سوف أحتاج إلى البدء باستخدام مجموعة مختلفة من حافظات الأوراق، فأسرعت بالخروج لشرائها. اللون الوحيد الذي لم أستخدمه بعد كان هو اللون الأرجواني، لذا فقد أفسح اللون الأخضر المجال ليحل محله اللون الأرجواني وهذا ما سيكون عليه لون حافظة أوراق النسخة النهائية. عندما أحضرت تلك الحافظات إلى المكتب، شعرت بالشلل بسبب الفكرة التي سيطرت عليّ والمتمثلة في البدء بكل شيء من جديد لدرجة أنني جلست وبدأت أحدق فيها.

ثم تحولت أفكاري إلى بيكيت. لقد نجحت في إبعاده عن ذهني أثناء إقامتي المؤقتة في باريس، مع العلم أنني ربما لن أهرع إليه إذا ما رأيته في الشارع لأنه أصبح طاعناً في السن وعاجزاً تمامًا. بقيت جالسة في مكتبي غير قادرة على الحركة، أمضيت ساعات أطول مما كنت أرغب في الاستغراق في التفكير في طريقة كتابتي لسيرته الذاتية وكم كان العمل معه مختلفاً. كانت جميع لقاءاتنا رسمية للغاية. ربما كان يعتقد أننا لم نكن سوى «صديقين يتحاوران فيما بينهما»، لكن في كل مرة التقينا فيها، كنا نادي بعضنا بالسيد بيكيت والسيدة بير وكنا نحترم بعضنا بعضاً ومهذبين للغاية. خلقت هذه الطريقة الرسمية في التعامل حدوداً فيما بيننا وسمحت لي بأن أكتب بموضوعية، لذلك لم يكن عليّ حتى التفكير وأنا أكتب.

كنت أتساءل كيف يمكنني فرض موضوعية مماثلة على عملي مع بوفوار عندما رن جرس الهاتف في وقت متأخر بعد ظهر أحد الأيام في تشرين الأول 1987 لتسألني إحدى زميلاتي ما إذا كنت قد سمعت بخبر وفاة بيكيت. لم

يصدر مني رد فعل منفعل، تماماً مثلما فعلت حين تلقيت خبر وفاة بوفوار. وبدلاً من ذلك، في تلك الأيام التي سبقت ظهور الإنترنت، شكرتها، وأنهيت المكالمة، واتصلت بهدوء بصديق لي يعمل صحفياً في باريس، الذي قال لي كلا، لم يكن الكاتب الشهير الذي توفي للتو بيكيت. كان جان أنويه في مدينة لوزان في سويسرا. شعرت بالسعادة حقًا لأن زميلتي كانت مخطئة، لكن تفكيري تحول بطريقة فريدة إلى الانشغال بالأمور العملية: كان هناك إصدار جديد لكتاب سيرة بيكيت بغلاف ورقي قيد الطبع، وشعرت بالراحة كوني لن أضطر إلى إعادة كتابة خاتمة الكتاب. أتذكر أنني هززت كتفي كما لو أنني أريد أن أصفي ذهني، وبدأت أتساءل ما الذي جعلني أفكر فيه ببرود شديد هكذا.

أدركت في وقت متأخر، أن السبب كان تلك المسافة من التعامل الرسمي التي كانت تفصل بيننا، والتي كنت أنا مسؤولة عنها أكثر من بيكيت. لقد خلقت تلك المسافة عن عمد، لأنني، كامرأة، شعرت أنه يجب عليّ فعل ذلك. كنت مصممة على العمل كباحثة محترفة ويكون تصرفي خالياً تمامًا من أي تلميح إلى سلوك غير لائق، مع بيكيت أو أي شخص آخر. تطور هذا النهج بشكل طبيعي طوال حياتي المهنية حتى وصل إلى تلك المرحلة، وقد بدأ منذ أن شغلت وظيفتي الأولى كصحفية في مجلة نيوزويك.

عندما عملت لاحقاً في وظيفة إعداد التقارير الصحفية، تعلمت من أحد المحررين الطيبين ألا أدلي بتعليقات «سخيفة» حتى أدحض التلميحات التي تشير إلى أنني كنت أقوم بخدمات جنسية مقابل الحصول على سبق صحفي. لا تزال على طاولة مكتبي حتى يومنا هذا، عبارة ساخرة خطها بأحرف بارزة منضد للحروف تقول: «لا أعتقد أنه من العدل / أن أرى دي بير ترتدي تنورة قصيرة». وأنا أحتفظ بها هناك لتذكرني بالمدى الذي وصلت إليه النساء في ميدان العمل منذ أن بدأت العمل مع صامويل بيكيت. ومع ذلك، فإن سنوات السبعينيات شهدت أسوأ الأيام التي عملت فيها، وفي النهاية، لم يكن مهماً حقاً كيف كنت أقدم نفسي؛ فقد ظل أصحاب النفوذ والتأثير يكتبون ما يشاءون عن النساء العاملات.

بدأت هذه المواقف تتغير عندما بدأت الكتابة عن بوفوار في أوائل

الثمانينيات. عكست حركات المطالبة بحقوق النساء التي اتسع حجمها ما كنت أكافح من أجله حيث بدأت النساء في استعادة مكانتهن في التاريخ والمطالبة بأخذ دورهن في جميع مناحي الحياة العملية. كانت سيمون دي بوفوار نموذجًا يحتذى به، حيث كانت تتعرض لشتى أنواع الهجمات والأقاويل المشينة طوال حياتها حتى حين ظلت تكرس وقتها لمهنتها ككاتبة. بحلول العقد الأخير من عمرها، استخدمت النساء من الناشطات النسويات في جميع أنحاء العالم مثابرتها كنموذج يحتذى به. وعندما تبنت قضية المرأة وانضمت إلى الاحتجاجات، اصطففن وراءها. في الواقع، كانت فعلاً مساندة لهن، وكنت أعتقد دائمًا أن دفاعها عن القضايا النسوية كان أحد الأسباب التي جعلتها ترحب بي بحرارة. لقد أرادت ببساطة أن يلفت شخص ما الانتباه إلى كل ما عملته، وبالنسبة إليها، لم تكن نوعية شخصيته مهمة كثيراً. لقد حرصت على التأكد من أن العديد من مساهماتها في الثقافة المؤقتة سوف يتم الاعتراف بها من قبل الأجيال القادمة.

أعترف أنه ربما كان من الأسهل بالنسبة إلى ناشطتين نسويتين أن تنسجما أثناء عملهما معاً بدلاً من أن يأتي رجل من العالم القديم يثق بامرأة كان بالكاد يعرفها. وقد أتيحت لي الفرصة الكافية لمناقشة هذا السؤال في البرامج الإذاعية والتلفزيونية وحلقات النقاش التي حضرتها بمجرد أن بدأت الكتابة عن بوفوار. تم تأطير الموضوع عادةً تحت سؤال «هل يمكن للمرأة أن تكتب عن رجل (أو العكس)؟» وكان عادةً ما يقترن بالحديث عن رجل كتب عن امرأة. في كل حالة تقريبًا، لم يكن لدى جمهور الحاضرين مشكلة في الاتفاق على أن الرجال يمكنهم بالتأكيد نقل جوهر وجود المرأة، لكن أن تكتب امرأة عن رجل – حسنًا، كان هذا شيئاً آخر تمامًا. عادة ما قوبلت مساهماتي في هذه المناقشات بالشك في أفضل الأحوال، وبالرفض في أسوأ الأحوال.

وكان عادة ما يتم تداول السؤال الذي كان أكثر عمقاً والأكثر إثارة للقلق حول ما إذا كانت المرأة تستحق حتى أن يُؤلف كتاب عن سيرة حياتها ولكن بشكل غير ظاهر للعيان. دعيت ذات مرة أنا وآني كوهين سولال لحضور مؤتمر جامعي حضره عدد من الباحثين المتميزين ونظمه مركز الدراسات

الأوروبية في جامعة هارفارد، للحديث عن النشاط السياسي للشخصيات التي ألفنا كتباً عن سيرة حياتها. لم تفعل آني أكثر من قراءة مقاطع أو تلخيص ما كتبته في كتابها عن سارتر، لكنني بذلت جهداً كبيراً في محاضرتي. كان من المقرر أن ينشر كتابي خلال بضعة أشهر، ولذا قدمت الكثير من المعلومات التي لم تكن معروفة حتى ذلك الحين عن بعض كتابات وآراء بوفوار السياسية. قمت بصياغة حديثي لكي يؤدي إلى إثارة اهتمام السياسيين وعلماء السياسة (وكانوا جميعهم من الذكور تقريبًا) من جمهور الحاضرين. كان بإمكاني رؤية الكثير منهم يقومون بتدوين ملاحظات كثيرة أثناء حديثي، لذلك كنت أتطلع إلى ما اعتقدت أنه سيكون نقاشاً مفعماً بالحيوية. عندما حان وقت توجيه الأسئلة، كان كل سؤال موجه إلى آني يتعلق بآراء سارتر السياسية، لكن كل سؤال تم توجيهه إليّ كان يتعلق بحياة سيمون دي بوفوار الجنسية. كنت حينها فعلياً، على وشك البكاء.

من الواضح أن كتابي عن سيرة حياة بيكيت لا يمكن أن يكون بمنزلة مثال أو نموذج لكتابي عن سيرة حياة بوفوار. كان بيكيت لا يزال يعيش ويعمل عندما انتهيت من تأليف الكتاب عن حياته، الأمر الذي حررني من الشعور بالحاجة إلى جعله وثيقة نهائية وأخيرة؛ كان لا يزال يكتب، وكان هناك شيء جديد يحدث له في كل يوم. لقد كنت أعتقد منذ زمن طويل أنه لا يوجد على الإطلاق كتاب سيرة حياة يستطيع أن يتناول حياة ذلك الفرد بجميع أبعادها ولا يمكن لأي من هذه الكتب أن يحتوي على كل شيء من البداية إلى النهاية. يمكن أن يكون مجرد كتاب يجده جيل أو جيلان ضروريًا وغنياً بالمعلومات وملبياً لحاجاته. أعتقد أن مارغريت أتوود هي التي قالت بحق إن كل جيل يحتاج إلى سيرة حياة خاصة به، فكيف لنا أن نتحلى بالغطرسة لنعتقد أننا قدمنا كل الإجابات عندما لا نعرف حتى الأسئلة التي ستطرحها الأجيال المقبلة؟

لذلك كنت ملتزمة للغاية حين كتبت سيرة حياة بيكيت بأن أقوم بجمع كل معلومة مهما كانت صغيرة يمكنني العثور عليها وأن أقول الحقيقة بعد أن أدقق كل المعلومات. قلت مازحة ذات مرة إنني لم أكن أتمكن من كتابة جملة تقول «لقد كان يومًا لطيفًا» إلا بعد أن أكون قد راجعت تقارير الطقس

لمدة ثلاثة أسابيع قبل ذلك اليوم وبعده في جميع الصحف التي تصدر في محل إقامة بيكيت والمناطق المجاورة. كما كنت أقول لكل شخص يتطوع ويروي لي حكاية له مع بيكيت، إنني أريد ثلاثة أشخاص على الأقل، إن لم يكونوا خمسة، يروون لي الحكاية بشكل مستقل. كان كتابي أول سيرة حياة لبيكيت، ولذلك منحت الأولوية لدقة المعلومات. والأهم من ذلك، أنها كانت حياته، ولأنني لم ألعب أي دور فيها، لم يكن هناك أي سبب يدعوني للظهور في أي جزء منها.

قادني طرح هذا السؤال إلى التفكير بمباشرة ببوفوار: لماذا إذن، كنت بعيدة جداً عن وجهة النظر هذه عندما كتبت عنها؟ لقد وجدت إجابة جزئية لهذا السؤال عندما اتصل بي أحد المحررين يطلب مني كتابة مقالة تعريفية بأحد كتب السيرة التي كان يحررها، كتبته امرأة عن حياة امرأة أخرى. كانت المؤلفة مشهورة في ذلك الوقت، وحيث إنها هي ومحررها لا يزالان يعملان معًا حتى اليوم، فلن أذكر اسميهما هنا. تطوع المحرر ليقول إنني ربما لا أحب كتاب تلك المرأة لأن كتاباتها كانت مختلفة للغاية عن كتاباتي. وقال إنني «حريصة جدًا على عدم وضع نفسي كحاجز أمام قرائي، في حين أن [كاتبته] كانت تضع نفسها دائمًا في هذا الموقف، بحيث إن من يريد أن يفهم الشخصية التي تكتب عنها، يجب عليه أولاً أن يدعها تخبره بكل شيء عن نفسها، إلى حد أن تغمره بمشاعرها وتطغى عليه شخصيتها إلى درجة تجعله يفقد تقريباً أثر من كانت تكتب عنه».

جعلتني فكرة أن أكون قد وضعت في هذه الفئة أشعر بالخوف من أن يؤثر ذلك على طريقتي في الكتابة. فبدأت على الفور في حذف أي شيء يمكن أن يفسر على أنه رأي شخصي أوعاطفي واستبداله بسرد حيادي وجاف للغاية إلى درجة أنه فقد كل إثارته. باتت شاشة الكمبيوتر مملوءة بالتنقيحات الواحد بعد الآخر بانتظار أن أجد الصيغة المناسبة، وما إن قررت ألا أدع مجالاً لآرائي الشخصية أن تظهر في كتابي، حتى اقتحمت عالمي «جوانب أخرى من حياتي» واضطررت إلى وضعها جانباً في أغلب الأوقات.

كنت أشعر بحال أفضل في السنة الثانية من الزمالة في عام 1987، لأنها سمحت لي بالابتعاد عن الجامعة والجلوس مستمتعة بوقتي في مكتبي في

المنزل، عندما تلقيت مكالمة من رئيس قسم اللغة الإنجليزية، ليخبرني أن الأساتذة «يشعرون بالحرج» لأنه على الرغم من كل التكريم والجوائز التي كنت أتلقاها، لم يتم النظر بعد في موضوع ترقيتي إلى مرتبة الأستاذية. كان رد فعلي الأول هو تعبيري عن سعادتي لأن زملائي نظروا بعين التقدير إلى مساهماتي، ولكن جرس الإنذار على سبيل المجاز، سرعان ما بدأ يدق. كنت قد ابتعدت عن الحرم الجامعي لمدة عامين تقريبًا، ومثل هذا الغياب لم يجعل المودة تجاهي تنمو في قلوب أساتذتها قط؛ لقد جعلهم يغارون مني فقط. على الرغم من أنه كان لدي عقد مضمون للكتاب الثاني، إلا أنني علمت أنه قد يتم رفض ترقيتي تمامًا أو على الأقل تأجيلها إلى أن يتم نشره، أو ربما حتى بعد أن تتم مراجعته. بالإضافة إلى ذلك فإن كل ما يتعلق بإعداد ملف الترقية الذي كان يتضمن – جمع كتاباتي ومحاضراتي ومراجعات الكتب الأخرى وتقييمات المختصين؛ والحصول على خطابات التوصية التي قدمتها للطلبة؛ وتنظيم قائمة بالمرات العديدة التي مثلت فيها جامعة بنسلفانيا في المناسبات العامة؛ وجمع شهادات من أشخاص يعملون في وكالات عامة أو غير ربحية في جميع أنحاء فيلادلفيا ممن تعاونت معهم بعدة طرق مختلفة – كان يمثل عملية مهمة وجدية للغاية تتطلب وقتًا طويلاً وقد تستغرق عدة أشهر على الأقل.

لم أتطرق إلى هذه المخاوف خلال أول محادثة هاتفية لي مع رئيس القسم. وبدلاً من ذلك قلت له إنني أصبحت على بينة من أني سأقضي هذا الوقت في إعداد ذلك الملف الضخم لأن أيًا من مواده لم يتم أخذها في الاعتبار ولأن الكتاب الثاني الأكثر أهمية لم يتم نشره بعد. حينها قال لي إن ذلك لن ينطبق أبداً على حالتي، وإنني في الحقيقة لن أحتاج إلى تقديم جميع محتويات الملف. نظرًا لأنه لا أحد لديه الوقت الكافي لقراءته على أي حال، فلماذا لا أختار «عدداً معيناً من الصفحات الجيدة من الكتاب من شأنها أن تعطي فكرة عن نزعته وسماته»؟ وافقت على مضض على المضي قدمًا في الأمر، ولكن فقط بعد أن قدم لي وعداً بأنه لن يتم رفض الترقية لأنني لم أقدم كتابًا منشورًا. أكد لي مرارًا أن هذا لن يحدث أبدًا، «بالنظر إلى أن كل شيء آخر رائع للغاية».

استغرق الأمر خمسة أشهر تقريبًا لتجميع الملف، وكنت طوال تلك الفترة أقوم بتجهيزه، وقد جعلت عقول أصدقائي وأفراد عائلتي «تطير من رؤوسهم (وفقًا لتعبير زوجي)» بسبب «حالة الخوف والقلق الشديدة التي تملكتني». قمت بتقديم الملف في بداية فصل الخريف في عام 1987، وأنا مليئة بالقلق من النتيجة ومستميتة من أجل العودة إلى كتابتي. كانت الصفحات الأربعمئة الأولى من الكتاب منتهية إلى حد ما، وكنت أعتقد أنها ستعطي فكرة عن «نزعته وسماته». كان أمام الأساتذة شهران لقراءة الملف، وكان من المقرر عقد اجتماع للتصويت عليه يوم الجمعة، 13 تشرين الثاني في الساعة الرابعة والنصف عصراً. بعد أقل من ساعة من ذلك الموعد، اتصل رئيس القسم ليخبرني أن القرار الذي اتخذ بتصويت سبعة أعضاء مقابل اثنين (كان النصاب القانوني قد اكتمل بالكاد)، كان ينص على أنه سيكون من «الأفضل لمصلحتي» رفض الترقية إلى أن يتم نشر الكتاب. وعلى حد قولهم أنه لم يكن هناك الكثير لمناقشته، لأنني لم أقدم سوى جزء من مخطوطة الكتاب.

كان عليّ أن أطلب منه تكرار ما قاله قبل أن أتمكن من التكلم لأعبّر عن سخطي لأنه وعدني بأن هذا لن يحدث. كان يراوغ ويقول أشياء غير مفهومة، وبينما كان يفعل ذلك، خطرت على بالي صورة الأرنب الأبيض في قصة أليس في بلاد العجائب وهو يختفي في وكر الأرانب. كان يتفوه بأشياء متناقضة الواحد تلو الآخر، ولم يقل شيئاً منطقياً. ظللت أكرر على مسامعه أنه كان قد أعطاني وعداً بأن سبب الرفض لن يكون تقديم مخطوطة جزئية، والآن عليه أن يفي بوعده؛ إذا لم يعد عقد الاجتماع ويطلب إجراء تصويت آخر، فستكون استقالتي على مكتبه بحلول يوم الإثنين التالي. ضحك قائلاً إنه يعرف أن ذلك لن يحدث أبداً. وفي حالة من الغضب، كتبت في مذكراتي اليومية ما قاله بالضبط: «لا أحد يستقيل من منصبه، وخصوصاً أنت». كان كل ما يمكنني فعله هو أن أودعه – بأدب – قبل أن أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها – بهدوء.

عاد زوجي إلى المنزل بعد فترة وجيزة ووجدني في مكتبي أعمل على كتابة المسودة الأولى لرسالة الاستقالة. عندما أريتها له، قال إنه مدين لي

باعتذار شديد: *«قال لي فون إنه كان يعتقد أنني مصابة بجنون العظمة ولكنه كان مخطئًا جداً، هم المجانين فعلاً»*.

كان أكثر ما أغاظني في هذه المراجعة المزعومة هو أنه من بين الأصوات السبعة التي صوتت رافضة ترقيتي، كانت هناك أربع نساء يشغلن منصب الأستاذية. كان الشعور بالتضامن النسائي غائباً للأسف.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى شاعت أخبار الرفض في كل أرجاء الجامعة، ولم يتوقف هاتفي عن الرنين طوال عطلة نهاية الأسبوع. استخدم الجميع كلمتين: الأولى «متفاجئون»، والثانية «غاضبون». لم يستطع أحد ابتداءً من أمناء الجامعة إلى أعضاء الأقسام الأخرى، إلى الباحثين المرموقين من خارج الجامعة الذين كتبوا بالنيابة عني إلى طلابي المذهولين، فهم ما حدث. كان الشخص الوحيد الذي اتصل من قسم اللغة الإنجليزية هو رئيس القسم، وكانت رسائله المتناقضة بشكل متزايد واحدة من أفضل الأمثلة على أساليب «الفلفة الموضوع» التي رأيتها في حياتي. وقال إن كل ما كان عليّ فعله هو إعادة التقديم في السنة التالية – ويعني ذلك ملفاً جديداً تمامًا. وفي محادثة لاحقة، قال لي إنه ينبغي عليّ سحب خطاب الاستقالة وإعادة إرسال الملف الأصلي في الربيع التالي. ثم قال في وقت آخر إنه إذا لم يكن الكتاب قد نُشر بعد، فربما يرغب القسم بالانتظار حتى يصبح النص بأكمله في طور الطباعة. أو ربما لا، قد يكون من الأفضل الانتظار حتى يتم طباعة الكتاب. أو ربما يجب أن أنتظر حتى تتم مراجعته. كنت حازمة معه في كل مرة: لقد أعطاني وعداً وكان عليه الوفاء به. لقد ذهب به الأمر إلى حد الإدلاء بتصريحات لصحيفة الطلبة فكتبت في مذكراتي اليومية: «لقد صوروه بمظهر التقي الورع الذي يأسف لما حدث وجعلوني أبدو شديدة الانفعال وحتى مجنونة. لكني بقيت صامتة بل ثابتة على موقفي أيضاً».

كان كل قسم يتمتع بإدارة ذاتية كاملة، ولهذا السبب لم يكن لدى رئيس الجامعة أو العميد صلاحيات واسعة تجعله قادراً على حل ذلك الجمود في الموقف. وعندما طَلبوا من رئيس القسم توضيح الأمر، أخبرهم أن «القرار كان قراراً بعدم اتخاذ قرار لأنه سيخدم مصلحتها على أكمل وجه»، أخبرني الأشخاص الذين حضروا هذا الاجتماع أنه «لم يقل شيئاً له معنى». ولكن

استنتاجي أنه كان متعباً «بلى، لقد كان كذلك حقاً». اتصل بي صديق عزيز في قسم آخر ليحذرني من خطورة قراري بالاستقالة. وقد استمعت بعناية إلى حججه المدروسة قبل أن أخبره كيف ضيعت وقتي في أغلب أشهر السنة من أجل هذا الموضوع، وكيف تأخر نشر كتابي إلى وقت آخر بسبب سياسات إدارة القسم. قلت له إنني على دراية بالمخاطر المالية التي تنتظرني، لكنني ببساطة لا أريد تحمل المزيد من هذه الإهانات. واعتبرت قرار الرفض الأخير إهانة تعدت كل الحدود. دونت في مذكراتي اليومية أيضًا ما قاله في النهاية: «بمعنى آخر، أنت لست على استعداد لأن تحشري أنفك في دلو جديد من القرف بحيث لا يكون أمامهم خيار آخر سوى قبولها».

قلت له نعم فقد كان ذلك صحيحًا تمامًا. كنت دائمًا أساهم بشكل رئيسي في الشؤون المالية لعائلتي، وسأحتاج إلى إيجاد بديل لراتبي، لكنني كنت متفائلة فعلاً عندما قلت هذا. على الرغم من أنني عملت أستاذة لمدة ثلاثة عشر عامًا، فإنني حافظت دائمًا على «عقلية العمل المستقل»، ولم يكن لدي أي قلق بشأن استئناف حياة الكتابة المرتجلة. في الواقع، كنت أتطلع إلى الحرية التي ستجلبها لي. سيستغرق الأمر سنة أخرى حتى أنتهي من كتاب سيرة بوفوار وسنة ثانية تستغرقها عملية النشر التي تستمر لمدة عام، وبذلك يكون قد مرّ عشر سنوات منذ بداية وحتى نهاية عملي في كتابي الثاني أي منذ عام 1980 إلى 1990. ولولا انشغالي بقضايا التدريس الجامعي لكنت نشرته في ستة أو سبعة أعوام على الأكثر. كنت أعلم أنني كنت أهرب إلى أرض جديدة وغريبة عندما قررت أن أستقيل، لكنني لم أنظر إلى الوراء قط.

عندما يوجه أحدهم سؤالاً إليّ عن الشيء الذي أتوق إليه في حياتي الأكاديمية، كنت أقول دائمًا أن هناك شيئًا واحدًا يجعلني أشعر بالندم وهو: أنني لا أملك راتباً تقاعدياً. لكنني كنت ألقي المحاضرات منذ ذلك الوقت كأستاذة زائرة أو كاتبة في جامعات الولايات المتحدة وفي جامعات أخرى، تمتد من أوروبا إلى أستراليا، ولم تجلب لي تلك التجارب سوى السعادة والفرح الهائل بتجربة العديد من الطرق المختلفة للنظر إلى الموضوعات التي كانت تهمني. لقد قمت بتدريس مناهج كتابة السيرة التي أسعدني فيها امتلاك الطلاب الأذكياء لرؤية معينة خاصة بهم حول هذا النوع من الكتابة،

وقد ساعدت العديد منهم على نشر كتب سير خاصة بهم نالت سمعة حسنة. بعد فترات طويلة من الانعزال في مكتبي، عندما كان كل ما أقوم به هو تدوين كلماتي، فإن هذه اللقاءات كانت منعشة رائعة. لقد كان من الرائع للغاية أن أكون قادرة على ترك طلبتي في الفصل الدراسي نشطين ويمتلكون خصوبة عقلية، ومعرفة أن تلك التجربة لن يفسدها اجتماع يعقد بعد المحاضرات في مبنى القسم كما كان الحال معي سابقاً. لم أكن أعرف مطلقًا كيف أتعامل مع السياسة الأكاديمية، وبدأت أدرك كم كنت محظوظة لأني تحررت منها، وأمضيت سنوات طويلة في أداء العمل الذي أحبه.

وهكذا عدت إلى تأليف كتب السيرة، وكانت تتخلل عملية الكتابة هذه المرة عدة مهام قبلتها بكل سرور ليس للحصول على ما يلزمني من أموال لتمشية أمور الحياة فحسب ولكن بسبب المتعة المطلقة التي كنت أشعر بها عند كتابتها أيضاً. لقد قمت بصياغة إيقاع مناسب للعمل في تأليف الكتاب، وكنت أستمتع ببناء هيكل الكتاب، وكنت أتطلع في كل يوم لاستئناف العمل من المكان الذي كنت قد غادرته في الليلة السابقة. لقد امتلأت مذكراتي اليومية بملاحظات من النوع الذي كنت أشير إليه بخجل عندما أتحدث مع كتاب السير الآخرين باسم «نظرية ديردر بير في كتابة السيرة».

قمت بصياغة «نظريتي» أو «أطروحتي» تلك بعد أن وجهت لي أسئلة لمرات لا تحصى عن الطريقة التي أكتب فيها عن الأشخاص الذين تختلف ثقافاتهم ومجتمعاتهم عن ثقافتي ومجتمعي. كنت أقول لهم إن الأمريكيين سيلاحقونك حتى الموت وهم يغمرونك بالمصادر لإقناعك بصحة تفسيرهم. إنهم يشرحون لك كل ما يصعب عليك فهمه، ويقدمون لك معلومات وفيرة تجعلهم يتفاخرون بكل جزء من البحث الذي قاموا به. أما البريطانيون فهم مختلفون تمامًا، حيث إنهم يروون قصصًا مشوقة بأساليب نثرية في غاية الأناقة، ولكن عندما يبحث القراء عن الشروحات والمصادر، فإنهم في أغلب الأحيان يطلبون منك الوثوق بالكاتب، عزيزي القارئ. في كثير من الأحيان تكون الشروحات والمصادر قليلة ومتباعدة. يختلف الفرنسيون تمامًا عنهم كلهم: إنهم يصنعون إطاراً نظريًا للسيرة، وإذا اضطروا إلى حذف بعض الأحداث والقضايا من سيرة حياة الشخصية التي يتناولونها

لتناسب مع هذا الإطار، فسوف يفعلون ذلك بكل سرور. ذكرني هذا الأمر بكاتب فرنسي أخبرني أنه سيكتب سيرة حياة أيضًا، بمجرد أن يجد شخصية تناسب أطروحته.

كنت أقوم بتحليل كل هذه الأفكار بسلاسة أثناء عملي في المخطوطة النهائية لكتاب سيرة حياة بوفوار إلى أن داهمتني لحظة جديدة من لحظات التبصر تلك التي تجعلني أفكر في إعادة كتابة جوهرية لعدد كبير من فقرات النص. بدأت بقراءة جميع كتب السير التي تناولت حياة سارتر والتي تم نشرها حتى ذلك الحين ووصلت إلى اكتشاف مذهل عن كتابي الخاص. حينما قمت بالمقارنة بين اثنين منها فقط، السيرة التي كتبها رونالد هايمان مع السيرة التي كتبتها آني كوهين-سولال، لاحظت: «*أن رونالد يبدو أكثر عمقاً من آني. إنها لا تفتأ تعيد عرض الكثير من المعلومات المعروفة مسبقاً بينما يفعل رونالد نفس الشيء إلى حد كبير لكنه يسعى جاهداً لتفسيرها. في الأساس، فإنهما كليهما يتفقان تماماً مع الحقائق المعروفة ويقومان بإعادة صياغة كتابات سارتر*». حينها حلّت لحظة التبصر عندما توصلت إلى أنه: «*من المثير للاهتمام أنهما كليهما لم يفردا مساحة كبيرة لسيمون دو بوفوار*».

الأمر الذي أرعبني هو حقيقة أن سارتر كان يظهر في كل صفحة تقريبًا، في كتابي عن سيرة حياة بوفوار، من قبل لقائهما الأول حتى وفاتها بعد عدة سنوات من وفاته. وكنت أسأل نفسي كيف استطاع أن يتسلل بذلك العمق إلى ما كان من المفترض أن يكون حياة بوفوار الخاصة، ولماذا حدث مثل هذا الاختلال غير المتوازن بينهما؟ أعطاني الناقد البريطاني بيتر كونراد إجابة جزئية عندما استعرض كتاباً عن سيرة حياة توماس دي كوينسي. فقد قال بيتر كونراد، مستعيرًا مصطلح جوزيف كونراد، إن دي كوينسي جعل نفسه «مشاركًا صامتًا وخفيًا» في أي كتاب يُكتب عنه.

سألت نفسي، «هل هذا ما فعلته مع سارتر عندما كنت أحوكه بعمق في نسيج حياتها؟» وحينها عاودت السؤال: «إذا كنت أنوي الكشف عن حقائق حياتها وأعمالها، فما الذي يجعلني أشير إليه؟!»

الفصل الأربعون

عاد نيلسون ألغرين ليتصدر الواجهة في عملي عندما كنت أبحث في دور سارتر في حياة بوفوار، وقد ساعدتني الكتابة عن علاقتها معه على وضع سارتر في الموضع الذي اعتقدت أنه مناسب له. كانت جامعة ولاية أوهايو قد اشترت رسائلها إلى ألغرين، وفي نهاية عام 1987، كنت أحاول توفير وقت فراغ للذهاب إلى مدينة كولومبوس لقراءتها، وكنت قد وضعت في بالي أنني وعدت سيلفي بالعودة إلى باريس في شباط 1988 لقراءة أي رسائل أو مخطوطات أخرى قد تكون قد عثرت عليها. لكني أصبت بصدمة كبيرة عندما تلقيت رسالة «قاسية وشديدة الانفعال» منها بعد حلول العام الجديد مباشرة، تنكر فيها منحي الإذن بالاقتباس من رسائل ألغرين أو من أي من مراسلات بوفوار مع سارتر التي كنت قد رأيتها بالفعل. «*لقد كانت رسالتها قاسية ومهينة بشكل مروع، ولكنها في نفس الوقت جعلتني أشعر بارتياح كبير لأنني لم أعد مضطرة للذهاب إلى باريس في شهر شباط. والشيء الأفضل من ذلك، أنه بات يمكنني الآن تفسير عزوف ألغرين عن بوفوار بدقة على أنه الفراق الرومانسي المدمر لها وهو ما كان عليه حقًا*». وبهذا استطعت أن أحل مشكلة كيفية الكتابة عن ألغرين، ولكن مشكلتي مع شريكي «الخفي [والمتطفل]» سارتر، سيتم حلها بشكل تدريجي.

كان بإمكان سيلفي أن تفعل ما تريده الآن بعد أن أصبحت الوريثة الشرعية لبوفوار. يمكنها أن تعرقل نشر كتابي إذا اختارت ذلك، لأنني لم أكن أمتلك عقداً رسمياً أو اتفاقية مكتوبة مع بوفوار تنظم حقوق وأذونات النشر. كنت أكتب سيرة حياتها بنفس الطريقة التي كتبت بها سيرة بيكيت، بناءً على الاتفاق الشفوي الذي حدث بيننا، والذي كنت أعتقد من فرط سذاجتي أنه

القاعدة في كتابة جميع سير الحياة التي نشرت من قبل. لكني بدأت أعرف الموضوع بشكل أفضل في الوقت الذي بدأت فيه كتابة سيرة حياة بوفوار، لكنني بقيت أتصرف وفقاً لهذه الثقة غير الموثقة. كنت محظوظةً جدًا، لأنني واصلت عملية تكوين نفسي ككاتبة سيرة من خلال السير قدماً في مشروعي، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تعلمت بها كيفية العمل في هذا النوع من الكتابة.

كانت سيلفي تعرف كل شيء عن اتفاقنا غير الرسمي، كما أنها كانت تعلم أن بوفوار كانت تتوقع منها أن تحترمه، مما جعل الوضع مزعجاً للغاية ليس بالنسبة إليّ فقط ولكن أيضًا إلى كل من عرف أو أحب سيمون دي بوفوار بعد أن بدأت سيلفي تتلف أو تتخلص من كل شيء يعود لبوفوار ابتداءً من شقتها القريبة إلى قلبها وانتهاءً باتفاقها معي والعديد من الاتفاقات الأخرى التي كنت أعلم أنها عقدتها مع عدد من الكتاب وصانعي الأفلام. في النهاية تراجعت سيلفي عن موقفها وتمكنت من كتابة الكتاب بالطريقة التي شعرت أنه يجب كتابته بها تماماً. ولكن وإلى يومنا هذا، على الرغم من حقيقة أن رسائل بوفوار إلى نيلسون ألغرين المحفوظة في جامعة ولاية أوهايو قد تمت قراءتها واستخدامها، وحتى اقتباسها في كتب أخرى، لم تسمح سيلفي قط لأي باحث رصين أو كاتب بقراءة رسائل ألغرين إلى بوفوار، وقد احتفظت بها كلها.

لا أستطيع أن أفهم لماذا لا تزال متمسكة بهذا الموقف السخيف، لكنني كنت أشعر آنذاك في عام 1988 بالراحة لأنني لم أكن مضطرة لرؤيتها شخصيًا، خوفًا من أن يؤدي بها وجودي للقيام بعمل عدائي. عندما فكرت في الأمر، استنتجت أن تطيرها مني كان في الواقع ذا فائدة غير مباشرة، لأنه قادني إلى التفكير بعناية في كيفية الحديث عن سارتر وألغرين. لقد أعطاني محتوى رسائل ألغرين بالإضافة إلى رسائل سارتر فسحة هائلة من الحرية في الكتابة عن علاقات بوفوار مع هذين الرجلين والكتابة عن الرسائل نفسها. كانت تلك الرسائل التي تبادلتها معهما مفيدة لتأكيد ما كنت قد ذكرته في الكتاب والتحقق منه وتفسيره. لقد قدمت تلك الرسائل صورة شاملة لكل شيء مرّ في حياتهم وماذا كانوا يفعلون في كل زمان ومكان وماذا كانوا

يخبرون بعضهم بعضاً وكيف كانوا يفكرون ويتصرفون وماذا كانوا يقرأون ويكتبون. لقد أصبحت تلك الرسائل واحداً من المصادر ذات القيمة العالية لضمان دقة النص الذي يحتويه كتابي.

كان الأمر مشابهًا جدًا لمذكرات بوفوار، التي قرأتها للمرة الأولى قبل فترة طويلة لم أكن أظن حينها أنني سأكتب عنها. كنت مثل العديد من النساء الأخريات، بعد تلك القراءة الأولى، (وأنا هنا أستخدم إحدى عباراتها المفضلة) totalement bouleversée– وتعني مذهولة تماماً–. كانت تتحدث عن أشياء كثيرة لدرجة أنني كنت أتخيل أنها كان مرتبطةً بكل مرحلة من مراحل حياة النساء، بدءاً من الولع بالكتب عند الفتيات في سني المراهقة اللاتي كن يحملن توقاً للتحرر من القيود العائلية وتوسيع آفاق تفكيرهن، إلى الشابات الراشدات اللاتي يحاولن كشف جوهر العلاقات الإنسانية، إلى النساء الناضجات اللواتي عانين من النجاحات والفشل في الحياة والعمل على السواء، واللواتي كن ينظرن إلى قرارات بوفوار على أنها تصرفات غريبة مقارنة مع أسلوبهن في الحياة. كان هناك صدق حقيقي في تلك المجلدات الأربعة من المذكرات، ولكن عندما بدأت الكتابة عنها، خاصة بعد أن أجريت العديد من المقابلات مع الأشخاص الذين يعرفونها بشكل أفضل، اعتقدت أن هناك وجهًا آخر للمذكرات يتطلب الاستكشاف والتفسير.

خلال المسودة الأولى التي كتبتها لعدة فصول مختلفة، كنت قد امتدحتها على صراحتها وطريقة مواجهتها لجميع الأشياء بشكل مباشر، مهما كانت مزعجة أو محرجة. أما الآن وأنا أعيد كتابة الكتاب، بدأت أتساءل عن سبب تجنبها التطرق إلى بعض الأشياء، لدرجة أنها لم تذكر شيئًا شخصيًا حقًا. من أحد الأمثلة الرئيسية على ذلك هو عندما أخبرت نيلسون ألغرين كم كان من الصعب عليها إبعاده عن مشهد الأحداث عندما كتبت عن شيكاغو في كتابها أمريكا يومًا بيوم: وكما عبرت عن ذلك بقولها «يجب أن أجد طريقة لقول الحقيقة من دون أن أشير إلى ذلك». أعتقد أن هذا العنصر الشخصي مفقود للأسف في تلك المذكرات، لأنه هو ما يعرّفنا بها ويفسر لنا تصرفاتها حقًا. تحدثت بوفوار للقراء في كتاب مذكراتها، عن أين ذهبت وماذا فعلت،

وماذا كتبت وبماذا كانت تفكر. لكنها فعلت كل شيء بشكل محايد، كما لو أنها كانت رقيبة على ذاتها. بدا الأمر كما لو أنها، سيمون دي بوفوار المرأة، كانت مشاركة سرية صامتة مختبئة خلف ظل بوفوار الكاتبة. كنت أعلم أنني بحاجة إلى التحقيق في سبب تهربها ذاك. رأيت أنها مهمة كاتب السيرة أن يخبر القراء بالأشياء التي تجنبت الحديث عنها، وأفضل طريقة للقيام بذلك كانت البحث عن إجاباتها على الأسئلة التي كنت أطرحها باستمرار.

عدت بذاكرتي إلى محادثاتي العديدة مع بوفوار، عندما كنت أستفسر منها عن حدث أو لقاء ورد في مذكراتها، وكيف كانت تتجه أسئلتي إلى التركيز عليه من خلال قولي لها «نعم لقد ذكرت ذلك في مذكراتك، ولكن كيف كان شعورك تجاهه؟» كان ردها دائمًا هو نفسه تقريبًا: في البداية يسود الصمت لكي تستطيع التفكير في الأمر، تليه ربما حركة من الرأس، ثم نقرة من الرسغ، وأخيرًا تدلي بإجابتها الحاسمة، دائمًا ما يكون الجواب شيئاً على غرار «لقد حدث ما حدث، إنها الحياة. ليس هناك ما يمكنك فعله؛ من الأفضل أن نواصل التعايش معه». وحينها لا أستسلم وأحاول إيجاد طريقة أخرى لطرح سؤالي الجوهري. لكنها تقول حينها «لقد أخبرتك عنه للتو» ثم تنزل الستارة التي تحجبنا بعضنا عن بعض.

وهكذا أصبح الأمر متروكًا لي لتفسير العديد من جوانب حياتها، وحينها أصبحت شهادة أولئك الأشخاص الذين كانوا الأقرب إليها مهمة لما أكتبه. كتبت بوفوار في تلك المذكرات عن توافقها «المثالي» مع سارتر: «كانت طريقة حياتنا هي بالضبط ما أردنا أن تكون عليه حياتنا كما لو كانت هي التي اختارتنا لذلك». حينها تساءلت مع نفسي لماذا إذن، كانت بوفوار وسط استمتاعها هي وسارتر بقضاء أمسية في أحد البارات المفضلة لديهما مع الأصدقاء وأفراد «عائلتهما»، تقوم بمغادرة المائدة أحيانًا وتذهب للجلوس بمفردها على طاولة أخرى وتتناول كميات كبيرة من النبيذ وتنخرط في البكاء لا إرادياً؟ لاحظ لانزمان، وبوست، وبونتاليس، وبويلون، والعديد من الأشخاص الآخرين هذا السلوك وأخبروني عنه، وكيف أنها مثلما تنخرط في البكاء فجأة تتوقف عنه فجأة، وتجفف دموعها، وتقف، وتهز كتفيها، وتعود إلى المجموعة كما لو أن شيئاً لم يحدث. من الصعب وصف

علاقتهما بالمثالية بوجود هذه التعاسة. كانت بوفوار تعتقد أيضًا أن كل شيء في طفولتها كان داكنًا وأسود. يمكنني قبول أن هذه الأفكار تنطبق على الملابس التي كانت ترتديها والدتها وعماتها ولكن الأمر لا ينطبق على شقة عائلتها، المليئة بالضوء - والتي رأيتها بنفسي، بفضل الملاك الحاليين. تذكرت ما قالته لي هيلين: «هذا ما كانت تؤمن به أختي، ويجب أن تسمحي لها بأن تتذكر حياتها بالطريقة التي تريدها». وهكذا فكرت طويلاً وبمشقة في كيفية شرح هذه التناقضات دون إقحام نفسي في النص بصفتي صاحبة السلطة المطلقة. وصفت هذه الظاهرة بالفرق بين الحقيقة الشخصية والواقع التاريخي، وقررت أنه يجب إيجاد مساحة للتعبير عنهما كليهما.

كنت على دراية أنني لن أكتب سيرة قديسة، ولكن إلى أي درجة، إن تطلب الأمر ذلك، يجب أن أقوم بالدفاع عنها، أو أن أقوم عدا ذلك بكشف زيفها؟ لقد أتعبني العثور على التعبير المناسب. أتذكر أنني كنت أحاول حل هذه المشكلة خلال عشاء في منزل إيلين وارد مع العديد من كتاب السيرة المميزين الذين كانوا يحضرون ندوتها الشهيرة حول كتابة السيرة وكان من بينهم: فريدريك كارل، وكينيث سيلفرمان، وكارول كلاين، ومارنارد سولومون. ربما لأننا كنا نتناول الطعام، قمنا باستعارة عبارات تتعلق بالطعام حتى خلصنا إلى أن وظيفة كاتب السيرة هي «إثارة الشهية من دون تقديم الوجبة الكاملة». وعلى هذا الأساس، اتفقنا، نحن كتاب السيرة الأدبية على أنه يجب أن نضمن أن قراءنا ما إن يفرغوا من قراءة كتبنا حتى تتولد لديهم الرغبة في الانتقال الفوري إلى كتابات الشخصية التي كتبنا سيرتها وقراءة المزيد من الكتب عن الفترات التاريخية التي عاشت خلالها.

لقد اتبعت هذا المبدأ مع كل سيرة حياة كتبتها منذ ذلك الحين، لكنني كنت مهتمة بشكل خاص بذلك عندما كتبت الفصل الذي يتعلق بكتاب سيمون دو بوفوار الجنس الآخر. من بين جميع فصول الكتاب، كان ذلك الفصل هو الذي ما زلت غير متأكدة من أنني كتبته بالطريقة التي قصدتها. بدلاً من تقديم - ملخص للعمل - قمت بذكر المراحل التي مر بها الكتاب، منذ أن خطرت فكرته لبوفوار لأول مرة وكيف كتبته إلى الطريقة التي استقبله به القراء، وخاصة تأثيره على القراء الأمريكيين. حتى إنني عرضت لمراحل

تطور ترجمته الأولى التي كانت تحتوي على عدد من الأخطاء والتي قام بها هاورد ماديسون بارشلي عالم الحيوان المزعج. لقد قمت في الواقع، بكتابة سيرة حياة بسيطة لكتابها هذا ضمن السيرة الأكبر لحياتها. كنت أنوي عرض طيف واسع من ردود الأفعال عليه - حيث قوبل بالعداء والاستياء والسخرية والإهانة والصدمة من الأفكار الجديدة التي حملها، وإقرار النساء بالقلق والمخاوف المشتركة التي تجمعهن. لقد أعطتهن بوفوار الأمل وهي تتناول أسئلتهن حول كيفية توجيه مسارهن في الإطار الخاص والشخصي وكيفية العثور على الإمكانيات داخلهن للانخراط في التعامل مع العالم العام الأكبر. لا يزال هذا الفصل هو الفصل الذي يحظى بأكبر قدر من الاهتمام كلما طُلب مني التحدث عن حياة وأعمال بوفوار. إنه يعكس آراء الآخرين على جميع ما كتبت من سير حياة، أولئك الذين يقولون إن أفضل (أو أسوأ) شيء في كتاباتي هو ألا أقول للقراء ما أفكر به أبداً، بل أتوقع منهم أن يكوّنوا آراءهم الخاصة بهم. وقد كان الفصل الذي عبّر عن هذا الانقسام في الآراء بشكل أكبر من غيره هو الفصل الذي تناول كتاب الجنس الآخر.

سارت عملية الكتابة بسلاسة بمجرد أن أصبحت العمل الوحيد الذي يشغلني، وبحلول منتصف عام 1988، قدمت المخطوطة إلى جيم سيلبرمان في دار نشرسوميت بوكس. قدرت إصراره على ألا نتسرع إلى أن يعكس مظهر الكتاب والترويج له ما أسماه محتواه «المتميز» ؛ وبدلاً من الإسراع بنشره في أواخر عام 1989، قرر تأجيل نشره حتى بداية عام 1990. كان جيم يعتقد أن القارئ العام الذكي يبدأ يعاني من حمى المقصورة (أومتلازمة الكوخ، وهي ضائقة رهابية احتجازية، تحدث عندما يُحتجز الشخص أو مجموعة من الأشخاص في مكان منعزل أو في أماكن ضيقة لفترة طويلة من الزمن - م) خلال ليالي الشتاء الحالكة الظلام بعد استمتاعه بموسم العطلات، وكانت الفترة الممتدة بين شهري كانون الثاني وآذار هي الوقت المثالي لنشر كتب مثل كتابي. لقد كان محقًا تمامًا، لأن عددًا كافيًا من القراء كانوا مهتمين بـ «امرأة فرنسية قديمة لم يعد أحد يهتم بها» لدرجة أنهم جعلوه من أكثر الكتب مبيعًا وحاز على الكثير من عبارات التقدير والإعجاب، وتمت ترجمته على نطاق واسع، ولا يزال يطبع حتى يومنا هذا.

قرر جيم أن يختار إيلين سميث، التي كانت حينها في بداية حياتها المهنية المتميزة، للعمل معي، ومنذ البداية حدث تلاقي بين عقلينا حيث كنا نمعن التفكير في كل سطر من النص. كنا ملتزمين بموعد نهائي صارم، لأن فترة حملها بطفلها الأول وصلت مراحلها الأخيرة. خرج كتابي وابنها إلى العالم معًا، وكنا نبتسم أنا وإيلين في كل مرة نتذكر فيها كيف أمضت ساعاتها الأخيرة قبل أن تصبح أماً وهي تنقح الفصل الأخير من كتابي.

بينما كانت عملية النشر تجري على قدم وساق قضيت الجزء الأكبر من ذلك العام في التفكير في ما كتبته. هناك دائمًا الكثير مما يجب القيام به بمجرد أن تترك المخطوطة يدي الكاتب وقبل أن تصبح كتابًا. هناك عملية اختيار الصور، وكتابة فقرة الشكر والتقدير. ولكني كنت قد تركت إلى النهاية أيضًا الجزء الأول، وربما الأكثر أهمية، من الكتاب: وهو المقدمة. لقد اتبعت نفس الطريقة مع كتاب بيكيت، وأصبح هذا هو المسار الذي اتبعته مع سيرة بوفوار ومع كل كتاب كتبته منذ ذلك الحين. تسمح لي كتابة المقدمة في النهاية بالتعبير عما أعتقد أن القارئ يحتاج إلى معرفته قبل الخوض في ثنايا سيرة الحياة، ولأحدثه عن الأشياء التي جذبتني في الشخصية التي أروي سيرة حياتها ولماذا أعتقد أن فهم حياته أو حياتها مهم لإلقاء نظرة على أعماله. لم أكن أستطيع إلا في نهاية العملية، أن أعبر بشكل صريح عن هذه الإجابات التي كانت تبدو واضحة.

عندما كنت أتحدث في المؤتمرات أو المحاضرات في الفصول الدراسية، غالبًا ما كان يطلب مني الحاضرون التحدث عن أهدافي ونواياي عندما أقرر كتابة سيرة حياة شخص معين. عندما يدور الحديث عن سيرة حياة بوفوار، كنت أتطرق إلى الصراع الذي كان يدور داخلي بين رغبتي في الكتابة بشكل مؤثر ومفصل ورغبتي في أن أجد أيضًا المساحة اللازمة للتعبير عن نفسي بموضوعية. من الواضح أنني حين بدأت الكتاب كنت متحيزة بشدة لبوفوار، ومنجذبة بشدة لحياتها بسبب الاحترام والإعجاب اللذين كنت أحملهما لأعمالها. كانت مهمتي أن أخبر قرائي بذلك مع إقناعهم أنني قدمت رواية لحياتها يمكنهم الوثوق بها. قادني ذلك إلى التفكير حول ما إذا كانت أشياء مشتركة بين سيرتي حياتها وحياة بيكيت، وما

الذي أعطى كلاً منهما هوية منفصلة لا يمكن لأي منهما أن يعمل كنموذج لكتابة أي شيء آخر.

في كلتا الحالتين شعرت أنه كان امتيازًا لا يصدق أن تعرف وتكتب عن هذين العملاقين في الثقافة المعاصرة. يمكن للمرء أن يجادل أنه بسبب بيكيت، فإن المسرح قد تغير بشكل لا رجعة فيه بعد نشر مسرحيته في انتظار غودو، وأنه بسبب بوفوار، اشتعلت الحركة النسائية المعاصرة حماساً مع صدور كتابها الجنس الآخر. طوال السنوات السبع التي عملت فيها مع صامويل بيكيت، غالبًا ما كنت أعتقد أنه إذا ما تم تحويل تجربتي إلى عمل مسرحي، فإنه سيقع في مكان ما بين مسرحيات التشويق والدراما المثيرة أو في مكان ما بين مسرحيات كوميديا الأخلاق التي ألفها الكاتب المسرحي الأيرلندي أوسكار وايلد والمسرحيات الساخرة التي ألفها الكاتب المسرحي الفرنسي جورج فيدو. إن السنوات التي قضيتها مع سيمون دي بوفوار جعلتني أعجب بالشجاعة التي أظهرتها ابنة النبلاء الصغار الكاثوليك عندما انفصلت عنهم لتعيش حياة خالية من القيود الاجتماعية وتأليف كتاب كان من شأنه أن يغير الطريقة التي كان يعيش فيها أكثر من نصف الجنس البشري.

عادة ما كنت أقول للناس إنه ليس من المفترض أن يحمل كتاب السيرة مشاعر تجاه الأشخاص الذين يمثلون مواضيع كتبهم. لكنني اعترفت بعدها أنني كنت بالطبع أحمل مشاعر - وكانت إيجابية - تجاههم لأنه كيف يمكنني (أو أي شخص آخر) أن أقضي النهار والليل بأكملهما طوال تلك السنوات مع شخص ولا أشعر بشيء تجاهه، من الإعجاب والاحترام إلى المودة الحقيقية وربما حتى نوع من الحب؟ كنت أعرف أن هناك كتابًا للسيرة يزدرون أو حتى يحتقرون الأشخاص الذين يكتبون عنهم، لكنني لم أستطع قط تأليف كتاب وأنا أحمل مشاعر من هذا القبيل. فالقارئ سوف يشعر بها ولن يستمتع به ولن يحترمني. إن واجبي أثناء الكتابة هو وضع المشاعر جانباً وأصبح حسب قول «الناقد ديزموند ماكارثي» فناناً تحت القسم. ولكن عندما أنتهي من الكتاب، أكون قد امتلكت الحرية في أن أقول ما أفكر به حقًا، وفي تينك الحالتين، تقفز مباشرة كلمة واحدة إلى بالي: الاحترام. لقد احترمتهم، وقد فعلت ذلك بإعجاب ليس له حدود.

كان صامويل بيكيت وسيمون دي بوفوار يمتلكان نقاءً في الرؤية، وثقة في صحة سلوكهما، وثراء وقيمة ما يكتبان. كان صامويل يصر دائماً على أن «لا شيء يهمه سوى الكتابة». وكان يقول مراراً وتكراراً: «لم يكن بإمكاني أن أواجه فوضى الحياة البائسة المروعة دون أن أترك وصمة على كاهل الصمت». أما سيمون دي بوفوار فقد رفضت السماح لنفسها أن تتحول إلى نصب تذكاري. وأعربت عن أسفها لأن هناك من أطلق عليها لقب «وحش فرنسا المقدس»، ولكن إذا كان هذا اللقب المريب يعني أن لها تأثيراً على الأجيال التي ستأتي بعدها، فإنها كانت ترغب في بقائه. بالنسبة إلي، كان بيكيت وبوفوار يمثلان قدوة. فأنا أحترم مساهماتهما في الثقافة والمجتمع المعاصر، وبكل تواضع أقول إنني أشعر بالامتنان لأنني عرفتهما. لكنني أعترف بأن تنقية تنوع خبراتي وحماسة إعجابي تتطلب مراجعات متعددة قبل أن أصل إلى ما كنت آمل أن يكون كتاباً مفهوماً ومتوازناً يكشف عن أصالة وإنجازات هذين الكاتبين.

لا تظهر معظم سير حياة العظماء إلا بعد رحيلهم. كان من الجيد أنني لم أكن أعلم أن هذه هي العادة عندما قررت، وأنا فتاة شابة متهورة اعتقدت أنها تحمل رسالة سامية، أن أؤلف أول كتاب سيرة. أدى تأليف كل كتاب من هذه الكتب إلى حدوث العديد من التغييرات في حياتي الخاصة، وقد أثرت على كل نشاطي الممتد منذ السنوات التي بدأت فيها الكتابة إلى أن أصبحت المؤلفة المتمرسة التي أنا عليها الآن. لا شك في أن بيكيت وبوفوار كانا مسرورين من حماسي، لكنهما ربما ظناني أيضًا مسلية ومثيرة للغضب بنفس القدر.

حينما كنت أكتب مقدمات كل كتاب من كتب السيرة تلك، مررت بالعديد من الاضطرابات العاطفية وأنا أستعيد كل لحظة ابتداءً من سنوات البحث الطويلة حتى الانتهاء من كتابة آخر الكلمات. أصبح الاقتراب من كل خاتمة عملاً مليئاً بالخوف والترقب، لدرجة أنني كنت بالكاد أستطيع أن أحضر نفسي لكتابة المقاطع الختامية - وهذا الإحساس شعرت به مجدداً عندما كنت أعاني من كتابة هذه الخاتمة أيضًا.

عادت كل أنواع العواطف إلى الظهور وأنا أتذكر تلك الحقائق المذهلة التي أصبحت من الماضي. لقد انتهت سبع سنوات من قضاء كل يوم في

التفكير والكتابة عن بيكيت، تلاها عقد من السنين أمضيته في العمل مع بوفوار. لقد حان الوقت للمضي قدماً في حياة أخرى، وهي حياتي، وكان القيام بذلك أمراً صعباً للغاية لأني لم أفعله منذ فترة طويلة. وجدت نفسي أسير بلا هدف من غرفة إلى غرفة أو أجلس بلا حراك في مكتبي، وأحيانًا أندفع إلى البكاء والنواح الأمر الذي يزعج كلابي التي أحبها لدرجة أنها تقوم بوضع رؤوسها على ركبتي أو تلمس ساقي، على أمل أن أشعر بالراحة وهي تصدر أصواتاً خافتة لتعلن تعاطفها معي. بعد فترة عرفت أن الوقت قد حان للتوقف عن تلميع الأواني النحاسية في المطبخ (كانت تلمع دائمًا عندما لم أكن أكتب وكان لمعانها يزول عندما كانت أموري في الكتابة تسير على ما يرام) وأن أشرع في الكتابة من جديد.

قمت بجولة حول المنزل في وقت متأخر، لأنه لم يكن من السهل الكتابة عن نفسي. طوال عملي في الكتابة، كنت دائمًا ما أبقي نفسي بعيدة تمامًا عن كل شيء. كانت تلك حالة شاذة وغريبة، الكاتب الذي يكشف حقائق حميمة عن حياة الآخرين ويتكتم على حقائقه وأحداثه ويحافظ على خصوصيتها. ربما كان من غير المناسب أنني كشفت الكثير عن الآخرين بينما لم أقل شيئًا عن نفسي، ولكني مثل بيكيت، كنت أعتقد بصدق أنني كنت ذات شخصية «مملة ولا تثير الاهتمام».

عندما كنت أكتب تلك السير، كان السؤال الأخير الذي أحتاج إلى إجابة عنه، كيف يمكن للمرء أن يلخص إنجازات حياته؟ في الواقع، بينما أكتب هذه الكلمات، كنت أفكر كيف أختم رحلتي عبر المرور ببعض من أكثر الذكريات روعة؟ عندما كنت أكتب كلا الكتابين عن بيكيت وبوفوار، كنت أتصفح من حين إلى آخر كتب بعض الكتاب الذين أسميتهم «عظماء»: مثل روسو، وفولتير، وفيرجينيا وولف، وسانت أوغسطين، وباسكال، وجيمس جويس، ومونتان. كنت دائمًا أجد شيئًا فيها يتحدث عن حالتي العامة، وكانت لدي عادة نسخ ملاحظاتهم أو حكمهم أو تعاريفهم في هوامش دفاتر الملاحظات التي خصصتها للمؤلف الذي كنت أكتب عنه. أعتقد أن الخاتمة الأكثر ملاءمة هنا هو الاستشهاد بكلماتهم التي كانت تنطبق عليّ في معظم الأحيان.

هناك قول للكاتب جيمس جويس (قام بنقله عن فلوبير، ولكن ليس هذا هو المهم) كنت أسير عليه في كل الكتب التي ألفتها: «إن المبدع، مثل الإله في الخلق، يبقى داخل أو خلف أو وراء أو فوق ما أبدعه، غير مرئي، لا يقحم نفسه به وكأنه ليس له وجود، لا يبالي به، وينشغل بتقليم أظافره». (لقد التزمت بألا أقحم نفسي في كل ما كتبته، لكنني لم أكن قط غير مبالية به ولم أقضم أظافري؛ لكني قلّمتها فقط.). كانت لدى الفيلسوف باسكال الفكرة المثالية التي ساعدتني في أن تتفتح مواهبي وتكون لي الثقة في أن أستثمر تجاربي الخاصة لأواظب على الكتابة. عندما كان يؤمن بفكرة أن «حياته ستختفي... في الحياة السرمدية التي كانت قبله والتي ستبقى بعد رحيله، لقد أخذ منه الخوف مأخذاً». عندما بدأت في كتابة ذكرياتي هذه، كنت، مثل باسكال، «مذهولة لأجد نفسي هنا وليس في أي مكان آخر... من أرسلني إلى هنا؟ بأمر من وأي قدر يرسمه لي هذا المكان وهذا الزمان؟» قادني ذلك إلى أن أسأل نفسي ما الذي جعلني أفكر في أي وقت مضى أن صامويل بيكيت «بحاجة» إلى أن تكتب سيرة حياته ولماذا كنت أنا من يكتبها؟ قدم لي الفيلسوف القديس أوغسطينوس إجابة لسؤالي عن السبب الذي جذبني إلى بوفوار: لقد بدأت مثلما كان يقول «أسأل نفسي. حتى إنني لم أعد أفهم نفسي». ومنحني الفيلسوف جان جاك روسو الأمل الذي لازمني مع كل سيرة حياة كتبتها، ولكن بشكل خاص في كتاب المذكرات هذا: «غايتي هي عرض صور للأشياء تكون أقرب ما يكون إلى طبيعتها، وصورة الشخص الذي سأعرضها ستكون صورتي. وستعبر ببساطة عن حقيقتي».

إذا تمكنت من فعل ذلك، فهذا يعني أنني قد نجحت، وهذا سيجعلني أشعر بالرضا.

شكر وتقدير

هذا هو الكتاب الذي اعتقدت أنني لن أتمكن من كتابته أبدًا، لذلك أريد أن أبدأ حديثي هذا بالتعبير عن امتناني لعائلتي والعديد من الأصدقاء الذين أمضوا سنوات في حثي على القيام بذلك. كانت إيلين وارد، الباحثة المتميزة والكاتبة والمرشدة والصديقة، التي أهديت لها هذا الكتاب، من أوائل الناس الذين شجعوني على القيام بتأليف هذا الكتاب. منذ عشرين عامًا، كنت قد وعدتها بكتابته كهدية لعيد ميلادها الثمانين. يؤسفني اليوم أنها لم تعد موجودة هنا لتتلقى الهدية.

كان ولداي، فون سكوت وكاثرين تريسي (كاتني) بير، اللذان كانت السنوات التي يكبران بها تسير بالتوازي مع مغامراتي في حقل كتابة السيرة، هما أفضل من تحمل حماقاتي طوال سنوات طفولتهما. الآن بعد أن أصبحا في سن البلوغ، أقدر كيف كانا نادراً ما ينزعجان من تصرفاتي الغريبة. كان دعمهما لي لسنوات عديدة يعني لي أكثر مما يمكنني قوله. أسعدني أن الرابطة القوية التي جمعت عائلتنا استمرت إلى جيلنا التالي عندما أخبرتني حفيدتي، إيزابيل آنا كورتليس، كيف أن نشاطاتي في تكوين الهوية النسوية كان لها قيمة لبنات جيلها.

بدأت في كتابة هذا الكتاب خلال العام الدراسي 2017–2018، عندما حصلت على زمالة في معهد العلوم الإنسانية في جامعة كونيتيكت (UCHI) لا يمكنني أن أعبر عن مدى امتناني لمديره مايكل بي لينش والمدير المساعد ألكسيس بويلان لاختيارهما للمشاركة في ذلك البرنامج الرائع والاستمتاع بمساحات العمل المريحة التي يقدمها المعهد. إن التحدث إليهما حول

أبحاثهما وكتاباتهما قد أثرى أبحاثي بشكل كبير. كما أشكر جميع زملائي في المعهد على اقتراحاتهم ودعمهم السخي، وخاصة هاري فان دير هولست وتريسي يانيرا وأليسيا لاغوارديا لوبيانكو. وقد سهّلت جو آن واي د- وينشيل احتياجاتي الإدارية، في حين قدمت لي ناسيا الصعيدي بلا ملل الإرشادات التي ساعدتني في حل مشاكل الكمبيوتر المختلفة التي واجهتني.

وبينما كان العام الذي سأقضيه في جامعة كونيتيكت على وشك الانتهاء في آذار 2018، تعثرت وسقطت ونتج عن ذلك إصابتي بكسر في العظم الأكبر تحت ركبة الساق اليسرى وفي مفصل الساق. قضيت شهرًا في مستشفى إعادة التأهيل، وستة أسابيع في المنزل دون أن تلمس قدمي الأرض ودون أن أحمل أي وزن على الإطلاق. واجتزت مرحلة من التقدم الطويل والبطيء استمرت لمدة عشرة أشهر لتعلم كيفية المشي مرة أخرى. تخلت أختي الحبيبة، ليندا رانكين، عن ستة أسابيع من حياتها لتكون ممرضة لي. حلّت صديقتي العزيزة أليسون ستوكس محلها لتوفر لي أسبوعاً آخر من الرعاية المستمرة. كان ابناي معي خطوة بخطوة، وقدم لي أخي وزوجة أخي، فنسنت ج. وجوديث بارتولوتا، الدعم المعنوي الذي كنت في أمس الحاجة إليه. أما صهري، نيكو كورتليز فقد أدخل الفرحة إلى قلبي حين كان يجلب لي معه باستمرار مجموعة من الطوابع والبطاقات الملونة. ساعدتني الزيارات التي كانت تقوم بها تريسي كروتشفيلد وسينثيا ستريج على أن أحتمل الكثير من أيام المستشفى الكئيبة. تولت ديبورا هندرسون مهام شراء حاجاتي المنزلية. كان توماس هنرسون دائمًا على استعداد لحل أية مشكلة - فيما يتعلق بالكومبيوتر أو غير ذلك. لقد منحني جيراني في حي أورينوك فوريست بهجة عظيمة من خلال زياراتهم المتكررة، وأتقدم بالشكر لكل من ليندا ديفيسينو، وجانيس أيزنبرغ، وأرنولد ديمايو، وغاري وسوزان تول، وأرلين ويترز، وجاك زالكمان. كان الدكتور مايكل باتريك ليزلي هو الجراح الذي جعل مني امرأة حديدية بسبب كثرة الألواح المعدنية والمسامير التي أدخلها في جسمي، وقد ساعدتني اختصاصيتا العلاج الطبيعي بودانا (بيلي).تي. زازولاك وويندي نوفيك على تعلم المشي مرة أخرى. كانت الدكتورة تارا سانفت مصدر إلهام لي.

كانت الزهور، والمكالمات الهاتفية، وزيارات الأصدقاء هي التي أنقذت حياتي، وأود أن أشكر نيل بالدوين، وتيد بوتا، وباتريشيا دي مايو، وجين كيني دينينغ، ووالتر دوناهو، وثيودور إيتن، وإيلين غوتوالز إيتن، وديان جاكوبس، وسوزان مونجر، ودونالد، وديان بيت وليون وميرنا بيل روشيه، ومايف سلافين.

أنا مدينة بشكر خاص لسيدني ستيرن لأنه لم يتردد في الانضمام إليّ بحماس في مغامراتي مع كتابة السيرة وغيرها. ساعدتني ماريون ميد في التغلب على خوفي من الكشف عن نفسي بنصيحتها وتشجيعها. شجعني زملائي في ندوة النساء اللواتي يكتبن عن حياة النساء، كما فعل زملائي في مجلس رابطة المؤلفين، حيث أتقدم بالشكر الجزيل إلى ماري راسن بيرغر وديانا روان روكفلر. كانت صديقتي ماري لورنس تيست التي كانت ترافقني في الطرق الصغيرة المؤدية إلى شقة بوفوار، أفضل قارئ أول ومحرر أول يمكن أن يرغب فيه أي كاتب، ولا يمكنني أن أتخيل أنني أرسل كتاباً إلى النشر من دون أن أعرف رأيها به أولاً. كما أشكر مارك ليبرغ على شرحه بأفضل طريقة القضايا القانونية المتعلقة بالتأليف. سهلت تيرانس جيلنتر طريقي في كل مرة كنت أزور فيها باريس أثناء كتابة هذا الكتاب. لقد استفدت من أحاديثي مع روزماري سوليفان، كاتب السيرة والشاعر، الذي كان لديه دائمًا موضوع أو فكرة تستحق المتابعة. ولن أنسى أبدًا كيف كانت نانسي ماك كينيت تجعلني هادئة حين كنت عصبية في بداية سنوات عملي مع بيكيت.

كما أشكر نان آي تاليس الناشرة ذات الرؤية الثاقبة، على نشرها هذا الكتاب، وهو ثالث كتاب لي تقوم بنشره. كما أن دانيال ماير يحظى بإعجابي واحترامي لتوجيهاته لي طوال عملية التحرير. وأود أن أشكر كارولين ويليامز على الرعاية التحريرية الإضافية، وإيما جوس المسؤولة عن الدعاية، وسارة إنغلمان المسؤولة عن التسويق. كانت ليز دوفال محررة نسخ ممتازة، كما أشكر بيت ألكسندر وماريا كاريلا ولورين هايلاند ومايكل وندسور من دار نشر دوبلداي التي ترأسها نان آي تاليس. لم تكن كريستين دال وكيلتي الموثوقة فحسب، بل ساعدتني أيضًا على المثابرة من خلال سردها لي

قصصاً عن مغامرات أصحاب القدم المكسورة. كما أشكر مساعِدتها تمارا قعوار على اهتمامها باحتياجاتي وأسئلتي الكثيرة.

الأهم من ذلك كله، أنني أود أن أشكر صامويل بيكيت وسيمون دي بوفوار على السماح لي بقضاء ما يقارب العقدين من الزمن في صحبتهما وعلى منحي تلك الفرصة الرائعة للكتابة عن حياتهما وأعمالهما. لقد كان شرفاً لي سأكون ممتنة له إلى الأبد.

المحتويات


مكتبة
t.me/soramnqraa

حين أقابل شخصاً للمرة الأولى وأخبره أنني ألفت كتاباً عن سيرة حياة صامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار، فإن سؤاله الأول يكون عادة «لماذا وقع اختيارك عليهما؟» ومع مرور السنين استطعت أن أصوغ إجابة جاهزة أقولها للجميع، جعلتها مختصرة ومهذبة وتسمح لي بتغيير الموضوع. وكنت أجيبه: «لقد كانا رائعين، ومذهلين إلى حد لا يوصف. وأنه لشرف عظيم للمرء أن يعرفهما». كنت في معظم الأحيان لا أنجو بهذه الإجابة، فعادة ما يتبع ذلك سؤال آخر «ماذا كان يعجبك فيهما بالتحديد؟» ومثل هكذا سؤال لم يكن من السهل قط الإجابة عليه.

على مدار عدة سنين كتبت العديد من سير الحياة الأخرى لشخصيات بنفس الروعة، ولكن شغفي بصامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار كان يفوق ما أشعر به تجاه البقية. في كل محاضرة أو ندوة أحضرها، كنت أتلقى أسئلة تطلب مني وصف المشاعر التي كانت تنتابني حين ألتقيهم، وما هي الأشياء التي كنا نتحدث عنها، ولماذا قمت بتأليف تلك الكتب بهذه الصورة. كان الحاضرون يمطرونني بأسئلة من قبيل «هل كنت تشعرين بالغضب، أم بالرعب، أم الخجل، أم الانبهار» - وكان يجب أن أختار واحدًا من تلك المشاعر - «وأنت جالسة مع صامويل بيكيت وسيمون دو بوفوار؟» نعم، أنا أعترف؛ نعم، شعرت بكل هذه المشاعر وغيرها الكثير. لا يمكنني حساب عدد المرات التي طلب مني ضيوفي على العشاء أو في الحفلات الحديث عن هذا الموضوع، وكنت أجد صعوبة في بحثي عن الحكايات النادرة لتسلية الضيوف الآخرين دون الكشف عن أي شيء شخصي غير مناسب عرفته عن شخصيتين من عمالقة الأدب.



